

سلسلة كتب شهرية تصدر عن دار آفاق عربية



علم اللغة العام

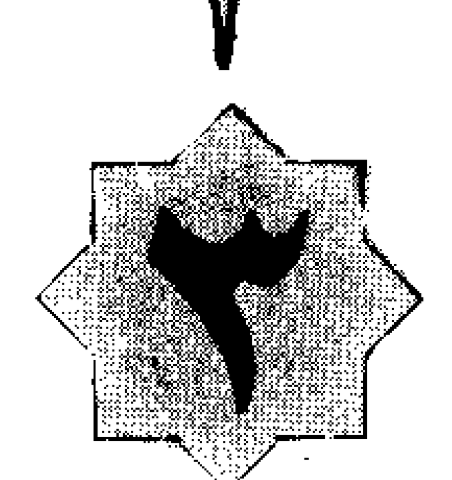
تأليف فردينان دي سوسور

ترجمة: الدكتور يوئيل يوسف عزيز

مراجعة النص العربي: د. مالك يوسف المطلبي

آفاق عربية

سلسلة كتب شهرية تصدر عن دار آفاق عربية



علم اللغة العام

تأليف فردينان دي سوسور

ترجمة: الدكتور يوئيل يوسف عزيز

مراجعة النص العربي: د. مالك يوسف المطلبي

١٩٨٥



سلسلة كتب شهرية تصدر عن
دار افاق عربية

رئيس مجلس الأدارة ورئيس التحرير
الدكتور محسن جاسم الموسوي

● العنوان: آفاق عربية ـ الأعظمية ـ بغداد ـ ص. ب (٤٠٣٢)
هاتف (٤٤٣٦٠٤٤) تلكس (٢١٤١٣٥).

مقدمة المترجم

فردنان دي سوسور (١٨٥٧ ـ ١٩١٣) ـ أشهر لغوي في العصر الحديث، ولد في جنيف عام ١٨٥٧ من أسرة مشهورة بالعلم والادب. درس في جامعات جنيف ولايبزك وبرلين، وحصل على درجة الدكتوراه من لايبزك عام ١٨٨٠. عمل مدرسا في مدرسة الدراسات العليا في باريس من ١٨٨١ ـ ١٨٩١. ثم استاذا للغات الهندية الاوربية والسنسكريتية من ١٠٩١ ـ ١٩١٣، وأصبح استاذا لعلم اللغة العام في عام ١٩٠٧؛ في جامعة جنيف وبقي في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩١٣.

لا تعتمد منزلته العالية على النشر بل على المدرسة اللغوية التي أسّسها ولم يكتب بنفسه إلّا كتابا واحدا حين كان في الحادية والعشرين من عمره، سمّاه . .

Memoire Sur le system primitif de voyelles dans les Langues indo — europeennes

نشر في باريس ١٨٧٨. ولكنّ أشهر واهم كتاب يحمل اسمه هو Cours de Linguistic generale: كتاب «علم اللغة العام» وهو مجموعة من المحاضرات؛ جمعها اثنان من طلابه هما شارل بالي والبرت سيكاهي، ظهرت الطبعة الاولى منه عام ١٩١٦ والطبعة الثانية عام ١٩٢٢.

يقول الاستاذ مارتن جوس عن دي سوسور: ان منزلة دي سوسور في علم اللغة اليوم هي كمنزلة ابسن في المسرحية، لا نسمع عنه الا بين الحين والآخر، وباسلوب الطقوس يحصل القارئ على هذا الانطباع او ذاك عبر سوسور.

ان مساهمة سوسور تشمل اسلوبا فكريا بأكمله، واطارا كاملا من الاهتمامات والقيم ـ تدور ضمنه اليوم جميع المناقشات الاساسية. ولا يشذ عن ذلك الا بعض الموضوعات اللغوية الثانوية.

لقد شيد دي سوسور علم اللغة الحديث، وان كان اكثر ما يرد ذكره هو في تأكيد دراسة علم اللغة دراسة سنكرونية (تزامنية) وفي تميزه بين اللغة (Langue) والكلام (parole)

وقد اصبحت مدرسة دي سوسور تعرف فيما بعد بالمدرسة التركيبية (اوالبنيويّة).

ان صعوبة في ترجمة دي سوسور تكمن المصطلحات اللغوية الكثيرة. فما زال علم اللغة حديث العهد في العربية؛ لم يتبلور كثير من مصطلحاته التي دخلت العربية. لذا رأيتُ ان اثبت المصطلح بالانكليزية جنبا الى جنب مع الكلمة العربية. وقد فضلت المصطلح الانكليزي على الفرنسي الاصلي، لان هذا العلم قد تطور كثيرا في البلدان الناطقة بالانكليزية وأصبحت مصطلحاته الانكليزية هي الشائعة بين المثقفين ـ لا سيما في الوطن العربي.

وقد استخدمت خمسة انواع من الحواشي تظهر كالآتي: (سوسور) وهي التي وردت في مذكراته و (بالي) وهي التي ذكرها طالباً، و (باسكن) وهي الملاحظات التي ابداها مترجم هذا الكتاب الى الانكليزية، وملاحظاتي التي وردت تحت لفظة (المترجم). وملاحظات المراجع د. مالك المطلبي التي وردت تحت لفظة «المراجع».

لا يخلو اي عمل من عيوب، ويصح هذا بنحو خاص في اعمال. الترجمة فهذه الترجمة جهد متواضع، عسى ان يستفيد منه المختص في علم اللغة ـ وهي ولا شك تشكو من بعض العيوب التي لا يمكن ان تخفى على القارئ اللبيب ـ ويستطيع تجاوزها بقراءته كتبا اخرى في الموضوع نفسه.

الدكتور يوئيل يوسف عزيز
جامعة الموصل
١٩٨٤/٢/١٨

مقدمة الطبعة الاولى

كثيراً ما سمعنا فردنان دي سوسور يشكو من قلة الأسس والأساليب في علم اللغة. في اثناء تطور آرائه. فقد سعى طولَ حياته، وبجهد لا يعرف الكلل، الى البحث عن القوانين التي يوجه بها فكره وسط الفوضى. ولم يستطع التعبير عن آرائه، التي ظل يطورها أعواما طويلة الا في سنة ١٩٠٦ حين عين خلفا لـ جوزيف فيرنهايمر في جامعة جنيف. لقد درس علم اللغة العام ثلاثة اعوام دراسية هي: ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧، ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩. وأضطره ميله إلى أنْ يكرس نصف جهده لتاريخ اللغات الهندية ـ الاوربية ووصفها. فلم يمنح موضوعه الاساس الا قدرا من اهتمامٍ، هو اقلُ مما يستحقه.

إن جميع الذين سنحت لهم الفرصة لحضور دروسه القيمة شعروا بالأسى لان هذه الدروس لم تظهر في كتاب. وبعد وفاته سعينا للاطلاع على مخطوطاته، وقد أُتيحت لنا هذه الفرصة بفضل مدام دي سوسور، فقدمت لنا الخطوط العامة الاصلية او المناسبة لمحاضراته القيمة. وفكرنا أول الامر، أنْ نقارن بين مذكرات دي سوسور الشخصية والملاحظات التي دوَّنها تلاميذه. ولكن خاب ظننا. فلم نجد في مذكراته شيئا من الملاحظات التي ذكرها تلاميذه في دفاترهم. ويبدو أن دي سوسور قد اتلف مسودات الخطوط العامة لمحاضراته، بعد ان انتهى من استخدامها. ولم نجد في مكتب سكرتيرته الا ملاحظات قديمة، هي، لا شك، مفيدة، ولكن لا يمكن ادخالها ضمن المحاضرات التي القاها في الاعوام الثلاثة.

ومما زاد في خيبة أملنا في مسعانا هذا، ان واجبات رئاسة القسم التي كلفنا بها منعتنا من حضور محاضرات دي سوسور الأخيرة. وهذه الدروس لا تقل روعة عن دروسه الاولى التي شهدت ظهور مقاله عن نظام الحركات في اللغة الهندية الاوربية الاولى.

فكان علينا ان نعتمد كليا على الملاحظات التي دونها تلاميذه، في اثناء الاعوام الثلاثة من القاء المحاضرات. لقد قدّمت لنا دفاتر ملاحظاتٍ على درجة عالية من الجودة والكمال: حصلنا على الملاحظات للعامين الاول والثاني من السادة لوي كايل وليوبولد كوتير وبول ريكار والبرت ريدلنكر، وللعام الثالث ـ وهو الاهم ـ من السيدين جورج ديكالير وفرانسيس جوزيف. كما قدم لنا السيد لوى بروتش ملاحظات تخص موضوعا معينا لهؤلاء جميعا نقدم جزيل شكرنا وامتناننا. كما نود ان نشكر كثيرا السيد جول روجا، عالم اللغات الرومانسية الشهير، لتكرمه بقراءة المخطوطة قبل طبعها، وابدائه المقترحات القيمة.

ماذا كان بمقدورنا ان نفعل بالمادة التي جمعناها؟ تأتي اول الامر مهمة النقد. كان

علينا ان نقارن كل درس، وكل تفصيل من تفاصيل الدرس في جميع دفاتر الملاحظات، ثم نعيد صياغة افكار دي سوسور من اشارات غامضة، متناقضة في بعض الاحيان يلمح اليها تلميحا. وقد ساعدنا في ملاحظات العامين الاول والثاني السيد ريدلنكر وهو أحد التلاميذ، الذين واكبوا آراء الاستاذ باهتمام بالغ، وكانت مساهمته قيمة جيدا. أما دروس العام الثالث فقد قام احدنا وهو أ. سيكاهي بمهمة مقارنة المادة واعادة تركيبها وصياغتها.

وبعد ذلك؟ إن الالقاء الشفوي غالبا ما يناقض في شكله الاسلوب المكتوب، وهو امر محفوف بالصعوبات. ثم إن دي سوسور ينتمي الى هؤلاء الرجال الذين لا يقفون عند حد؛ فقد تطورت افكاره في جميع الاتجاهات من غير أن تناقض نفسها نتيجة لذلك. إن نشر جميع اجزاء المادة، كما هي عليه في أصلها، أمر يصعب تحقيقه ـ فالتكرار، وهو امر لا مناص منه في العرض الشفوي للدرس، وتداخل المادة، وتنوع صياغة المسألة الواحدة، كلها تؤدي الى ارباك في اسلوب الكتاب وتركيبه. هل نقتصر على محاضرات عام واحد ـ اي عام من الاعوام الثلاثة؟ ـ فضلا عن ان ذلك يعني حرمان القارئ من الدروس القيمة للعامين الآخرين:

فالعام الثالث ـ وهو العام الحاسم-لا يمكن ان يقدم صورة كاملة لنظريات دي سوسور وأساليبه.

منهم من اقترح ان نقوم بنشر بعض الفقرات الاصلية، من دون تغيير. وقد بدا هذا الاقتراح معقولا في أول الامر، ولكن سرعان ما اتضح لنا اننا اذا قدمنا نتفا من خطة تكمن قيمتها في وحدتها الاجمالية نكون قد حورنا أراء استاذنا.

ثم انتهينا الى حل اكثر جرأة، وربما اقرب الى الحل المعقول: وهو ان نحاول اعادة الصياغة أو التركيب باستخدام دروس العام الثالث نقطة للانطلاق واستغلال جميع المادة الاخرى التي في حوزتنا بما في ذلك مذكرات دي سوسور الشخصية بكونها مصدرا مكملا. إن مسألة اعادة خلق افكار دي سوسور مسألة صعبة، لان عملية اعادة الخلق ينبغي ان تكون موضوعية تماما. وكان علينا في كل نقطة من النقاط، ان نتوصل الى جوهر فكرة معينة عن طريق رؤية شكلها النهائي في ضوء النظام بأكمله. وكان علينا اول الامر ان نتخلص من الشوائب كالتنويع في الصيغة الواحدة والأمور غير القياسية التي يتميز بها العرض الشفوي، ثم نجعل الفكرة تلائم الاطار الطبيعي، ونقدم كل جزء من الفكرة طبقا للتسلسل الذي قصده المؤلف، وإن كان قصده في بعض الاحيان غير واضح؛ يعتمد على الحدس.

لقد ولد الكتاب نتيجة هذا العمل المؤلف من الاستيعاب واعادة البناء لذا نشعر بشئ من الهيبة تجاه الجمهور المثقف وجميع اصدقاء علم اللغة.

لقد كان هدفنا جمع اجزاء وحدة عضوية، لا نحذف منها اي شيْ، يمكن ان يساهم في الطابع الاجمالي لها. وربما وجه لنا، للسبب نفسه، انتقادٌ، في ناحيتين:

قد يقول النقاد ان هذه «الوحدة» ليست كاملة. فالاستاذ في دروسه لم يَدَّع قط أنه يفحص جميع اجزاء علم اللغة، أو انه يكرس قدرا مساويا من الاهتمام لكل جزء من الاجزاء التي درسها: فلم يكن باستطاعته ذلك من الناحية المادية. ثم إن اهتمامه الاساسي لم يكن ذلك. لقد اتبع دي سوسور بعض المبادئ الاساسية الخاصة به. وهي موجودة في جميع اجزاء دروسه، وتؤلف خيوط هذا النسيج المتين المتنوع، محاولاً سبغ أغوار هذه المبادئ. وهو لا يحاول الاحاطة بهذه المبادئ الا اذا وجد لها تطبيقات بارزة جدا او حين تتناقض مع نظرية من النظريات.

وهذا يفسر لماذا لم يتطرّق دي سوسور الى بعض الموضوعات مثل علم الدلالة «سيمانتيكس» ولا نعتقد أن هذه الفجوات تقلل من اهمية البناء العام. ومن المؤسف ان الدروس تخلو من «علم لغة الكلام». ان هذه الدراسة التي وعد بها الاستاذ تلاميذه في العام الدراسي الثالث، كانت ستحتل منزلة الصدارة، بيد اننا نعرف جيدا لماذا لم يتحقق الوعد. ان كل ما استطعنا ان نفعله في هذا الموضوع، هو جمع الانطباعات العرضية من الملاحظات العامة للمشروع ووضعها في موضعها الطبيعي.

وقد يذهب النقاد الى عكس ما ذكرناه سابقاً، فيقولون إننا اعدنا بناء حقائق، تخصّ مسائل طورها العلماء الذين سبقوا دي سوسور. فليس كل شيْ في هذه الدروس الشاملة جديدا. ولكن اذا كانت المبادئ المعروفة ضرورية لفهم مجمل الكتاب، فهل يؤخذ علينا أننّا لم نحذفها؟ فالفصل عن التغيير الصوتي - مثلا - يحتوي على اشياء قيلت من قبل، ربما بصيغتها النهائية، ولكن هذا الجزء يحتوي على الكثير من التفاصيل الاصيلة القيمة، فضلا عن ذلك ندرك، حتى من القراءة السطحية لهذا الفصل، ان حذفه يعيق فهمنا للمبادئ التي يشيد عليها دي سوسور نظام علم اللغة الثابت. نحن ندرك، اذن مسؤوليتنا اتجاه النقاد، كما نشعر بمسؤوليتنا نحو المؤلف، الذي ما كان يسمح بنشر هذه الصفحات.

ونحن نقبل هذه المسؤولية كاملة، ولوحدنا. فهل يستطيع النقاد ان يميزوا بين الاستاذ والتلميذين اللذين فسّرا آراءه؟ وسنكون لهم من الشاكرين اذا وجهوا نحونا انتقاداتهم، فليس من العدل ان توجه الى من نعز ونبجل ذكراه.

جنيف، تموز ١٩١٥ جارلس بالي، البرت سيكاهي

مقدمة الطبعة الثانية

إن الطبعة الثانية لا تختلف في جوهرها عن الطبعة الاولى. وقد اجريت نحو ثمانية تغييرات طفيفة، الغرض منها تيسير بعض النقاط وتسهيل فهمها.

ج. ب، الب. س

مقدمة الطبعة الثالثة

إن هذه الطبعة لا تختلف عن سابقتها، عدا تصحيحات طفيفة قليلة.

ج. ب، الب. س

مقدمة المراجع

يعدّ العالم اللغوي «دي سوسور» أهم اسم في البحث اللغوي المعاصر. ويرتبط هذا الاسم بـ«البنيويّة» منهجاً، ارتباط الفرع بالأصل. إنّه «الأب الحقيقي للحركة البنيويّة» د. زكريا ابراهيم «مشكلة البنية». وعلى يديه صار موضوع «علم اللغة» الوحيد والصحيح هو «اللغة معتبرة بذاتها ومن أجل ذاتها» /محمود السعران / علم اللغة /.

اللغة: بوصفها «منظومة» تنطوي على سلسلة من العناصر، التي يؤثّر بعضها في البعض الآخر، من خلال عملها، الذي يستند إلى «سلبيّة» عنصر تجاه عنصر آخر. انه نَظَرٌ إلى اللغة على أساس أنها كيان مستقل؛ لا يمكن تجزئته، وعزل عناصره،ومن ثمّ البحث في هذه العناصر في عزلتها «التاريخية» التي تقودنا إلى تغريب ما هو لغوي، أعني النظر إلى هذا «العنصر» أو ذاك، وتقلبّه وتحولاته التاريخية، وكأنه «عنصر» متفرّد وليس منتمياً، وهو شرط لغويته.

النظر البنيوي، إذن، هو: «النظر في اللغة الحيّة نظراً آنياً شمـوليّاً» / د. محمـود السعران / علم اللغة /.

إن جهد «سوسور» النظري ينصبّ، ايضاً، في «التقابلات» أو «الثنائيات» التي اقامها في صرح الحقل اللغوي: كثنائية «اللغة» و«الكلام» و محوري «التعاقب» و «التزامن»... الخ ليقودنا، بعد ذلك، إلى نظرٍ منهجّيٍ في «المفهومات» أو «المقولات» اللغوية.

وقد استندت «النظريات اللغوية» التي أعقبَتْـه، للوصول إلى «حقـائق»، تجعل من «اللغة» علماً، أي ظاهرةً؛ يمكن حسم معضلاتها حسماً دقيقاً، من خلال مقدمات ونتائج منطقية ورياضيّة، استندت، بنحو أو آخر، على النتائج التي توصل اليها. وقد تجسّد ذلك تماماً في دراسة «الأصوات اللغوية» التي تحولت إلى ما يُشبه جدولاً رياضياً، ذا حقولٍ محدّدة الأبعاد لا تقبل أفتراضاً فائضاً عن الحاجة، كما تقبل ذلك العلوم الانسانيـة الأخرى، ومنها «علم الدلالة اللغوية» اذ اللغويون ما يزالون يحلمون بـ «جدولته» على مصطلح الاقتصاديّين.

ولا أريد، هنا، أن أُؤرّخ لحركة البحث اللغوي المعاصر في الغرب، من خلال سعيه للوصول إلى «علم لغة» متكامل، فمدارسه وروّاده نالوا من الشهرة عندنا ما لم ينالوه، ازعم، في مكان آخر، وهو حقٌ لمُنْتج على مستهلك، بل أريد أنْ أعود إلى التراث اللغوي العربي، واذكّر بمنتجي البحوث اللغوية العرب، قبل ما يربو على الألف سنة، بقرنين أو ثلاثة، لا ليكون لهذا العود قصدٌ إلى إعلاء شأن اللغويينّ العرب، بما يكونون قد التقوا فيه مع نتائج البحث اللغوي في الغرب والشرق، كما فعل التيار الوسط من اللغويّين العرب المعاصرين الذي انتهى، من غير قصد، إلى تناقض مذهل: في جعل السابق لاحقاً واللاحق

سابقا، لا ليكون العود من أجل ذلك، بل ليكون عوداً يستحضر تجليّات العقل العربي وريادته في «الكشف» وتوازنه بين الانتاج والاستهلاك!

واذا كانت آراء «دي سوسور» والبنيويّة، في أصولها، «استدراكاً على المنهج التاريخي المقارن» /د. زكريا ابراهيم / مشكلة البنية /.

فاننا نذكر ها هنا مغامرة العالم اللغوي «عبد القاهر الجرجاني» في «دلائل الاعجاز» أقول «مغامرة» لانها جاءت في خضم منهج لغوي ضخم ومحدّد في آن واحد، ينظر إلى «الاشكال» و «توزيعاتها» و «خاناتها» «ووظائفها» بعيداً عن «الدلالة»، و «العلاقات» سواء أكان هذا البعد على صعيد «المعجم» أم على صعيد «الصرف» أو «النحو».

لقد أرسىٰ مؤسس علم اللغة في التراث العربي «الخليل بن أحمد الفراهيدي» ومن بعده تلميذه «سيبويه» دعائم نظرية لغوية؛ تُعنى بالأشكال دون «المعنى» وتبعهم في ذلك البصريون والكوفيون والبغداديون والأندلسيون (وفي هذا رد على من قال نشوء هذه المدارس خارج المكان).

لا يعني ذلك أن تضاعيف هذه النظرية ومناحيها التطبيقية خلو من الاشارات الدلالية، لكنّ ذلك لم يكن إلّا استثناءً في القاعدة. ومن هنا تكون الأمثلة التي قدّمتْها هذه المدرسة في مرتبةٍ ثانية بعد الأحكام. أعني أنّها مستنبطة من عقل «النحوي» وليست مستنبطة من «اللغة الحية». ولنا في اقتباسات لا تُحصى، برهان على ذلك.

أما الجرجاني فقدّم في ثورته المنهجية في البحث اللغوي العربي مرتكزات تنبع من الدلالة وتصب فيها. وأهمها:

(١) استند إلى النص القرآني الكريم وإلى كلام العرب، في تحليله. وهذا هو المنحى «الوصفي» العربي في البحث اللغوي، باعتبار أنَّ هذا المنحى يُعنى باستنباط الاحكام من «نصّ»، لغةٍ، يتكلم بها ابن سليقة هذه اللغة.

(٢) أ ـ ركّز عبد القاهر الجرجاني على عمل العناصر في البنية اللغوية من أجل إنتاج المعنى، وليس على العناصر ذاتها ومن ذلك. / دلائل الاعجاز /ص ٥٠/: «والذي يحلُّها أن تنظر: أتتصوّر أنْ تكون معتبراً مفكّراً في حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجنبه أو قبله، وأنْ تقول: هذه اللفظة انما صلحت ها هنا لكونها على **صفة** كذا أم لايعقل إلّا أنْ تقول: صلحت ها هنا لأن **معناها** كذا، ولدلالتها على كذا، ولأن معنى الكلام والغرض يُوجِبُ كذا، ولأن معنى ما قبلها يقتضي معناها».

ب ـ رفض استخراج العنصر اللغوي، من البنية، وعزله، والنظراليه من خلال هذه العزلة:

قال / ص ٦١ /:

«هذا ما ينبغي للعاقل أنْ يجعله على ذكرٍ منه أبداً، وأن يعلم أنْ ليس لنا، إذا نحن تكلّمنا

في البلاغة والفصاحة، **مع معاني الكلم المفردة**، شغلٌ، ولا هي مِنّا بسبيل، وانما نعمد إلى الأحكام التي تحدث **بالتأليف والتركيب**

ج ـ ركّز على «سلبيّة» العنصر اللغوي في إقامة العلاقات وليس على «ماهيته».

قال: / ص ٧١/:

«ثم يحسب أنَّ مدار أمر. «النظم» على معاني النحو، وعلى الوجوه **والفروق** التي من شأنها أنْ تكون فيه. فاعلَم أنّ **الفروق** والوجوه كثيرة، ليس لها غاية؛ تقف عندها. ثم اعلم أنْ ليست المزيّة بواجبة **لها في انفسها**.

يقرب الجرجاني بنية «اللغة» من بنية «الصورة» الألوان ليس لها دلالة في ذاتها. انها محايدة حتى تكون في شيء، أي حتى تعمل بموقعها وتأثيرها في غيرها، لنقل نتائج هذا التأثير إلى المتلقي:

يقول / ص ٧/:

«وإنما سبيل هذه المعاني، سبيل الأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش، فكما أنَّك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عمل سنها الصورة، والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضربٍ من التخيّر والتدبّر في **أنفس الأصباغ** وفي **مواقعها ومقاديرها** وكيفية مزجه لها وترتيبه إيّاها إلى ما لم يتهدَّ اليه صاحبه».

وهذا فرق في مستوى انتماء متكلم إلى لغته، ولكنه قبل ذلك مثال عـلى استقلاليـة «الكيان» عن «مستخدمه»

(٣) فرّق الجرجاني بين مستويين من المعاني:

(١) المعاني الحقيقية أو المعاني المعجمية.

(٢) المعاني المجازية أو معاني العلاقات.

أطلق على الفرع الأول: **المعنى**

وأطلق على الفرع الثاني: **معنى المعنى**

يقول: /ص ١٧٥ /

«واذ قد عرفت هذه الجملة، فها هنا عبارة مختصرة، وهي أنا نقول المعنى ومعنى المعنى. تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، الذي تصل اليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أنْ تعقل من اللفظ معنىً آخر.».

وذلك تفريق في مستويات الدلالة اللغوية.

(٤) أشار إلى «سياق الحال» بوصفه أحد مصادر الدلالة غير اللغوية

قال: /ص ١٧٥ /:

اذا قال رأيت أسداً ـ وذلك الحال على أنه لم يرد السَّبع ـ علمت أنَّه أراد التشبيه.

وقد اقام الدكتور «تمام حسان» صرح كتابه الشامل: **اللغة العربية معناها ومبناها**. على مرتكزات نظرية الجرجاني في الدلالة اللغوية، وان كان قد استمد الشيْ الكثير من

نتائج البحوث اللغوية المعاصرة.

وللجرجاني دَلْوٌ في البئر التي استقى منها الدكتور «نايف خرما» في مؤلفه أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة :

أن تقدم البحث الدلالي في اطار علم اللغة الحديث، من الناحية المنهجية في نظرية الدلالة: «هو نفس ما تسعى اليه النظريات الجديدة في علم اللغة التي تحاول أن تستدرك على «جومسكي Chomsky ونظريته «التوليدية التحويلية» ومن اهمها النظرية التي اتى بها العالم اللغوي «فلمور» Charles Filmore التي تضع المعاني من الدرجة الاولى من الافضلية في التحليل اللغوي.

وعلى الرغم من ذلك يظل «دلائل الاعجاز» وثيقة تاريخية في ثورة البحث اللغوي، وصولاً إلى علم لغة، ناقصة بسببٍ من عدم فحصها فحصاً شاملاً، للاستهداء بها في خضم أحكام تتّسم بالانبهار!

وقد رأينا شطراً من آراء الجرجاني في تسلّق سلّم المعنى وصولاً إلى السطح. وأُطنب في هذه النقطة فأضرب مثلاً على ذلك.

ففي قوله تعالى:

«وكلبهم باسطٌ ذراعيْه بالوصيد» / الكهف /١٨ / نجد التحليلات الآتية:

(١) أن صيغة «فاعل» ـ باسط ـ عاملة في الزمن الماضي. وها هنا نُحيّ اشتراط الزمن بوصفه معنى صيغة (فاعل) العاملة. وعُدَّ أصحاب هذا الرأي من المخالفين، أي ممن خالفوا راي سيبويه والفرّاء، في اشتراط زمن الحاضر والمستقبل لاسم الفاعل (المنكّر العامل). قال ابن هشام: /شرح قطر الندى / ١٠٦/:

«خالف في ذلك الكسائي وهشام وابن مضاء، فأجازوا إعماله إنْ كان بمعنى الماضي، واستدلوا بقوله تعالى: «وكلبهم باسط ذراعيه».

(٢) أن ها هنا حكاية حال ماضيه. وهذا رأي «الزمخشري» في «كشّافه» والأشموني في «شرحه»: «لأن اسم الفاعل لا يعمل اذا كان في معنى المضي فـ المعنى: يبسط ذراعيه.

(٣) ورأى آخرون ألاّ.. حاجة إلى تكلّف الحكاية، لأن حال أهل الكهف مستمرٌ الى الآن، فيجوز أنْ يلاحظ في «باسط» الحال، فيكون عاملاً.

(٤) رأي الجرجاني:

لم يستند الجرجاني إلى طريقة «الاستبدال الشكلية» للتفريق بين «المضارع».. ـ يبسط ـ و «فاعل» ـ باسط ـ التي أجراها سيبويه، بل استند إلى معيار «المعنى» في إجراء ذلك التفريق.

قال / دلائل الاعجاز: ١٢٢ /. وإنْ شئت أنْ تُحس الفرق بينهما (بين «يفعل» و «فاعل» من حيث يلطف، فتأمّل هذا البيت.

لا يألف الدّرهم المضروب صرّتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلت بالفعل (أي: وهو ينطلق) لم يحسن. وأهم شيء في هذا التحليل، أنَّ المعيار الاعرابي لم يَعُد يختبر التراكيب اللغوية، بل المدار هنا «المعنى» الذي تكون «العلامة» الاعرابية احدى قرائنه، إنّ الجرجاني ينحو بفكرته النظريّة «وجوه الأبـواب وفروقها» منحىً تطبيقياً. وهو يعرض لتحليل الآية الشريفة: «وكلبهم باسط ذراعيه».. فيقول:

إنَّ أحداً لا يشكّ في امتناع الفعل ها هنا، وان قولنا «كلبهم يبسط ذراعيه» لا يؤدي الغرض»

يلجأ الجرجاني، بعد ذلك، الى طريقة الاستبدال بالمعنى وليس بالمبنى، كما فعل سيبـويه. فيضع المعادلة الآتية: كلبهم باسط = كلبهم واحد

وكأنَّ الجرجاني يُريد انْ يُصغّر (حدث) صيغة (فاعل) حتى يعدمه تماماً، فيتحـول الى اسم «ذات»

باسط = واحد.

وليس لي إلّا أنْ اختم هذه الفقرة بالمقولة البنيويّة التي أطلقها الجرجاني: «الكلمات يأخذ بعضها بحجز بعض».

وأعود إلى «المحاضرات» وأعترف أنني امتننت مرّتين: مرّة لوقوعها مترجمةً في يدي، ومرّة لاختياري مراجعاً. وقد عملت في هذا النص زمناً، وهيأت لي دار آفاق عربية لقاءً بالمترجم الدكتور يوئيل يوسف عزيز، فوجدته متواضعاً على علمه، رحب الصدر، على ضيق وقته. وقد مكثنا ساعات نناقش ما أنتهينا اليه، حتى استقر النص اخيراً على هذا الوجه وفي اثناء ذلك نُمِّي الينا انَّ ترجمة عربية للمحاضرات، قد وصلت بغداد، وهي تحمل عنوان: «محاضرات في الألسنيـة العامـة. ترجمها الاستاذان: يوسف غازي ومجيد النصر وقد وضعتها الدار الناشرة مشكورة بين يدي.

ولم يكن وجود هذه «الترجمة» ليقف حائلاً دون إصدار ترجمة دار آفاق عربية. للأسباب الآتية:

(١) ان «المحاضرات» في علم اللغة العام لفردينان دي سوسور، تُرجمت على نحو أو آخر، من خلال مؤلفات المعنيين بالدراسات اللغوية والبنيوية وبحوثهم، منذ منتصف هذا القرن. وصارت أفكار سوسور منتشرةً، تؤلف، على نحو ما، كتاباً مترجماً. وأدرج ها هنا أهم المؤلفات والبحوث:

(أ) مشكلة البنية (د. ت.) تأليف: د. زكريا ابراهيم. وقد عقد فصلاً خاصّاً تناول فيه محوري الدراسة الزمنية واللازمنيّة عند دي سوسور.

(ب) مقـالة الدكتور محمـود فهمي حجازي: «أصـول البنيوّيـة في علم اللغـة، والدراسـات الاثنولوجيـة / ص ١٥٦ / مجلة عالم الفكـر / نيسـان / ١٩٧٢ /. وتضمنت «المنطق النظري الأساسي» لدى سوسور.

(جـ) ما تضمّنته مجلتا «اللسانيات» و «اللسان العربي»

(د) ما تضمّنه مؤلّف الدكتور محمود السعران «علم اللغة» / ١٩٧٠
(هـ) ما تضمنه مؤلف الدكتور نهاد الموسى نظرية النحو العربي / ١٩٨٠
(و) ما تضمّنه مؤلف الدكتور ريمون طحان «الألسنية العربية» فضلاً عما ترجمه اخواننا في المغرب العربي مما لا يتهيّأ لي توثيقه الآن.

(٢) ذكر الدكتور عبدالرحمن الحاج صاحح في مجلة اللسانيات، في أوائل العقد السابع، أنهّ يعكف على إعداد الترجمة الكاملة لمحاضرات دي سوسور في علم اللغة العام.

وفي ضوء ما تقدم يكون وجود ترجمات أخرى مفيداً في هذا الاتجاه.

* * *

غير أنَّ ذلك، لم يكن ليكفينا مؤونة الاقتناع الذاتي لاصدار هذا الكتاب، وقد ارتأت الدار أنْ تجري مطابقة بين الترجمتين لتسبّب علمياً في صدور ترجمتها أو في حجبها! وقد عهدت إليّ مرة أخرى بإجراء المقارنة بين الترجمتين.

وقد انتهيت بعد المراجعة إلى أنَّ ترجمة الدكتور يوئيل، التي هي عن الانكليزية، تميّزتْ بـ:

(١) تضمّنها خمسة أنواع من الهوامش (ما يقارب سبعين هامشاً)
الاول: هوامش المؤلف الاستاذ دي سوسور.
الثاني: هوامش تلميذه: شارل بالي
الثالث: هوامش الاستاذ (باسكن) مترجم الكتاب إلى الانكليزية
الرابع: هوامش المترجم: د. يوئيل يوسف عزيز
الخامس: هوامش المراجع: د. مالك المطلبي.
في حين خلت الترجمة السورية إلا من هوامش المؤلّف.

(٢) تضمنها مقدمة الطبعة الاولى التي كتبها الاستاذان: «شارل بالي» و «البرت سيكاهي» تلميذا الاستاذ سوسور، اللذان جمعا المحاضرات، وتعقيبين في مقدمتي الطبعتين الثانية والثالثة.

(٣) تضمنها ثبتاً بالمصطلحات الانجليزية اللغوية وأسماء الاعلام والأماكن التي انطوى عليها الكتاب، ومرادفاتها العربية، موزعة على الحروف الابجدية العربية وقد بلغ عددها ما يقارب الـ **خمسمائة** مصطلح وكلمة. وكون بذلك ملحقاً لا غنى عنه في دراسة هذا الكتاب، في حين خلت الترجمة السورية من ذلك.

* * *

وربَّ قائل إنَّ هذه الفروق لا تَمسُّ، على أهميتها، صلب الكتاب؟

وقد يكون في قولٍ، كهذا، بعض تجاوز، إذ إنَّ ملحق الكتاب، أو معجم مصطلحاته، جزء من متن الكتاب، ومع ذلك سأُقِرُّ بهذا الاعتراض، وأنتقل الى الداخل.

وأهمُّ شيء يطالعنا في «محاضرات في الألسنية العامة» هو «المصطلح» و «لغة الترجمة»

ومعضلة، «المصطلح»، معضلة مستديمة. وسبب ذلك يرجع إلى أمور ثلاثة، على ما أرى:

الاول: ان «المصطلح» المترجم طارئ على اللغة. أو هو كيان لا عُرْفي.

الثاني: أنّه تاريخي: أي له سياقٌ خاص به. انه سلسلة من المعاني المختزنة. وليس كلمة واحدة.

الثالث: أن به حاجة إلى توافق سريع بين مستخدميه في حقل المعرفة.

ولم يأبه أخواننا، في لبنان خاصة، إلى ما يترشح عن النقطة الثالثة من مخاطر، وأخذوا يُمطرون العربية بـ «مصطلحات» لا حدَّ لها.

ولأنهم استمرأوا هذه اللعبة، أو استمرأتهم هذه اللعبة، أخذوا يعممون ذلك في وجوه النقد والترجمة والعنوانات!

ولا أريد أنْ أفاضل بين مصطلح؛ ينشأ في بيئة، ومصطلح؛ ينشأ في بيئة أخرى، لأن المفاضلة إنما تكون في قدرة هذا المصطلح على «التداول» المعرفي، وفي كونه منبثقاً، على نحو ما، من «اللغة» التي يصير اليها، لكي لا يتفتت ويندثر.

وأعود الى لعبة المصطلحات واقول: إنَّ المسالة تتحوّل الآن إلى ما أسّميه: «تجويعاً ثقافيا» فأمام حشد من المصطلحات الغريبة.. يبدو المتلقّي، وكأنه يتضاءل حتى لا يُرى، على قول المتنبي.

لقد أشار مترجم هذا الكتاب د. يوئيل يوسف عزيز إلى هذه المعضلة بقوله: «إنَّ صعوبة ترجمة دي سوسور تكمن في «المصطلحات اللغوية» الكثيرة. فما زال «علم اللغة» (أفضل أنْ يضيف المؤسّس في الغرب) حديث العهد في العربية، لم يتبلور كثير من مصطلحاته، التي دخلت العربية، وقد فضلتُ المصطلح الانكليزي، على المصطلح الفرنسي الأصلي، لأن هذا العلم (علم المصطلح) قد تطور كثيراً في البلدان الناطقة بالانكليزية، وأصبحت مصطلحاته الانكليزية هي الشائعة، بين المثقفين، لا سيما في الوطن العربي».

المترجِم، هنا، حذر، وعلى نحو أدق، لا يميل إلى «استرخاص» استعمال المصطلح. وهذا هو المطلوب لئلا يؤدّي الأمر إلى نتائج معاكسة، كما سأعرض لذلك في النقطة القابلة. في الترجمة السورية، على قدرة مترجميها، وضلوعهما في العلم اللغوي، «تجوز» في استعمال المصطلح. وقد أخذت عينة، شملت «التمهيد» «والفصل الاول» وهي ص ٧ :

التّزامُن والتّزمُّن: «من دراسة منظومة ما تَزَمُّنياً إلى دراستها تزامُنياً.»

أشار دي سوسور إلى وجهتي نظر، مختلفتين، في دراسة اللغات؛ تمثّل الأولى: محوراً أفقيّاً، ليس للزمن فيه أيُّ دخل، وهي وجهة النظر الوصفيّة، والثّانية تمثّل محوراً

رأسياً، يقوم على أساس التغيّر الزمني، وهي وجهة النظر التاريخيّة / د. زكريا ابراهيم / مشكلة البنية / ص ٥٣. /

نحنُ، إذاً، بإزاء مصطلحين. ولدينا ما يأتي:

المحور الوصفي.

والمحور التاريخي.

المحور السكوني.

والمحور الحركي.

المحور التزامني.

والمحور التعاقبي.

اذا كنّا قد استندنا إلى «تزامُن» لتكوين مصطلح يدلُّ على دراسة لغةٍ دراسة بنيويّة (وصفيّة) في زمن واحد، فكيف تسنّى لنا، أنْ نشتقَّ مصطلحاً هو (تزمُّن) ونجعله يقابل مصطلح «التزامن»؟

واذا قبلنا ذلك، جدلاً، أفلا يحتاج ذلك إلى شرحٍ ما؟ حتى يتم التبادل المعرفي على أساسٍ ما؟!

* * *

الأصواتية

التصويتية

الأصواتية: مقابل مصطلح (فونيتيك) Phonetic

الذي يُعنى بدراسة الآثار الصوتية (فيزيائيا)

التصويتيّة: مقابل مصطلح فونولوجي Phonology، الذي يُعنىٰ بدراسة الأصوات اللغوية (أي الأسرة الصوتية).

غير أنَّ العربية تستطيع أنْ تمدّنا بمصطلحين على نحو يسير وهما:

الأصوات: ومفردها صوت Sound وترادف مصطلح Phonetics

والأصوات اللغوية ومفردها «الوحدة الصوتية» أو النظام الصوتي.Phoneme

وترادف مصطلح Phonology

أما «الأصواتية» والتصويتيّة»، فهما كالتزامن والتزمن أو التزامنيّة والتزمنية لايعكسان إلّا أثراً واحداً من آثار المعنى.

* * *

ومثل ذلك القول:

«التصويتيّة والقواعد والدلالة» فلماذا لا تكون: التصويتيّة والتقعيديّة والتدليليّة.. لخلق نوع من (الهارموني) في سجل المصطلحات؟؟

والقول: ص ٦ ونعني التصويتية والصرف **وعلم الدلالة**. فلِمَ تهيّأ للمترجمين أنْ يرجعا إلى النسيج العربي، في علم الدلالة، ولماذا لا يُحدثان نسقاً مصطلحيّاً، بالتصريفية والتدليليّة؟

* * *

الأعراضية: «علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، وهو يشكل جانباً من علم النفس الاجتماعي، و (بالتالي) من علم النفس العام»

أليس هو علم العلامات؟

الأقوامية وعلم الأقوام / ص ٨: والمصطلح المعمول به «علم الأجناس» أو علم المجتمعات البشريّة .anthropology وهكذا ينقطع «التوصيل» بين الكتاب وقارئه. فكيف اذا كان حاجز الترجمة هو ما تُراد إزالتُه؟

ولو بقي الأمك متعلّقا بالحواجـز، لارتضينا بـالأحالة عـلى مُعْجمات، أو أنـاس كالمعجمات! يزودوننا بالمعرفة أمام هذا (التجويع الثقافي) غير أنه يذهب مذاهب أخرى، وأهمها أنه يؤدي إلى عكس ما يريد!

«الفقه» مصطلح تربّى في أحضان البيئة الاسلامية، بجوار مصـطلح آخر هـو مصطلح «علم الكلام» ولأن هذين العلمين يرتبطان باللغة برباط «الحقل» الواحد نشأ قربهما مصطلح «فقه اللغة» وهو يقابل الآن الدراسات اللغوية التاريخية Philology

ولأن المتـرجمين الفـاضلين مولعـان بتكوين المصـطلحات، من خـلال **الوصف والنسبة** لا من خلال **الاضافة** التي هي نسيج المصطلح العربي. قالا بـ:ص ١١/ «إنّ النقد الفقهي يقع في...»

ولو فقدنا الارتباط بالنص لتصّورنا أنّ الكلام منصب على فقه الشرع لافقه اللغة!

واذا كانت «الالسنية»، مصطلحا، تعني «علم اللغة» ولأن عنوان الكتاب يشير إلى هذا: «محاضرات في الألسنية العامةCours de Linguistic generale فكيف يتسنّى للمترجمين أنْ يرجعا إلى احساسهما المرهف بالعربية فيقولان: /ص ١٤ / «تشكيل العلم الألسني الحقيقي» نقول: «تشكيل العلم اللغوي» و «تشكيل علم اللغة، وهذا جار. ولكننا لا نقول «التشكيل الألسني الحقيقي» لأنّ هذا لا ينم عن علم لسان ابداً.

بل إن المترجمين يستأنسان بترجمة كتاب ماكس مولـر /ص ١٣ /. دروس في علم **اللسان**؟

وكان ينبغي أنْ يكون على وفق نسق الافتتاح: «دروس في الألسنية».

وحين يتصدّيان لترجمة كتاب العالم اللغوي الأمريكي: «وتني»

Life and growth of Language يجعلانه: «حياة اللسان»

أما د. يوئيل فيضع: «حياة اللغة ونموها»

والمقارنة مغنية عن التعليق!

ومثل ذلك، عن ولع المترجمَيْن بالمصطلحات المكتنزة بالغموض، المؤدية إلى تجويع القارىء (وياله من هدف!) ما جاء / ص ١٥ / ترجمة لـ Junggrammatiker :

النحويون المولدون

وترجمة د. يوئيل: «النحويون الجدد» وليس «التوليد» إلّا استذكاراً « للچومسكية» في غير موضعه!

* * *

أنتظر في / ص ١٦ /:

م:

«ولكن كنتاج للفكر الجمعي للمجموعات الألسنية»

ايعني ذلك: مجموعات علوم اللغة؟ ليس ذلك صحيحا لأن **الألسنية ها هنا** يُقصد بها اللغات. وهناك فرق بين «اللغات» و «علم اللغات». وترجمة العبارة في نسخة «آفاق»:

«بل هي نتاج عقل جماعي لمجموعات لغوية» وهذا هو ما يريده دي سوسور!

* * *

ونتأمل العبارات الآتية حسب:

ص ٣ / على **جُماع اشكالية** المسألة اللغوية

ص ٤ / لا تقبل أي**تموضع** أيًا كان شكله

ص ٥ لأبرز **تمفصلات** تفكيره اللغوي.

ص ٥ / المنظومة المشتركة بين الأفراد و**المنوجدة** في تحقيق كلامي.

ص ١٢ / بفضل تموضع السنسكريتيّة في **ظروف مؤاتية بشكل استثنائي** لايضاح! هذه المقارنة.

ص ١٤ / وبسبب ذلك كطريقة للتفكير.

ص ١٦ / ألقت الضوء على جماع المسألة وكليتها.

وآخِراً لست أحاول، يعلم الله، إيذاء ترجمة «الألسنية العامة» أو أدعو لترجمة «علم اللغة العام» ولكن ليكون لنا حقٌّ في أنْ نَدْلو بدلونا في بئر عميق غورُها.

ومن الله التوفيق.

د. مالك المطلبي

١٩٨٥/١/٢٥

الفصل الاول

نظرة سريعة الى تأريخ علم اللغة: ـ

ان العلم الذي نشأ من دراسة الحقائق اللغوية مرّ بثلاث مراحل، قبل أن يحدد ، هذا العلم، هدفه الحقيقي الخاص به.

لقد اهتم الدارسون، في بادئ الامر، بفرع من فروع المعرفة سمي بـ «القواعد». ان هذه الدراسة التي بدأها الاغريق واخذها عنهم الفرنسيون اعتمدت على علم المنطق. وهي تفتقر الى النظرة العلمية ولا ترتبط باللغة نفسها، وليس لها من هدف سوى وضع القواعد التي تميز بين الصيغ الصحيحة، وغير الصحيحة، فهي دراسة معيارية، تبتعد كثيرا عن الملاحظة الصحيحة للحقائق، ومجالها محدود، ضيق.

ثم ظهر فقه اللغة «الفيلولوجيا». لقد وجدت مدرسة لفقه اللغة في الاسكندرية منذ القديم، ولكن هذه التسمية (فقه اللغة او الفيلولوجيا) غالبا ما تطلق على الحركة العلمية التي بدأها فردريك اوكست ولف Friedrich August Wolf في عام ١٧٧٧، وقد استمرت حتى يومنا هذا، ليست اللغة الهدف الوحيد لهذه الحركة؛ فقد اهتم علماء فقه اللغة بتصحيح النصوص المكتوبة وشرحها والتعليق عليها، كما شجعت هذه الدراسة اصحابها على الاهتمام بالتاريخ الادبي، وبالعادات والتقاليد، والنظم الاجتماعية وغيرها، وقد استخدم هؤلاء العلماء اساليب النقد في دراستهم وكان هدفهم، من دراسة المسائل اللغوية، مقارنة النصوص، التي كتبت في فترات زمنية مختلفة، لمعرفة اللغة التي يختص بها كل مؤلف من مؤلفي هذه النصوص، ولحل رموز بعض اللغات القديمة الغامضة وتفسيرها، مما لا شك فيه ان مثل هذه الدراسات مهدت السبيل لعلم اللغة التاريخي، فدراسة رتشل Ritschl لـ بلوتس Plautus هي جزء من الدراسة اللغوية، ولكن النقد الفيلولوجي ـ اي استخدام اسلوب النقد في فقه اللغة له عيب مهم: فهو يعتمد اعتمادا كليا على اللغة المكتوبة.[1] ثم إن جل اهتمامه انحصر في اللغة الاغريقية واللاتينية القديمة.

بدأت المرحلة الثالثة عندما اكتشف العلماء ان اللغات يمكن مقارنة بعضها ببعض. وكان هذا الاكتشاف بداية «فقه اللغة المقارن» comparative philology ففي عام ١٨١٦ نشر بوب Franz Bopp كتابا سماه في النظام الصرفي للسانسكريتية . قارن فيه اللغة السانسكريتية باللغة الالمانية والاغريقية واللاتينية وغيرها ، ولم يكن (بوب) اول من اشار الى اوجه الشبه بين هذه اللغات وانحدارها من اصل واحد فقد سبقه الى ذلك وليم جونز

---

(١) اهتمت هذه الدراسات بالنصوص المكتوبة لبعض اللغات البائدة كالاغريقية واللاتينية واهملت اللغات الحية كالفرنسية مثلاً (المترجم).

W. Jones [٢]المستشرق الانكليزي المتوفى في عام ١٧٩٤). ولكن ملاحظات جونز اليسيرة لا تدل على ان العلماء قد ادركوا اهمية مقارنة اللغات قبل عام ١٨١٦. ومع ان الفضل لا يعود الى بوب في اكتشاف الصلة بين اللغـة السانسكـريتية وبعض اللغـات الاوربية والآسيوية، فقد ادرك هذا العالم ان مقارنة اللغات، التي تنحدر من اصل واحد، يمكن ان تصبح موضوعا لعلم مستقل بذاته، فلم يسبق لاحد أنْ قام بتفسير لغة باللجوء الى لغة اخرى، وتوضيح صيغ لغةٍ ما، بالاعتماد على صيغ لغة أخرى.

أغلب الظن ان بوب لم يكن باستطاعته أن يبتدع هذا العلم الجديد بمثـل هذه السرعة لولا اكتشاف السانسكريتية قبل ذلك، فكانت السانسكريتية الدعامة الثالثة مع اللاتينية والاغريقية التي اعتمد عليها بوب في دراسته، فضلا عن ان اللغة السانسكريتية لها مميزات عالية جدا؛ تجعل منها خير وسيلة فى مقارنة اللغات.

فعلى سبيل المثال اذا قارنا بين صيغ الكلمة اللاتينيـة(generis, genus, generum, genera, genere الى آخره) والصيغ الاغـريقية((genei, geneos, genos geneon, genea) الى آخره) فاننا لا نتوصل الى شيء، ولكن الامر يختلف اذا اضفنا الى هذه الصيغ، الصيغ السانسكريتية (ganasan, ganasu, ganasi, ganasas, ganasالى آخره). فنظرة سريعة الى هذه الصيغ تبيّن الشبه بين الصيغ الاغريقية واللاتينية فاذا قبلنا بفرضية ان ganas تمثل المرحلة الاولى لهذه الصيغ ـ وهذه الخطوة تسهل الشرح ـ فاننا نستنتج ان الصوت (s) لابد انه سقط من الصيغ الاغريقية كلما وقعت بين صوتين من اصوات العلة او الحركات (Vowels). ثم نستنتج كذلك ان (s) اصبح (r) في اللاتينية وفي الظروف نفسها التي ذكرت سابقاً.

فالصيغ السانسكريتية، اذن، تُعدّ، من الناحية النحوية، هي الجذر، اي انها وحدة محددة ثابتة، وكانت للاغريقية واللاتينية الصيغ السانسكريتية نفسها في المراحل الاولى، وهكذا تكون السانسكريتية مفيدة، لانها قد حافظت عـلى جميع اصـوات (s) في اللغة الهندية ـ الاوربية. ومما لاشك فيه أنَّ السانسكريتية لم تنجح في الحفاظ على مميزات اخرى للغة الام: فعلى سبيل المثال تغير نظام الحركات فيها تغيرا كاملا ، ومع ذلك تكون العنـاصر الاصلية، التي حـافظت عليهـا اللغة السـانسكريتيـة، مفيدة للبـاحث عـلى العموم ـ وقد شاء القدر ان تستخدم هذه العناصر لتوضيح كثير من المسائل في دراسة اللغات الاخرى.

وسرعان ما ظهر علماء لغويون بارزون أضافوا الى ما أسهم به بوب، نذكر منهم جاكوب كَريم Jacob Grimm مؤسس الدراسات الجرمانية (نشر كتابه **قواعد الالمانية** بين

---

(٢) في عام ١٧٨٦. (المترجم).

عامي ١٨٢٢ و ١٨٣٦)، وبوت Pott الذي قام بدراسة اصول الكلمات، الاتمولوجيا، فوفر مادة غزيرة لعلماء اللغة في هذا المجال من المعرفة، وكوهن Kuhn الذي بحث في علم اللغة وفي علم الميثولوجيا (الاسطورة) المقارن، وكذلك العالمين بنفي Benfy واوفرخت اللذين اختصا بدراسة الهندية.

واخيرا لابد من ان نذكر المتأخرين من اصحاب هذه المدرسة، من امثال ماكس مولر Max Muller وجي كيرتيوس G. Curtius, واوكست شلايشر August Scheicher. فكل من هؤلاء الثلاثة أسهم، بطريقته الخاصة، في تقدم الدراسات المقارنة، اذ ساعد ماكس مولر في نشر هذه الدراسات في مناقشاته الرائعة الموسومة بـLessons in the Science of Language دروس في علم اللغة (١٨٦١)، ولكن عيبه يكمن في انه يفتقر الى الشعور بالمسؤولية، اما كيرتيوس فهو عالم بارز في فقه اللغة (الفيلولوجيا) تعتمد شهرته بالدرجة الاولى على كتابه Grundzuge der griechischen Etymologie (١٨٧٩). وهو من اوائل الذين جمعوا بين علم فقه اللغة المقارن وعلم فقه اللغة الكلاسيكي، وقد ظل العلم الاخير ينظر نظرة شك الى تقدم العلم الجديد (فقه اللغة المقارن): وكانت كل من المدرستين ترتاب في الأخرى، وكان شلايشر اول من حاول ان يجمع بين نتائج البحوث المبعثرة ويضعها في قالب موحد، فكتابه Compendium der Vergleichenden Grammatile der indogermanischen Sprachen (١٨٦١ ـ ٦٢) هو تنسيق للعلم الذي اوجده بوب حسب. إن هذا الكتاب الذي خدم الباحثين مدة طويلة يمثل خير تمثيل الخطوط العريضة لمدرسة علم اللغة المقارن، وهو اول فصل في تاريخ علم اللغات الهندية ـ الاوربية.

بيد ان مدرسة علم اللغة المقارن، التي يعود اليها الفضل ـ لاشك ـ في اكتشاف فرع جديد مثمر من فروع المعرفة، لم تفلح في انشاء علم اللغة الحقيقي. لكونها اهملت البحث في طبيعة الموضوع الذي تدرسه. وهذه خطوة اساسية بدونها لا يستطيع أيُّ علم من العلوم أنْ يجد له اسلوباً في الدراسة.

وقد ادى الخطأ الاول، الذي وقع فيه علماء فقه اللغة المقارن، الى أخطاء اخرى. ففي دراساتهم (التي اقتصرت على اللغات الهندية ـ الاوربية) لم يسألوا انفسهم قط عن معنى (المقارنات التي قاموا بها واهمية العلاقات التي توصلوا اليها) اذ اقتصر اسلوب الدراسة عندهم على المقارنة ولم يتناول الناحية التاريخية. مما لا شك فيه ان المقارنة ضرورة لاي نوع من أنواع اعادة البناء التاريخي للغة، ولكن المقارنة، وحدها، لا يمكن ان تكون عاملا حاسما في التوصل الى النتائج. ومما زاد في صعوبة التوصل الى هذه النتائج نظرة علماء فقه اللغة المقارن الى تطور لغتين. إذ كانت هذه النظرة تشبه نظرة علماء الطبيعة الى نمو نبتتين، مثال ذلك ان شلايشر ـ الذي كان دائما يدعو الى البدء باللغة الهندية ـ الاوربية الاولى فيبدو وكأنه عالم تاريخي ـ لا يتردد في القول ان

الصوتين (e) و (0) في الاغريقية هما درجتان (stufen) في نظام الحركات. ويرجع سبب ذلك الى ان للغة السانسكريتية نظاما من الحركات المتناوبة التي توحي بفكرة الدرجات (الخطوات). لذا ظنَّ شلايشر ان جميع اللغات ينبغي ان تمر بهذه الدرجات درجة درجة، بأسلوب يشبه تماما المراحل التي يمر بها النوع الواحد من النباتات، فرأى في الصوت (o) درجة مشددة من الصوت الاغريقي (e) وفي الصوت (ă) درجة مشددة للصوت السانسكريتي(ā)ولكنحقيقة الامر هي ان احد الاصوات في اللغة الهندية ـ الاوربية الاولى قد ظهر بشكلين مختلفين في اللغة الاغريقية واللغة السانسكريتية من دون أن يؤثر ذلك في علاقات القواعد في اللغتين (انظر الجزء الثالث الفصل الثالث).

واذا نظرنا الى اخطاء علماء فقه اللغة المقارن من الناحية الاسلوبية، وجدنا أن مثل هذه الاخطاء لا تخلو من فائدة، فأخطاء علم من العلوم، لا يزال في مرحلة الطفولة تقدم صورة مكبرة لاخطاء يرتكبها الباحث في المراحل الاولى للبحث العلمي، وسأشير الى بعض هذه الاخطاء في اثناء هذه الدراسة.

لم يبدأ العلماء بدراسة المبادئ التي تتحكم بحياة اللغات حتى عام ١٨٧٠. وبعد ذلك التاريخ اخذوا ينظرون الى أوجه التشابه بين اللغات على انها جانب واحد فقط من الظاهرة اللغوية، وان المقارنة ما هي إلا اسلوب او وسيلة لاعادة بناء الحقائق اللغوية.

إن علم اللغة الصحيح الذي يضع الدراسات المقارنة في موضعها المناسب، تعود جذوره الى دراسة اللغات الرومانسية (الفرنسية، والايطالية، والاسبانية والبرتغالية والرومانية) واللغات الجرمانية، ويعود تاريخ دراسة اللغات الرومانسية التي بدأها دياز Diez بكتابه: **قواعد اللغات الرومانسية** الى الاعوام ١٨٣٦ ـ ١٨٣٨. وقد ساعدت هذه الدراسات على اقتراب علم اللغة من هدفه الحقيقي المنشود، فعلماء اللغات الرومانسية كانوا يتمتعون بظروف جيدة لم تتوفر لعلماء اللغات الهندية ـ الاوربية، فكانوا يحسنون اللغة اللاتينية وهي اللغة الام للغات الرومانسية: كما توفرت لديهم مجموعة كبيرة من النصوص، وبفضل هذين العاملين استطاعوا ان يكتشفوا تطور اللهجات الرومانسية المختلفة بصورة تفصيلية: كما ساعد العاملان على التقليل من عملية الحدس والتخمين، ووفّرا إطاراً ثابتا قويا للبحث العلمي عند هؤلاء العلماء. وقد تمتع علماء اللغات الجرمانية بظروف جيدة مماثلة للظروف التي تمتع بها علماء اللغات الرومانسية، ومع انهم لم يستطيعوا دراسة اللغة الاولى بصورة مباشرة، فقد ساعدتهم النصوص الكثيرة على اقتفاء اثر تاريخ اللغات التي انحدرت عن اللغة الجرمانية الاولى خلال عدة قرون، واستطاع هؤلاء العلماء الاقتراب من الحقيقة اكثر من علماء اللغة الهندية ـ الاوربية الأوائل، فحققوا الكثير من النتائج.

ومن رواد علم اللغة العالم الامريكي وتني Whitney صاحب كتاب Life and growth of

language **حياة اللغة ونموها** (١٨٧٥)، وبعد هذا التاريخ بقليل قام النحويون الجدد Junggrammatiker بتأسيس مدرستهم. وكان زعماء هذه المدرسة جميعهم من الالمان نذكر منهم كي بروكمان Brugmann و اج اوستوف H. Osthoff وعلماء اللغات الجرمانية دبليو برون W. Braune واي سيفرز E. sievers واج بول وعالم اللغات السلافية ليسكين Leskien وغيرهم. واهم ما ساهم به هؤلاء العلماء هو وضع نتائج الدراسات المقارنة في الاطار التاريخي المناسب لها، وهكذا ربطوا بين الحقائق ربطا طبيعيا. ويعود الفضل اليهم في اننا لم نعد ننظر الى اللغة على انها كائن عضوي يتطور بصورة مستقلة، بل هي نتاج عقل جماعي، لمجموعات لغوية، كما ادرك العلماء اخطاء الدراسات الفيلولوجية والدراسات الفيلولوجية المقارنة[٣]. وعيوبها وعلى كل حال لم يُلقِ النحويّون الجدد، علىٰ الرغم من الخدمات التي قدّموها، الضوء على المسألة كلها، فما زالت المسائل الجوهرية لعلم اللغة العام تنتظر الحلّ.

---

(٣) استخدمت المدرسة الجديدة اسلوباً أكثر واقعية من المدرسة السابقة، وحاربت مصطلحات المدرسة المقارنة، ولا سيما الاستعارات الكاذبة التي استخدمتها المدرسة الأخيرة، فلم يعد المرء يقول: «تقوم اللغة بهذا أو ذاك» أو «حياة اللغة» وغيرها من التشبيهات، طالما ان اللغة ليست كائناً، بل لها وجود داخل المتكلم فقط. ولكن المرء ينبغي أن لا يغالي الى هذا الحد، فخير الأمور أوسطها. فلا يمكن الاستغناء عن بعض التركيبات المجازية، والطلب الى المرء ان لا يستخدم إلا الكلمات التي تتفق مع حقائق الكلام، يعني الادعاء بأن هذه الحقائق لم تعد تقلقنا، وهذا لا يتفق مع الحقيقة، لذا سوف استخدم، في بعض الأحيان، بعض العبارات التي منعتها تلك المدرسة (سوسور).

الفصل الثاني

موضوع علم اللغة ومجاله: وعلاقته بالعلوم الاخرى

تضم مادة علم اللغة جميع مظاهر الكلام عند الانسان، سواء كان ذلك في المجتمعات البدائية او المتمدنة، وفي الفترات الكلاسيكية او الفترات المتأخرة. ولا ينبغي للغوي ان يدرس في كل فترة من الفترات اللسان الصحيح واللغة المنمقة حسب. بل جميع انواع التعبيرات الأخرى ايضا، يضاف الى كل ذلك شئ اخر وهو طالما ان اللغوي لا يستطيع ان يلاحظ اللسان مباشرة في اغلب الاحيان، فعليه ان يدرس النصوص المكتوبة، فهو لا يستطيع التوصل الى التعبيرات التي تبتعد عنه من حيث الزمان او المكان الا من خلال هذه النصوص.

اما مجال علم اللغة فيجب ان يشمل على:

(أ) وصف تاريخ جميع اللغات المعروفة، ويعني ذلك تتبع تاريخ الأسر اللغوية واعادة بناء اللغة الام لكل أسرة، على قدر المستطاع.

(ب) تحديد القوى التي تعمل بصورة دائمية وعامة في جميع اللغات، واستنتاج القواعد العامة من جميع الظواهر التاريخية الخاصة.

(ج) تحديد معالمه وطبيعته.

ويتصل علم اللغة اتصالا وثيقا بالعلوم الاخرى فهو يأخذ منها، في بعض الاحيان، كما يقدم لها شيئا من المعطيات، فالخطوط التي تحد هذه العلوم قد لا تكون دائما واضحة متميزة. فعلى سبيل المثال ينبغي تمييز علم اللغة من دراسة الاجناس البشرية (اثنوكرافي) وعلم ما قبل التاريخ. فاللغة في هذين العلمين ما هي الا اداة لتدوين الاحداث والحقائق كما انها ينبغي ان تميزه من علم الانثروبولوجيا (المجتمعات البشرية) الذي يدرس الانسان من ناحية السلالات حسب إذْ إن اللغة حقيقة اجتماعية. ولكن اذا كان الامر كذلك فهل ينبغي ان نربط علم اللغة بعلم الاجتماع؟ وما الروابط بين علم اللغة وعلم النفس الاجتماعي؟ فكل شئ في اللغة انما هو في جوهره نفسي، بما في ذلك مادة اللغة ومظاهرها الآلية كالتغيير في الصوت، ولما كان علم اللغة يقدم لعلم النفس الاجتماعي مثل هذه المعطيات القيمة، أفلا ينبغي ان يعد جزءاً لا يتجزأ من علم النفس الاجتماعي؟ سأقدم هنا عددا كبيرا من الاسئلة البسيطة: ثم اقوم بالاجابة عنها بشئ من التفصيل فيما بعد.

إن الصلة بين علم اللغة وعلم فسلجة الأصوات (وظائف الاصوات) سهلة التمييز وهذه الصلة من جانب واحد، فعلم اللغة يحتاج الى بعض الايضاحات من علم فسلجة

الاصوات، ولكنه لا يقدم الى هذا العلم الأخير شيئا، وعلى كل حال، لا يمكن الخلط بين العلمين، وسأحاول ان اوضح ان الشيُ الذي يؤلف اللغة لا علاقة له بالطبيعة الصوتية للاشارة اللغوية.

أما علم الفيولوجيا (فقه اللغة) فقد وضحنا معالمه: فهو يتميز عن علم اللغة، مع وجود نقاط الاتصال بين العلمين، والخدمات المتبادلة، التي يقدمها كل منهما للآخر.

ثم نأتي الى السؤال الأخير: ما الفائدة من علم اللغة؟ قلما نجد من الناس من له رأي واضح في هذه المسألة: وليس هذا المكان المناسب لا يضاحها، ولكن مما لا شك فيه أن المسائل اللغوية تهم كل من يدرس النصوص - كالمؤرخين وعلماء فقه اللغة وغيرهم من الباحثين، ولا شك ان لعلم اللغة أهمية للثقافة العامة، ففي حياة الأفراد والمجتمعات تعد اللغة اهم من أي شيُ اخر، لذا لا يجوز ان يبقى علم اللغة مقتصرا على نخبة صغيرة من المختصين فهو يهم الجميع على أي نحو، ولكن من الامور الغريبة ان الاهتمام بعلم اللغة قد نتج عنه كثير من الآراء الواهية والمواقف المتحيزة والخرافات، تفوق ما نجده في غيره من فروع المعرفة، ان لهذه الاخطاء أهمية من الناحية النفسية (السايكولوجية)، ولكن من واجب اللغوي - قبل كل شيُ ان يشجبها وأن يصححها كلما استطاع ذلك.

الفصل الثالث
هدف علم اللغة

١ - تعريف اللغة:

ما الهدف الطبيعي الملموس لعلم اللغة؟ هذا سؤال صعب للغاية، سنرى سبب ذلك فيما بعد، أما الآن فلن أقدّم سوى إشارةٍ الى هذه الصعوبة.

ان العلوم الاخرى تدرس اشيـاء معروفـة سلفا، يمكن بحث هـذه الاشياء من وجهات نظر مختلفة، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لعلم اللغة، فقد ينطق احدهم بالكلمة الفرنسية nu (عار)، ويستنتج المرء من الملاحظة السطحية، أنَّ الكلمة هي المادة الملموسة لعلم اللغة. بيد ان الملاحظة الدقيقة قد تكشف لنا على التوالي شيئين أو ثلاثة اشياء مختلفة، اعتمادا على الامور الآتية:

هل نعدّ الكلمة صوتا أم تعبيرا عن فكرة، ام المرادف للكلمة اللاتينية nudum الى غير ذلك؟ فالشيُ لا يسبق وجهة النظر، بل ان وجهة النظر، على ما يبدو هي التي تخلق الشيُ، ثم إننا لا نملك دليلا سابقا يبين لنا أن إحدى وجهات النظر هذه أفضل من غيرها، في حل المسألة التي نحن بصددها، أو اهم منها.

أضف الى ذلك ان الظاهرة اللغوية لها دائما جانبان متصلان، كل منهما يستقي أهميته من الآخر - ولا علاقة لهذه المسألة بالرأي الذي نتبناه فعلى سبيل المثال:

١) ان المقاطع التي ينطق بها المرء انما هي انطباعات صوتية تدركها الاذن، ولكن هذه الأصوات ليس لها وجود لولا اعضاء النطق، فالصوت (n) على سبيل المثال ليس له وجود الا بفضل هذين الجانبين (جانب النطق وجانب السمع)، فلا نستطيع ان نجعل اللغة مقتصرة على الأصوات، أو الاصوات المنفصلة المستقلة عن النطق في الفم. كما أننا لا نستطيع أن نحدد حركات اعضاء النطق من دون أن نأخذ بنظر الاعتبار الانطباع الصوتي (الصورة الصوتية) في الأذن.

٢) ولكن لنفرض ان الصوت شيٌ بسيط: فهل هو اللسان؟ الجواب لا، فهو وسيلة الفكر ليس الا، ليس له وجود، في حد ذاته أو وحده، بعيد عن الفكر، وهنا تظهر لنا علاقة جديدة صعبة، فالصوت وهو وحدة مركبة من نطق وسمع، يرتبط بفكرة ليكـون وحدة فسيولوجية - سايكولوجية (وظيفية - نفسية) مركبة، ومع كل هذا فالصورة لم تكتمل بعد.

٣) اللسان له جانب فردي وجانب اجتماعي، ولا يمكن ان نتصور أحدهما بغير الآخر أضف الى ذلك:

٤) ان اللسان ينطوي دائما على وجود نظام ثابت، كما ينطوي على عملية التطور، فهو في كل لحظة نظام قائم بذاته ونتاج للزمن الماضي، وقد يبدو، للوهلة الاولى، ان التمييز بين النظام وتاريخه، بين ما هو عليه وما كان عليه في الماضي، سهلٌ ولكن الحقيقة هي ان الشيئين يرتبطان ارتباطا وثيقا احدهما بالاخر الى درجة قلما نستطيع معها، فصلهما. هل يسهل الأمر علينا اذا درسنا الظاهرة اللغوية في مراحلها الاولى - اذا بدأنا، على سبيل المثال، بدراسة لسان الأطفال؟ الجواب لا، فمن الخطأ أن نعتقد في دراستنا للسان ان مسألة المميزات في المراحل الاولى تختلف عن مسألة المميزات الثابتة. ان مثل هذا التفكير يؤدي بنا الى حلقة مفرغة.

ومهما كان الاتجاه الذي نسلكه في هذه المسألة، فاننا لن نجد الهدف الطبيعي لعلم اللغة، اذ نجد انفسنا دائما في حيرة، واذا ركزنا انتباهنا على جانب واحد من المسائل التي تواجهنا، فاننا قد نسهو عن الطبيعة الثنائية، التي أشرنا اليها سابقاً، واذا درسنا اللسان، من وجهات نظر عديدة مختلفة، في آن واحد، ظهر لنا هدف علم اللغة وكأنه شيٌ مرتبك، غير متجانس، يتكون، من أشياء غير مرتبطة بعضها ببعض، إن كلاً من الاسلوبين المشار اليهما آنفاً يفتح الباب لعدد من العلوم - كعلم النفس وعلم المجتمعات البشرية، والنحو المعياري، وفقه اللغة وغيرها - وكل هذه العلوم تتميز عن علم اللغة، ولكنها قد تدعي ان اللسان احد اهدافها، وذلك بسبب الاسلوب غير الصحيح الذي يستخدم في علم اللغة.

الرأي عندي ان لجميع هذه الصعوبات حلاواحدا فقط: وهو ان نضع كلتا قدمينا، منذ البداية، على أرض اللغة ، ونستخدم اللغة مقياسا لجميع مظاهر اللسان، فاللغة وحدها - بين كثير من المظاهر الثنائية - يمكن ان تخضع - على ما يبدو - لتعريفٍ مستقل قائم بذاته، وتقدم في الوقت نفسه الركيزة التي ترضي العقل.

ولكن ما اللغة Langue؟ ينبغي ان نميز بينها وبين اللسان البشري (Langage)، فاللغة جزء محدد من اللسان، مع انه جزء جوهري - لاشك - اللغة نتاج اجتماعي لملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد افراده على ممارسة هذه الملكة، وعلى العموم : اللسان متعدد الجوانب، غير متجانس - يشتمل على عدة جوانب في آن واحد - كالجانب الفيزياوي (الطبيعي) والجانب الفسلجي (الوظيفي) والجانب السايكولوجي (النفسي). واللسان ملك للفرد وللمجتمع لا يمكن ان نصنفه الى اي صنف من أصناف الحقائق البشكية، لأننا لا نستطيع ان نكشف عن وحدته.

اما اللغة، فعلى النقيض من ذلك، لها كيان موحد قائم بذاته، فهي تخضع للتصنيف، وتحتل المركز الاول بين عناصر اللسان، وهذا التصنيف يضفي نظاما طبيعيا

على كتلة غير متجانسة (اللسان) لا يمكن ان تخضع لأي تصنيف آخر.

وقد يعترض المرء على مبدأ التصنيف فيقول: لما كان اللسان يعتمد على الملكة الطبيعية، في حين ان اللغة هي شئ مكتسب تقليدي، كان ينبغي إذن ان لا تكون اللغة في المنزلة الاولى، بل يجب ان تخضع للملكة الفطرية.

ان هذا الاعتراض يمكن دحضه بسهولة.

اولا: ليس لدينا أي برهان على ان اللسان، بالمظهر الذي ننطق به، شئ طبيعي في كل جوانبه، اي ان اعضاء النطق مخصصة للتكلم كما ان القدمين مخصصتان للمشي. فاللغويون يختلفون في هذه المسألة فيقول وتني - وهو يعد اللغة احدى النظم الاجتماعية - اننا نستخدم جهاز النطق للتكلم به على سبيل المصادفة فقط: ولأنها مناسبة، اذ كان باستطاعة الانسان ان يستخدم الاشارات والرموز المرئية عوضا عن الرموز الصوتية. مما لاشك فيه ان وتني متطرف في رأيه، فاللغة لا تشبه في جميع جوانبها الانظمة الاجتماعية الاخرى، ثم إن وتني يذهب الى القول ان اختيار الانسان وقع على اعضاء النطق، وان هذا الاختيار قد فرضته - عليه - الى درجة ما - الطبيعة، ولكن رأي وتني في المسألة الجوهرية صحيح: فاللغة تقليد، وليس لطبيعة الاشارة التي يتفق عليها المجتمع اية اهمية، مما لاشك فيه ان موضوع جهاز النطق يحتل منزلة ثانوية في مسألة اللسان.

ويمكب دعم هذا الرأي باللجوء الى تعريف واحد للسان المنطوق، فكلمة (articulus) تعني في اللاتينية عضوا أو جزءاً او مقطعا من سلسلة، فاذا طبقنا هذا على اللسان فانه يعني تقسيم سلسلة منطوقة الى مقاطع او تقسيم سلسلة من المعاني في وحدات "ات معنى، وتستخدم الالمانية gegliederte sprache للتعبير عن المعنى الثاني.

واذا اعتمدنا التعريف الثاني قلنا ان الشئ الطبيعي عند الانسان ليس اللسان الشفوي بل ملكة انشاء اللغة، اي نظام من الاشارات المتميزة يرتبط بافكار (بمعاب) متميزة.

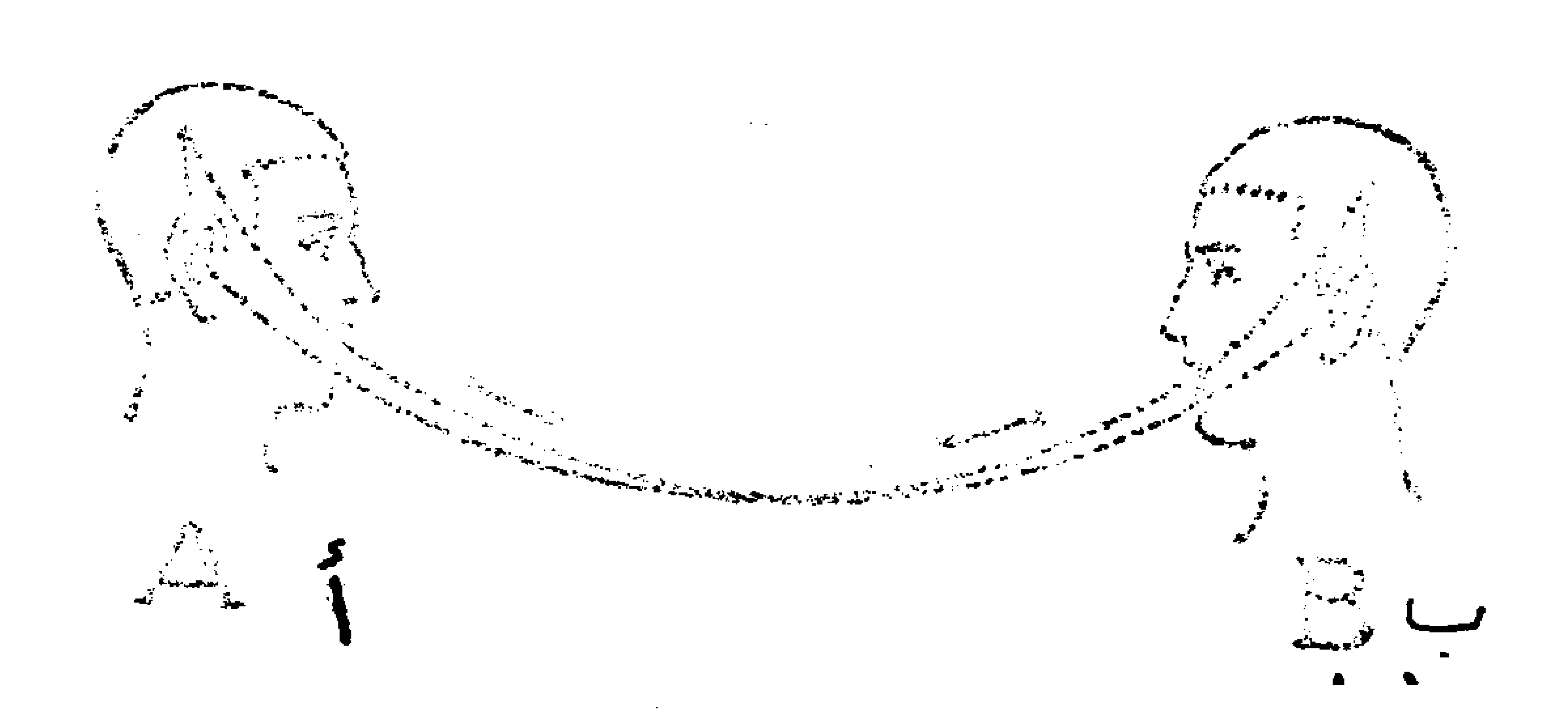
لقد اكتشف بروكا Broca ان ملكة الكلام تقع في الثلث الأيسر من الجزء الامامي من المخ، وقد استخدم هذا الاكتشاف لدعم الرأي الذي ينسب الصفة الطبيعية الى اللسان، ولكننا نعلم ان هذا الجزء من المخ نفسه، هو مركز كل شئ يختص باللسان بما في ذلك الكتابة. واذا اضفنا الى ما قلناه الاعراض التي لاحظها الاخصائيون في مرضى الابشيا (فقدان الكلام والقدرة على الفهم) الناتج غن الحاق الضرر بمراكز معينة من الدماغ، وجدنا ما يأتي: (١) ان الاضطرابات المختلفة في اللسان الشفوي ترتبط كثيرا باللسان المكتوب: (٢) ان ما يفقده الانسان في الابشيا او في الاكريفيا (فقدان القدرة على الكتابة) ليس بالدرجة الاولى، راجع إلى ملكة النطق بصوت معين، اوكتابة اشارة معينة بل القدرة

في استغلال وسيلة ما ـ مهما كانت هذه الوسيلة ـ للتعبير عن اشارات نظام محدد من انظمة اللسان، وهذا يعني ان قيام الاعضاء المختلفة بوظائفها يكمن وراءه ملكة عامة تتحكم بالاشارات، وهي الملكة اللغوية الحقيقية، وبذلك نتوصل الى النتيجة نفسها التي مر ذكرها آنفاً.

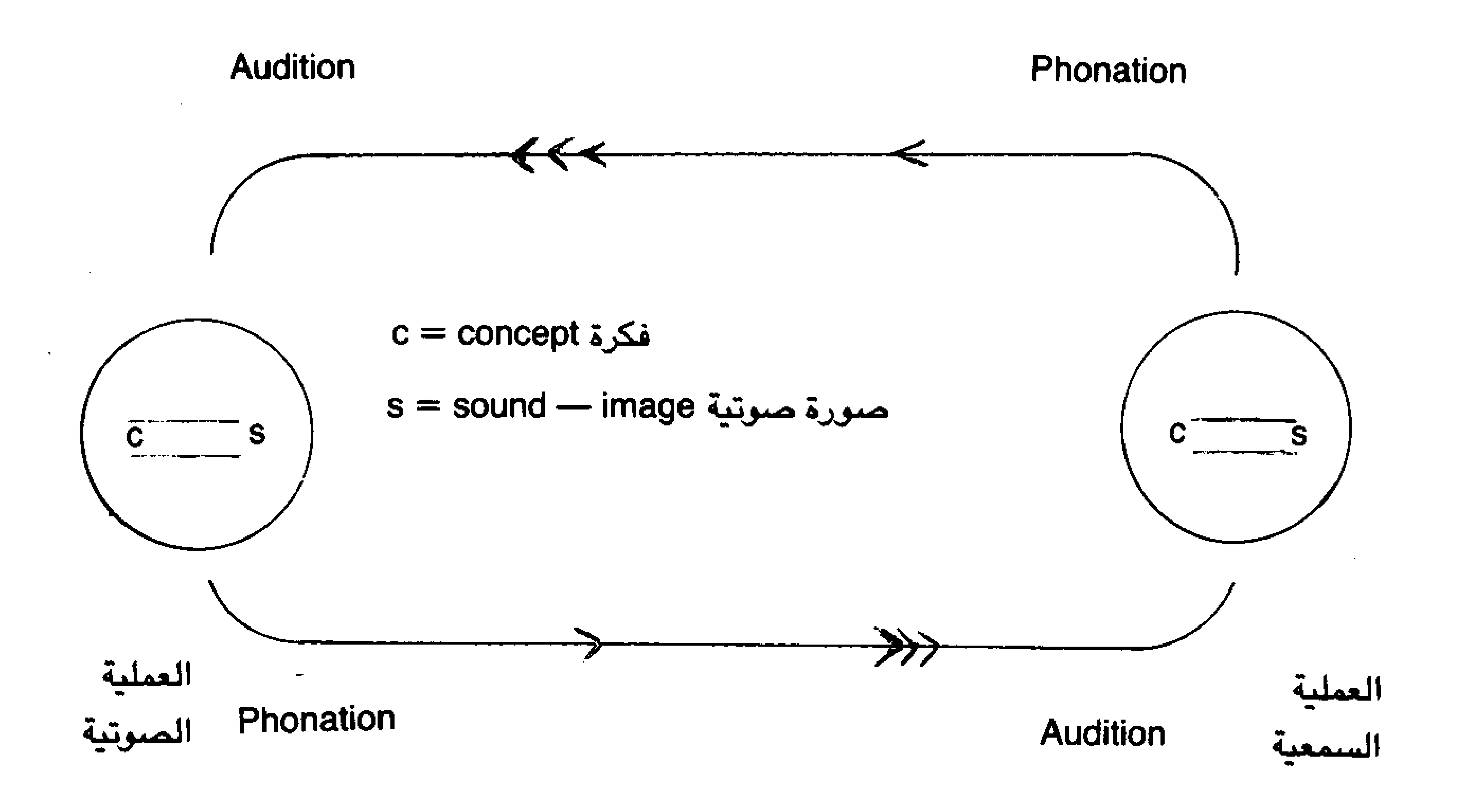
إن وضع اللغة في منزلة الصدارة في دراسة اللسان يساعدنا على مناقشة مسألة اخرى، هي الأخيرة في هذا الموضوع: وأقصد بذلك ملكة النطق بالكلمات سواء أكانت طبيعية ام لا ـ فممارسة هذه الملكة لا يكون الا بمساعدة الوسيلة التي تبدعها المجموعة وتضعها في خدمة هذه الملكة، اذن فالقول بأن اللغة تضفي كيانا موحدا على اللسان ليس بالشئ الغريب.

٢. موقع اللغة من حقائق اللسان:

إذا اردنا ان نفصل من مجموعة العناصر التي تؤلف اللسان، تلك التي تعود الى اللغة وجب علينا ان نفحص الفعل الفردي الذي يمكن ان يستخدم في إعادة بناء الدائرة الكلامية، فمثل هذا الفعل يحتاج الى وجود شخصين في الأقل: وهذا أقل عدد؛ يقتضيه اكتمال الدائرة، لنفرض ان شخصين أ و ب يتحدثان الى بعضهما:



ولنفرض أنّ بداية الدائرة هي في دماغ (أ) حيث ترتبط الحقائق الفكرية (الافكار) بما يمثلها من الأصوات اللغوية (الصور الصوتية) التي تستخدم للتعبير عن هذه الأفكار. فالفكرة المعينة تثير الصورة الصوتية التي ترتبط بها: وهذه الظاهرة السايكولوجية تتبعها عملية فسلجية: اذ يرسل الدماغ اشارة مناسبة للصورة الى الاعضاء المستعملة لانتاج الاصوات فتنتقل الموجات الصوتية من فم الشخص (أ) الى اذن الشخص (ب) وهذه عملية فيزياوية محضة، ثم تستمر الدائرة عند الشخص ب، ولكن باسلوب معكوس اذ تسير الاشارة من الاذن الى الدماغ، وهو ارسال فسلجي للصورة الصوتية: ويتم في الدماغ الربط السايكولوجي بين الصورة والفكرة، فاذا تكلم الشخص ب، بدأ فعل جديد من دماغه الى دماغ الشخص (أ) - متبعا خط السير نفسه الذي سار فيه الفعل الاول ومارا بالمراحل نفسها. وساوضح هذه العملية بالرسم الآتي: -



إن هذا التحليل ليس كاملا، إذْ يمكن ان نشـير أيضا الى الاحسـاس الصوتي المحض ، وارتباط هذا الاحساس بالصورة الصوتية الخامدة، والصورة العضلية للعملية الصوتية، وغير ذلك. لقد اقتصر التحليل الذي قمت به على العناصر التي تُعدّ اساسية، لكنَّ نظرة سريعة الى الصورة تبين لنا الفرق بين العناصر الفيزياوية (الموجات الصوتية) والعناصر الفسلجية (العمحية الصوتية والعملية السمعية) والعناصر السـايكولوجيـة (صور الكلمات والافكار)، بل ينبغي ان نذكر ان صور الكلمات تتميز عن الصوت نفسه، وان هذه الصور انما هي سايكولوجية، كما ان الافكار التي ترتبط بها سايكولوجية.

ويمكن تقسيم الدائرة التي رسمتها، فيما تقدّم، على أجزاء أخرى هي:

أ) جزء خارجي يضم الرنات الصوتية التي تسير من الفم الى الأذن، وجزء داخلي يضم الأمور الأخرى.

ب) جـزء سايكـولوجي وآخر غـير سايكـولوجي، ويضم الجزء الثـاني الأعمال الفسلجية التي تقوم بها الاعضاء الصوتية، كما يضم الحقائق الفيزياوية الواقعة خارج الفرد.

ج) جزء ايجابي فعّال، وآخر سلبي فعّال، فكل شيٌ ينتقل من مركز الارتباط للمتكلم الى اذن السامع هو ايجابي فعال، وكل شيٌ ينتقل من اذن السامع الى مركز الارتباط عنده، هو سالب، غير فعّال.

د) واخيرا تقوم كلُّ الأشياء الفعالة في الجزء السايكولوجي من الدائـرة، بدور التنفيذ

(C — s) وكل الأشياء غير الفعالة تقوم بدور الاستقبال (S — c). كما ينبغي أن نذكر ملكة الارتباط والتنسيق التي نصادفها بعد الانتقال من الارشادات المفردة. إن هذه الملكة لها دور اساسي في ترتيب اللغة بهيئة نظام.

ولكن اذا اردنا أن نفهم بوضوح دور ملكة الارتباط والتنسيق، علينا ان ننتقل من العمل الفردي الذي هو بمثابة الجنين بالنسبة للسان، ونتناول الحقيقة الاجتماعية.

ان الافـراد، الذين تربـط بينهم رابطة اللسـان، يتخذون لانفسهم نـوعـا من القياس ـ فهؤلاء الافراد جميعهم يستخدمون دائما الاشارات نفسها التي تدل على الافكار نفسها تقريبا ـ فكيف تتبلور اللغة اجتماعيا على هذا النحو؟ وما أجزاء الدائرة التي تدخل في عملية التبلور الاجتماعي هذه؟ ان جميع الاجزاء قد لا تـدخل في هـذه العملية بصورة متساوية.

فالجزء غير السايكولوجي يمكن إهماله منذ البداية، فعندما نسمع اناسا يتكلمون لغة لا نفهمها، فاننا نسمع الاصوات، ولكننا نبقى خارج العنصر الاجتماعي لاننا لا نفهم هؤلاء الناس.

كما ان الجزء السايكولوجي للدائرة لا يشترك باكمله: فالجانب التنفيذي لا وجود له. فالمجموع لا يقوم أبداً بعملية التنفيذ، لان عملية التنفيذ يقوم بها الفرد، وحده، وهو سيد هذه العملية.

وسأطلق على الجانب التنفيذي الكلام (parole).

تقوم ملكة الاستقبال وملكة التنسيق بوظائفهما، فينتج عن ذلك صور او انطباعات ذهنية واحدة، لأن جميعها تحدث في عقول المتكلمين، فكيف يمكن ان يصور هذا النتاج الاجتماعي بأسلوب، تظهر معه اللغة مستقلّة منفصلة عن أي شيٌ اخر؟ لو استطعنا ان نحصل على جميع صور الكلمات المخزونة في عقول جميع الافراد، لاستطعنا ان نميز الجزء الاجتماعي الذي يؤلف اللغة، فهو مخزن يملؤه افراد مجتمع معين، عن طريق الاستخدام الفعّال للكلام، وهو نظام نحويٌّ، له وجود خامد في دماغ كل فرد: أو باسلوب أدق في ادمغة مجموعة من الأفراد، فاللغة غير كاملة في الفرد، بل يكمل وجودها في المجموعة.

ان الفصل بين اللغة والكلام يعني أيضا الفصل (١) بين ما هو اجتماعي وما هو فردي،

(٢) الفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوي وعرضي الى درجة ما.

فاللغة ليست وظيفة الفرد، بل هي نتاج يهضمه الفرد بصورة سلبية، ولا تحتاج الى تأمل سابق: ويدخل التفكير فيها من اال التصنيف فقط، وسنتناول هذه المسألة فيما بعد.

أما الكلام، فعلى العكس من ذلك، فعل فردي، وهو عقلي مقصود. وينبغي ان نميز ضمن هذا الفعل بين (١) الارتباطات التي يستخدمها المتكلم حين يستعمل اللغة (الشفرة اللغوية) للتعبير عن فكرة، (٢) والعملية السايكوفيزياوية التي تساعد الفرد على اظهار هذه الارتباطات بمظهرها الخارجي.

ويلاحظ أنني عرّفتُ الأشياء لا الكلمات، ولا يعيب هذه التعريفات أنهّا قد صيغت باستخدام بعض الكلمات الغامضة، التي ليس لها معنى واحد في اللغات المختلفة. فعلى سبيل المثال الكلمة الالمانية Sprache تعني اللغة كما تعني الكلام، وكلمة Rede تعني «الكلام»؛ واللفظة اللاتينية sermo تدل على اللسان وعلى الكلام: في حين تعني Lingua اللغة، الى غير ذلك. فلا توجد كلمة واحدة تدل على معنى واحد من المعاني التي ذكرت. وهذا

يجعل التعريفات عديمة الجدوى. فاستخدام الكلمات من أجل تحديد الاشياء أسلوب غير صحيح.»

ويمكن ان نلخص مميزات اللغة بما يأتي:

١) اللغة شئ محدد تحديدا واضحا، ضمن الكتلة غير المتجانسة لعناصر اللسان، ويمكن تحديد موقعها في الجزء المحدد لدائرة الكلام في المكان الذي ترتبط فيه الصورة السمعية بالفكرة، فهي الجانب الاجتماعي للسان، تقع خارج الفرد الذي لا يستطيع ابدا ان يخلقها او يحورها بمفرده، فلا وجود للغة الا بنوع من الاتفاق يتوصل اليه اعضاء مجتمع معين، وعلى الفرد ان يقضي فترة معينة يتعلم فيها وظيفة اللغة، فالطفل يدرك هذه الوظيفة بصورة تدريجية، واللغة شئ متميز جدا فاذا فقد المرء استخدام الكلام فانه يبقى محتفظاً بها اذا كان يستطيع فهم الاشارات الصوتية التي يسمعها.

٢) اللغة تختلف عن الكلام في أنها شئ يمكن دراسته بصورة مستقلة فاللغات البائدة (الميتة) مع انها لم تعد تستخدم في الكلام، نستطيع بسهولة ان نتعلم انظمتها اللغوية، فنتخلص من بقية عناصر اللسان الاخرى، بل ان علم اللغة لا وجود له الا اذا اقصيت العناصر الأخرى.

٣) اللسان غير متجانس، اما اللغة ـ حسب تعريفنا لها ـ فمتجانسة، فهي نظام من الاشارات جوهره الوحيد الربّط بين المعاني والصور الصوتية، وكلا طرفي الاشارة سايكولوجي.

٤) اللغة شئ ملموس، كما ان الكلام ملموس، وهذا صفة تساعدنا في دراسة اللغة. فالاشارات اللغوية ـ مع أنها سايكولوجية في جوهرها ـ ليست تجريدية والارتباطات التي تحمل الطابع الجماعي وموافقة المجموعة، التي من مجموعها تتألف اللغة، هي اشياء حقيقية لها وجود في الدماغ. ثم إن الاشارات اللغوية يمكن ادراكها بالحواس، حيث يمكن تحويلها الى رموز كتابية تقليدية، في حين يصعب علينا ان نقدم صورا لافعال الكلام (actes de paroles) فالنطق باصغر كلمة ينطوي على عدد لا يحصى من الحركات العضلية التي لا يمكن تمييزها وتحويلها الى هيئة صور الا بصعوبة كبيرة، أما في اللغة فلا نجد الا صورة صوتية واحدة يمكن ترجمتها الى صورة مرئية ثابتة، فاذا اهملنا العدد الكبير من الحركات الضرورية لتحقيق الصور الصوتية في الكلام، فاننا نرى ان كل صورة صوتية ما هي إلا المجموع الكلي لعدد محدود من العناصر او الفونيمات (الوحدات الصوتية) التي يمكن بدورها ان تمثل باستخدام عدد مشابه من الرموز الكتابية (الملحق،

الفصل الثاني). إن امكانية تحويل عناصر اللغة الى اشكال صورية تساعد المعاجم وكتب النحو على وصف اللغة بدقة، لان اللغة ذخيرة من الصور الصوتية، والكتابة هي هيئة هذه الصور التي تدرك بالحواس.

٣ ـ مكانة اللغة بين الحقائق البشرية: علم الاشارات (semiology)

ان المميزات اللغوية التي مر ذكرها تبين لنا صفة أخرى أكثر أهمية، وهي ان اللغة بعد أن تحدد معالغها من بين معطيات اللسان، يمكن ان تصنف بين الظواهر البشرية في حين لا يمكن تصنيف اللسان.

لقد رأينا ان اللغة نظام اجتماعي، وهنا تدخل في الحسبان امور اخرى عدا الانظمة السياسية والقانونية وغيرهما، اذ يجب علينا ان نستعين بصنف جديد من الحقائق لنلقي الضوء على الطبيعة الخاصة للغة.

فاللغة نظام من الاشارات System of signs التي تعبر عن الافكار، ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة، او الالفباء المستخدمة عند فاقدي السمع والنطق، او الطقوس الرمزية أو الصيغ المهذبة أو العلامات العسكرية أو غيرها من الأنظمة، ولكنه اهمها جميعا.

ويمكننا ان نتصور علما موضوعه دراسة حياة الاشارات في المجتمع؛ مثل هذا العلم يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي وهو بدوره جزء من علم النفس العام، وسأطلق عليه علم الاشارات semiology [٤] (وهي لفظة مشتقة من الكلمة الاغريقية semeion = الاشارة). ويوضح علم الاشارات ماهية مقومات الاشارات، وماهية القواعد التي تتحكم فيها. ولما كان هذا العلم لم يظهر الى الوجود الى حد الآن، لم يمكن التهكن بطبيعته وماهيته، ولكن له حق الظهور الى الوجود، فعلم اللغة هو جزء من علم الاشارات العام: والقواعد التي يكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللغة، ويحتل العلم الأخير مكانة محددة بين كتلة الحقائق الانثروبولوجية.

وتقع على علماء النفس مسؤولية تحديد الموضع الدقيق لعلم الاشارات[٥] اما واجب اللغوي فهو البحث عما يجعل من اللغة نظاما خاصا متميزا بين كتلة معطيات علم

---

(٤) ينبغي ان نميز بين علم الاشارات وعلم الدلالة (سمانتيكس) semantics الذي يدرس التغيير في المعاني، ولكن سوسور لم يدرس هذا العلم الأخير بصورة منتظمة (بالي).

(٥) لقد بحث جارس مورس Chries Morris مجال علم الاشارات بحثاً تفصيلياً في كتابه Signs, Language and Bahavior (الاشارات واللغة والسلوك) نشرته دار Prentice — Hall بنيويورك ١٩٤٦ (باسكن).

الاشارات، وستبحث هذه المسألة فيما بعد: أما الآن فاريد أن أؤكد امراً واحداً، حسب: وهو ان كنت قد نجحت في تحديد موضع معين لعلم اللغة بين العلوم الاخرى، فان الفضل في ذلك يعود الى أنني قد ربطت هذا العلم بعلم الاشارات.

لماذا لم يعترف الباحثون حتى الآن بعلم الاشارات على انه علم مستقل بذاته له هدفه الخاص كبقية العلوم؟ لقد سار علماء اللغة في دوائر، ان اللغة خير ما يقدم اساسا لفهم علم الاشارات، ولكن اللغة ينبغي ان تدرس بصورة مستقلة: فقد درست حتى الان بالارتباط مع أمور أخرى، ومن وجهات نظر العلوم الأخرى.

يواجه الباحث في باديء الامر نظرة سطحية منتشرة بين الناس مفادها ان اللغة ليست سوى أداة (أو نظام) لتسمية الأشياء، لذا تحرم هذه النظرة اجراء بحوث في طبيعة اللغة الحقيقية.

ثم نجد وجهة نظر العالم النفسي، الذي يدرس نظام الاشارات في الفرد وهذا اسلوب سهل ولكنه لا يخرج خارج نطاق الفرد ولا يصل الى الاشارة، التي هي ذات طبيعة اجتماعية.

وحتى حين تدرس الاشارات من وجهة نظر اجتماعية لا يؤكد الباحث الا الجوانب التي تربط اللغة بالانظمة الاجتماعية الأخرى، وهي جوانب اختيارية الى حد ما. ويؤدي هذا الأسلوب الى تجاوز الهدف وإهمال خصائص علم الاشارات عامة وخصائص اللغة خاصة، لان من ابرز مميزات الاشارة ـ وان كانت هذه الميزة غير ظاهرة لاول وهلة ـ أنها بعيدة المنال بالنسبة للارادة الفردية والاجتماعية.

وملخص القول أن الصفة التي تميز نظام الاشارات عن الانظمة الاخرى لا تظهر بوضوح الا في اللغة، حيث تبرز في أمور قلما يدرسها الباحث، اذن تبقى اهمية علم الاشارات او قيمته الحقيقية غير واضحة عند الناس، انني ارى ان مسالة اللغة هي في جوهرها مسألة علم الاشارات: وجميع تطورات المسألة تستقي اهميتها من هذه الحقيقة الاساسية. فاذا اردنا ان ندرك الطبيعة الحقيقة للغة فعلينا أن نفهم ارتباطها بالانظمة الاخرى للاشارات. إن العناصر اللغوية التي تبدو مهمة جدا للوهلة الاولى (كدور الجهاز الصوتي مثلا) تغدو ثانوية اذا كانت لا تخدم غرضا سوى الفصل بين اللغة والانظمة الاخرى للاشارات. فهذا الاسلوب مفيد جدا في توضيح المسألة اللغوية. إن دراسة

الطقوس والعادات والتقاليد وغيرها بوصفها اشارات تساعدنا ـ على ما اعتقد ـ على القاء ضوء جديد علـى هذه الحقـائق وابراز الحـاجة الى ضم هـذه الامور الى عحم الإشارات، وتفسيرها طبقا لقواعده.

الفصل الرابع
علم اللغة وعلم لغة الكلام

حين حددت موضع العلم الذي يدرس اللغة ضمن الدراسة العامة للسان، حاولت أن أضع الخطوط العريضة لعلم اللغة بأجمعه، فجميع العناصر الاخرى للسان ـ كتلك التي يتألف منها الكلام ـ تخضع خضوعاً كاملاً للعلم الأول، وبفضل ذلك يأخذ جميع اجزاء علم اللغة مكانته الطبيعية.

لنأخذ مثلا عملية النطق بالأصوات وهي ضرورة للكلام. ان اعضاء النطق تقع خارج اللغة (أي لا صلة لها باللغة) كما ان الاجهزة الكهربائية المستخدمة في ارسال شفرة مورس تقع خارج الشفـرة نفسها، (فهـذه الاجهزة ليست جـزءاً من الشفرة) والعملية الصوتية اي انتاج الصور الصوتية لا تؤثر، في أي حال من الاحوال، في النظام نفسه. ويمكن تشبيه اللغة بالسمفونية من حيث ان السمفونية منفصلة تماما عن طريقة الاداء، فالاخطاء التي يرتكبها الموسيقار في اثناء تأدية السمفونية تدعم هذه الحقيقة.

وربما يعترض احدهم على الفصل بين العملية الصوتية واللغة بدليل التغييرات الصوتية أي التغييرات التي تحدث في الأصوات في أثناء الكـلام ولها تـأثير عميق في مستقبل اللغة نفسها. هل يحق لنا ان نزعم أن اللغة يمكن ان يكون لها كيان مستقل عن التغييرات الصوتية؟ الجواب نعم. فالتغييرات الصوتية لا تؤثر الا في المادة التي تتألف منها الكلمات، واذا أثرت في اللغة من حيث أنها نظام للاشارات، فان هذا التأثير غير مباشر، يأتي من خلال التغييرات في التفسيرات التي تعقب ذلك، وليس في هذه الظاهرة شئ صوتي. ان تحديد اسباب التغييرات الصوتية قد يثـير اهتمام البعض، ودراسـة الاصوات تساعد في هذه المسألة: ولكن هذه الامور جميعها ليست جوهرية، فكل ما نحتاج اليه، في العلم الذي يدرس اللغة، هو أن نلاحظ تغيير الأصوات، ونحسب الآثار الناتجة عن ذلك.

ويصحّ ما قلته عن العملية الصوتية في جميع الأجزاء الاخرى للكلام، ان فعالية المتكلم ينبغي ان تدرس ضمن عدد من الموضوعات (اوحقول المعرفة) التي لا مكان لها في علم اللغة سوى انها ذات صلة باللغة.

اذن فدراسة اللسان تتكون من جانبين: الجانب الاساسي وهو الذي هدفه اللغة وهو اجتماعي محض مستقل عن الفرد ـ وهذا الجانب سايكولوجي في جميع صفاته.

والجانب الفرعي (الثانوي) وهدفه الجزء الفردي من اللسان ـ اي الكلام بما في ذلك العملية الصوتية. والجانب الفرعي هذا سايكوفيزياوي.

مما لاشك فيه ان الهدفين يرتبطان بعضهما ببعض ارتباطاً وثيقا، ويعتمد احدهما على الآخر، فاللغة ضرورة اذا اريد للكلام ان يكون مفهومه يحقق الغاية المتوخاة منه، ثم

ان الكلام ضرورة لتثبيت أركان اللغة، والكلام يأتي أولا من الناحية التاريخية، اذ كيف يمكن للمتكلم ان يربط فكرة ما بصورة للكلمة، إذا لم يكن قد وجد مثل هذا الربط في احد أفعال الكلام؟ كما اننا نتعلم لغتنا بالاصغاء الى غيرنا. فاللغة لا تستقر في الدماغ إلا بعد عدد لا يحصى من الخبرات، واخيرا يكون الكلام هو السبب في تطور اللغة: فالانطباعات التي نحصل عليها من الاصغاء الى الآخرين تتجمع فتؤدي الى تحوير السلوك اللغوي عندنا. فاللغة والكلام إذن يعتمد أحدهما على الآخر، مع ان اللغة هي أداة الكلام وحصيلته، ولكن اعتماد احدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميزين تماما.

اللغة موجودة على هيئة ذخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع معين: ويكاد ذلك يشبه المعجم الذي توزع منه نسخ على كل فرد في المجتمع فاللغة لها وجود في كل فرد، ومع ذلك فهي موجودة عند المجموع، وهي لا تتأثر برغبة الأفراد الذين تخزن عندهم، ويمكن التعبير عن اسلوب وجودها بالصيغة الحسابية الاتية:

١ + ١ + ١ + ١ ... = (النمط الجماعي).

ما الدور الذي يقوم به الكلام في المجتمع المار ذكره آنفاً؟ الكلام مجموع ما يقوله الناس ويضم: (أ) الفعاليات الفردية التي تعتمد على رغبة المتكلم، (ب) الافعال الصوتية التي تعتمد أيضا على ارادة المتكلم، وهذه الافعال، لابد منها، لتحقيق الفعاليات المذكورة في (أ).

الكلام، اذن، ليس وسيلة جماعية، بل مظاهر فردية قصيرة الزمن، فلا نحصل في الكلام الا على مجموعة الافعال المعينة، كما في الصيغة الآتية:

(١ + ١ + ١ + ١ ...).

كل هذه الأسباب تحملنا على القول ان النظر الى اللغة والكلام من وجهة نظر واحدة امر بعيد عن الحقيقة، وعلى العموم لا تمكن دراسة الكلام، لانه غير متجانس، ولكن التمييز الذي اقترحناه واخضاع احدهما للآخر يوضّحان هذه المسألة.

وهكذا نصادف هذا التفرع لدى محاولتنا صياغة نظرية للسان، وعلينا ان نختار بين طريقين، لا يمكن أن نسير في كليهما، في آن واحد: بل علينا ان نفصل بينهما عند السير.

ويستطيع المرء اذا اقتضت الضرورة ان يطلق لفظة علم اللغة على كل من الفرعين المذكورين اعلاه فنقول علم لغة الكلام. ولكن ينبغي ان نفصل بين علم لغة الكلام وعلم اللغة الحقيقي، الذي يهدف الى دراسة اللغة.

سيكون موضوع اهتمامي علم اللغة فقط (دون علم لغة الكلام) واذا استخدمت مادة تدخل في موضوع الكلام من أجل توضيح مسألة ما، فسأحاول ان ابقي على الخطوط التي تميز بين هذين الفرعين.

الفصل الخامس
العناصر الداخلية والخارجية للغة

ان التعريف الذي قدمته للغة ينـطوي على ابعـاد كل شيْ يقـع خارج كيـانها و نظامها ـ او بعبارة اخرى كـل ما يعـرف «بعلم اللغة الخـارجي». بيد ان علم اللغـة الخارجي يتناول اشياء مهمة كثيرة وهي الاشياء التي تخطر على بالنا حين نبدأ بدراسة اللسان.

وتأتي، في مقدمة هذه الاشياء، جميع المسائل، التي تقع على الخط الذي يفصل علم اللغة عن علم السلالات البشرية ـ جميع العلاقات التي تربط تاريخ لغة ما بتاريخ قوم من الأقوام، أو حضارة من الحضارات، والرابطة القوية بين اللغة. ودراسة الاجناس البشرية تذكر الباحث بالروابط التي توصل بين الظواهر اللغوية الحقيقية، فثقافة أمّة ما تؤثر تأثيرا ملموسا في لغتها، كما أنَّ اللغة من المقومات المهمة للامة.

ثم تأتي العلاقة بين اللغة والتاريخ السياسي، فالحوادث التاريخية العظيمة، كالغزو النورمندي، له أثر كبير في عدد لا يحصى من الحقائق اللغوية. والاستيطان ـ وهو جانب من جوانب الغزو ـ يؤدي الى تغيير في اللغة، نظرا لنقل اللغة الى بيئات تختلف عن البيئة الاولى لها. ويستطيع المرء ان يأتي ببراهين كثيرة لدعم مـاقلناه، فعـلى سبيل المثـال، استخدمت النرويج اللغة الدانماركية عندما اتحدت سياسيـا مع الدانمـارك: ويحاول النرويجيون اليوم التخلص من هذا التأثير اللغوي.[٦] والسياسات الداخلية للدول لا تقل اهمية لحياة اللغات، فبعض الحكومات (كالحكومة السويسرية) تسمح باستخدام عدد من اللغات، وبعض الحكومات (كالحكومة الفرنسية) تـدعو الى الوحـدة اللغويـة. ان المراحل المتقدمة من الحضارة تحبذ قيام عدد من اللغات الخاصة (كاللغة القانـونية، والاساليب العلمية وغيرها).

ناتي الان الى النقطة الثالثة: العلاقات بـين اللغة وجميـع الأنظمـة الأخرى او المؤسسات الاخرى (كالكنيسة، والمدرسة وغيرهما). ان جميع هذه المؤسسات لها صلة وثيقة بالتطور الادبي للغة ـ وهذه ظاهرة يصعب فصلها عن التاريخ السياسي. فاللغة الادبية تتجاوز دائمـا الحدود التي يصنعهـا الادب. فما علينـا الان ننظر الى تـأثير «الصالونات» والبلاط والمجاميع اللغوية القومية. ثم إن اللغة الادبية تثير مسألة مهمة،

---

(٦) انفصلت النرويج عن الدانمارك سياسياً عام ١٨١٤ وكانت قد اتحدت معها عام ١٣٩٧. وهي اليوم تتكلم لغتها الخاصة، التي هي فرع من اللغات الاسكندنافية، الجرمانية (المترجم).

وهي الصراع بين هذه اللغة واللهجات المحلية. فعلى اللغوي أن يدرس العلاقات المتبادلة بين لغة الكتاب واللهجة المستخدمة في لغة الكلام: لأن اللغة الادبية انما هي نتاج الثقافة، فهي لابد ان تبتعد في النهاية عن محيطها الطبيعي، لغة الكلام.

وأخيرا إن كل شئ يختص بالانتشار الجغرافي للغات، والى تفرع اللهجات، انما يقع خارج علم اللغة. ان التمييز بين علم اللغة الداخلي والخارجي يبدو من الأمور المتناقضة هنا، طالما ان الظاهرة الجغرافية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمقومات وجود اللغة. ولكن الانتشار الجغرافي وتفرع اللهجات لا يؤثران في النظام الداخلي للغة.

لقد زعم البعض ان المسائل التي مر ذكرها،آنفاً، لا يمكن ان تفصل عن الدراسة الحقيقة للغة. وقد سادت هذه النظرة بصورة خاصة، بعد ظهور التأكيد الشديد على جميع حقائق الحياة (Realia) (٧).

ألا يعتمد النظام النحوي دائما على العوامل الخارجية للتغيير النحوي كما يتغير النظام الداخلي للنبات بتأثير العوامل الخارجية (كالتربة والمناخ وغيرهما)؟ وقد يبدو اننا لا نستطيع أن نفسر تفسيرا مقنعا الاصطلاحات التقنية والمفردات المستعارة، التي تكثر في اللغات من غير ان نأخذ بنظر الاعتبار تطور هذه الكلمات. فهل نستطيع أن نميز النمو الطبيعي العضوي للغة من اللغات عن اشكالها المصطنعة كاللغة الأدبية، التي هي نتاج العوامل الخارجية غير العضوية؟ فاللغات المألوفة تتطور دائما جنبا الى جنب مع اللهجات المحلية.

أعتقد أن دراسة الظواهر اللغوية الخارجية مفيدة جدا: ولكن القول اننا لا نستطيع فهم النظام اللغوي الداخلي من غير دراسة الظواهر الخارجية انما هو كلام بعيد عن الحقيقة، لنأخذ مثلا استعارة الكلمات من لغة اجنبية. نلاحظ، منذ الوهلة الاولى، أن الاستعارة هذه ليست عاملا ثابتا في حياة لغة من اللغات. إذ نجد في بعض الوديان المعزولة لهجات لم تأخذ لفظة غريبة واحدة من اللغات الأخرى. هل نقول ان مثل هذه اللغات تقع خارج الظروف الطبيعية للسان وهي تحتاج الى دراسة خاصة «كدراسة الوحوش الغريبة» لانها لم تمتزج بغيرها؟ والأهم من ذلك أن الكلمة المستعارة لا تُعدّ غريبة حالما تدرس ضمن نظام معين: فمثل هذه الكلمة لا وجود لها الا ضمن علاقتها وتقابلها مع الكلمات الاخرى المتصلة بها، شأنها شأن أية اشارة حقيقية. وعلى العموم يمكن الاستغناء عن معرفة الظروف، التي تساهم في تطور اللغة، بل ان في حالة بعض اللغات ـ مثل الزندية والسلافية القديمة ـ لا تعرف هوية المتكلمين الأوائل بها: ولكن

---

(٧) كلمة المانية أصلها Realien وتعني الاشارة الى جميع حقائق الحياة من شكل وأبعاد وغير ذلك مما يتعلق بالاشياء والأمور وغيرهما. وقد ظهرت كتب كثيرة في الألمانية بعنوان Reallexicon (باسكن).

عدم توفر مثل هذه المعرفة لا يمكن في اي حال من الاحوال أن يعيق دراسة هذه اللغات دراسة داخلية واكتشاف التغييرات التي حدثت لها. وعلى كل حال يكون الفصل بين وجهتي النظر اللتين ذُكرتا ضرورة: وكلما كان الفصل صارما كان ذلك أفضل.

وأفضل برهان على الحاجة الى الفصل بين وجهتي النظر هو ان كل واحدة منهما تتطلب أسلوبا متميزا في البحث. فعلم اللغة الخارجي يستطيع ان يجمع بين تفصيل وآخر من غير ان يقع في قبضة النظام. فيقوم كل كاتب، على سبيل المثال، بتصنيف الحقائق الى مجموعات بالطريقة التي يراها مناسبة ـ اي الحقائق التي تتعلق بانتشار اللغة خارج بيئتها. واذا اراد ان يبحث عن العوامل التي تخلق اللغة الادبية فباستطاعته ان يستخدم اسلوب التعداد. واذا رتب الحقائق باسلوب منظم الى حد ما، فانما يفعل ذلك من اجل الوضوح ليس إلا.

اما في علم اللغة الداخلي فأن الامر يختلف تماما، فالتنظيم العشوائي لا يفيد في هذا العلم. لان اللغة نظام له ترتيب خاص به. ويمكن توضيح ذلك بتشبيه النظام اللغوي بالشطرنج فما هو خارجي في الشطرنج يمكن فصله بسهولة عما هو داخلي. فاذا استخدمنا اجزاء من الشطرنج مصنوعة من العاج بدلا من الخشب فان هذا التغيير لا أثر له في نظام الشطرنج. اما اذا قللنا من اجزاء الشطرنج او اضفنا اليها فأن هذا التغيير له اثر كبير في اللعبة. اذن ينبغي للمرء ان يميز بين ما هو خارجي وما هو داخلي. ويستطيع المرء في كل حالة ان يحدد طبيعة الظاهرة باستخدام هذه القاعدة، فكل شئ يحدث تغييرا في النظام بأي أسلوب كان انما هو داخلي.

الفصل السادس
الصورة الكتابية للغة

١ - الحاجة الى دراسة الموضوع:

إن الهدف الملموس لعلم اللغة هو النتاج الاجتماعي المخزون في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع ما: ونقصد بذلك اللغة. ولكن هذا النتاج يختلف باختلاف المجموعات اللغوية: إذ علينا ان ندرس لغات وليس لغة واحدة. لذا يضطر اللغوي إلى ان يلم باكبر عدد ممكن من اللغات، كي يحدد العناصر العامة المشتركة بينها، ويكون ذلك عن طريق الملاحظة والمقارنة.

ولكننا نتعلم عن اللغات، عادة، من خلال الكتابة (النصوص المكتوبة). فحتى في دراسة لغتنا كثيرا ما نستخدم النصوص المكتوبة. وتزداد الحاجة الى استخدام الأدلة المكتوبة عند دراسة اللغات البعيدة عنا. ولا سيما اللغات التي لم يَعُدْ أحد يتكلم بها (اللغات البائدة). ولو فعل الناس دائما مايفعلونه في باريس وفينا لتوفرت لدينا نصوص مباشرة في دراسة كل لغة من اللغات. اذ يقوم الباحثون في هاتين المدينتين بتسجيل نماذج من جميع اللغات. ومع ذلك لا يمكن توفير النماذج المكتوبة للمهتمين بالموضوع الا عن طريق الكتابة.

فالكتابة - مع انها لا تمت بصلة الى النظام الداخلي للغة - تستخدم كثيرا لتمثيل اللغة او التعبير عنها. اذن لايمكن اهمال الكتابة، بل يجب ان نلم بفوائدها وعيوبها ومخاطرها.

٢ - تاثير الكتابة : أسباب تقديمها وفق الشكل المنطوق :

اللغة والكتابة نظامان متميزان من الاشارات. والهدف الوحيد الذي يُسوّغ وجود الكتابة، هو التعبير عن اللغة. ولكن الهدف لعلم اللغة ليس الصورة المكتوبة والصورة المنطوقة للكلمات. بل يقتصر هذا الهدف على الاشكال المنطوقة. بيد ان الشكل المنطوق يرتبط ارتباطا وثيقا بالصورة المكتوبة حتى ان الصورة الاخيرة تطغىٰ على الصورة الاولى (الكلمة المنطوقة). فيهتم الناس بالصورة المكتوبة للاشارة الصوتية أكثر من اهتمامهم بالأشارة نفسها. وشبيه هذا الخطأ اعتقادنا اننا نستطيع ان نعرف عن الشخص من صورته اكثر من النظر اليه مباشرة.

ان هذا الوهم، الذي وجد منذ اقدم الازمنة، ينعكس في الآراء، التي كثيرا ما

نسمعها الآن عن موضوع اللغة. ولنأخذ الرأي القائل ان اللغة اسرع الى التغيير اذا لم تكن لها صورة مكتوبة. لا يوجد ما هو ابعد عن الحقيقة من هذا الرأي. قد تؤخر الكتابة عملية التغيير في ظروف معينة. ولكن عدم وجود الكتابة لا يعرض، في اية حال من الاحوال، صيانة اللغة لخطر ما. ان اقدم النصوص المكتوبة في اللغة اللتوانية ـ التي مـا تزال مستخدمة في شرقي بروسيا وفي اقسام من روسيا ـ يعود تاريخها الى عام ١٥٤٠ م. ولكن اللغة اللتوانية حتى في ذلك التاريخ تقدم لنا صورة صادقة للغة الهندية الاوربية الأولى اكثر من الصورة التي تقدمها لنا اللغة اللاتينية في عام ٣٠٠ ق م. وهذا المثال يكفي لبيان مدى استقلال اللغة عن الكتابة.

لقد بقيت بعض الحقائق اللغوية الطفيفة من دون مساعدة أي تدوين لها. فكان النـاس طوال فتـرة اللغـة الالمـانيـة القـديمـة العليـا Old high German يكتبـون toten و fuolen و stözen. ونجد كلمتي töten و füelen تظهران في نهاية القرن الثاني عشر، في حين اختفت كلمة stozen. من اين اتىٰ هذا الفرق (في الصوتين ü,ö)؟ اينمـا حدثت الإمالة umlaut يتبعها دائما الصوت y في المقطع الذي يليها. فكانت اللغات الجرمانيـة الاولى تستخدم daupyan و folyan في حين استخدمت stautan. وفي بداية الفترة الادبية (نحو عام ٨٠٠ م) اصبح الصوت y ضعيفا حتى اختفى اثره من الكتابة طوال ثلاثة قرون. ولكن بقي له اثر طفيف في الشكل المنطوق وهو السبب الذي جعل هذا الصوت يعود الى الظهور بصورة عجيبة في نحو عام ١١٨٠. وهكذا انتقلت التغييرات في اللفظ، حتىٰ الطفيفة منها، انتقالا دقيقا. من دون مساعدة الكتابة، من جيل إلى آخر.

فاللغة إذن لها تقليد شفهي ثابت محدد مستقل عن الكتابة. ولكن تأثير الكتابة يحجب عنا رؤية ذلك. وهكذا خلط اللغويون الاوائل بين اللغة والكتابة، كما فعل علماء الانسانيات قبلهم. بل ان بوب نفسه لم يميز بوضوح بين الحروف والاصوات. اذ يستنتج القارئ من كتاباته أن اللغة لا يمكن فصلها عن الحروف التي تكتب بها. ووقع في هذا الخطأ ايضا من جاء بعده مباشرة. فالرمز الكتابي the (للصوت الاحتكاكي b) جعل كريم يعتقد ان th صوت مضاعف، وانه تنفيس من اصوات الغلق، وطبقا لذلك خصص لهذا الصوت مكانا في قانونه الذي يخص تغيير الاصوات الصحيحة او الصامتة consonants والموسوم بـ Lautverschiebung. وما يزال المثقفون، حتى يومنا هذا، لا يميزون بين اللغة والكتابة. لنأخذ مثلا واحدا فقط: لقد قال كاستـون دي شامب Gaston Deschamps ان الفضل يعود الى بيرثيلو Berthelot في «صيانة اللغة الفرنسية من الخراب» لانه عارض اصلاح طريقة كتابتها.

ولكن كيف يمكن ان نوضح أثر الكتابة؟

١ ـ تبدو لنا الصورة الكتابية وكأنها شئ ثابت مستقر، وهي بذلك أنسب من الصوت

لتفسير وحدة اللغة خلال العصور. ومع ان الكتابة تخلق وحدة وهمية، فإن إدراك اواصرها اسهل علينا من ادراك آصرة الصوت، وهي الآصرة الحقيقية الوحيدة.

٢ ـ اغلب الناس يتنبّهون الى الصور المرئية اكثر من تنبههم الى الصور الصوتية وسبب ذلك ان الانطباعات الاولى اوضح واكثر ثباتا من الانطباعات السمعية: وهي بذلك تحتل مكانة مفضلة على الانطباعات الاخيرة: فالشكل الكتابي يحدث انطباعا لدى الناس على حساب الشكل الصوتي.

٣ ـ ومما يزيد من هذه الاهمية التي لا تستحقها الكتابة هي اللغة الادبية التي كتبت بها المعاجم وكتب النحو. ويتعلم الاطفال في المدارس من الكتب وعن طريقها. ويتحكم في اللغة نظام معين: والنظام نفسه يتألف من قواعد معينة للاستعمال، اي نظام الكتابة. ولذلك تكتسب الكتابة الاهمية الاولى. وينسى الناس انهم يتعلمون الكلام قبل تعلمهم الكتابة، فينعكس التسلسل الطبيعي.

٤ ـ واخيراً اذا وجد خلاف بين اللغة ونظام الكتابة، صعب حسم هذا الخلاف الاعلى اللغوي. ولما كان اللغوي لا يملك اية صلاحية في هذه المسألة فأن النزاع يكاد يحسم دائما في صالح الكتابة ـ او الشكل المكتوب، لان مثل هذا الحل اسهل. وبذلك تكسب الكتابة اهمية لا تستحقها.

٣ ـ انظمة الكتابة:

للكتابة نظامان فقط هما:

١ ـ النظام الصوري وفيه يعبر عن كل كلمة باشارة واحدة لا علاقة لها بالاصوات التي تتألف منها الكلمة نفسها. فالاشارة المكتوبة الواحدة تمثل كلمة بأكملها. وتمثل، من ثَمَّ، الفكرة التي تعبر عنها الكلمة. واشهر مثال للنظام الصوري في الكتابة: الصينية.

٢ ـ النظام الذي يعرف عادة بالنظام «الصوتي» وهو يحاول ان يعبر عن الاصوات المتعاقبة التي تتألف منها الكلمة. والنظام «الصوتي» هذا قد يعتمد على المقطع او على الحرف، اي على العناصر الصغرى المستخدمة في الكلام.

ويصح على كلا النظامين القول بأن الكلمة المكتوبة تَجنح الى ازاحة الكلمة المنطوقة في عقولنا: وان كانت هذه الظاهرة اقوى في النظام الصوري. اذ ينظر الصيني الى الصورة الكتابية والكلمة المنطوقة على انهما رمزان لفكرة: فهو يعد الكتابة لغة ثانية. فاذا استخدمت في الحديث كلمتان؛ لهما صوت واحد فهو قد يستعين بالكتابة للتعبير عن فكرته. ولكن في الصينية لا يحدث خلل كبير عند ما يقوم المرء في ذهنه باستبدال الكلمة المنطوقة بالكلمة المكتوبة، كما هي الحال في نظام الكتابة الصوتي؛ حيث الخلل الكبير. والسبب في ذلك هو أنَّ الاستعاضة مطلقة: فالرمز الكتابي الواحد يمكن ان يعبر عن

كلمات من لهجات صينية مختلفة.

سأقتـ ـر حديثي على نظام الكتابة الصوتي، ولا سيما النظام المستخدم اليوم. وهو مستمد من حروف الهجاء (الالفباء) الاغريقية.(٨)

عندما تبتكر حروف صوتية تبدو في بادئ الأمر وكأنها تعبر تعبيرا منطقيـا عن اللغة ـ الا اذا كانت هذه الحروف مقتبسة، تعاني من التناقض. فالاغريق مشهورون بالمنطق. ولكن العلاقات المنسجمة بين الكتابة واللفظ لا تدوم طويلا. لماذا؟ هذا سؤال يتطلب منا دراسة.

---

(٨) فيما يأتي اوجه التشابه والخلاف بين نظام الكتابة الصوتية الذي استخدمه دي سوسور والنظام الذي أوصى به الاتحاد الدولي لعلم الصوت LPA: ـ

DE SAUSSURE	IPA	
p	[p]	pin
b	[b]	bin
m	[m]	man
t	[t]	ten
d	[d]	dig
n	[n]	not
k	[k]	cat
g	[g]	get
r	[n]	thing
f	[f]	fox
v	[v]	vixen
b	[e]	thin
c	[o]	then
s	[s]	sing
z	[z]	zero
s	[S]	sure
z	[3]	azure
x	[c]	German ich
x	[x]	German doch

See especially pages 46 — 49. [Tr]

DE SAUSSURE	IPA	
l	[l]	let
r	[r]	run
i	[i]	repeat
u	[u]	boot
a	[y]	Frech pur
e, e	[e]	pet
e, e	[e]	chaotic
ẽ	[e]	French vin
o	[o]	ought
o	[o]	notation
õ	[5]	French bon
ö	ce]	French seul
ö	[∅]	French creuse
ö̃	[de]	French un
a	[a]	father
ã	[a]	French blanc
a	[a]	wait
w	[w]	yes
y	[j]	above
e	[e]	

٤ ـ الاسباب التي تؤدي الى عدم الانسجام بين الكتابة واللفظ.

يرجع عدم الانسجام بين الكتابة واللفظ الى اسباب كثيرة، اذكر منها هنا الأسباب المهمة فقط.

اولا: ان اللغة في تطور مستمر، اما الكتابة فتجنح نحو الاستقرار. وقد تبلغ هذه العملية مرحلة تبتعد معها الكتابة عن الاصوات التي ينبغي ان تعبر عنها. فالحروف التي تمتاز بالدقة في مرحلة معينة تغدو غير منطقية بعد قرن من ذلك. وقد يغير الناس رموز الكتابة لتطابق التغيير في اللفظ، ولكنهم يتخلون عن هذه المحاولات بعد فترة من الزمن. وهذا ما حدث في الفرنسية في حالةoi: كما هو مبين فيما يأتي:

	اللفظ	الكتابة
١ ـ القرن الحادي عشر	١ ـ rei, Lei	rei, Lei
٢ ـ القرن الثالث عشر	٢ ـ roi, Loi	roi, Loi
٣ ـ القرن الرابع عشر	٣ ـ roe, Loe	roi, Loi
٤ ـ القرن التاسع عشر	٤ ـ rwa, lwa	roi, Loi

لقد سجلت التغييرات حتى الفترة الثانية، ونسقت كل خطوة في تاريخ اللغة مع الخطوة التي تقابلها في تاريخ الكتابة. ثم بقي الشكل المكتوب للكلمة على حاله بعد القرن الرابع عشر، في حين استمر تطور اللغة. ومنذ ذلك الحين ازدادت الفجوة بين اللغة ونظام الكتابة. وادى اسلوب الجمع بين العناصر المختلفة الى ظهور انعكاس له في نظام الكتابة نفسه، واصبح للرمز المركب oi قيمة جديدة لا علاقة لها بـ o أو i.

ثمة امثلة كثيرة من هذا النوع. لماذا يكتب الفرنسيون mais (لكن) ويقولون me ويكتبون fait (حقيقة) ويقولون fe؟ ولماذا يكون للحرف c قيمة s في أغلب الاحيان؟ الجواب عن ذلك ان اللغة الفرنسية احتفظت باسلوب قديم لكتابة الكلمات.

فالكتابة تتأخر دائما عن اللفظ. ان. الفرنسية اخذت تتغير اليوم الى y. فيقول الناس éveyer و mouyer. كما يقولون essuyer (يمسح) و nettoyer (ينظف). ولكنهم يكتبون الكلمتين الاولى والثانية eveiller (يوقظ يستيقظ) و mouller (ينقع).

وهناك سبب آخر لعدم الانسجام بين الكتابة واللفظ وهو: اذا اقتبست حروف كتابة من لغة اخرى فقد لا تكون هذه الحروف مناسبة للقيام بوظائفها الجديدة. لذا ينبغي ايجاد وسيلة للتغلب على هذه الصعوبة (كاستخدام حرفين للدلالة على صوت واحد). لنأخذ الصوت b في اللغات الجرمانية وهو صوت احتكاكي مهموس يلفظ بملامسة اللسان بالاسنان. ولما كانت اللاتينية تخلو من اشارة ترمز الى هذا الصوت فقد

استخدمت الاشارة المركبة th. وحاول الملك جلبرك من ملوك الفرنك الاوائل ان يضيف رمزا جديدا الى الحروف اللاتينية للتعبير عن هذا الصوت ولكن محاولته باءت بالفشل. وشاع استخدام th. ونجد في الانكليزية، في القرون الوسطى، صوتا مغلقا (كما في sed) وآخر مفتوحا e (كما في Led). ولما كانت حروف الهجاء لا تميز بين هذين الصوتين، ابتدع شكلان لكتابة الكلمتين seed و Lead. وتستخدم الفرنسية الرمزين ch للتعبير عن الصوت s(ش). وهناك أمثلة اخرى كثيرة.

ويساعد اثر أصول الكلمات (اتمولوجيا) في زيادة الفجوة بين الكتابة واللفظ. وكان هذا الاثر على أشده في بعض الفترات التاريخية (كعصر النهضة مثلا). فحتى الاصل الكاذب لكلمة ما قد يقحم نفسه في اسلوب كتابتها. لقد اضيف الحرف d الى الكلمة الفرنسية poids (ثقل) نظرا للاعتقاد الخاطئ بأن الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية pondus. وحقيقة الامر أن الكلمة الفرنسية poids مشتقة من pensum. ولا يهم كثيرا اذا كان تطبيق المبدأ صحيحا ام لا: فالخطأ هو في كتابة الكلمة طبقا لاصولها.

إن الاسباب الاخرى المؤدية الى عدم الانسجام بين الكتابة واللفظ، أقل وضوحا من الأسباب التي مر ذكرها. فبعض المسائل غير المنطقية لا يمكن غض النظر عنها حتى اذا استندت الى براهين مستمدة من اصول الكلمات. لماذا نستخدم الالمانية thun بدلا من tun (للرمز المركب th في هذه الكلمة قيمة t)؟ لقد قيل ان الرمز h يمثل التنفيس الذي يعقب الصوت الصحيح في بداية الكلمة. اذا كان الأمر كذلك وجب ان يضاف كلما وقعت ظاهرة التنفيس. ولكن الالمانية تضم عددا كبيرا من الكلمات التي تقع فيها ظاهرة التنفيس من دون ان نجد في كتابتها الحرف h (كما في Tugend وTisch وغيرهما).

٥ - عواقب عدم الانسجام بين الكتابة واللفظ.

إن تصنيف نقاط التناقض في نظام الكتابة عمل يستغرق وقتا طويلا. ولكن احد عيوب هذا التناقض هو ان الصوت الواحد يرمز له بالكثير من الاشارات الكتابية، فتستعمل الفرنسية j,g,ge كما في joli (جميل)، geler (يتجمد) geai (نوع من الطيور) للتعبير عن الصوت ž: وتستخدم s وZ للتعبير. وÇ,C,S, Z و (natim)it الحروف X, sç, Sc (امة) acquiesce (يخضع) وacquiesc,aut (خضوع) و dix (عشرة): وتستعمل c qu و K و ch و cc و cqu (كما في acquirer = حصل على) للصوت k. وعلى العكس من ذلك قد يدل رمز كتابي واحد على اكثر من صوت واحد فالحرف t يرمز الى الصوتين t و s والحرف g يرمز الى الصوت g او ž الى غير ذلك.(٩)

(٩) إن الفجوة بين الصوت والكتابة اكبر في الانكليزية منها في الفرنسية وهي اقل في العربية منها في هاتين اللغتين. (المترجم).

ومما يستحق الذكر «الاسلوب غير المباشر» لكتابة الكلمة. فالالمانية لا تستخدم اصواتا صحيحة مضاعفة في Zettel و Teller وغيرها فتستخدم tt و ll للدلالة على ان الحركة السابقة قصيرة مفتوحة.(١٠) وتستخدم الانكليزية، لسبب مقارب من هذا، الحرف e صامتا في نهاية الكلمة لمد الحركة السابقة: كما في mad و made. فالحرف e الذي يؤثر على حركة المقطع السابق له يظهر للعين وكأنه مقطع ثان.

ومع ذلك تعبر هذه النقاط، غير المنطقية، في الكتابة عن امور معينة في اللغة. ولكن هناك مسائل أخرى لا مسوّغ لها. فالفرنسية لا تستخدم صوتين صحيحين مشددين الا في الصيغة القديمة، التي تدل على الاستقبال (مثال mourrai سأموت) courrai (سوف أركض) وغيرهما. في حين ان نظام الكتابة في الفرنسية يزخر بمثل هذه الحروف المضاعفة (مثال ذلك bourru(سيء الخلق) sottise (غباء) souffrir (يعاني) وغيرها).

إن الكتابة قد تتسم بعدم الاستقرار في بعض الفترات مع انها تجنح دائما نحو القياس. وينتج عن ذلك تذبذب في طريقة الكتابة، نابع عن محاولة تسجيل الاصوات في الفترات المختلفة. مثال ذلك ertha و erdha و erda او thri و dhri dri في الالمانية القديمة العليا. فالاشارات th و dh و d كلها تعبر عن عنصر صوتي واحد. ولكن ما هذا العنصر؟ الكتابة لا تدلنا على الجواب. والصعوبة هنا هي اننا نجد طريقتين لكتابة الكلمة الواحدة. ولا ندري هل ان هذا يشير دائما الى اسلوبين تلفظ بهما هذه الكلمة؟ ولنفرض ان النصوص المكتوبة في لهجتين متجاورتين تحتوي على الشكل المكتوب asca الذي يمثل كلمة في احدى اللهجتين وعلى ascha الذي يمثل الكلمة نفسها في اللهجة الثانية. فاذا كان لفظ الشكلين واحدا فان ذلك يمثل تذبذباً في الكتابة. واذا لم يكن واحدا فان الفرق يعود الى اختلاف صوتي واختلاف في اللهجة: كما في الاشكال الاغريقية paizō و paizdō و paiddō. وقد يكون سبب الاختلاف فترتين زمنيتين متعاقبتين. ففي الانكليزية hwat و hweel وغيرهما كتبتا فيما بعد what، wheel. هل يشير هذا التغيير الى تغيير في نظام الكتابة ام في الصوت؟

ويمكن ايجاز ما قلناه بالآتي: ان الكتابة تطمس المعالم الحقيقية للغة. فهي ليست رداء للغة بل شيء تتنكر به. ويوضح هذه الحقيقة كتابة الكلمة الفرنسية oiseau (طير). فليس في هذه الكلمة رمز كتابي (حرف) يدل على صوت من الاصوات التي تتألف منها (wazo). فالكتابة هنا لا تسجل اي جزء من صورة اللغة.

وهناك نتيجة اخرى لعدم الانسجام، وهي كلما كبرت الفجوة بين الكتابة وما ينبغي ان تمثله هذه الكتابة، زاد الميل الى استخدامها اساسا للغة. فعلماء النحو يشيرون دائما

---

(١٠) وتستخدم العربية التشديد (ّ) لوظيفة مقاربة من هذه (المترجم).

الى الصورة المكتوبة. ان هذا الميل يسهل تفسيره من الناحية السايكولوجية. ولكن نتائجه تقلق المرء. فاللجوء الكثير الى استنتاج اللفظ من الصورة المكتوبة للكلمة يعزز الخطأ، ويقلب العلاقة الحقيقية المشروعة بين الكتابة واللغة رأساً على عقب. وكل من يقول إن هذا الحرف ينبغي ان يلفظ بهذه الصورة انما يرتكب خطأ في خلطه بين الصورة المكتوبة لصوت ما والصوت نفسه. ان لفظ oi في الفرنسية بهيئة wa امر قائم بذاته، ووجود هذه الصورة الكتابية شيْ مستقل. وحقيقة الامر أن الصوت هو الذي يكتب (ولا يصح القول ان oi يلفظ wa). والقول بان هذه الحالة الشاذة سببها استثناء في لفظ الحرفين o و i امر غير صحيح، لان هذا يوحي بأن اللغة تعتمد على صورتها المكتوبة، وانه يجوز للمرء استغلال قدر من الحرية في الكتابة، وكأن رموز الكتابة هي المعيار.

إن الآراء الخاطئة عن العلاقة بين الصوت ورموز الكتابة نجدها حتى في قواعد النحو، كما هي الحال في h الفرنسية. فبعض الكلمات الذي يبدأ بحركة غير تنفيسية un-aspirated vowel يكتب بالحرف h لتوحي بالاصول اللاتينية لها. فنجد L'omme (رجل) (وكانت تكتب فيما مضى ome) بسبب اصلها اللاتيني homo. اما في الكلمات الجرمانية الاصل فأن الحرف h في بداية الكلمات كان يلفظ: كما في hache (ساطور)، hareng (نوع من السمك) و honte (عيب) وغيرها. وطالما كان التنفيس مستخدما فان الكلمات الجرمانية خضعت للقاعدة التي يخضع لها الصوت الصحيح الاول: فكان الناس يقولون deu haches (ساطوران) lehereng (سمكة الرنجة). كما خضعت الكلمات الاخرى للقاعدة، التي تخضع لها الحركة التي تقع في البداية. فيقول الناس deu — z — ommes (رجلان) L' omme (الرجل). وتصح في هذه الفترة القاعدة التي تقول بعدم «ظهور الربط والحذف قبل صوت h الذي يتميز بالتنفيس». ولكن هذه القاعدة لا معنى لها الآن. لان h التنفيس لم يعد له وجود، الا اذا كانت هذه التسمية تطلق على شيْ ليس بالصوت ولكنه في الوقت ذاته يمنع وقوع الربط والحذف. فندخل في هذه المرة ايضا في دائرة مفرغة، ونجد ان h ليس سوى مولود خيالي جاءت به الكتابة.

إن لفظ كلمةٍ ما، لا يقرره نظام الكتابة بل تاريخ هذه الكلمة. فشكل هذه الكلمة في لحظة معينة يعبر عن لحظة في التطور المصطنع لها، ويخضع هذا التطور لقوانين دقيقة. فكل خطوة تحدد الخطوة التي تليها: والامر الذي ينبغي ملاحظته، وهو كثيرا ما يهمل، انما هو تطور الكلمة، اي اصولها.

إن اسم المدينة Auch هو oš بالرموز الصوتية وهذه هي الكلمة الفرنسية الوحيدة التي يلفظ فيها ch في نهاية الكلمة š (ش). ولكن لا يفيدنا كثيرا اذا قلنا ان ch في اخر الكلمة تلفظ š في كلمة Auch فقط فالذي يهمنا هو: كيف تغيرت الكلمة اللاتينية Auscii الى oš؟ ولا أهمية للكتابة في هذه المسألة.

هل تلفظ الكلمة الفرنسية gageure (رهان) بالصوت ö ام الصوت ü؟ يقول بعض المتكلمين الصحيح هو gažör، لان كلمة heure (ساعة) تلفظ ör ويرد عليهم آخرون بقولهم ان هذا غير صحيح: واللفظ الصحيح هو gažür لان ge تعادل ž كما في geôle (سجن). ان مثل هذا الجدال لا معنى له. والمسألة الحقيقية هي تطور اصول الكلمة. إذ اشتقت gageure من gazur (اقتنى)، كما اشتقت tournure (صورة) من كلمة tourner (دار)، إذن gažürاقرب الى الحقيقة. اما gazur فسبب وجودها الوحيد هو الطبيعة المضللة للكتابة.

ولكن طغيان الكتابة له نتائج ابعد من ذلك: فالكتابة تفرض نفسها على عامة الناس وبذلك تؤثر في اللغة وتحورها. ولا يحدث هذا الا في اللغات ذات الآداب الراقية، حيث تقوم النصوص المكتوبة بدور مهم. فتؤدي الصور المرئية للكلمات الى طرق خاطئة في اللفظ: وهذه الاخطاء هي في حقيقتها باثولوجية.(١١) فأساليب الكتابة ادت الى اخطاء في اللفظ في عدد كبير من الكلمات الفرنسية. فعلى سبيل المثال كان لاسم العلم Lefèvre (المشتق من اللاتينية faber) طريقتان في الكتابة؛ احداهما بسيطة معروفة لدى عامة الناس والأخرى ادبية مستمدة من أصول الكلمة: وهما Lefèvre و Lefèbvre. ولما كان النظام القديم للكتابة لا يميز بين v و u، فقد قرئت Lefèbvre كما لو كانت Lefèbure، وأقحمت b في الكلمة ولم يكن لها وجود قط، كما اقحمت u بسبب الغموض. ولفظ الكلمة الان يعتمد على الشكل الاخير لها.

وقد تزداد اخطاء اللفظ الناتجة عن الكتابة بمرور الزمن، وربما يزداد عدد الحروف التي يلفظها المتكلم. فقد اخذ بعض سكان باريس يلفظون الحرف t في عبارة septfemmes (سبع نساء).(١٢) ويرى دار مستيتر ان الحرفين الاخيرين في vingt (عشرون) سيلفظان في المستقبل ـ بالاثر الفظيع للكتابة.

إن هذا التشويه الصوتي هو جزء من اللغة ولكنه لا ينبع من الوظيفة الطبيعية لها. فهو ينبع من تأثير خارجي. وعلى علم اللغة ان يضعه في محل خاص به للملاحظة: شأنه في ذلك شأن الحيوان الغريب.(١٣)

---

(١١) لقد استخدمت كلمة باثولوجي في الفرنسية وشاعت على يد لتريه Littré ثم استخدمها كيليرون Gilliéron ودار مستيتز Darmesteter ودى سوسور. (باسكن).

(١٢) ويمكن ملاحظة ذلك الميل في كلمة often الانكليزية (باسكن).

(١٣) تذكرنا مصطلحات دى سوسور بالتعابير البايولوجية التي استخدمها كيليرون (كما في Pathologie et therapeutique verbales المنشور في باريس عام ١٩٢١). (باسكن).

الفصل السابع

النظام الصوتي (فونولوجي): phonology [١٤]

١- تعريف النظام الصوتي:

ان الذي يجرد الكلمة المكتوبة، عن قصد، من الصورة المرئية لن يرى في هذه الكلمة سوى كتلة لا شكل لها، يصعب التعامل معها. فتجريد الكلمة من الصورة المكتوبة كحرمان الذي يتعلم السباحة من حزام النجاة.

من المفضل ان يحل ما هو طبيعي في محل ما هو مصطنع: ولكن هذا امر لا يمكن تحقيقه الا بعد دراسة اصوات اللغة. فاذا جردنا هذه الاصوات من رموز الكتابة، اصبحت امورا غامضة. فدعامة الكتابة، مع انها مضللة، شئ مفيد. وكثيرا ما وقع اللغويون الأوائل في اخطاء لانهم كانوا يجهلون فسلجة الاصوات المنطوقة. لذا ارى ان دراسة الاصوات هي الخطوة الاولى نحو معرفة الحقيقة، لأن مثل هذه الدراسة تقدم الدعامة المطلوبة. وقد ادرك اللغويون الآن هذه الحقيقة، فأخذوا يقومون بالبحوث في الاتجاهات التي بدأها غيرهم (كعلماء الفسلجة وخبراء نظرية الغناء وآخرون). وقدموا لعلماء اللغة علما مساعدا حرر علم اللغة من الكلمة المكتوبة.

إن فسلجة الاصوات (وتسمى بالالمانية ـ laut أو Sprachphysiologie) كثيرا ما يطلق عليها فونتيك Phonetique بالفرنسية (و phonetik في الالمانية وفي الانكليزية)، phonetics اي علم الصوت. وهذه التسمية ـ كما ارى ـ غير مناسبة. لذا سأستخدم عوضا عنها لفظة فونولوجي (phonology phonologie في الانكليزية). لان علم الفونتيك اول ما استخدم للدلالة على دراسة تطور الاصوات ـ وينبغي ان يبقى ضمن هذا المفهوم. فلا يجوز المزج بين علمين متميزين باستخدام تسمية واحدة لكليهما. إن الفونتيك علم تاريخي، يحلل الاحداث والتغيرات، ويتحرك من خلال الزمن. اما فونولوجي فيقع خارج الزمن، لان عملية النطق لا تتغير ابدا.

فالدراستان متميزتان، ولكنهما تتعارضان. ان علم الصوت (فونتيك) جزء أساس من علم اللغة، اما النظام الصوتي (فونولوجي) فهو علم مساعد يختص بالكلام فقط.

---

(١٤) لقد حور دي سوسور ووسع تعريف النظام الصوتي في الفصول التي تلت هذا الفصل. ولم ينح منحى دي سوسور إلاّ كرامو Grammont، أما اللغويون الانكليز والامريكان فكثيراً ما يستخدمون لفظة phonology للاشارة الى الدراسة التاريخية للأصوات أو لدراسة وظائف الاصوات في لغة من اللغات. ويستخدمون phonetics لدراسة الأصوات المستخدمة في الكلام، وphonemics التي تقابل phonologie بالفرنسية والالمانية لدراسة الأصوات المميزة للغة (باسكن).

(لاحظ الفصل الرابع). ولا ندري ما فائدة الحركات الصوتية لو لم يكن للغة وجود: ولكن هذه الحركات لا تؤلف اللغة، فشرح جميع حركات الجهاز الصوتي الضرورية لانجاز الانطباع السمعي لا يؤدي، في اي حال من الأحوال، الى توضيح مسألة اللغة. فاللغة نظام يعتمد على التقابل العقلي للانطباعات (الصور) السمعية، كما ان النسيج المطرز هو عمل فني يعتمد على التقابل المرئي للخيوط المتنوعة الألوان، فالشئ المهم في التحليل هو دور التقابلات oppositions وليس العملية التي بوساطتها نحصل على الالوان.

لقد ذكرت الخطوط العامة للنظام الصوتي (فونولوجي) في الملحق: وسأحاول هنا ان ابين الى أي حد يمكن لهذا العلم أن يساعد علم اللغة في التخلص من الاوهام الناتجة عن الكتابة.

٢ ـ الكتابة الصوتية:

يحتاج اللغويون قبل كل شئ الى أسلوب لكتابة اوتدوين جميع الاصوات المنطوقة جميع انواع اللبس والغموض. وقد أُقترح لهذا الغرض عدد كثير من اساليب الكتابة.

ما متطلبات النظام الصوتي الحقيقي للكتابة؟

اولا: ينبغي ان يمثل كل عنصر من عناصر السلسلة المنطوقة رمزا كتابيا واحدا. وكثيرا ما يهمل اللغويون هذا الشرط. فعلماء النظام الصوتي الانكليز يهتمون بالدرجة الاولى بالتصنيف لا بالتحليل، لذا يستخدمون حرفين او ثلاثة حروف للتعبير عن بعض الاصوات. ثانيا ينبغي ان نجد وسيلة ما للتمييز الدقيق بين الاصوات الانفجارية الداخلية implosive والاصوات الانفجارية الخارجية explosive. هل هناك ما يسوّغ استخدام حروف هجاء صوتية عوضا عن نظام مستخدم للكتابة؟ لا يسعني هنا ان افعل اكثر من التنويه بـ هذه المسألة المهمة. اذ اعتقد ان حروف الهجاء الصوتية ينبغي ان يقتصر استعمالها على اللغويين. وفي بادئ الامر، كيف يمكن ان نجعل الانكليز والفرنسيين والألمان وغيرهم، يتبنون نظاما موحدا. ثم ان نظاما موحدا من حروف الهجاء يمكن استخدامه في جميع اللغات قد يغدو مثقلا بالاشارات، التي ترسم فوق الحروف وتحدد نطق هذه الحروف ـ فضلا عن المظهر الثقيل للصفحة المكتوبة بالحروف الصوتية. إذن فمحاولات بلوغ الدقة لابد أن تربك القارئ، لانها تضفي الغموض على الشئ الذي أريد بهذه الحروف التعبير عنه. وتكون العيوب اكثر من الفوائد. فالدقة الصوتية إذن غير مرغوب فيها خارج العلم.

والقراءة مسألة اخرى. فنحن نقرأ بطريقتين: فنلفظ الكلمة الجديدة غير المعروفة لدينا حرفاً حرفاً. اما الكلمة الاعتيادية المألوفة فنقرأها مرة واحدة بنظرة سريعة، من

دون التوقف عند كل حرف من حروفها. فتكتسب صورة الكلمة، بأكملها، قيمة لها فكرة. وفي هذه الحالة يبرز نظام الكتابة التقليدي. فهو مفيد للتمييز في الفرنسية بين tant (جدا) و temps (مناخ) / و et (و) و est (فعل الكينونة) و ait (فعل التملك) / وبين du (حرف بمعنى من L) du (عليه)، وعبارة iL devait (انه مدين) و iLs devaient (انهم مدينون) وغيرها.[١٥] وكل ما نأمله هو التخلص من معظم الامور المبهمة غير المنطقية في الكتابة. إن حروف الهجاء الصوتية مفيدة في تعليم اللغات، ولكن لا ينبغي تعميمها.

٣ - صحة الادلة التي تقدمها الكتابة.

ينبغي للمرء ان لا يظن ان اصلاح طريقة الكتابة لابد ان يتبع في الحال المرحلة التي يدرك فيها الناس ان الكتابة مضللة. فالاسهام الحقيقي للنظام الصوتي (فونولوجي) انما هو في توفير الخطوات الاحتياطية لمواجهة الصورة المكتوبة، التي يتطلب تجاوزها للوصول الى اللغة. فالادلة التي تقدمها الكتابة لا تصح الا بعد تفسيرها. وعلينا ان نرسم لكل لغة ندرسها نظاما صوتيا: اي وصفا للاصوات التي تعمل بها تلك اللغة. فكل لغة تعتمد في عملها على عدد محدد من الفونيمات (الوحدات الصوتية)[١٦] المتميزة. ان هذا النظام يضم مجموعة من الحقائق لا يهتم اللغوي بسواها. ولا تشبهها الرموز الكتابية الا في الشئ اليسير. وتتوقف صعوبة تحديد هذا التشابه بدقة على اللغة وظروفها.

اللغوي الذي يتعامل مع لغة من لغات الماضي لا تتوفر لديه الا المعطيات (data) غير المباشرة. فما الامكانيات التي يستطيع استغلالها لوضع النظام الصوتي لهذه اللغة؟

١ - ان اول ما لديه وأهمه هو الادلة الخارجية، لا سيما وصف الاصوات وطريقة اللفظ للفترة المعاصرة، قام بها علماء عاصروا اللغة. فقد وصلت الينا ملاحظات قيمة؛ تركها لنا النحويون الفرنسيون في القرن السادس عشر والسابع عشر، لا سيما اولئك الذين اهتموا بتدريس الفرنسية للأجانب. ولكن المعلومات التي تتضمنها كتابات اولئك الكتاب غالبا ما تكون غامضة، لانهم يفتقرون الى الاساليب الصوتية. ثم إن الاصطلاحات التي يستخدمونها تعتمد على مزاج الكاتب وتفتقر الى الدقة العلمية. لذا ينبغي تفسير الادلة التي يقدمونها وعدم قبولها على علاتها. فالاسماء

---

(١٥) لاحظ في الانكليزية sow، sew : وto، too، two؛ وdue، dew وغيرها. (باسكن).

(١٦) حقاً استخدم الاغريق x، ϕ، e للتعبير عن kh (خ) th وph : تلفظ ϕEPO كما في phéro. ولكن هذا الأسلوب جاء متأخراً : اما الكتابة القديمة فهي Ε KHPI وليس Σ XAPI. وتستخدم الكتابة نفسها إشارتين للصوت k، وهما kappa وkoppa ولكن الأمر يختلف في هذا الحال. حيث ظهر أسلوبان مختلفان في اللفظ. فكانت k تلفظ تارة حنكية وتارة حلقيةvelar. ثم ان kappa اختفت فيما بعد. وأخيراً - وهذه نقطة مهمة - نجد في الأغريقية القديمة وكذلك اللاتينية القديمة صوتاً صحيحاً مضاعفاً يعبر عنه بحرف واحد (كما في الكلمة اللاتينية fuisse وكانت تكتب FUISE). وهذا خروج عن القاعدة طالما ان s (المضاعفة) تستغرق دقيقتين إيقاعيتين - دقيقتين غير متجانستين - كما سنرى فيما بعد، ولهاتين الدقيقتين انطباعان سمعيان متميزان. ولكن هذا الخطأ له ما يسوّغه طالما ان الصوتين لهما صفة عامة واحدة، مع انهما متميزان. (سوسور).

التي اطلقوها على الاصوات ـ على سبيل المثال ـ غالبا ما كانت مضللة حيث اطلق الاغريق على الاصوات المجهورة g, d, b وغيرها بالاصوات الصحيحة الوسطى (mesai) كما اطلقوا على الاصوات الصحيحة المهموسة (voiceless) t و p و k وغيرها بلفظة psilai وترجمها النحويون اللاتين بلفظة tenues.

٢ ـ ان المعلومات الاكثر دقة تأتي من الجمع بين الادلة الخارجية والادلة الداخلية، وسأصنف هذه المعلومات في صنفين.

أ ـ الصنف الاول يضم الادلة المعتمدة على القياس في التطور الصوتي. فمن المهم ان يعرف الباحث الصوت الذي يعبر عنه حرف ما في فترة زمنية اخرى كي يحدد القيمة الصوتية لذلك الحرف. فالقيمة الحاضرة هي نتيجة تطور معين اذا عرفه الباحث استطاع ان يهمل بعض الفرضيات منذ البداية.

مثال ذلك القيمة الحقيقية للحرف السانسكريتي c غير معروفة، ولكننا نعرف انها حلت محل الحرف k الحنكي palatal الذي كان مستخدما في اللغة الهندية ـ الاوربية الاولى: وهذه المعلومات تقلل من مجال الحدس.

وإذا عرف اللغوي نقطة البداية (الانطلاق) والتطور الموازي لاصوات مشابهة في لغة من اللغات في اثناء تلك الفترة، فانه يستطيع ان يستخدم القياس المنطقي والتشابه للوصول الى نسبة للتغيير.

ومما لا شك فيه ان المسألة اقل صعوبة اذا كان الهدف تحديد اللفظ في مرحلة وسيطة، اذا عرفت نقطة البداية والنتيجة النهائية. مثال ذلك لابد ان الصوت au في الفرنسية (كما في sauter «يقفز») كان حركة ثنائية diphthong في القرون الوسطى. لانه يحتل منزلة وسيطة بين al للفترة السابقة لتلك الفترة و o في الفرنسية الحديثة. واذا علمنا بوسيلة أخرى أن هذه الحركة الثنائية كانت لا تزال موجودة في فترة زمنية معينة، استطعنا ان نزعم انها كانت موجودة ايضا في الفترة التي نرغب في دراستها من دون ان نبتعد عن الحقيقة في زعمنا هذا. فنحن لا نعرف بدقة القيمة التي تمثلها z في الكلمة الالمانية القديمة العليا wazer. ولكن ما يرشدنا إلى قيمتها هو كلمة water (الماء) التي تعود الى الفترة التي تسبق الفترة التي نحن بصددها، وكذلك كلمة wasser (ماء) في الالمانية الحديثة. اذن لابد ان تكون قيمة z الصوتية بين t و s. فيمكننا ان نرفض أية فرضية لا تأخذ الصوتين t و s بنظر الاعتبار. ولا يمكن ان نعتبر z صوتا حنكيا ـ على سبيل المثال ـ لان من المنطق ان لايقع بين صوتين مخرجهما من الأسنان dental الا صوت مخرجه من الأسنان.

ب ـ تتوفر انواع كثيرة من البراهين المعاصرة: منها الفروق بين الصور المكتوبة. فنجد في فترة واحدة الصور المكتوبة الآتية في الالمانية القديمة العليا: ezan, zehan, wazer ولكننا لا

نجد cehan, wacer، وعندمــا نلاحــظ الاشكال esan و essan و waser و wasser وغيرها نستنتج بسهولة أن الصوت z كان قريبا من الصوت s ولكنه يختلف عن الصوت الذي يعبر عنه بالرمز c في تلك الفترة. اعقب ذلك ظهور اشكال مثل wacer مما يدل على ان الفوينمين المتميزين في السابق امتزجا بعض الشئ.

وتُعد النصوص الشعرية من الأدلة القيمة في دراسة اللفظ. فهي توفر لنا معلومات متعدّدة اعتمادا على اسلوب النظم: هل هو مقـطعي ام كمي ام انه يستخـدم تشابـه الأصوات (كتوافق الاصوات في بداية الكلمة، او وسطها) او في الآخر (قافية). لذا كانت الاغريقية تميز في الكتابة بعض الحركات الطويلة (كالحركة o وكانت تكتب w) ولكن لم تميز غيرها. وينبغي لنا ان نرجع الى الشعراء لمعرفة القيمة الكمية لـ u,i,a وهكذا تساعدنا القافية على تحديـد الفترة التي كـان فيها الصـوتان الصحيحـان في نهايـة الكلمتين الفرنسيتين القديمتين gras و faz (اللاتينيـة facio = اعمل) متميـزين ومتى بدأ هـذان الصوتان يمتزجان بهيئة صوت واحد. وتساعدنا القافية، وكذلك التوافق في وسط الكلمة على معرفة ان e المشتقة من a اللاتينية (كما في pere (اب) المشتقة من patrein و tel (كذا) من talem و mer (البحر) من mare) لم تكن تلفظ كغيرها من امثلة هذا الرمز (e). فهـذه الكلمات لا تستخدم في قافية واحدة أو توافق صوتي واحد مع elle (هي) (المشتقة من illa) و vert (اخضر) (من viridem) و belle (جميل) (من bella) وغيرها.

وينبغي اخيرا ان نذكر الأدلة التي توفرها لنا كتابة الكلمات التي اقتبست من اللغات الاخرى، والجناس اللغوي والقصص الخرافية وغيرها. مثال ذلك ان كلمة kawtsio الغوطية تقدم لنا معلومات مفيدة عن لفظ cautio في اللاتينية العامية vulgar Latin. وكـانت الكلمة الفرنسية rio (ملك) تلفظ rwè في نهاية القرن الثامن عشر، هذا ما نستدل عليه من الحكـايـة التي يـرويهـا لنـا نـايـروب Nyrop (في كتـابـه Grammaire historique de la Langue Francaise ص ١٧٨). اذ يقول سئلت امرأة ايام محكمة الثورة ألم تقل، بحضور الشهود، ثمة حاجة الى ملك (roi). فأجابت انها لم تقصد ملكا مثل كابة Capet وغيره بل قصدت rouet maitre (عجلة حياكة).

ان جميع هذه الاساليب التي ذكرت آنفا تساعدنا على معرفة النظام الصوتي لفترة من الفترات، كما تساعدنا على تفسير الأدلة التي توفرها الكتابة تفسيرا مفيدا.

أما في دراسة اللغات الحية فالاسلوب المنطقي الوحيد يعتمد: اولا على وضع نظام للاصوات، يحصل عليه الباحث من الملاحظة المباشرة، وثانيا، ملاحظة نظام الاشارات المستخدم للتعبير عن هذه الاصوات ـ وان كان للتعبير عيوب. وما زال كثير من النحويين يستخدمون الاسلوب القديم الذي اظهرت عيوبه، فيقتصرون على الاشارة الى الطريقة التي يلفظ بها كل حرف من حروف اللغة، التي يريدون دراستها. ان استخدام الاسلوب

القديم لا يساعد على تقديم صورة واضحة للنظام الصوتي في لغة من اللغات.

ومع ذلك، حدث تقدم كبير في الاتجاه الصحيح لدراسة النظام الصوتي، وأسهم المختصون في هذا العلم، بقسط مهم من الجهود لتصحيح آرائنا عن الكتابة وأسلوب رسم الكلمات.

الملحق
مبادئ النظام الصوتي
الفصل الاول
الفصائل الصوتية

١. تعريف الفونيم

[استفدنا في كتابة هذا الجزء من نسخ مصورة لثلاث محاضرات القاها دي سوسور في عام ١٨٩٧ بعنوان Theoria de la syllable (نظرية المقطع) ذكر فيها ايضا بصورة سريعة المبادئ العامة التي نوقشت في الفصل الاول، كما ان الجزء الاكبر من المادة، التي تحتوي عليها مذكراته الشخصية، تعالج موضوع النظام الصوتي. وتلقي هذه المذكرات الضوء على كثير من النقاط التي ترد في الفصل الدراسي (الكورس) الاول والثالث - (بالي)]

يقتصر عمل كثير من علماء النظام الصوتي على العملية الصوتية، اي انتاج الاصوات عن طريق الاجهزة الصوتية (كالحنجرة والفم وغيرهما) ويهملون الجانب السمعي. ان هذه الطريقة غير صحيحة. فالانطباع السمعي يصلنا بصورة مباشرة كما تصل الصورة التي تنتجها الاعضاء الصوتية، اضف الى ذلك ان الانطباع السمعي هو اساس اية نظرية صوتية. فالانطباع السمعي له وجود لا شعوري عند المرء يسبق دراسة الوحدات الفونولوجية: ان الاذن تخبرنا عن الصوتين ت،ب وغيرهما. فحتى لو استطعنا تصوير حركات الفم والحنجرة عند النطق بسلسلة من الاصوات، فأننا لن نستطيع ان نميز التقسيمات الفرعية لحركات النطق: فلن نستطيع ان نعرف اين يبدأ صوت ما، واين ينتهي الصوت الآخر؟ ولولا الانطباع السمعي ما استطعنا ان نقول - على سبيل

المثال ـ أن fal تتكون من ثلاث وحدات وليس من وحدتين او أربع وحدات فنحن نستطيع ان نميز صوتا ما حال سماعنا به ضمن سلسلة منطوقة. ويكون الصوت فريدا طالما وجد تجانس في الانطباع. فالشيُّ المهم، في صوت ما، ليس طوله (لاحظ fāl و făl) بل نـوعية الانطباع. اذ ان السلسلة الصوتية لا تنقسم الى دقات ايقاعية متساوية بل الى دقات ايقاعية متجانسة تتصف كل دقة beat بوحدة الانطباع، وهي نقطة الانطلاق الطبيعية للنظام الصوتي.

وخير مثال على هذه المسألة الحروف الاغريقية القديمة. فكل صوت بسيط يعبر عنه في الاغريقية باشارة كتابية واحدة. وكل اشارة كتابية تمثل دائما الصوت البسيط نفسه. لذا تعد الالفباء الاغريقية هذه اختراعا عبقريا اقتبسه بعد ذلك الرومان. ففي كتابة كلمة barbaros (بربري) كل حرف يمثل دقة ايقاعية متجانسة:

B A P B A P O E

يمثل الخط الافقي في الشكل السابق السلسلة الصوتية، والخـطوط العموديـة القصيرة الانتقال من صوت الى آخر. وليس في حروف الهجاء الاغريقية القديمة اشارات كتابية مركبة كالاشارة الانكليزية ŝ التي تمثل s، كما لا توجد عدة حروف تعبر عن صوت واحد كما هي الحال في c و s اللذين يمثلان s، كما لا يوجد حرف واحد يعبر عن صوتين كما يعبرx عن us. لقد استطاع الاغريق ان يحققوا تقريبا نسبة واحد الى واحـد بين الأصوات والاشارات الكتابية، وهي النسبة الضرورية والكافية لتوفير أساس لنـظام كتابي صوتي جيد.

هذه القاعدة لم تدركها بقية الامم، لذا لا تقسّم حروف الهجاء، عندهم السلسلة الصوتية المنطوقة طبقا للدقات السمعية المتجانسة فيها. اذ توقف القبرصيون على سبيل المثال ـ عند الوحدات المركبة مثل do, ti, pa وغيرها.

إن مثل هذه الاشارات الكتابية تدعى مقطعية، ولكن التسمية غير دقيقة لوجود مقاطع اخرى (مثل tra, pak وغيرهما). واقتصر الساميون على كتابة الاصوات الصحيحة فقط. فهم يكتبون barbaros بهيئة BRBRS (بربرس).

إن تقسيم الاصوات في السلسلة المنطوقة لا يكون الا على اساس الانطباعـات السمعية. اما وصف هذه الاصوات فمسألة اخرى. اذ لا يمكن القيام بوصف الاصوات الا على اساس عمل فعل النـطق. فمن الصعب ان نقوم بتحليـل لوحدات الصـوت في سلسلتها. بل ينبغي علينا ان نعود الى الحركات التي تنطوي عليها العملية الصوتية: ففي

هذه العملية يرتبط كل صوت بفعل معين: فترتبط ب (الدقة السمعية) بـ بَ (الدقة المنطوقة). فأول ما نحصل عليه عند تقسيم السلسلة المنطوقة هما الوحدتان ب، بَ فهما قويتان: والفونيم هو الحصيلة النهائية للانطباعات السمعية وحركات النطق: وهو الأثر المتبادل للوحدات السمعية والوحدات المنطوقة: اذن فهو وحدة مركبة لها جذر في السلسلة المنطوقة وآخر في السلسلة السمعية.

إن العناصر التي نحصل عليها اولا عند تقسيم السلسلة المنطوقة تشبه الحلقات في السلسلة. فهي لحظات لا يمكن اختصارها، كما لا يمكن دراستها خارج الوقت الذي تشغله. فالصوتان ta ـ مثلا ـ يتألفان دائما من لحظة زمنية بعد اخرى، من جزء من الطول بعد جزء اخر. اما الصوت t اذا اخذناه، وحده، فتمكن دراسته بصورته المجردة، خارج الزمن. لذا نستطيع ان نقول ان t على العموم هو من فصيلة T (لقد استخدمت الحرف الكبير Capital للدلالة على (الفصيلة) وان i على العموم هو من فصيلة I الى آخره، اذا اخذنا بنظر الاعتبار الصفة المميزة للصوت فقط واهملنا كل شئ آخر يعتمد على التعاقب الزمني. وشبيه بذلك التسلسل الموسيقي mi, ri, do الذي لا يمكن عدّه الا تسلسلا ملموسا في التعاقب الزمني. اما اذا اخترت احد عناصره، الاساسية، فيمكنني، اذ ذاك، دراسة هذا العنصر بصورته المجردة.

بعد ان يقوم خبير النظام الصوتي بتحليل عدد كاف من السلاسل المنطوقة لعدد من لغات، يستطيع، اذ ذاك ان يشخص العناصر التي تستخدمها كل لغة، من هذه اللغات، ويقوم بتصنيف هذه العناصر. واذا اهمل بعض أمثلة التنويع الصوتية السمعية غير المهمة، فانه يجد ان الفصائل الصوتية محدودة في عددها. فهناك بعض المؤلفات الخاصة التي تذكر هذه الفصائل وتصفها بالتفصيل(١٧).

وسأقتصر هنا على بيان المبادئ البسيطة الثابتة التي يعتمد عليها مثل هذا التصنيف.

ولكن ينبغي في بادئ الامر أن اذكر شيئاً عن الجهاز الصوتي، ووظائف مختلف الاعضاء فيه ودور هذه الأعضاء في النطق.

---

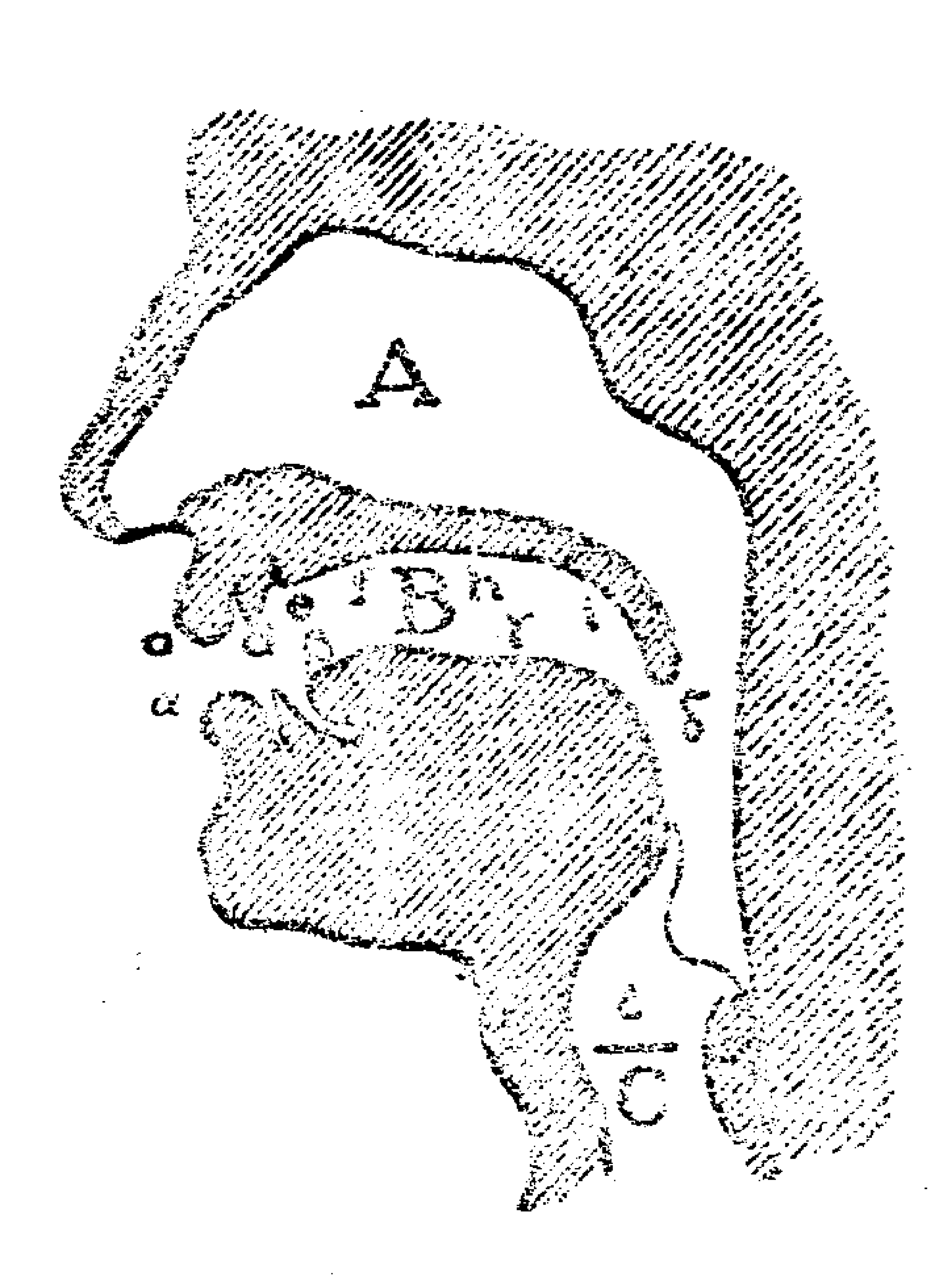
(١٧) لاحظ

Sievers, **Grundüge der Phnoetik**, 5th ed., 1920;
Jespersen, **Lehrbuch der Phonetik**, 2nd ed., 1931
Roudet, **Elément de phonétique générale**. 1910.
(بالي)

٢ ـ الجهاز الصوتي ووظيفته[18]

سوف اقتصر في وصفي للجهاز الصوتي على الرسم (الآتي) الذي يبين تجويف الانف A وتجويف الفم B والحنجرة C (بما في ذلك فتحة لسان المزمار ε الواقعة بين الحبلين الصوتيين).

والاجزاء التي ينبغي الاشارة اليها في الفم هي: الشفتان α و a واللسان β ـ γ (وتشير β الى النهاية المدببة للسان و γ الى بقية اللسان). والاسنان العليا d والحنك وهو يتألف من الجزء الامامي الصلب وهو عظمي h—f والجزء الرخو المتحرك وهو الجزء الخلفي. واخيرا ينبغي ان نذكر اللهاة δ .



وتشير الحروف الاغريقية الى الاعضاء التي تشترك اشتراكا فعالا في عملية النطق. وتشير الحروف اللاتينية الى الاجزاء التي يكون اشتراكها سلبيا.

---

(١٨) اضفنا الى الوصف الوجيز الذي قدمه دي سوسور مادة تكميلية اخذناها من كتاب يسبرسن Lehrunch der Phonetik. كما اخذنا من هذا الكتاب المبادىء التي استخدمناها في وضع جدول الفونيمات الآتية: ولكننا لم نخرج على ما أراد، دي سوسور، وان هذه الاضافات لا تغير من فكرته. (بالي).

إن فتحة لسان المزمار ﴿ تتألف من عضلتين موازيتين او حبلين صوتيين، تفتح كلما ابتعدت العضلتان؛ بعضهما عن بعض، وتغلق عندما تقتربان. ولا تنغلق هذه الفتحة تماما في اثناء الكلام. تكون الفتحة واسعة تارة وضيقة تارة اخرى. وعندما تتسع الفتحة تسمح بدخول الهواء بحرية كاملة فلا يحدث اي تذبذب في الوترين الصوتيين. في حين يحدث مثل هذا التذبذب (الصوت) عندما تكون الفتحة ضيقة. وليس لهذه العملية في اخراج الاصوات بديل عادة.

ان التجويف الانفي عضو غير متحرك، ولا يمكن ايقاف تدفق الهواء فيه الا برفع اللهاة (﴿). فهو عبارة عن باب مفتوح احيانا ومغلق أحيانا.

اما تجويف الفم فالاحتمالات التي يوفرها اكثر: اذ يمكن استخدام الشفتين لزيادة طول القناة (تجويف الفم)، كما يمكن دفع الفكين الى الخارج او تقليصهما نحو الداخل: وللشفتين واللسان حركات كثيرة مختلفة يمكن استخدامها لتقليص التجويف أو حتى غلقه.

ويتناسب دور هذه الاعضاء في اخراج الاصوات تناسبا طرديا مع مرونة حركتها فالحنجرة والتجويف الأنفي ثابتان، لهما وظيفة ثابتة. يقابل ذلك التنوع الكبير في وظيفة تجويف الفم نظرا للمرونة التي يمتاز بها.

إن الهواء الذي ينبعث من الرئتين يمر اولا من خلال فتحة لسان المزمار ويستطيع المرء ان يخرج صوتا حنجريا بشد الوترين الصوتيين. ولكن الحنجرة لا تستطيع ان تخرج أصواتاً متنوعة تخضع للتشخيص والتصنيف فتكون جزءاً من نظام صوتي في اللغة: اذن فالصوت الحنجري ـ من هذه الناحية ـ واحد. واذا نظرنا اليه حال خروجه من فتحة لسان المزمار بدأ وكأن له قيمة صوتية واحدة لا تكاد تتغير.

اما القناة الانفية فليس لها من وظيفة في النطق سوى احداث رنين للذبذبات الصوتية التي تمر من خلال هذه القناة. فليست وظيفتها اخراج الصوت.

وعلى العكس من ذلك يسهم تجويف الفم في اخراج الأصوات، وكذلك احداث الرنين. فعندما تتسع فتحة المزمار ينعدم التذبذب في منطقة الحنجرة. ويخرج الصوت الذي يسمع من تجويف الفم (واترك مسألة ماهية هذا الصوت: هل هو صوت ام ضوضاء الى عالم الفيزياء).

واذا شد الوتران الصوتيان حدث تذبذب في فتحة لسان المزمار، فأصبحت وظيفة الفم الاساسية هي التحوير في الصوت الحنجري.

وموجز القول إن العناصر التي تسهم في اخراج الاصوات هي اطلاق الهواء الى الخارج، والنطق في الفم، وتذبذب في منطقة الحنجرة، والرنين الانفي.

ولكن مجرد التعداد لا يشخص مميزات الفونيمات المختلفة. فالمهم في تصنيف

الفونيمات ليس الشيْ الذي تتألف منه بل الشيْ الذي يميز بعضها عن بعض. فقد يكون العامل السلبي اهم من العامل الايجابي في تصنيف فونيم من الفونيمات.

فأطلاق الهواء الى الخارج، مع انه عنصر ايجابي في كل فعل صوتي، ليس له قيمة في التمييز بين فونيم وآخر. اما الرنين الانفي فقد يؤدي انعدامه الى تمييز الفونيم: وهو عامل سلبي، كما قد يؤدي وجوده الى مثل هذا التمييز والمهم هنا ان عنصرين من العناصر التي ذكرت آنفاً ثابتان، وهما ضروريان وقادران على إخراج الصوت، وهما:

أ) دفع الهواء الى الخارج

ب) النطق في الفم

اما العنصران الآخران فقد ينتفيان او يضافان الى العنصرين أ و ب: وهما:

ج) تذبذب الحنجرة

د) الرنين الأنفي

ثم اننا نعلم ان العناصر أ ، ج ،د ثابتة. في حين يساعد العنصر ب على إخراج عدد كثير، متنوع من الأصوات.

كما ينبغي ان نتذكر ان تشخيص الفونيم يأتي حينما نحدد الفعل الصوتي. واذا حددنا جميع الافعال الصوتية استطعنا ان نشخص جميـع فصائـل الفونيمـا. ويبين التصنيف السابق للعناصر التي تسهم في إخراج الاصوات أنَّ الافعال الصوتية لا يأتي تمييزها الا عن طريق ب ،ج و د. اذ ينبغي ان نحدد في حال كل فونيم، النطق به في الفم، وهل يسهم فيه الصوت الحنجري (~) ام لا يسهم ([]) وهل يشترك الرنين الانفي (....) ام لا يشترك ؟. فاذا لم نستطع معرفـة احد هـذه العوامـل، جاء تشخيص الصوت ناقصا. اما اذا كانت جميع العوامل الثلاثة معروفة، فان الارتباطات المتنوعة بينها تؤدي الى التحديد لفصائل الأفعال الصوتية.

ويبين الجدول - الآتي - الحالات المحتملة:

I	II	III	IV
أ. دفع الهواء ب. النطق في الفم ج. [ ] د. [ ]	دفع الهواء النطق في الفم ~ [ ] ...	دفع الهواء النطق في الفم ~ [ ] ...	دفع الهواء النطق في الفم ~ ...

يشير الحقل ı الى الاصوات المهموسة. والحقل الى الاصوات المجهورة الانفية.

ويبقى عامل مجهول واحد وهو طبيعة النطق في الفم. اذن فالمهم ان نحدد انواع الاصوات المحتملة في النطق في الفم.

٣. تصنيف الاصوات حسب نطقها في الفم.

تصنف الاصوات، عادة، حسب موضع نطقها، ولكنني سأستخدم نقطة انطلاق أخرى. فمهما يكن موضع النطق، فهناك دائما درجة معينة من الفتحة ـ درجة معينة من الفتحة تتراوح بين الانفتاح الكامل والانغلاق الكامل. وعلى هذا الاساس اذا انتقلنا من الدرجة الصغرى الى الدرجة القصوى للفتحة، وجدنا ان الاصوات تنقسم الى سبعة أصناف، أطلق عليها الارقام 6.5,4,3,2,1,0 وسأوزع الفونيمات، ضمن كل صنف. من هذه الاصناف، الى أنماط حسب موضع نطقها.

ولن اخرج على التسميات المعروفة الشائعة، مع ان هذه التسميات تفتقر الى الدقة في كثير من الأمور. فالالفاظ الشائعة مثل حلقية، حنكية، وأسنانية، وسائلة وغيرها كلها تسميات غير منطقية. والأقرب الى المنطق ان نقسم الحنك الى عدد من المناطق. ثم نأخذ بنظر الاعتبار حركة اللسان عند النطق، وبذلك نستطيع ان نحدد نقطة الالتقاء الاساسية. وسأقوم بوضع صيغة استنادا الى هذه الفكرة، واستعمل الحروف التي استخدمتها في رسم الجهاز الصوتي. واضع رقم الفتحة بين الحرف الاغريقي (الذي يشير الى العضو الفعال في النطق) والحرف الروماني (اللاتيني) (الذي يشير الى عضو غير فعال). وهكذا فأن Boe تشير الى انغلاق كامل ناتج عن وضع نهاية اللسان على جدار اللثة العليا.

واخيرا سأميز في كل نطق، بين الفصائل المختلفة للفونيمات باستخدام الصفتين الملازمتين ـ الصوت الحنجري والرنين الانفي ـ اللتين تميزان بين الفونيمات عن طريق وجودهما أو عدم وجودهما.

إن هاتين الصفتين الملازمتين، وكذلك الصيغة المقترحة، فيما تقدم، تزودنا بوسيلة بسيطة منطقية لتصنيف الفونيمات. وطبيعي ان المرء لا يتوقع هنا ان يجد فونيمات لها طبيعة معقدة او خاصة، بغض النظر عن الاهمية العملية لمثل هذه الفونيمات (كما في الصوتين التنفسيين ph و dh وغيرهما، وكذلك الاصوات الاحتكاكية الانفجارية tš, dš, pf وغيرها، والاصوات الصحيحة الحنكية والحركات الضعيفة مثل ə او الحرف e الصامت وغير ذلك). كما ينبغي ان لا يتوقع المرء ان يجد فونيمات بسيطة لا اهمية عملية لها، ولا تعد اصواتاً متميزة.

أ. فتحة الصفر: الاصوات المغلقة Occlusives

تضم الاصوات المغلقة جميع الفونيمات الناتجة عن غلق الفتحة تماما، اي غلق

تجويف الفم غلقا محكما مدة قصيرة. ولا نريد هنا ان نبحث في مسألة هل يحدث صوت في أثناء الغلق او الفتح: فحقيقة الامر أن هاتين العمليتين تؤديان الى انتاج صوت.

تسمى الانماط الثلاثة الرئيسة للاصوات المغلقة حسب المواضع التي تنطق فيها: وهي شفوية (P,b,m) وأسنانية (t, d, n)، وحلقية (k, g, ṅ).

وينطق النمط الاول باستخدام الشفتين، والثاني بوضع نهاية اللسان على مقدمة الحنك والثالث بالتقاء مؤخرة اللسان مع مؤخرة الحنك.

وتميز كثير من اللغات، واخص بالذكر اللغات الهندية الاوربية، بين نوعين من النطق الحلقي: احدهما حنكي (في منطقة h—f) والآخر في المنطقة التي بعدها (المشار اليها في الرسم بـ i) اي في الحنك الرخو Velar. ولكن هذا الفرق لا يلاحظه المتكلم في بعض اللغات كالانكليزية. فالأذن لا تفرق بين الصوت K (كما في كلمة cart) ويلفظ في مؤخرة الحلق، والصوت k (كما في kiny) ويلفظ في مقدمة الحلق.

ويبين الجدول ـ الآتي ـ تراكيب الفونيمات المغلقة:

شفهية			سنية			حلقية		
LABIALS			DENTALS			GUTTURALS		
p	b	(m)		d	(n)	k	g	(n)
aoa	aOa	aOa	BOe	BOe	BOe	vOh	vOh	vOh
	~	~		~	~		~	~
[ ]	[ ]		[ ]			[ ]		
			[ ]	[ ]	---	[ ]	[ ]	---
[ ]		---						

ان الاصوات الانفية ṅ, n, m هي في الحقيقة أصوات غلق مجهورة انفية. فعند النطق بكلمة amba ترتفع اللهاة لتسد الفتحة الانفية للانتقال من m الى b.

لكل نمط من الانماط السابقة ـ من الناحية النظرية ـ صوت انفي مهموس ـ اي صوت انفي لا يصحبه تذبذب في الحبال الصوتية: فنجد الصوت m المهموس بعد الاصوات المهموسة في اللغات الاسكندنافية. وفي الفرنسية اصوات انفية مهموسة، ولكن المتكلمين لا يعدونها متميزة عن الاصوات الأنفية المجهورة.

لقد وضعت الاصوات الانفية داخل الاقواس في الجدول السابق: ومع ان الفم يكون مغلقا تماما في اثناء النطق بها فأن فتح القناة الانفية يوفّر فتحة واسعة لهذه الاصوات (لاحظ الصنف c).

ب. الفتحة I: الاصوات الاحتكاكية (fricatives او spirants)

تتميز الفونيمات في الصنف ب بانسداد غير كامل للفتحة، يسمح بمرور الهواء من

خلال تجويف الفم. إن لفظة احتكاكي spirant عامة جدا في حين لفظة fricative لا توحي بشيٌ عن درجة الانسداد، وان كانت تدل على احتكاك ناتج عن دفع الهواء الى الخارج (الاصل اللاتيني fricare).

وتختلف فونيمات الصنف ب عن فونيمات الصنف أ، في انها لا تنقسم الى ثلاثة اقسام. ونذكر اولا ان الاصوات الشفـوية الحقيقيـة (التي تقابـل p و b) وهي قليلة الاستعمال: لذا سأهملها. تعوض، عادة، باصوات شفوية ـ أسنانية Labiodentals، الناتجة عن التقاء الشفة السفلى والاسنان العليا (f و v). اما الاصوات الأسنانية فتنقسم الى انواع، حسب شكل نهاية اللسان عند ملامستها للأسنان. وسأستخدم الرموز B, B', B'' للاشارة الى الاشكال المختلفة لنهاية اللسان المدببة دون الدخول في التفاصيـل. ومن الاصوات التي يسهم فيها الحنك، تستطيع الأذن ان نميز عادة نطقا أماميا (للحنك) وآخر في مؤخرة الحنك (velar) (١٩).

LABIO — DENTALS سنية ـ شفهية		DENTALS سنيه					
f	v	b	ð	s	z	š	ž
ald	ald	Bld	Bld	Bld	B'ld	B''ld	B''ld
[ ]	~	[ ]	~	[ ]	~	[ ]	~
[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]

PALATALS		GUTTURALS	
x'	r'	x	r
rlf	rlf	rli	rli
[ ]	~	[ ]	~
[ ]	[ ]	[ ]	[ ]

'p = English th in thing
ð / English th in then
s / English s in say
z / English s in rose
š / sh in show
ž / g in rouge
x' / German ch in ich
r' / North German g in liegen
x / German ch in Bach
r / North German g in Tage

(١٩) لقد إتبع دي سوسور الطريقة التي اقترحها بدقة، لدا رأى انه من غير الضروري ان يشير الى مثل هذا التمييز في الصنف أ، مع اهمية النوعين K_1 K_2 في اللغة الهندية ـ الاوربية الأولى. فعدم ذكر هذه المسألة مقصود. (بالي).

هل بين الاصوات الاحتكاكية ما يشبه ṅ, m, n وغيرها من الاصوات المغلقة ـ اي v انفي و z انفي وغيرهما؟ من السهل ان نتصور وجود مثل هذه الاصوات، فعلى سبيل المثال يمكن للمرء ان يسمع v انفي في الكلمة الفرنسية inventer (يخترع) بيد ان الصوت الاحتكاكي الانفي ليس صوتا متميزا في اكثر اللغات.

ج. الفتحة 2: الاصوات الانفية

د. الفتحة 3: الاصوات السائلة Liquids

يمكن تمييز نوعين من الاصوات السائلة وهي:

(١) الاصوات الجانبية (قد اشرت اليها بالرمز پا في الجدول (الآتي)، وفيها يستقر اللسان على الجزء الامامي من الحنك، ولكنه يترك فتحة على الجانبين. ويمكن ان نميز، حسب منطقة النطق، ثلاثة من L: أسنانية L وحنكية L' . وحنكية رخوية (gutturalvelar) والفونيمات الجانبية مجهورة في معظم اللغات مثلها كمثل z,b وغيرهما. ومع ذلك فأن الفونيمات الجانبية المهموسة ليست من الامور المستحيلة: فقد نجدها في الفرنسية، حيث ان L التي تقع بعد فونيم مهموس قد تنطق من دون صوت في الحنجرة (كما في L pluie (مطر) التي تختلف عن L في bleu (ازرق) ولكن المتكلم لا يميز هذا الفرق بين الصوتين.

لا جدوى من الحديث عن L الانفية، فهي نادرة جدا، غير مميزة، مع انها قد تقع بعد الاصوات الأنفية خاصّة مثال ذلك L بعد الكلمة الفرنسية branlant (يهتز).

(٢) في الاصوات التي تتسم بالتذبذب (المشار اليها بالرمز v في الجدول الآتي يكون اللسان في منطقة أبعد من المنطقة الحنكية التي يقع فيها الصوت L ولكن حالات متنوعة من التقاء اللسان مع الحنك تجعل للأصوات ذات التذبذب vibrants فتحة معادلة لفتحة الأصوات الجانبية. ويحدث التذبذب بطريقتين: بالنهاية المدببة للسان مدفوعة الى الأمام على لثة الأسنان (كما في r الرفيعة trilled او بمؤخرة اللسان عند التقائها مع الحنك (كما في r الظهرية dorsal او المعتمة) ان الذي قلناه عن الاصوات الجانبية المجهورة او الجانبية الانفية يصح على اصوات التذبذب.

l	l″	l	٢	
B'3e ~ [ ]	γ'3f — h ~ [ ]	γ'3i ~ [ ]	B'3e ~ [ ]	γ3ǐ ~ [ ]

يقع وراء الفتحة 3 مجال جديد، اذ ننتقل من الاصوات الصحيحة الى الحركات. ولم أتطرق الى الفرق بين الصنفين حتى الان، لسبب بسيط، وهو أنَّ العملية الصوتية واحدة

للصنفين. فأسلوب نطق الحركات يشبه، في جميع النواحي، صيغة نطق الاصوات الصحيحة المجهورة. فلا حاجة الى التمييز بين الصنفين بقدر ما يتعلق الأمر بالنطق في الفم. ولا نجد الاختلاف الا في الأثر الصوتي السمعي (الاكوستي). فاذا تجاوزنا درجة معينة من الفتحة فإن وظيفة الفم تقتصر بصورة رئيسة، على إحداث الرنين، فيبرز الجرس الصوتي timbre للصوت الحنجري، ويقل الصوت الذي يخرجه الفم. ويعتمد مدى التقليل من الصوت الحنجري على درجة انغلاق الفم: فكلما زادت درجة فتح الفم قل الصوت. وهكذا يسود الصوت في الحركات بفضل هذه العملية الآلية البحتة.

هـ. الفتحة 4: الاصوات ü, u, i.

ان حركات الصنف هـ تحتاج الى درجة اكبر من الانسداد من الحركات الأخرى - وتكاد تقترب من درجة الانسداد للاصوات الصحيحة. ويطلق عادة، على هذه الأصوات باشباه الحركات، ولهذه التسمية ما يسوّغها، كما سيتضح فيما بعد.

يكون لفظ الفونيم i بسحب الشفتين (-) والنطق الامامي، ولفظ الفونيم u بشفتين مدورتين (○) والنطق الخلفي. وفي الفونيم ü تكون الشفتان في موقع u والنطق في موقع i. وللحركات u,i,ü اشكال انفية، كما هي الحال في الحركات الأخرى. ويمكننا أن نهمل هذه الاشكال طالما انها نادرة. ومما يستحق الذكر أن الأصوات التي تكتب in و un بالفرنسية لا تحتوي في الحقيقة على الصوتين الأنفيين i و u (لاحظ ما يأتي).

هل ثمة شكل مهموس للصوت i - اي الذي ينطق بدون الصوت الحنجري؟ ويمكن ان نسأل السؤال نفسه فيما يخص u و ü والحركات الأخرى. ان مثل هذه الفونيمات موجودة، وهي تشبه الحروف الصحيحة المهموسة، ولكن ينبغي ان لا نخلط بينها وبين الحركات المهموسة اي تلك التي ينطق بها وفتحة لسان المزمار مسترخية. فالحركات المهموسة تشبه الصوت h الذي يتصف بالتنفيس، الذي يلفظ في موقع أمام هذه الحركات. ففي كلمة hi، نسمع اولا i من دون تذبذب ثم صوت i الاعتيادي.

i	u	ü
— 4f	O 4i	O 4f
[ ]	[ ]	[ ]

و. الفتحة 5: الاصوات o,o,e

ان نطق فونيمات الصنف «و» يشبه تماما نطق الفونيمات ü,u,i. ولهذا الصنف أشكال أنفية (كما في الاصوات الفرنسية ẽ,õ,õ في الكلمات pin«الصنوبر» و pont «جسر» و brun اسمر. وله ايضا، أشكال مهموسة كما في الصوت h الذي يتسم بالتنفيس في hö, ho, heملاحظة: تميز كثير من اللغات عددا من درجات انفتحة للصنف «و» فالفرنسية مثلا لها مجموعتان: احداهما مغلقة o,o,e في الكلمات de كشتبان dos ظهر deux «اثنان» والاخرى مفتوحة (ö,o,e كما في الكلمات mer«بحر» و mort «موت» و meurtre «قتل»).

e	o	ö	e	õ	õ	a	ã
—5f	O5i	O5f	—5f	O5i	O5f	—6!	—6!
[ ]	[ ]	[ ]	---	---	[ ]	[ ]	[ ]

ز. الفتحة ٦: الصوت a

ان للصوت a اقصى درجة للفتحة. وله شكل انفي: a: يتصف بقليل من انضمام الفم، كما ان له شكلاً مهموساً، كما في h في ha.

الفصل الثاني

الفونيمات في السلسلة الكلامية

١ ـ الحاجة الى دراسة الأصوات في السلسلة الكلامية

يستطيع الباحث ان يجد التفاصيل الدقيقة لاصوات الكلام في كتب متخصصة، ولا سيما في مؤلفات علماء الصوت الانكليز.

هل يكفي التحليل الدقيق وحده لانجاز الدور المساعد الذي ينبغي لعلم الفونولوجيا ان يقوم به ضمن إطار علم اللغة؟ ان مثل هذه الكتلة من المعلومات لا فائدة لها منفردة: المهم المركّب الذي تدخل فيه هذه التفاصيل فلا يتطلب من اللغوي ان يكون عالما في علم الفونولوجيا. وكل ما يحتاج اليه هو ان تقدم له المعطيات الضرورية لدراسة اللغة.

يشكو الاسلوب المتبع في دراسة الفونولوجي من عيب مهم واحد وهو ان علماء هذا العلم كثيرا ماينسون أن اللغة لا تتألف من الاصوات حسب بل ايضا من امتداد او سلسلة من الأصوات التي ينطق بها. فلا يهتمون اهتماما كافيا بالعلاقات المتبادلة بين الأصوات. ان هذه العلاقات لا يمكن ادراكها للوهلة الاولى. فالمقطع اسهل على التشخيص من اصواتها. حيث نستطيع ان نرى (في الفصل السابع من القسم الاول من الكتاب) ان بعض انظمة الكتابة البدائية شخصت الوحدات المقطعية: ولم يخترع الناس نظام الالفباء الا بعد ذلك.

ثم إن الامور المحيرة في علم اللغة ليست الوحدات السهلة. فاذا حدث في لحظة من اللحظات ان تغير الصوت a الى الصوت o في لغة ما، فلن يؤدي هذا التغيير الى شئ. وللغوي ان يسجل هذه الظاهرة من غير ان يحاول ايجاد تفسير فونولوجي لها. إن علم الاصوات يصبح ذا فائدة كبيرة فقط حين يشترك عنصران او اكثر في علاقة تستند الى الارتباط الداخلي بين هذه الاصوات. فالتغييرات التي تحصل لاحد العناصر في هذه الحالة تتحدد بالتغييرات التي تحصل للعنصر الآخر او العناصر الأخرى. ولما كانت المسألة تتعلق بعنصرين فهي تتطلب تحديد علاقة وقاعدة ـ وهذا امر يختلف تماما عن الوصف البسيط. فحين يحاول هذا العلم ان يتوصل الى قاعدة فونولوجية، فانما يناقض نفسه بانحيازه الى الاصوات المنفردة المعزولة. ويكفي اشتراك فونيمين لتعقيد المسألة. ففي اللغة الالمانية القديمة العليا ـ على سبيل المثال ـ نجد الكلمات dorn, donr, lang, wagen, balg, hagl

قد اصبحت فيما بعد dorn, donnal, lang, wagan, balg, hagni

ان النتيجة تختلف طبقا لطبيعة الفونيمات المسهمة في التغيير وتسلسلها: ففي بعض الكلمات وقعت حركة ما بين صوتين صحيحين في الأصل وفي امثلة أخرى بقي الصوتان الصحيحان على حالهما من دون تغيير. فكيف نستطيع صياغة القاعدة لمثل هذه الحالات؟ اين نشأ هذا الاختلاف؟ مما لاشك فيه أن سبب الاختلاف ينبع في مجموعات الاصوات الصحيحة (gn, lg, gl وغيرها) الموجودة في الكلمات السابقة. فكل مجموعة تحتوي على صوت (غلق) يسبقه او يتبعه صوت سائل او انفي. ولكن علام تدل هذه الظاهرة؟ طالما ننظر الى g و n على انهما متجانسا الكمية فاننا لا نفهم لماذا يؤثر في النتيجة مجرد تسلسل التقاء n — g, — g — n.

فضلا عن النظام الصوتي او الفصائل الصوتية، إذن يتسع المجال لعلم يختلف كل الاختلاف عنه، ويستخدم المجموعات المؤلفة من صوتين، وتعاقب الفونيمات نقطة ينطلق منهما: وهذا شئ مختلف جدا. اذ يكفي في دراسة الاصوات المنفردة ان نلاحظ موضع الاعضاء الصوتية في اثناء النطق. ولا يدخل في ذلك مسألة الصفة الصوتية السمعية للفونيم، لان ذلك امر تقرره الاذن. اما في النطق فللمتكلم مطلق الحرية. ولكن عندما نتناول لفظ صوتين مرتبطين، فالمسألة تغدو اكثر تعقيدا. علينا، إذن، ان نأخذ بنظر الاعتبار الفجوة بين الاثر الذي نرمي اليه والاثر الناتج فعلا. اذ اننا لا نملك دائما القدرة على لفظ الصوت الذي نريده. فحرية ربط الفصائل الفونولوجية تقيدها امكانية ربط حركات النطق. ولكي نوضح ما يحدث ضمن المجموعات الصوتية، ينبغي ان نستعين بعلم للاصوات، يستخدم حركات النطق كما تستخدم المعادلات الجبرية: فالمجموعات الثنائية (المؤلفة من صوتين) تنطوي على عدد معين من العناصر الآلية (المكانيكية) والصوتية والسمعية التي تتكيف بسبب تأثر بعضها بالبعض الآخر. واى تغيير في عنصر ما له بالضرورة رد فعل، محسوب، على بقية العناصر. اما في الفعل الصوتي فالشئ الوحيد الذي له صفة العموم - تلك الصفة التي تضعه فوق جميع الفروق الفردية للفونيمات - هو الانتظام الالي لحركات النطق. فاهمية علم الفونولوجي الذي يدرس الربط بين الاصوات واضحة. ان علم الفونولوجي التقليدي يضع عادة قواعد لنطق جميع الاصوات - اي العناصر المتغيرة والعرضية للغات. ويقف عند هذا الحد: في حين يحدد علم الفونولوجي الذي يدرس مجاميع الاصوات الاحتمالات ويشخص العلاقات الثابتة بين الفونيمات المترابطة. فظاهرة balg halg الى آخره تثير مسألة كانت موضوع نقاش مدة طويلة، وهي مسألة الاصوات المجهورة في اللغة الهندية الاوربية الاولى: ان علم الفونولوجي للمجموعات الصوتية يلقي كثيرا من الضوء على هذه المسألة، لان اهتمامه الوحيد هو ربط المقاطع الفونيمية. ومع ان هذه ليست المسألة الوحيدة التي يستطيع هذا العلم حلها فهناك حقيقة واضحة الا وهي: اننا لا نستطيع ان نتحدث عن مسألة

الاصوات الصائتة sonant من دون ان نهتم اهتماما كاملا بالقوانين التي تتناول الربط بين الفونيمات.

٢. الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي

ابدأ هذه الفقرة بملاحظة اساسية وهي:

بين لفظي الحرف P في كلمة appa فارق واضح. p الاولى ناتجة من غلق الفتحة، اما P الثانية فناتجة عن فتح الفم واطلاق الهواء. ولكن الانطباعين لهذين الحرفين متشابهان الى حد كبير، حتى ان علماء الصوت عدّوهما صوتا واحدا، فاستخدموا حرفا واحدا «P» لكتابة المجموعة. ونستطيع ان نستعمل اشارتين [<>] للدلالة على الفرق بين صوتي P في كلمة appa (ap̂pa)، وتشخصهما عندما لا يقعان الواحد بعد الاخر (لاحظ âpta و atp̂a). ان هذه التمييز يصح على جميع اصوات الغلق الأخرى، والاصوات الاحتكاكية (affa) والأنفية amma والسائلة (alla)، وجميع الفونيمات عامة بما في ذلك جميع الحركات، سوى a (aooa).

لقد اطلق على الغلق بالانفجار الداخلي، والفتح واطلاق الهواء بالانفجار الخارجي. فالصوت P قد يكون انفجارا داخليا P او انفجارا خارجيا P. ويمكن تسميتها ايضا بالاصوات < > المغلقة closing والأصوات المفتوحة opening.

ومما لاشك فيه أننا نستطيع أن نشخص، فضلا عن الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي فترة زمنية يطول فيها الغلق حسب رغبة المتكلم. واذا كان للفونيم فتحة واسعة (لاحظ L في alla) يستمر خروج الصوت، في حين تبقى الاعضاء الصوتية ساكنة. وعلى العموم تتوسط جميع السلاسل المنطوقة فسح، سأطلق عليها لفظة الوقفة (جمعها وقفات) sistant, hold. بيد انها تشبه الانفجار الداخلي، لان اثر الاثنين (في الاذن) واحد. وفي الصفحات الآتية ساقتصر في كلامي على الاصوات ذات الانفجار الداخلي والاصوات ذات الانفجار الخارجي.[٢٠]

ان الطريقة التي أوضحتها، ايضاحاً عاماً، لن تكون مقبولة في دراسة وافية لعلم الفونولوجي: ولكنها مقبولة في دراسة مختصرة؛ هدفها ايجاز العناصر الجوهرية للفظ المقاطع بقدر الامكان. ولا ازعم هنا انني استطعت ان اجد حلا لجميع الصعوبات الناتجة عن تقسيم السلسلة المنطوقة الى مقاطع، بل كل ما فعلته هو تقديم اساس معقول لدراسة هذه المسألة.

---

(٢٠) إن معالجة دي سوسور للوقفات موضوع جدل كبير في هذه النظرية. وللرد على بعض الملاحظات نقول ان الوقفة (كما في النطق بـ f مثلاً) تنتج من عاملين: (١) ضغط الهواء على الاعضاء المواجهة و(٢) مقاومة الاعضاء في أثناء زيادة الشد لمواجهة الضغط. فالوقفة عبارة عن انفجار داخلي مستمر. ولهذا السبب يكون الانطباع واحداً للوقفة ولصوت الانفجار الداخلي إذا كانا من فصيلة واحدة ونطق بهما الواحد بعد الآخر. فالجمع إذن بين هذين النمطين من النطق في كيان صوتي سمعي آلي واحد إنما هو أمر منطقي. أما الانفجار الخارجي فيخالف الاثنين: فهو بطبيعته إطلاق للهواء. (بالي).

وهذه ملاحظة أخرى. ان حركات الفتح والغلق الضرورية لاخراج الاصوات ينبغي ان تميز عن الفتحات المختلفة للاصوات نفسها. فكل فونيم يمكن ان يكون انفجارا داخليا او انفجارا خارجيا، اما الفتحة فلا تؤثر في الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي، اي ان زيادة الفتحة لا تجعل الحركتين (الانفجارين) اقل وضوحا. فالفرق في ŭ, u, i يبقى واضحا: وفي aîîa نستطيع ان نميز صوت ı المغلق والصوت الاخر المفتوح ı. وكذلك aûûa و aŭûa فأن الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي الذي يتبعه متميزان الى حد كبير، حتى ان الكتابة في بعض الاحيان تخرج على القاعدة الشائعة وتسجل الفرق. و W في الانكليزية و L الالمانية وربما Y في الفرنسية (كما في Yeux عيون، وغيرها) تمثل الاصوات المفتوحة، وتقابل ŭ و ĭ وهما المستخدمان للتعبير عن u و ı واذا كانت الفتحة اوسع (كما في e و o) صعب على المرء ان يميز بين الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي من الناحية الفعلية، مع اننا نستطيع ان ندرك مثل هذا الفرق من الناحية النظرية (كما في aéèa و aôôa). واخيرا رأينا ان الفتحة القصوى تقضي على الفرق بين الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي فلا يمكن التمييز بينهما. فالصوت a ليس له انفجار داخلي ولا انفجار خارجي.

اذن فكل فونيم، ما عدا a، ينبغي ان يقسم الى شكلين، كما في الجدول الآتي، الذي يضم وحدات صغرى لا تقبل التقسيم:

p̂ p̌ الى آخره

f̂ f̌ الى آخره

m̂ m̌ الى آخره

r̂ ř الى آخره

ŷ y̌ الى آخره

ê ě الى آخره

ولن اهمل الفروق التي تسجلها الكتابة (ĭ,ŭ) بل سأحتفظ بها بدقة (y,w). وسيجد القارئ المسوّغ لرأيي هذا فيما يستقبل.

هذه اول مرة نتخلص فيها من التجريد، اول مرة نجد الوحدات الملموسة الصغرى التي لا تقبل التجزئة، التي تحتل مكانا في السلسلة المنطوقة وتتفق مع الدقة في هذه السلسلة. فليست P سوى وحدة تجريدية تجمع بين الصفات المشتركة للصوتين P̌ و P̂، وهما الوحدتان الوحيدتان اللتان لهما وجود حقيقي وبالطريقة نفسها نجد مستوى اعلى من التجريد يربط بين P و B و M في سسلسلة MBP. فنتكلم عن P وكأنها فصيلة من فصائل علم الحيوان: ففي هذه الفصيلة ذكور واناث، ولكن لا يوجد نموذج مثالي يجمع صفات الاثنين معا. والذي فعلناه في السابق اننا ميزنا الوحدات التجريديةووصفناها: فكان علينا ان نذهب ابعد من التجريد لنصل الى الملموس.

لقد وقع علم الفونولوجي في خطأ كبير حين عد الوحدات التجريدية وحدات حقيقية، من دون ان يتفحص بعناية كبيرة تعريف الوحدة. فحروف الهجاء الاغريقية نجحت في تشخيص العناصر التجريدية ـ وهذا انجاز ينطوي على تحليل رائع (لاحظ الملحق، الفصل الاول): ومع ذلك فالتحليل الذي قام به الاغريق لم يكن كاملا.

ما الصوت P المطلق؟ اذا نظرنا اليه زمنيا على انه جزء من السلسلة المنطوقة فهو ليس، على وجه التحديد P̂ ولا P̌، ولا P̌P̂، فالمجموعة الاخيرة قابلة للتجزئة: واذا نظرنا الى هذا الصوت (P) خارج السلسلة المنطوقة فهو شيٌ ليس له وجود مستقل، ولا نستطيع ان نتعامل معه. فما معنى مجموعة مثل g L وحدها؟

ان وحدتين تجريديتين لا يمكن ان تكونا لحظة من لحظات الزمن. ولكن الحديث عن ik و ik و ik و ik الذي ينطوي على الجمع بين العناصر الحقيقية للكلام مسألة اخرى.

وهكذا نجد ان عنصرين يكفيان لارباك علم الفونولوجي التقليدي ـ كما ندرك صعوبة التعامل مع وحدات فونولوجية تجريدية ـ كما فعلوا هذا في السابق.

تقول احدى النظريات إن اي فونيم بسيط في السلسلة (كما في P في مجموعة Pa او apa) يحدث فيه الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي بصورة متعاقبة (âpa). فكل انطلاق للهواء ينبغي ان يسبقهُ حبس الهواء. لنأخذ مثالا آخر. لابد لي، عند لفظ rp، ان احبس الهواء في r، ثم انطق بـ r مفتوحة، في حين يجري الانغلاق لـ P عن طريق الشفتين، ويجب علي ان احدد وجهتي نظري بدقة كي استطيع الرد على هذا الرأي. ففي تحليل العملية الصوتية، سأقتصر على العناصر المتميزة التي تعطي انطباعا متميزا للاذن، فتسمح بتحديد الوحدات الصوتية السمعية لسلسلة الكلام المنطوق. ولا نأخذ بنظر الاعتبار الا الوحدات المحركة الصوتية السمعية. اذن فالنطق بالصوت r ذي الانفجار الخارجي متبوعا بالصوت P ذي الانفجار الداخلي امر لا وجود له عندي، لان ذلك لا يؤدي الى صوت ملموس، او ان الصوت لا اهمية له بالنسبة للسلسلة الفونيمية. فعلى المرء ان يدرك هذه الحقيقة الجوهرية لكي يفهم التطورات الاخرى التي تليها.

٣. المجموعات المختلفة للانفجار الخارجي والانفجار الداخلي في السلسلة:

لنلاحظ الآن ماذا ينتج عن كل تعاقب للمجموعات الاربع للانفجار الداخلي والانفجار الخارجي، المحتملة من الناحية النظرية وهي:

(١) < >

(٢) > <

(٣) < <

(٤) > >.[٢١]

(٢١) لقد حافظنا على رسم هذه العلامات كما في النص الأصلي (د = انفجار داخلي ؛ ٢ انفجار خارجي). وتقرأ كل مجموعة للعلامات من اليسار الى اليمين. (المترجم).

١) **مجموعة الإنفجار الخارجي + الانفجار الداخلي (< >)** نستطيع دائما الربط بين الانفجار الخارجي والانفجار الداخلي من دون ان نكسر السلسلة الفونيمية: ym, Pi, kr وغيرها (كما في المجموعة السانسكريتية krta، والمجموعة الانكليزية pity، والمجموعة الهندية ـ الاوربية الاولى ـ ymto وغيرها).

ان بعض المجموعات مثل kt ليس في الواقع قيمة صوتية سمعية (اكوستية)، ولكن هذا لا يؤثر في الحقيقة القائلة ان النطق بصوت k المفتوح يجعل الاعضاء الصوتية في موقع مناسب للانغلاق في اللحظة المطلوبة. فالحركتان في العملية الصوتية لا تتعارضان.

٢) **مجموعة الانفجار الداخلي + الانفجار الخارجي (><)**

يمكننا دائما ان نربط بين فونيم الانفجار الداخلي وفونيم الانفجار الخارجي مع مراعاة الشروط والظروف المذكورة في الفقرة السابقة. مثال ذلك im و kt وغيرهما (وكلمة haima الاغريقية و active الانكليزية، الى آخره) ومما لا شك فيه ان الاصوات المتعاقبة في هذه المجموعة لا تحدث كثيرا كما هي الحال بالنسبة للتسلسل العكسي في المجموعة الاولى. والفرق بين الانفجار الداخلي الذي تبدأ به المجموعة والانفجار الخارجي الذي يعقبه هو: ان الانفجار الخارجي الذي يجعل الاعضاء الصوتية في موضع حيادي، لا علاقة له باللحظة (العملية الصوتية) التي تلي ذلك. اما الانفجار الداخلي فينتج عنه وضع محدد لا يناسب اي انفجار خارجي. لذا يتطلب من المرء ان يلجأ الى حركة مساعدة تضع الاعضاء الضرورية لنطق الفونيم الثاني في الوضع الصحيح. فعلى سبيل المثال عندما ينطق المرء بالصوت s في المجموعة sp. يتطلب من الشفتين ان تكونا في وضع الانغلاق كي يستعد للصوت المفتوح p ولكننا نستدل من خبرتنا ان الحركة المساعدة ليس لها قيمة تذكر. فلا ينتج عنها الا صوت خافت لا يؤثر ابدا في تعاقب الأصوات في السلسلة.

٣) **مجموعة الانفجار الداخلي الرابطة (<<).**

يمكن حدوث انفجارين خارجيين متعاقبين، واذا كان الصوت الثاني يعود الى الفونيمات التي تحتاج الى فتحة اقل أو مساوية لفتحة الصوت الاول، فان الانطباع للوحدة الصوتية السمعية الناتج عن ذلك لا وجود له، في حين نجد مثل هذا الانطباع للوحدة الصوتية في المجموعة الأولى والثانية.

فوحدة الارتباط مفقودة في pk التي يمكن ان تلفظ pkq ولكن هذه الاصوات لا تؤلف سلسلة، لان الفصيلتين p و k لهما فتحة واحدة. ان هذا اللفظ غير الطبيعي ناتج عن التوقف بعد الصوت الاول لـ a في cha — pka [٢٢] وعلى العكس من ذلك المجموعة Pr فهي

---

(٢٢) إن المجموعات المؤلفة من فونيمات الانفجار الخارجي التي لها فتحة واحدة شائعة جداً في بعض اللغات (كما في المجموعة الأغريقية kt التي تقع في بداية الكلمة في كلمات مثل kteino). وتفتقر هذه المجموعات، مع انها سهلة اللفظ، الى الوحدة الصوتية السمعية. (لاحظ الحاشية الآتية).

تعطي انطباعا للاستمرارية (لاحظ price)، كما اننا لا نشعر باية صعوبة في النطق بالمجموعة r̂y̆ (لاحظ الكلمة الفرنسية rien (لا شئ) ما سبب ذلك؟ الجواب، في اللحظة التي يحدث فيها الانفجار الخارجي الأول، تتخذ اعضاء النطق الوضع الصحيح للنطق بالانفجار الخارجي الثاني، من دون ان يتعارض ذلك مع الاثر الصوتي السمعي للانفجار الاول. فالاعضاء الصوتية تكون في الوضع للنطق بالصوت r في price في اثناء النطق بالصوت p ولكن يصعب على المرء ان ينطق بالتسلسل المعاكس لذلك، p ليس لان هذه المجموعة لا يمكن النطق بها على نحو آلي (اذ نستطيع ان نمهد للنطق بـ p̂ ونحن ننطق بالصوت r). بل السبب هو ان حركة r تتقابل مع الفتحة الصغيرة للصوت p̂، فتتلاشى. ان r̂p̂ تحتاج الى حركتين متميزتين كي يسمعها المرء، ويتوقف انطلاق الهواء في اثناء ذلك.

وقد يضم الربط المستمر الناتج عن الانفجار الخارجي اكثر من عنصرين، اذا كانت الفتحة التالية أوسع من الفتحة السابقة لها (مثال ذلك k̂r̂ŵa). واذا استثنينا بعض الحالات الخاصة التي لا يمكنني ان ادخل في تفاصيلها هنا[٢٣]، فأن الحد الطبيعي لعدد عناصر الانفجار الخارجي؛ تحدده درجات الفتحة التي يمكن تمييزها فعلا.

٤) مجموعة الانفجار الداخلي الرابطة (<<)

ناتي الآن الى قانون معاكس للقانون المذكور آنفا. ينص على ما يأتي: اذا كان فونيم ما، ذا فتحة أوسع من فتحة الفونيم الذي يليه، حصل انطباع بقاء الاستمرارية (كما في ĭr̆t̆). واذا لم يتحقق هذا الشرط - اي اذا كان الفونيم الثاني ذا فتحة اوسع أو له الفتحة نفسها التي للفونيم الاول - فأن لفظ هذه المجموعة يبقى ممكنا، ولكن المجموعة تفتقر الى الاستمرارية: šr في ăšťra هو في جوهره مثل p̌k في cha – pka. إن هذه الظاهرة توازي تلك التي حللناها في مجموعة الانفجار الخارجي الرابطة من جميع النواحي: ففي řt - الصوت t له فتحة أضيق من الصوت الذي يسبقه، لذا فهو يزيل الانفجار الخارجي عن r وفي مجموعة مثل řm المؤلفة من فونيمين لهما موضعان مختلفان للنطق m لا يزيل الانفجار عن r بل يغطي على الانفجار كليا، فتكون النتيجة كما في المثال السابق. وفي الحالات الاخرى، كما في التسلسل المعاكس m̌r يكسر الانفجار الخفي الآلي الذي لا مناص منه، السلسلة المنطوقة.

---

(٢٣) يقتصر دي سوسور على درجة فتحة الفونيم، وليس على موضع النطق او طبيعة الفونيم (هل هو مهموس أم مجهور، له تذبذب أم انه جانبي ، الى غير ذلك ؟) - وهذا تبسيط مقصود. فالاستنتاجات التي تستمد من مبدأ الفتحة لا تخلو من حالات استثنائية. ففي تسلسل مثل Trya، مثلاً، يصعب لفظ العناصر الثلاثة الأولى من دون كسر السلسلة : trya (إلا إذا أثرت y في r فجعلت منه صوتاً حنكياً، فيندمج الصوتان) في حين تؤلف العناصر الثلاثة في try سلسلة كاملة ذات انفجار خارجي (لاحظ كلمة meurtier وغيرها).
أما Trwa، فلا تقدم اية صعوبة. كما ينبغي أن نذكر مجموعات مثل pmla حيث يصعب التخلي من اللفظ الانفي ذي الانفجار الداخلي. (pmla). ان الشواذ تظهر بصورة خاصة، الانفجار الخارجي، وهي عملية سريعة لا تقبل التأخير. (بالي).

ان مجموعة الانفجار الداخلي، كمجموعة الانفجار الخارجي، يمكن ان تضم اكثر من عنصرين اذا كان لكل عنصر فتحة أوسع من العنصر الذي يليه، (لاحظ ărst).

لندع كسر السلسلة الصوتية الصوتية الآن، ونعود الى السلسلة المتصلة الاعتيادية - التي يمكن تسميتها بالسلسلة الفسلجية - كما في الكلمة الفرنسية Particulierement المؤلفة من Pårtikůlyěrmå إن هذه السلسلة تتميز بتعاقب حلقات تدريجية، تتماثل مع تعاقب لانطلاق الهواء وانغلاق الفتحة للاعضاء الصوتية.

ان مثل هذه السلسلة الاعتيادية تتصف بالامور المهمة الآتية:

٤. **حدود المقطع وقمة الحركة.**

ان الانتقال من الانفجار الداخلي الى الانفجار الخارجي في السلسلة الصوتية يؤدي الى أثر معين، يحدد حدود المقطع (كما في ik في كلمة particulierement). فالتوافق المنتظم لقاعدة الآلية وأثر صوتي سمعي معين يضمن لسلسلة الانفجار الداخلي والخارجي مكانة في علم الفونولوجي. ويكون لها صفة مميزة ثابتة رغم اختلاف الفصائل التي تؤلفها. إذ انها تكون نمطاً؛ يضم عددا من الفصائل، يساوي عدد للمجموعات المحتملة.

وقد يقع حدود المقطع في نقاط مختلفة، في سلسلة واحدة من الفونيمات: وهذا يعتمد على سرعة الانتقال من الانفجار الداخلي الى الانفجار الخارجي. ففي كلمة ardra - على سبيل المثال - تقسيمان هما ardra و ărdrå، لا يكسر اي منهما السلسلة، لان مجموعة الانفجار الداخلي ărd وكذلك مجموعة الانفجار الخارجي dr تحدثان بصورة تدريجية. ويصح الشئ نفسه في uyle في particulierement (ulye او ulye).

ونلاحظ ايضا، عند الانتقال من الصمت الى الانفجار الداخلي الاولي (د) كما في art لكلمة urtist - أو الانتقال من الانفجار الخارجي الى الانفجار الداخلي (<>) - كما في part، لكلمة particulierement — نلاحظ أن الصوت الذي يقع عنده الانفجار الداخلي الاول يتميز عن الاصوات المجاورة بسبب أثر الحركة فيه. ولا يعتمد، أثر الحركة، في اية حال من الاحوال، على الفتحة الواسعة للصوت a لان في ptr، ينتج الصوت r الأثر نفسه: اذ إنه جزء من الانفجارات الاولية مهما كانت فصيلتها، اي مهما كانت درجة الفتحة فيها: وسواء أحدث الانفجار الداخلي بعد السكوت أم بعد الانفجار الخارجي فلا اهمية لذلك. إن الصوت الذي يؤدي الى انطباع حركي هو قمة الحركة.

ان القمم الحركية قد سميت ايضا بالاصوات الصائتة. واطلق على الاصوات الاخرى في المقطع نفسه بالأصوات الساكنة (consonantes) con — sonants. فالحركات والاصوات الصحيحة تحدد فصيلتين مختلفتين: اما الصائتة والساكنة فتشير الى الوظائف ضمن المقاطع. ان هذين النظامين في التسمية يوضحان الارباك الذي ظل يتخبط فيه الكتاب مدة طويلة من الزمن. ففصيلة ا واحدة في الفرنسية في fidèle (امين) وفي pied

(قدم). فهي حركة، ولكنها صوت مجهور في fidele وصوت ساكن في pied. ويبين التحليل أن الصائت هو دائما انفجار داخلي، اما الساكن فقد يكون انفجارا داخليا (كما في bol,L الانكليزية وتكتب boy ولد) او انفجارا خارجيا (كما في ŷ في الكلمة الفرنسية Pye ؛ وتكتب pied. ويؤكد التحليل التمييز الذي اشرنا اليه بين الفصيلتين. وقد تكون e, o, a صائتة، ولكن هذا من باب المصادفة فهي ذات فتحة تفوق في سعتها فتحات بقية الأصوات، لذا تقع دائما في بداية مجموعة الانفجار الداخلي. وعلى العكس من ذلك اصوات الغلق، فهي ذات فتحة ضيقة جدا، لذا تكون دائما ساكنة. ان الفونيمات التي تنتمي الى الاصناف ٢، ٣، ٤ من الفتحات (الاصوات الانفية، والسائلة، واشباه الحركات) يمكن ان تكون صائتة او ساكنة: ويعتمد ذلك على الاصوات المجاورة وعلى طبيعة النطق بها.

٥ - نقد نظريات التقسيم الى مقاطع:

تدرك الأذن التقسيم المقطعي في كل سلسلة منطوقة كما انها تميز الصائت في كل مقطع. قد يوافق المرء على هاتين الحقيقتين. ومع ذلك يتساءل عن سبب صحتهما. لقد قدمت تفسيرات كثيرة لهذه المسألة.

١) لاحظ بعض العلماء ان درجة صوت بعض الفونيمات اكثر شدة من غيرها، لذا حاولوا ان يجعلوا اساس المقطع شدة الصوت Sonority في الفونيم ولكن لماذا لا تؤلف فونيمات ذات شدة صوتية مثل u, i، مقاطع بالضرورة؟ ثم اين تنتهي شدة الصوت طالما ان أصواتاً احتكاكية مثل s تؤلف مقطعا (مثال ذلك pst)؟ فإذا كانت المسألة تنحصر في شدة الصوت للاصوات المتصلة، فكيف يمكن للمرء ان يفسر حصول المقاطع نتيجة مجموعات مثل wl (كما في wlkos (ذئب) في اللغة الهندية الاوربية الاولى) حيث ان اقل العناصر شدة في الصوت هي العناصر المقطعية؟

٢) كان سيفرز E. Sievers اول من بين أن الاصوات التي تصنف الى حركات لا تترك بالضرورة انطباعاً على أنها حركة (مثال ذلك ما شاهدناه من ان y و w ليسا سوى i و u)؟ واذا سأل المرء لماذا ينبغي ان يكون لصوت ما وظيفتان - او انطباعان صوتيان سمعيان، اذ ان الوظيفة هنا تعني الانطباع الصوتي السمعي (الاكوستي) - اجيب ان وظيفة صوت ما تعتمد على «الركزة المقطعية» في ذلك الصوت.

هذه حلقة مفرغة. فاذا كنت حرا في وضع الركزة المقطعية التي تؤدي الى خلق الصوائت حيثما اشاء، وجب ان اطلق على الركزة صفة شدة الصوت، ولكن اذا اردنا للمقطع ان يكون ذا معنى، وجب علينا ان نشتق معناه من قواعد المقطع. بيد ان مثل هذه

القواعد لم تظهر الى الوجود بعد، فضلا عن ان شدة الصوت توصف بانها silbenbildeud[٢٤]، وكأن تكوين المقاطع يعتمد على الركزة المقطعية.

ان الفرق بين طريقتنا وبين (١) و (٢)، فيما تقدم، واضح: اذ اننا بتحليل المقاطع حسب وقوعها في السلسلة الصوتية، نجد الوحدات الصغرى، المؤلفة من اصوات مفتوحة واخرى مغلقة: ثم نقوم بربط هذه الوحدات، وبذلك نستطيع ان نحدد حدود المقطع وقمة الحركة ونعرف الشروط الفسيولوجية التي تؤدي الى حصول الاثار (الانطباعات) الصوتية السمعية (الاكوستية).

ان النظريات التي انتقدناها، فيما سبق، تتبع سبيلا معاكسا: اذ يزعم اصحاب هذه النظريات انهم يستطيعون استنتاج حدود المقاطع وموقع الصوت الصائت من الفصائل الفونولوجية بمفردها. ففي بعض المجموعات الفونيمية قد يكون لفظ من الألفاظ أسهل وأكثر طبيعية من اللفظ الآخر: وعلى العموم تبقى امكانية الاختيار بين الالفاظ المفتوحة والالفاظ المغلقة، وان التقسيم الى مقاطع يعتمد على هذا الاختيار، وليس على الفصائل الفونولوجية مباشرة.

مما لا شك فيه ان النظرية التي قدمتها لا تستنفد جميع الاحتمالات ولا تقدم حلولا لجميع المسائل. فالفاصلة ـ على سبيل المثال ـ التي كثيرا ما تقع، ليست سوى كسر في مجموعة الانفجار الداخلي، مقصود او غير مقصود: مثال ذلك ǎ—ǐ (كما في العبارة الفرنسية il cria (صرخ) و ǐ—ǎ (كما في ébahi «مستغرب» الفرنسية).

ان مثل هذه المجموعات اسهل في الفصائل الفونولوجية التي لها فتحة واسعة. ثمة حلقات مكسورة للانفجار الخارجي، وهي مع انها غير مقسمة تكون سلسلة صوتية شأنها شأن المجموعات الاعتيادية. وقد ذكرت مثالا واحدا منها آنفا، وهو kteíno. ولنأخذ مثلا آخر كما هو مبين في التسلسل pzta: فهذه المجموعة تلفظ عادة p̌ž̌ť̌ǎ وتتألف من مقطعين، او يجب ان تضم مقطعين اذا لفظ الصوت z الحنجري لفظاً متميزاً: اما اذا لم يكن الصوت z متميزا، أصبح الفرق بينه وبين a قليلا؛ لا يكفي لخلق مقطع، طالما ان الصوت z هو من الفونيمات التي تحتاج الى فتحة قليلة: فتكون النتيجة ان المرء يسمع مقطعا واحدا فقط، فيقترب اللفظ من p̌ž̌ť̌ǎ.

في مجموعات الانفجار الخارجي التي تتخللها ثغرات قد يتدخل القصد والارادة، ويستطيع المرء الى حد ما ان يتجنب الضرورة الفسيولوجية. ان تحديد ما هو متعمد وما هو فسلجي قد يكون صعبا. ولكن العملية الصوتية تعتمد على تعاقب الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي، وهذا هو اساس تقسيم السلسلة الى مقاطع.

---

(٢٤) كلمة المانية ـ كلمتين هما silbe = مقطع وbilden = يكون، يؤلف، يصيغ. (المترجم).

٦ ـ طول الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي.

ان تفسيرنا للمقاطع على اساس عمل الانفجار الخارجي والانفجار الداخلي يؤدي بنا الى ملاحظة مهمة، وهي تعميم لحقيقة معروفة في البحور الشعرية. اذ نستطيع ان نميز بين نوعين من الحركات الطويلة في اللاتينية والاغريقية: وهما الحركات الطويلة بطبيعتها (māter) والحركات الطويلة بسبب موقعها (făctus). لماذا يعد المقطع fac طويلا في factus؟ هل سبب ذلك المجموعة ct؟ كلا فلو كانت المجموعة وحدها تحدد الطول، لكان كل مقطع يبدأ بصوتين صحيحين طويلا، ولكن هذا غير صحيح (لاحظ cliens، وغيرها).

السبب الحقيقي يكمن في ان الانفجار الخارجي والانفجار الداخلي يختلفان في جوهرهما بقدر ما يتعلق الامر بالطول. فالانفجار الخارجي سريع لا تستطيع الاذن قياسه: ولهذا السبب ايضا لا ينتج عنه انطباع حركي. فالانفجار الداخلي وحده يمكن قياسه، لذا نشعر وكأننا نستغرق مدة اطول في النطق بالحركة التي يبدأ بها الانفجار الداخلي.

ثم اننا نعلم ان الحركات التي تقع قبل مجموعة مؤلفة من صوت غلق او احتكاكي وصوت سائل Liquid تعامل بطريقتين: فقد يكون الصوت a في patron طويلا او قصيرا: المبدأ في كلتا الحالتين واحد.

فالنطق بالمجموعتين ť́r و t̂r يكون على درجة واحدة من السهولة. ان الطريقة الاولى في النطق تجعل a قصيرة، اما الثانية فتؤدي الى مقطع طويل. بيد ان الصوت a في كلمات مثل factus لا يمكن النطق به بهاتين الطريقتين: أن المجموعة ct يمكن النطق بها: في حين لا يمكن النطق بالمجموعة ć́t.

٧ ـ فونيمات الفتحة ٤، والحركات الثنائية ومسائل تخص اسلوب كتابتها.

واخيرا تحتاج فونيمات الفتحة ٤ الى ملاحظات اضافية، فقد لاحظنا ان لهذه الاصوات ـ على العكس من الاصوات الاخرى ـ مجموعتين من رموز الكتابة (ĭ = i ، ǐ = y ، ŭ = u ، ǔ = w) وسبب ذلك بسيط، ففي مجموعات مثل aiya، auwa الفرق بين اطلاق الهواء وغلق الفتحة اكبر من المجموعات الأخرى. إذ أن i و u يؤديان الى حصول انطباع حركي واضح: ǐ و ǔ ينتج عنهما انطباع لصوت صحيح،(٢٥) ولا اريد ان ازعم أنني اقدم تفسيرا للمسألة، ولكن اريد ان اوضح ان i حين يكون صوتا صحيحا لا يرافقه ابدا غلق الفتحة، فالصوت ǐ في ai لا يساوي أثره أثر y في aiya (لاحظ boy في

---

(٢٥) ينبغي ان نميز بين اللفتحة ٤ والاصوات الرخوة الحنكية الاحتياطية (كما في g في الالمانية الشمالية Liegen) وهي فصيلة فونولوجية لها جميع مميزات الاصوات الصحيحة. (دي سوسور).

الانكليزية و pied في الفرنسية). ان الموقع هنا يقرر نـوع الصمت: فيكون الصـوت y صحيحا و i حركة: فهاذان النوعان للصوت i لا يقعان اعتباطا ويصح الشئ نفسه في u و w: ū و ŭ.

أن الشرح السابق يوضح مسألة الحركات الثنائية، فهي ليست سوى نوع خاص من مجموعة الانفجار الداخلي: ان aita و auta متشابهان تماما، ولا فرق بينهما الا في العنصر الثاني، فالحركة الثنائية هي مجموعة من الانفجار الداخلي، يكون فيها الفونيم الثاني ذا فتحة واسعة نسبية، وهذا يؤدي الى انطباع صوتي سمعي (اكوستي) معين. ويمكن القول ان الصوت الصائت يستمر في العنصر الثاني للمجموعة. وعلى خلاف ذلك مجموعات مثل iya فهي لا تتميز عن مجموعة مثل ira الا بدرجة الفتحة للانفجار الخارجي الاخير. وهذا يعني ان ما يسميه علماء الفونولوجي بالحركات الصاعدة ليست في الحقيقة حركات ثنائية بل مجموعات من الانفجار الداخلي، لا ينتج العنصر الاول فيها انطباعا صوتيا سمعيا معينا مع انه مفتوح بسبب (iya). مجموعات مثل uo و ia التي تقع الشدة فيها على u و i (كما في buob و Liab في بعض اللهجات الالمانية) هي ايضا حركات ثنائية كاذبة لا تعطي انطباع الوحدة الصوتية الذي نجده في ou و ai وغيرهما: اذ لا يمكن النطق بالمجموعة uo على انها انفجار داخلي+انفجار خارجي، مع تجنب كسر الارتباط فيها، من دون اللجوء الى وسيلة تضفي وحدة مصطنعة على المجموعة.

إن تعريفنا للحركة الثنائية ـ الذي يربطها بالمبدأ العام لسلسلة الانفجار الداخلي يبين ان الحركـة الثنائيـة ليست ـ كما يعتقـد البعض ـ شيئا لا يمكن تصنيفـه بين الظواهر الفونولوجية، فلا حاجة لوضعها ضمن الحالات الخاصة. ان الصفة الفريدة التي تتصف بها الحركة الثنائية لا اهمية لها: بل المهم ان نحدد بداية الصائت sonant وليس نهايته.

يميز سيفرز وكثيرون غيره من علماء اللغة كتابة بين n,r,u,u,i وغيرها وبين n,r,u,u,i وغيرها. (i= silbisches i unsubisches) فيكتبون mirta' mairtaa mitra اما انا فأكتبها myarta mairta, mirta. لقد وجدوا ان i و y ينتميان الى فصيلة فونولوجية واحدة، لذا يريدون ان يرمزوا الى الصوتين برمز كتابي واحد (فهم يتشبثون بمبدأ ان السلسلة الصوتية انما تتألف من فصائل متجاورة).

ومع ان اسلوب الكتابة عندهم يعتمد على الدليل السمعي، فهو غير منطقي، يقضي على فرق مهم لابد من مراعاته: (١) فلا يميزون بين u,i المفتوحين (= w,y) وبين i و u المغلقين (اي انهم لا يميزون بين newo و neuo). وعلى خـلاف ذلك، فأن i و u المغلقـين ينقسمان الى قسمين (لاحظ mirta و mairta). وهذه بعض المشاكل التي يواجهها المرء اذا اتبع اسلوب سيفرز. نذكر اولا الكلمات الاغريقية القديمة dwis و duis تقابلها الكلمات

rhéwō و rheûma. ان هذين المثالين من التقابل يحصلان في ظروف فونولوجية واحدة، ويشار اليهما عادة برموز كتابية واحدة. والصوت u اما ان يكون مفتوحا (w) او مغلقا (u)، طبقا للفونيم التالي: هل هو أوسع فتحة أم أضيق؟ بيد ان الصيغ الكتابية duis و -duis rheuma, rheyo تقضي تماما على هذه الفروق. وكذلك الامر بالنسبة للكلمات الهندية الاوربية الاولى في المجموعتين:

sūneu, mātrsu, māteres, matrai, māter. sunusu, sunewes, sunewai

، فهي تتشابه في تعاملها الثنائي لـ r و u.

فالتقابل بين الانفجار الداخلي والخارجي واضح جدا في الكتابة، في الأقل في المجموعة الثانية. بيد ان طريقة الكتابة التي انتقدتها (Sūnusu, Suneues, suneųai,) لا تبين هذا التقابل. فالفروق بين الاصوات (w,u وغيرهما) المفتوحة والمغلقة ينبغي ان نحافظ عليها بل يجب ان نعممها لتشمل النظام بأكمله. اذن ينبغي ان نكتب: matrsu, matepes, matpai, māter وبذلك تتوضح عملية التقسيم الى المقاطع، وتبرز القمة الحركية vocalic peak والحدود المقطعية.

ملاحظة كتبها بالي:

ـــــــــ ان النظريات التي ذكرت آنفاً تلقي الضوء على عدد من المسائل، تطرق الى بعضها سوسور في محاضرته. وهذه امثلة منها.

١) يذكر سيفرز أَنَّ beriltenen beritn̥nn في الالمانية على أن خير مثال للصوت الواحد، يمكن ان يرد مرتين صوتا صائتا ومرتين صوتاً غير صائت (والحقيقة ان n تعمل مرة واحدة على انها صوت ساكن con — sonant لذا يجب ان تكتب هذه الكلمة beritn̥nn، ولكن هذا امر غير مهم). وليس مثال افضل من هذا يبين ان الصوت، والفصيلة، ليسا شيئا واحدا. فأذا اكدنا n، اي جعلنا منه صوتا ذا انفجار داخلي، ثم توقف في عملية اللفظ لم ينتج عن ذلك سوى مقطع طويل. واذا اردنا الحصول على صوت n صائت و n ساكن، وجب علينا ان ننتقل من الانفجار الداخلي (n الاولى) الى الانفجار الخارجي (n الثانية) ثم نعود الى الانفجار الداخلي (n الثالثة). ولما كان الانفجاران الداخليان لا يسبقهما انفجار داخلي آخر، كان كلاهما ، اذن، صوتاً صائتاً.

٢) في بعض الكلمات الفرنسية مثل meurtrier «قاتل» ouvrier «عامل» الى آخره الجزء الاخير trier ـ vrier ـ يؤلف مقطعا واحدا مهما كان لفظ الكلمة (انظر الحاشية ٨). ثم اخذ الناس ينطقون هذا الجزء على انه مقطعين meur — tri — er بادخال فاصلة او بدونها اي trie او triyé. ولم يحصل هذا التغيير بوضع ركزة مقطعية على العنصر i، بل عن طريق تغيير نطق الانفجار الخارجي لهذا العنصر الى نطق الانفجار الداخلي.

ان اللفظ العامي لكلمة ouvrier هو ouvèrier. وهذا التغيير يشبه تقسيم vrier الى

مقطعين، ولكن العنصر الثاني (r) هنا هو الذي تغير نطقه فاصبح صوتا صائتا وليس العنصر الثالث: uvrye ← uvrye. ثم ظهر e قبل الصوت الصائت r.

٣) ويمكننا ان نشير الى الحالات المعروفة لوقوع الحركات في البداية قبل الصوت s المتبوع بصوت صحيح في الفرنسية: في اللاتينية scūtum → iscūtum → esca → éca (درع) في الفرنسية. فالمجموعة sk سلسلة مكسورة، تكون اكثر طبيعية اذا لفظت sk. بيد ان الصوت s للانفجار الداخلي يقوم بعمل القمة الحركية اذا وقع في اول الجملة، او اذا انتهت الكلمة السابقة بصوت صحيح له فتحة ضعيفة فيضخم الصوت L والصوت e، في الأول، صفة الصوت الصحيح s. واذا حاول المتكلم الحفاظ على أية صفة صوتية مميزة تجسمت تلك الصفة، فيحدث الشيُ نفسه في esclandre «فضيحة» والنطق العام للكلمتين estalue, esquelette (الكلمتان الفصيحتان هما squelette «الهيكل العظمي» و statue «تمثال» كما تظهر هذه الظاهرة في اللفظ العامي لحرف الجر de الذي يكتب ed: un oeil ed tanche عين التنش (سمكة). ثم يحذف مقطع من (يحدث ادغام) de tanche فتصبح العبارة d,tanche، ولكن d ينبغي ان تكون ذات انفجار داخلي كي تظهر واضحة (dtănche). فكانت النتيجة ظهور حركة في اول الكلمة في هذه الحالة ايضا.

٤) ليس من الضروري ان نعود الى الوراء الى الاصوات الصائتة في اللغة الهندية الاوربية لنسأل - على سبيل المثال - لماذا تغيرت كلمة hagl في الالمانية القديمة العليا الى hagal، في حين بقيت bagl على حالها. ان L في هذه الكلمة وهي العنصر الثاني لحلقة الانفجار الداخلي băcğ تقوم بعمل صوت ساكن لذا لم تتغير. اما L في hagl، وهي ذات انفجار داخلي ايضا، فكانت قمة حركية. ولما كانت صائتة: ظهرت حركة، في الاول، مفتوحة (تطورت الى a اذا اخذنا الكتابة دليلا لنا).

واصبحت الحركة بمرور الزمن اقل وضوحا، لذا فكلمة Hagel تلفظ اليوم hăgi كما كانت تلفظ في القديم. وطبيعة L مسؤولة عن الفارق في اللفظ بين الكلمة الالمانية والكلمة الفرنسية aigle «نسر» فالكلمة الالمانية Hagel لها L مغلقة في حين للكلمة الفرنسية L مفتوحة يتبعها حرف e الصامت (ĕgiə).

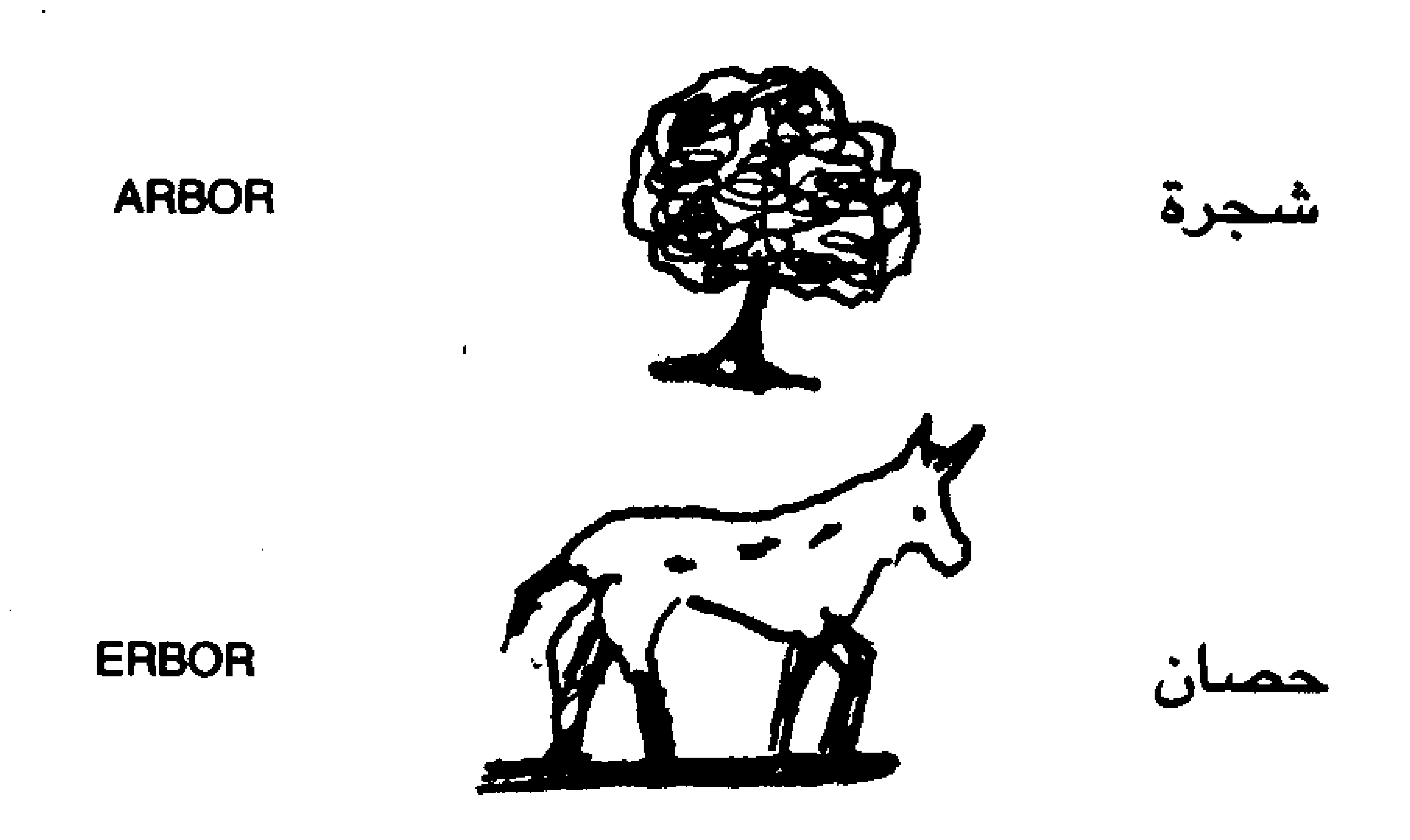
الجزء الاول

مبادئ عامة

الفصل الاول
طبيعة الاشارة اللغوية

١. الاشارة sign والمدلول signified والدال signifier.

يعد بعض الناس اللغة، في جوهرها، عملية لتسمية الاشياء ليس الا - اي انها قائمة من الالفاظ، كل لفظة تدل على الشيء الذي تسميه. فعلى سبيل المثال:



الى آخره الى آخره

ان هذا الرأي يمكن انتقاده في عدد من النقاط. فهو يزعم ان الافكار معدة مسبقا وموجودة قبل الكلمات، كما انه لا يخبرنا هل ان الاسم في طبيعته صوتي ام سايكولوجي (arbor «شجرة» مثلا يمكن النظر اليها من هاتين الناحيتين)، ثم انه يجعلنا نعتقد ان ربط التسمية بالشيء انما هو عملية بسيطة - وهذا الاعتقاد بعيد عن الصحة. ومع ذلك فأن هذا الرأي البسيط يمكن ان يقربنا من الحقيقة اذا وضح لنا ان الوحدة اللغوية هي كيان ثنائي، كيان يتألف من الربط بين عنصرين.

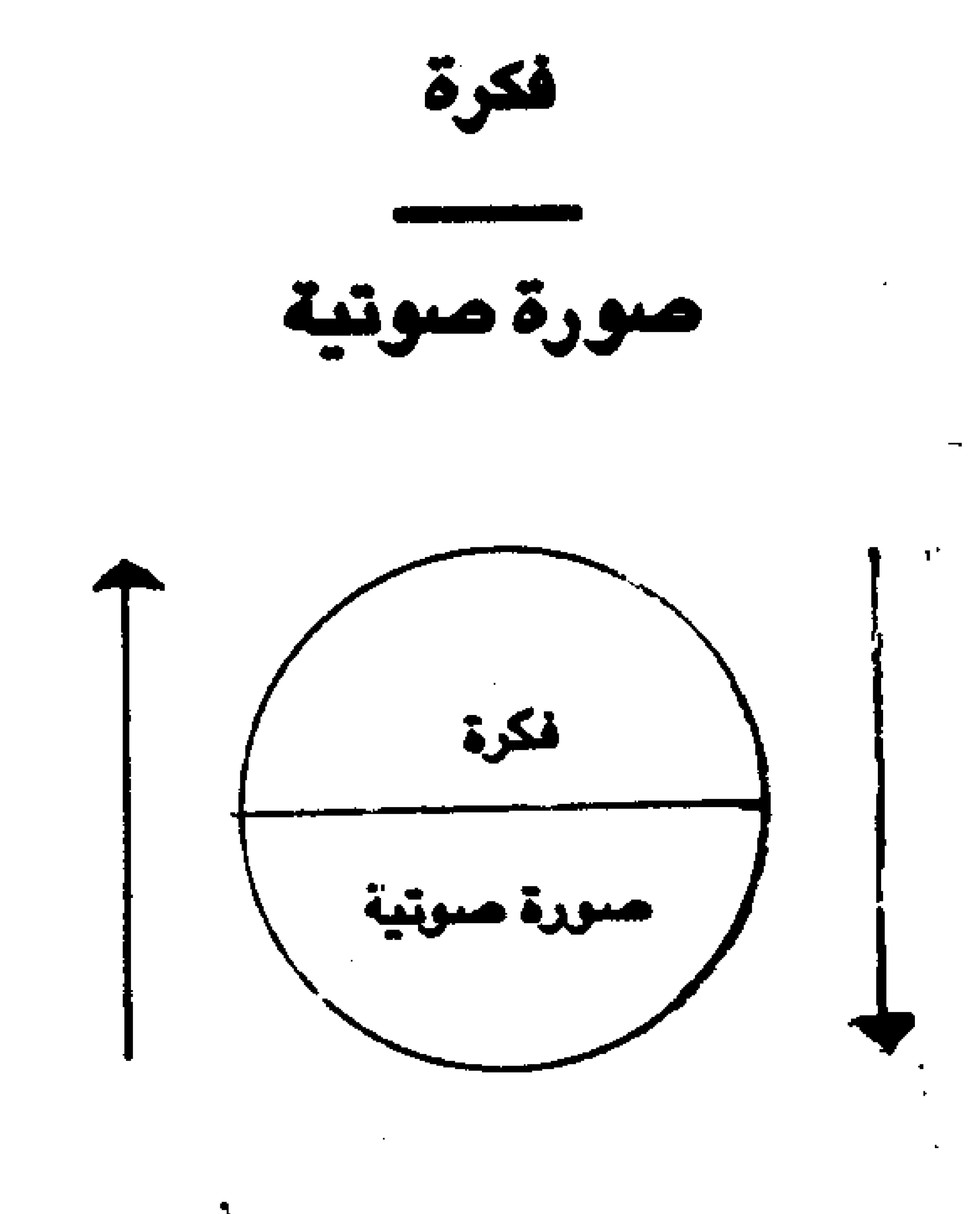
لقد رأينا عند الحديث عن دائرة الكلام ان العنصرين اللذين يدخلان في الاشارة اللغوية هما ذوا طبيعة سايكولوجية، يتحدان في دماغ الانسان بآصرة التداعي (الايحاء). وهذا امر ينبغي تأكيده.

فالاشارة اللغوية تربط بين الفكرة والصورة الصوتية، وليس بين الشيء

والتسمية.(٢٦) ولا يقصد بالصورة الصوتية، الناحية الفيزياوية للصوت بل الصورة السايكولوجية للصوت، اي الانطباع او الأثر الذي تتركه في الحواس. إذن فالصورة الصوتية هي حسية (لها علاقة بالحواس)، واذا حدث أن وصفتها بأنها مادية فانما اعني بذلك في طبيعتها الحسية، وبالمقابلة بالعنصر الآخر للارتباط، وهو الفكرة التي هي اكثر تجريدا من الصورة الصوتية، على العموم.

إن الطبيعة السايكولوجية للصور الصوتية، تصبح واضحة عند ملاحظتنا للساننا. فنحن نستطيع أن نتكلم الى أنفسنا، أو نتلو في ذهننا قصيدة، من غير ان نحرك شفاهنا. ولما كنا نعد الكلمات الموجودة في لغتنا صوراً صوتية، وجب تجنب استخدام لفظة «الفونيمات» التي تتألف منها الكلمات. فهذه اللفظة التي توحي بفعالية صوتية لا يصح استخدامها الا عند الحديث عن الكلمة المنطوق بها ـ أي عند اخراج الصورة الداخلية الى الواقع في الحديث ويمكن تجنب اللبس بأستخدام أصوات الكلمة ومقاطعها شرط أن نتذكر ان الأسماء تشير الى الصورة الصوتية.

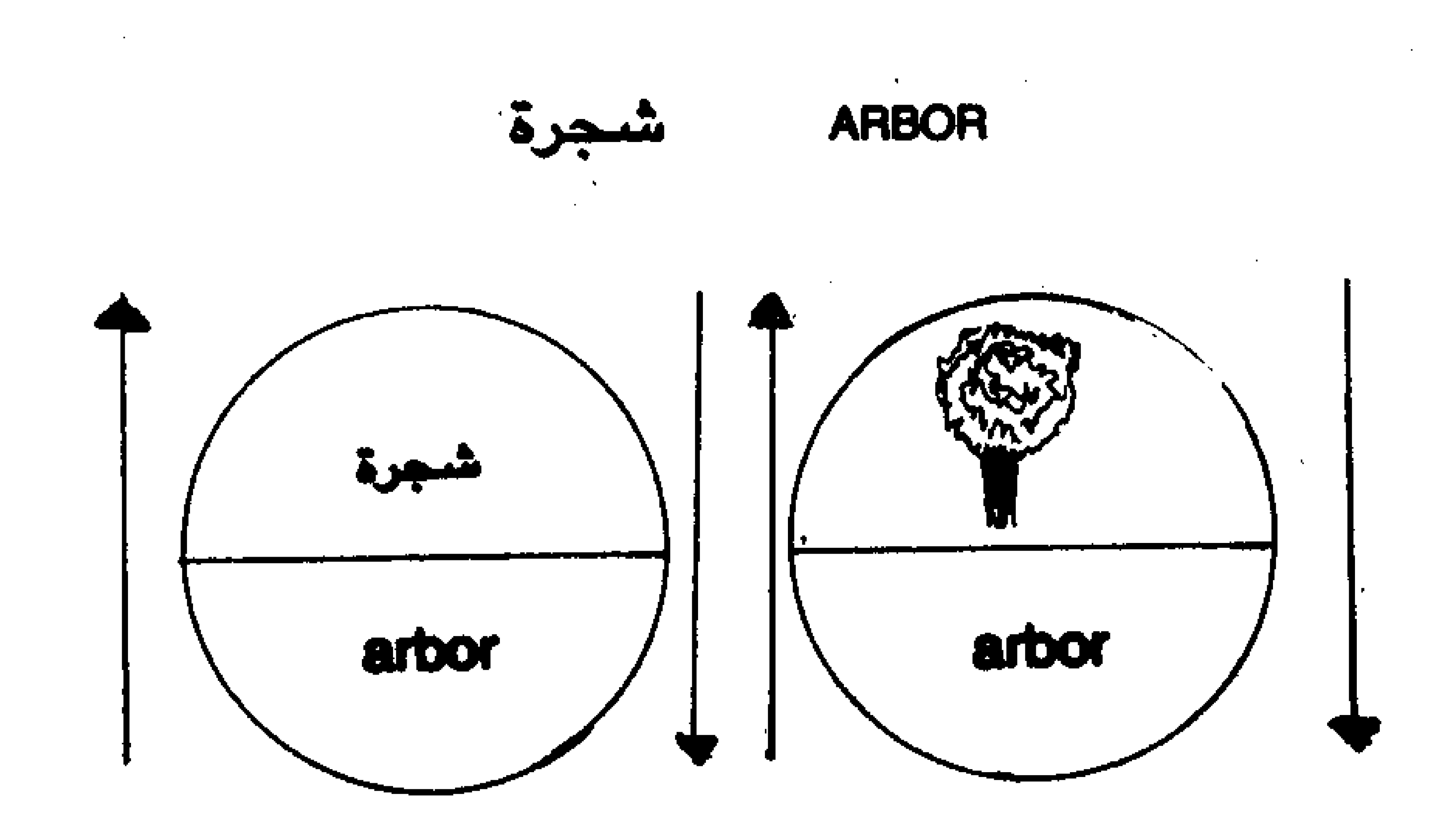
الاشارة اللغوية، اذن، هي كيان سايكولوجي؛ له جانبان، يمكن التعبير عنه بالرسم الآتي:



(٢٦) قد تبدو لفظة الصورة الصوتية ضيقة في معناها، إذ هناك فضلا عن التعبير عن الاصوات، النطق بالكلمة، الصورة العضلية للعملية الصوتية. ولكن اللغة عند سوسور إنما هي في جوهرها ذخيرة، شيء يتسلمه المرء من الخارج. والصورة الصوتية هي التعبير المثالي الطبيعي للكلمة بكونها حقيقة لغوية تقع خارج استعمالها في الكلام. إذن فالجانب الحركي (motor) يقع ضمن هذا المفهوم او انه يحتل جانباً ثانوياً بالمقارنة مع الصورة الصوتية. (بالي).

ان الصلة وثيقة بين الجانبين (العنصرين)، فكل منهما يوحي بالآخر. فسواء أردنا أن نجد معنى الكلمة اللاتينية arbor او الكلمة التي تستخدمها اللاتينية للدلالة على فكرة «الشجرة» فمن الواضح أن الارتباطات التي تقرها اللغة، تبدو لنا هي وحدها مطابقة الحقيقة، وأما غير ذلك مما قد يخطر على بالنا فيهمل.

ان التعريف الذي أوردناه للاشارة اللغوية يثير سؤالا مهما، يتعلق بالتسمية فقد أطلقتْ لفظة «الاشارة» على الربط بين الفكرة والصورة الصوتية. ولكن هذه اللفظة تدل عادة في الاستخدام الشائع الآن، على الصورة الصوتية فقط، اي على الكلمة arbor في «شجرة» او غيرها. وكثيرا ما ينسى المرء ان arbor «شجرة تسمى بالاشارة لا لسبب الا لانها تحمل فكرة «الشجرة» ويؤدي ذلك الى ان الفكرة الحسية تنطوي على فكرة الكل.



ويمكن التخلص من اللبس والغموض، إذا أشرنا الى الأمور الثلاثة هذه بثلاثة اسماء مختلفة، كل اسم يتميز عن الاسمين الآخرين ويوحي بهما. لذا أقترح الإبقاء على لفظة «الاشارة» sign للدلالة على الفكرة باكملها، وأستخدم بدلا من الفكرة concept والصورة الصوتية sound — image على التوالي: المدلول signified (signifie) والدال signifier (significant) ويمتاز التعبيران الأخيران بانهما يوحيان بالفرق بينهما كما يوحيان باختلافهما عن الكل الذي هما جزء منه. اما الاشارة فأنا أميل الى استخدامها لانني لا اعرف كلمة اخرى يمكن ان تحل محلها، واللغة الاعتيادية لا توحي لي بغيرها.

ان الاشارة اللغوية حسب هذا التعريف لها صفتان جوهريتان. وسأذكر هاتين الصفتين لتكونا مبدأين اساسيين لمثل هذه الدراسة.

٢. المبدأ الأول: الطبيعة الاعتباطية للاشارة ان العلاقة بين الدال signifier والمدلول signified ،

اعتباطية. ولما كنت أعني باشارة النتيجة الاجمالية للارتباط بين الدال والمدلول، تهيأ لي ان اقول باسلوب ابسط: إن الاشارة اللغوية اعتباطية. ففكرة «الاخت» sister لا ترتبط باية علاقة داخلية بتعاقب الاصوات r—o—s التي تقوم بوظيفة الدال في اللغة الفرنسية: فهذه الفكرة يمكن التعبير عنها باستخدام أي تعاقب صوتي آخر، وخير دليل على ذلك اللغات المختلفة (التي تستخدم اشارات مختلفة.) فالمدلول (ثور) له الدال f—o—b على طرف من الحدود (الفرنسية ـ الألمانية) و o—k—s (ochs) على الطرف الآخر.

لا يختلف اثنان إذن في الطبيعة الاعتباطية للاشارة، ولكن اكتشاف الحقيقة اسهل من وضعها في مكانها المناسب. فالمبدأ الاول (الاعتباطية) تسود دراسة علم اللغة، وله نتائج لا تحصى. بيد ان هذه النتائج ليست جميعها واضحة للوهلة الاولى، اذ لا يكتشفها المرء الا بعد عدة محاولات، وعند ذاك يمكنه أن يدرك الاهمية الجوهرية لهذا المبدأ.

بقيت ملاحظة طارئة: عندما يغدو علم الاشارات semiology علما مستقلا بذاته، يظهر السؤال الآتي: هل سيضم هذا العلم طرق التعبير التي تعتمد على الاشارات الطبيعية المحضة كالاشارات الصامتة في التمثيل الصامت مثلا pantomime ام لا؟ ولنفرض ان العلم الجديد سيضم مثل هذه الاشارات، فأن الاهتمام الاول لهذا العلم سيظل مُنصبًا على جميع الانظمة التي ترتكز على اعتباطية الاشارة بل أن كل وسيلة من وسائل التعبير التي يستخدمها المجتمع تعتمد ـ في جوهرها ـ على السلوك الجماعي ـ او على شيٌ يشبه ذلك وهو العرف convention فأساليب اللياقة مثلا ـ وان كانت غالبا مفعمة ببعض المميزات الطبيعية للتعبير (كما هي الحال عندما يُحيّي الصيني امبراطوره بانحنائه الى الأرض تسع مرات) ـ تخضع لقاعدة ثابتة: فهذه القاعدة هي التي تحمل المرء على استخدام هذه الأساليب، وليس القيمة الذاتية للاماءة. إن الاشارات الاعتباطية افضل من غيرها في التعبير عن الهدف الاسمي لعملية التعبير بالاشارات. وهذا يفسر لماذا تعد اللغة ـ وهي اكثر نظم التعبير تعقيدا ـ خير ممثل لنظام الاشارات. وبذلك يصبح علم اللغة النمط الاساس لجميع فروع علم الاشارات مع ان اللغة ليست سوى نظام واحد من أنظمة الاشارات.

لقد استخدمت لفظة الرمز symbol للدلالة على الاشارة اللغوية، او بعبارة ادق، للدلالة على ما أطلقنا عليه هنا بالدال. إن استخدام لفظة الرمز لا يتفق مع صفة الاعتباطية. فمن مميزات الرمز أنه لا يكون اعتباطيا على نحو كلي، فهو ليس فارغا: اذ هناك جذر رابطة طبيعية بين الدال والمدلول فرمز العدالة ـ الميزان ـ لا يمكن استبداله اعتباطا بأي رمز آخر ـ كالعربة مثلا.

ثم إن كلمة الاعتباطية تحتاج الى توضيح. فهذه الكلمة لا تعني أن أمر اختيار الدال متروك للمتكلم كليا. (حيث سنرى ان الفرد لا يستطيع ان يغير الاشارة بعد ان

تستقر هذه الاشارة في المجتمع اللغوي.) بل اعني بالاعتباطية انها لا ترتبط بدافع، اي انها اعتباطية لانها ليس لها صلة طبيعية بالمدلول.

واخيرا نذكر اعتراضين قد يثيرهما المرء بخصوص صفة الاعتباطية.

١) قد تستخدم الكلمات التي توحي بمعناها onomatopoeia دليلا على أن اختيار الدال ليس اعتباطا دائما. ولكن الكلمات، التي توحي بمعناها ليست عناصر حيوية (عضوية) في النظام اللغوي. ثم ان عددها اقل بكثير مما يعتقد. فالكلمات الفرنسية مثل fouet «سوط» او glas «صوت الجرس» وغيرها قد توحي الى بعض الناس بوجود علاقة بين المعنى والصوت، ولكن ما علينا الا ان ننظر الى اصولها اللاتينية لنرى ان هذه الكلمات لم تكن دائما تملك مثل هذه الخاصية. fouet مشتقة من fagus اللاتينية، وتعني شجرة الزان، و glas مشتقة من classicum «صوت البوق». فالصفة التي تنسب الى صوت هذه الكلمات الآن انما هي نتيجة عرضية للتطور الصوتي فيها.

اما الكلمات التي هي امثلة حقيقية للعلاقة بين الصوت والمعنى (مثل tick — tuik glug — glug وغيرهما) فهي قليلة العدد، فضلا عن ان اختيارها يكون عادة بصورة اعتباطية، لانها محاولات تقريبية تعتمد ايضا على العرف، في محاكاة بعض الاصوات (مثال ذلك bow — bow في الانكليزية يقابل ذلك ouaoua في الفرنسية(نباح الكلب). ثم ان هذه الكلمات ما ان تدخل اللغة حتى تصبح الى حد ما خاضعة للتطور اللغوي - الصوتي والصرفي الى آخره - الذي تخضع له الكلمات الاخرى (مثال ذلك كلمة pigeon (حمام) مشتقة من اللاتينية العامية pīpió وهذه الكلمة بدورها مشتقة من الصوت الذي يوحي به صوت الطائر): وهذا دليل واضح ان هذه الكلمات تفقد شيئا من صفتها الأولى لكي تكسب الصفة العامة للاشارة اللغوية وهي صفة الاعتباطية (انعدام الصلة الطبيعية)

٢) ألفاظ التعجب: وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالكلمات التي توحي اصواتها بمعانيها. ويصح النقد الذي ذكر، فيما تقدم عليها ايضا. فهي ليست دليلا على بطلان حجة الاعتباطية في الاشارة اللغوية. وقد ينظر المرء الى الفاظ التعجب على انها تعابير تلقائية للحقيقة تمليها على المتكلم القوى الطبيعية. ولكننا نستطيع ان نبين عدم وجود علاقة ثابتة بين المدلول والدال في معظم الفاظ التعجب. فما علينا الا ان نقارن بين هذه الالفاظ في لغتين حتى نرى اختلافها من لغة الى اخرى (فلفظة! aie الفرنسية يقابلها! ouch في الانكليزية)[٢٧]. ثم إننا نعلم ان كثيرا من الفاظ التعجب كلفت في وقت ما كلمات لها معان

---

(٢٧) يقابل ذلك في العربية آخ ! (المترجم).

محـددة (لاحظ) الكلمـة الفـرنسيـة diable (اللعنـة)، mordieu (الله) من mort dicu (في الانكليزية Zounds' goodness).

إذن فالالفاظ التي توحي بمعناها والفاظ التعجب ذات اهمية ثانـوية، واصلهـا الرمزي موضع خلاف.

٣) الصفة الثانية: الطبيعة الخطية للدال.

لما كان الدال شيئا مسموعا (يعتمد على السمع) فهو يظهر الى الوجود في حيز زمني فقط ويستمد منه هاتين الصفتين (أ) انه يمثل فترة زمنية و (ب) وتقاس هذه الفترة ببعد واحد فقط: فهو على هيئة خط.

إن المبدأ الثاني هذا واضح كل الوضوح، وقد اهمله علماء اللغة، لا شك أنهم وجدوه بسيطا جدا ومع ذلك فهو اساسي له نتائج لاتحصى. فأهميته تضاهي اهمية الصفة الاولى: اذ ان عمل اللغة بأكمله يعتمد عليه (لاحظ الجزء الثاني، الفصـل الخامس). ويختلف الدال السمعي عن الدال البصري في ان الدال البصري (كأشارات المـلاحة مثلا) يوفر امكانية قيام مجموعات على عدة ابعاد في آن واحد في حين ان الدال السمعي له بعد واحد فقط ـ وهو البعد الزمني. وعناصر الدال السمعي تظهر على التعاقب، فهي تؤلف سلسلة. وتتضح هذه الخاصية عندما نعبر عن الدال كتابة، فيحل الخط المكاني لعلامات الكتابة محل التعاقب الزمني.

وقد لا تكون الطبيعية الخطية للدال واضحة. فعندما اشدد على مقطع ما يبدو وكأنني اركز اكثر من عنصر واحد في نقطة واحدة. ولكن هذا نوع من الوهم. فالمقطع والركزة يؤلفان عملية صوتية واحدة فقط. وليس في هذه العملية ثنائية، بـل تقابـلات مختلفة بين ما تقدم وتأخر (لاحظ الجزء الثاني، الفصل السادس).

الفصل الثاني
صفة الثبوت والتغيير في الاشارة

١. الثبوت:

ان الدال، مع كونه يبدو وكأنه قد اختير بحرية كاملة ليمثل الفكرة التي يعبر عنها، ثابت، وليس حرا بالنسبة للمجتمع اللغوي الذي يستخدمه. وليس لجماهير الناس رأي في الموضوع. فالدال الذي تختاره اللغة لا يمكن استبداله بغيره. ان هذه الحقيقة التي قد تبدو وكأنها تحمل في طياتها تناقضا، يمكن تسميتها بالاسلوب الدارج «بالحرية المقيدة في لعب الورق». فنقول للغة: «اختاري» ثم نضيف: ولكن يجب ان تختاري هذه الاشارة لا غيرها. فليس باستطاعة اي فرد - وان اراد ذلك ان يغير على أي نحو الاختيار الذي اتفق عليه. ثم إن المجتمع نفسه لا يمكن ان يفرض سيطرته حتى على كلمة واحدة، فالكلمة مرتبطة باللغة المستخدمة.

فليست اللغة مجرد اتفاق او عقد، وهذا ما يجعل الاشارة اللغوية ذات اهمية خاصة للباحث. اذ ان اللغة تقدم خير دليل على ان القانون بعد ان يقبله المجتمع يصبح شيئا يمكن تحمله وليس قاعدة يخضع لها الجميع عن طوع:

لنر اولا لماذا لا نستطيع ان نسيطر على الاشارة اللغوية، ثم نستخلص النتائج المهمة لهذه الظاهرة.

مهما رجعنا الى الوراء وتوغلنا في القدم ومهما كانت الفترة التي نختارها، فأن اللغة تظهر لنا على انها تراث من الفترة السابقة للفترة التي نحن بصددها. وقد نتصور لحظة زمنية حددت فيها مسميات للاشياء وقامت صلة بين الافكار والصور الصوتية، ولكن مثل هذه العملية لم تسجل قط. ان فكرة ان الامور قد جرت بمثل هذا الاسلوب امر يوحي به شعورنا العميق بالطبيعة الاعتباطية للاشارة.

فلم يعرف اي مجتمع من المجتمعات اللغة سوى انها نتاج موروث من الاجيال السابقة ينبغي قبوله. لذا ليس لمسألة أصل الانسان تلك الأهمية التي يعتقد أنها تنطوي عليها. بل ان المسألة لا تستحق الاهتمام، لان الهدف الحقيقي الوحيد لعلم اللغة هو الحياة الطبيعية الاعتيادية للغة لها وجود. فاية حالة من حالات اللغة انما هي دائما نتاج للقوى التاريخية، لذا تفسّر هذه القوى عدم تغيّر الاشارة، اي لماذا تقاوم الاشارة استبدالها اعتباطيا.

لا فائدة من القول ان اللغة شيٌ موروث، ثم نترك الامر عند هذا الحد. الا يمكننا ان

نغير القوانين المرعية الموروثة من وقت الى آخر؟

للاجابة عن هذا الاعتراض، علينا ان نضع اللغة في اطار اجتماعي، ثم نصوغ السؤال بالصيغة التي نصوغ بها اي سؤال اجتماعي. كيف تنقل بقية النظم الاجتماعية من جيل الى آخر؟ ان هذا السؤال العام ينطوي على مسألة الثبوت او عدم التغيير. وعلينا ان نحدد الحرية الكثيرة او القليلة التي تتمتع بها بقية الانظمة. فنجد في كل حالة من الاحوال أنّ النسبة تختلف بين التقليد الثابت وحرية المجتمع في العمل.

ثم نجد السبب الذي تكون به سلطة العرف الثابت، في صنف من الأصناف، اشد او اقل من حرية المجتمع في العمل. واخيراً نعود الى اللغة فنسأل لماذا يسود العامل التأريخي الذي ينقل اللغة من جيل الى اخر فيمنع حدوث اي تغيير فجائي واسع.

لهذا السؤال اجوبة كثيرة. فعلى سبيل المثال، يمكن القول ان الاجيال المتعاقبة لا تتخذ هيئة فرض جيل على جيل كما هي الحال في مجرات دولاب الاثاث، بل ان الاجيال تندمج وتنصهر بعضها في بعض، فيشتمل كل جيل على افراد من جميع العصور ـ فتكون نتيجة ذلك ان التغيير في اللغة لا يرتبط بتعاقب الاجيال. واذا تذكرنا الجهود الكبيرة التي ينبغي بذلها لتعلم لغة الام علمنا ان اي تغيير عام في اللغة امر مستحيل. كما يمكن ان نضيف ان التأمل لايدخل في الاستخدام الفعال للغة ـ فالمتكلمون عامة غير شاعرين بقوانين اللغة، واذا كانوا غير شاعرين بهذه القوانين فكيف يستطيعون تغييرها؟ حتى وان كانوا شاعرين بهذه القوانين، فلا شك ان هذا الشعور قلما يؤدي الى النقد، حيث ان الناس على العموم قانعون باللغة التي يرثونها.

١) الطبيعة الاعتباطية للاشارة.

ان هذه الملاحظات مهمة غير انها ليست ذات علاقة وثيقة بالموضوع الذي نحن بصدده اما الملاحظات الآتية فجوهرية وأشد صلة وتعتمد عليها بقية الأمور.

ذكرنا آنفا الامكانية النظرية للتغيير: واذا تأملنا المسألة اكثر لاحظنا ان الطبيعة الاعتباطية للاشارة هي في الحقيقة العامل الذي يقي اللغة من أية محاولة لتغييرها. إن أقرب الناس (سليقة) إلى اللغة لا يستطيع التحدث عنها، والسبب في ذلك ان مناقشة اي موضوع تحتاج الى اساس منطقي، فعلى سبيل المثال يمكن مناقشة ايهما افضل: الزواج بواحدة ام الزواج بأكثر من واحدة كما يمكن تقديم الأدلة لدعم هذا الجانب او ذاك. وكذلك يمكن للمرء ان يناقش نظاما من الرموز، لان الرمز يرتبط ارتباطا منطقيا بالشئ الذي يرمز اليه (انظر ما قلناه سابقا). اما اللغة فهي نظام من الاشارات الاعتباطية أي انها تفتقر الى الاساس الضروري، والارضية الصلدة للمناقشة. اذن ليس من سبب يجعلنا نفضل لفظة soeur (اخت) على sister، ochs (ثور) على boeuf وغيرها.

٢) كثرة الاشارات امر ضروري لجميع اللغات.

هناك عامل مهم آخر يقف في طريق تغيير وهو العدد الكبير للاشارات اللغوية التي تتألف منها اية لغة من اللغات. من الواضح ان نظاما للكتابة يتـألف من عشرين الى اربعين حرفا يمكن استبداله بنظام اخر اذا اقتضت الحاجة. ولو كانت اللغة تضم عددا محدودا من العناصر لصح عليها الشيْ ذاته: بيد ان الاشارات اللغوية لا تحصى.

٣) التعقيد الشديد الذي يتميز به النظام.

١ اللغة عبارة عن نظام. فاللغة من هذه الناحية ليست اعتباطية تماما (كما سنرى فيما بعد) بل تخضع الى حد ما للمنطق، وهنا ايضا تظهر عدم قدرة جماهير الناس على تغيير اللغة. فالنظام شيْ معقد لا يمكن فهمه الا بعد التأمل: والذين يستخدمون النظام كل يوم يجهلون امره. فلا يمكننا ان نتصور التغيير الا بتدخل الاختصاصيين والنحويين وعلماء المنطق وغيرهم، ولكن الخبرة علمتنا ان مثل هذا التدخل قد فشل دائما في الماضي.

٤) عدم الاكتراث الجماعي نحو التجديد.

اللغة في كل لحظة من اللحظات موضوع اهتمام الجميع، وهذه النقطة تفوق غيرها في الاهمية: فهي تنتشر في المجتمع ويستخدمها المجتمع كل يوم. ولا نستطيع ان نشبهها في هـذا المجال بـأي نظام آخـر. فالانمـاط السلوكية كـالطقوس الدينيـة، والاشارات المستخدمة في الملاحة وغيرها لا يستخدمها الا عدد محدود من الافراد في آن واحد.

ولا تستخدم الا لفترة محددة من الزمن. اما اللغة فيشترك في استخدامها كل فرد وفي كل قت. ولذلك تقع دائما تحت تأثير جميع الناس. وهذه الحقيقة الجوهرية تكفي للبرهنة على استحالة حدوث ثورة في اللغة. فاللغة اقل النظم الاجتماعية خضوعا لبادرة التطوير. فهي تمتزج بحياة المجتمع، والمجتمع خامل بطبعه، فهو اشد القوى محافظة.

ولكن القول بان اللغة نتاج القوى الاجتماعية لا يكفي دليلا على ان اللغة غير حرة، فعلينا ان نتذكر دائما انها ميراث العصور السابقة، لذا يجب ان نضيف ان هذه القوى الاجتماعية مرتبطة بالوقت. فاللغة لا يقرها الثقل الجمـاعي حسب بل الوقت ايضـا. وهذان العاملان لا يمكن الفصل بينهما. ففي كل لحظة تتقيد حـرية الاختيـار بفضل الرابطة القوية بينهما وبين الماضي. نقول الرجل والكلب. وهذا لا يمنع من وجود آصرة بين القوتين المتضادتين في الاطار الاجمالي لظاهرة العرف الاعتباطي الذي يتم به الاختيار الحر، والزمن الذي يجعل من الاختيار شيئا ثابتا. فالاشارة اعتباطية، لذا فهي لا تخضع لاي قانون سوى قانون العرف، ولما كانت تستند الى العرف فهي اعتباطية.

٢. التغيير:

ان الزمن، الذي يضمن استمرارية اللغة، له تأثير آخر مناقض على ما يبدو للتأثير الاول: فهو يدفع الى التغيير السريع او البطيّ للاشارة اللغوية. اذن يمكننا الحديث عن الثبوت والتغيير في الاشارة.[٢٨]

ان هاتين الحقيقتين تعتمدان - في جوهرهما - الواحدة على الاخرى مع انهما مستقلتان. فالاشارة تتعرض للتغيير لانها تملك القدرة على الاستمرارية وابقاء كيانها. والذي يسود جميع انواع التغيير هو بقاء المادة الاصلية، فاهمال الماضي انما هو شيٌ نسبي وهذا ما يجعل مبدأ التغيير يعتمد على مبدأ الاستمرارية.

التغيير في الزمن يتخذ اشكالا متعددة، يمكن للمرء ان يكتب عن كل واحد منها فصلا مهما في علم اللغة. لِنَرَ ما الامور التي تحتاج الى تحديد، من دون الدخول في التفاصيل.

في بادىء الامر ينبغي ان نوضح المقصود بلفظة التغيير. قد يظن المرء ان التغيير يعني التغيير الصوتي الذي يخضع له الدال. او ربما التغيير في المعنىٰ الذي يؤثر في فكرة المدلول. ان هذا الرأي عن التغيير غير واف بالغرض. فمهما كانت قوىٰ التغيير، سواء جاءت كل واحدة مفردة او جميعها سوية، فأنها تؤدي دائماً الى تغيير في العلاقة بين المدلول والدال.

وهذه أمثلة على ذلك. فاللفظة اللاتينية necāre «قتل» اصبحت في الفرنسية noyer «غرق». وحدث تغيير في الصورة الصوتية وكذلك في الفكرة. ولكن لا فائدة من الفصل بين جُزأي هذه الظاهرة. اذ يكفي ان نذكر بخصوص هذه الظاهرة بأكملها ان العلاقة بين الفكرة والأشارة تفككت، فحل تغيير في العلاقة بينهما. اما اذا تركنا مقارنة اللفظة اللاتينية الكلاسيكية necare بالكلمة الفرنسية noyer، وقارنا الكلمة الاولىٰ بلفظة necare في اللاتينية والعامية للقرن الرابع او الخامس التي تعني «غرق» اختلف الامر. ولكن هنا ايضاً، مع انه لم يحدث تغيير ملموس في الدال، حصل تغيير في العلاقة بين الفكرة والاشارة[٢٩].

واللفظة الالمانية القديمة dritteil «ثلث» اصبحت Drittel في الالمانية الحديثة. بقيت

(٢٨) من الخطأ أن نصف دي سوسور بأنه غير منطقي او يناقض نفسه لانه ينسب صفتين متناقضتين الى اللغة. فهو يريد من إستخدام الضدين تأكيد حقيقة ان اللغة تتغير مع ان المتكلمين غير قادرين على تغييرها - كما يمكن القول انها غير ملموسة ولكنها ليست غير قابلة للتغيير. (بالي).

(٢٩) استخدم دي سوسور من أيار حتى تموز ١٩١١ اللفظتين القديمتين (فكرة، إشارة) واللفظتين الجديدتين (المدلول والدال) من دون تمييز. (باسكن).

الفكرة في هذا المثال واحدة وتغيرت العلاقة في ناحيتين. فتغيير الدال ليس في مفهومه المادي حسب بل في صيغته النحوية. فلم تعد الفكرة تنطوي على Teil «جزء». فلفظة Drittel كلمة واحدة. اذن هناك دائماً تغيير في العلاقة مهما اختلفت الطريقة.

وفي اللغة الانكوساكسونية بقيت لفظة fot «قدم» التي كانت مستخدمة في عصر ما قبل الكتابة في حين تغيرت لفظة الجمع fōti فاصبحت fēt (feet في الانكليزية الحديثة). ومهما كانت التغييرات الاخرىٰ، فلا شك من تغيير واحد: لقد حصل تغيير في العلاقة بينهما: وظهرت اوجه شبه اخرىٰ بين المادة الصوتية والفكرة.

فاللغة لا حول لها في الدفاع عن نفسها في مواجهة القوىٰ التي تغير من لحظة الى اخرىٰ العلاقة بين المدلول والدال. وهذه احدىٰ نتائج الطبيعة الاعتباطية للاشارة.

تختلف النظم البشرية الاخرىٰ كالتقاليد والقوانين وغيرهما عن اللغة في انها جميعها تستند بدرجات مختلفة الى العلاقات الطبيعية للاشياء: فجميعها قد تبنت بالضرورة الوسائل المناسبة للغاية المرجوة. فحتىٰ طراز اللبس ليس اعتباطياً. وان كنا نستطيع ان نخرج قليلاً عن الشروط التي يمليها علينا جسم الانسان. اما اللغة فلا يقيدها شيء في اختيار الوسائل، إذ لا يوجد شيء على ما يبدو يمنع قيام ارتباط بين فكرة ما وتسلسل صوتي.

اراد وتني ان يؤكد ان اللغة نظام حقيقي فركز بحق على الطبيعة الاعتباطية للاشارات: وبذلك وضع علم اللغة على أسس صحيحة. ولكنه لم يستمر في هذا الطريق الى نهايته ليرىٰ ان اعتباطية اللغة تفصلها جذرياً عن بقية النظم.

وهذا واضح من الاسلوب الذي تتبعه اللغة في التطور. فليس هناك ما هو اكثر تعقيداً منه: ولما كانت ناتجة عن القوىٰ الاجتماعية والزمن، فلا يستطيع احد ان يغير شيئاً فيها، ومن جهة اخرىٰ، اعتباطية الاشارات اللغوية تنطوي على حرية اقامة اي نوع من العلاقة بين المادة الصوتية والافكار. وينتج عن ذلك ان العنصرين (الصوت والفكرة) اللذين يجتمعان في الاشارة يساعد كل منهما على ديمومة حياته الخاصة الى درجة لا نجدها في أي نظام آخر، فتتغير اللغة او تتطور، تحت تأثير جميع القوىٰ التي يمكن ان تؤثر في الاصوات او المعاني. فالتطور أمر لا مناص فيه. ولا توجد لغة واحدة في العالم تقاومه. فما ان تمضي فترة من الزمن حتىٰ تدون بعض التغييرات الواضحة.

إن التغيير أمر لا بد منه حتىٰ انه يظهر في اللغات الاصطناعية (غير الطبيعية). فمن يخترع لغة ما يستطيع السيطرة عليها قبل ان توضع موضع الاستخدام. ولكن ما ان تدخل في مجال الاستخدام لتحقق الغاية، التي وضعت من أجلها، حتىٰ تصبح ملكاً لجميع الافراد، فيفقد صاحبها السيطرة عليها.

ولنأخذ الاسبرانتو على سبيل المثال: اذا نجحت هذه اللغة فأنها ستتحرر من القيد

الذي فرض عليها. فأغلب الظن ان الاسبرانتو بعد ان توضع قيد الاستخدام تـدخل مرحلة من الحياة الكاملة للاشارة. وتنتقل طبقاً لقوانين تختلف تماماً عن تلك التي وضعت لتلائم طبيعتها المنطقية الاولى: ولن تعود الى هذه الطبيعة ابداً. ان الذي يقترح لغة ثابتة تستخدمها الاجيال المقبلة وتقبلها بطبيعتها الاولى مثله كمثل الذي يضع تحت الدجاجة بيضة البط. فاللغة التي يخلقها هذا الرجل يجرفها، رغم صاحبها، التيار الذي يجرف بقية اللغات.

يتحكم في الاشارات مبدأ علم الاشارات العام: فتجتمع الاستمرارية في الزمن مع التغيير في الزمن، وتؤكد ذلك أنظمة الكتابة، لسان الصم ـ البكم وغير ذلك من الانظمة.

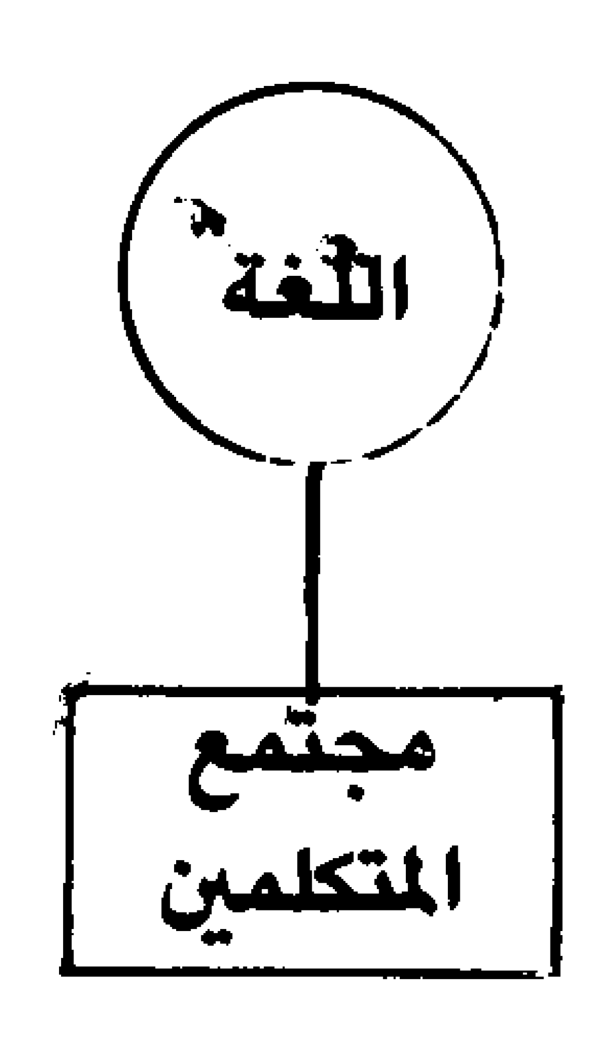
ولكن ماذا يدعم ضرورة التغيير؟ قد يوجه لي اللوم لأنني لم استطع ان اوضح هذه النقطة بالدرجة التي وضحت بها مبدأ الثبوت. وسبب ذلك لأنني لم إميز بين القـوى المختلفة للتغيير. إذ يجب ان نـأخذ بنـظر الاعتبار تنـوع هذه القـوى كي نفهم مدى ضرورتها.

يستطيع المرء ان يلاحظ منذ البداية أسباب الاستمرارية، اما اسباب التغيير في الزمن فهي ليست كذلك. من الافضل اذن ان لا نقدم شرحاً دقيقاً في هذه المرحلة، بل نقتصر في حديثنا على تغيير العلاقات على نحو عام. ان الزمن يغير كل شيء: اذن ليس من سبب يجعل اللغة لا تخضع لهذا القانون العام.

لنعد الآن الى ذكر النقاط الاساسية لحديثنا ونربـط بينها وبـين المبادىء التي أوردناها في المقدمة.

١) اذا تركنا التعريف العقيم للكلمات، فأننا نجد ضمن الظاهرة العامة للسان جزئين هما: اللغة والكلام. فاللغة هي ظاهرة اللسان مطروحاً منها الكلام. فهي المجموع الكلي للعادات اللغوية التي تساعد الفرد على ان يفهم غيره ويفهمه غيره.

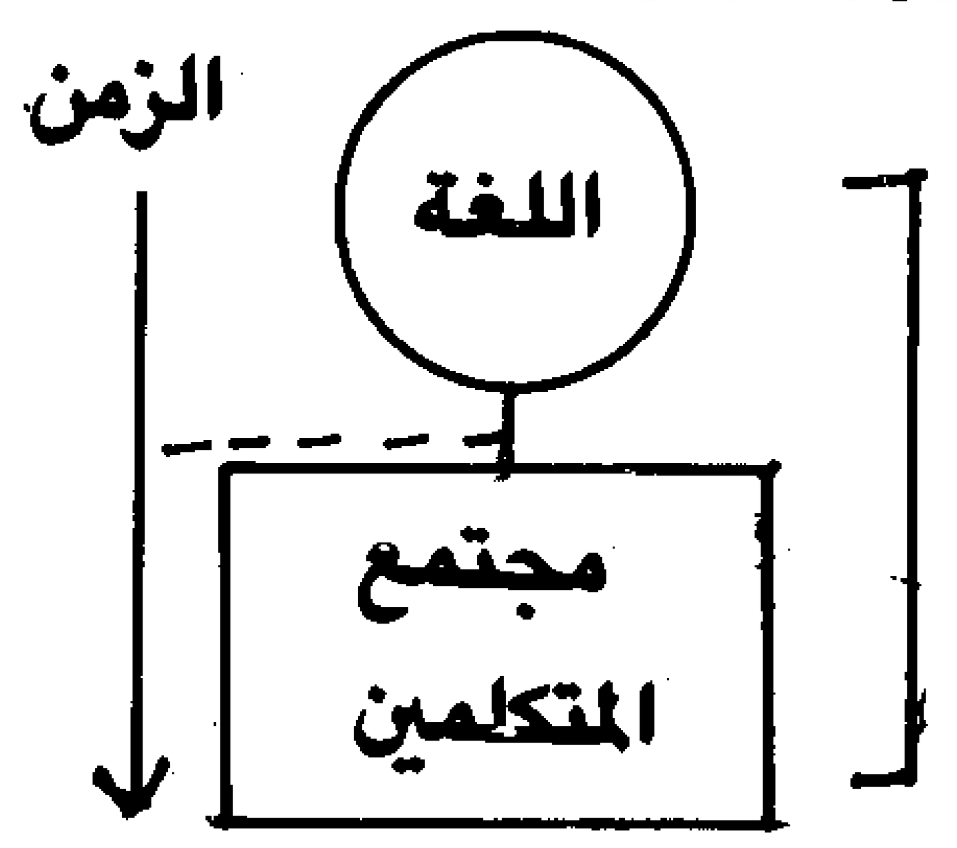
٢) ولكن هذا التعريف يترك اللغة خارج السياق الاجتماعي: ويجعل منها شيئاً مصطنعاً، لأنها لا تضم الا الجانب الفردي من كيانها. ان تحقيق كيان اللغة يتطلب وجود مجتمع من المتكلمين. فاللغة لا وجود لها خارج الاطار الاجتماعي ـ وهو أمر قد يخالف جميع المظاهر ـ لأن اللغة ظاهرة من ظواهر الاشارة. والطبيعة الاجتماعية للغة هي احدى المميزات الداخلية لها: كما ان تعريفها الكامل يتطلب عنصرين لا يمكن الفصل بينهما كما هو مبين في الصورة الآتية:



ولكن طبقاً لما ذكرنا، فأن اللغة ليست حية، بل تملك مقومات الحيـاة او الحياة الكامنة: وقد ذكرنا الحقيقة الاجتماعية فقط، ولم نذكر الحقيقة التاريخية.

٣) ان الاشارة اللغوية ـ كما ذكرنا ـ اعتباطية: واللغة حسب تعريفنا تبدو على انها نظام حر يمكن ترتيبه حسب ادارة المرء لأنه يعتمد كلياً على مبدأ منطقي. واذا أخذنا بنظر الاعتبار الطبيعة الاجتماعية للغة بصورة مستقلة فأن ذلك لا ينفي وجهة النظر آنفة الذكر. ومما لا شك فيه تعتمد سايكولوجية الجماعة، فقط، على أساس منطقي في عملها. اذن ينبغي للمرء ان يأخذ بنظر الاعتبار كل شيء يجعل المنطق يحيد عن الطريق في أثناء الاتصال الحقيقي بين الافراد. ولكن الشيء الذي يمنع اللغة ان تكون العرف البسيط الذي يمكن تغييره حسب اهواء الجماعات المعنية، ليس الطبيعة الاجتماعية للغة: بل هو عمل الزمن مضاف اليه القوىٰ الاجتماعية. فأذا اهملنا الزمن اصبحت الحقائق اللغوية ناقصة، وصعب علينا التوصل الى نتيجة.

واذا نظرنا الى اللغة ضمن الزمن وأهملنا مجتمع المتكلمين ـ تصور فرداً لوحده يعيش عدة قرون ـ ربما لا نلاحظ اي تغيير. فالزمن لن يؤثر في اللغة. وعلى العكس من ذلك، فأذا اخذنا بنظر الاعتبار مجتمع المتكلمين واهملنا الزمن ـ لما رأينا أثـر القوىٰ الاجتماعية التي تؤثر في اللغة. فأذا اردنا ان نذكر جميع الحقائق علينا ان نضيف الى الرسم الاول اشارة تدل على مرور الزمن:



فاللغة لم تعد حرة، لأن الزمن يسمح للقوىٰ الاجتماعية العاملة في اللغة ان تعمل عملها. وهذا يعود بنا الى مبدأ الاستمرارية، الذي يلغي الحرية. ولكن الاستمرارية تنطوي بالضرورة على التغيير ـ على درجات مختلفة من التغيير في العلاقة بين المدلول والدال.

الفصل الثالث

علم اللغة الثابت والمتطور

١ - الثنائية الداخلية لجميع العلوم التي تُعنىٰ بالقيم:

قليل من اللغويين من يشك بأن تدخل عامل الزمن يخلق مصاعب تخص علم اللغة وتفتح لهذا العلم طريقين مختلفين تماماً.

فأكثر العلوم الاخرىٰ لا تتأثر بطبيعتها الثنائية الاساسية: اذ لا يحدث الزمن أي تأثير خاص فيها. فقد وجد علم الفلك ان النجوم تتغير تغيراً ملموساً، ولكنه لم يضطر لهذا السبب ان يقسم نفسه الى فرعين من فروع الدراسة.

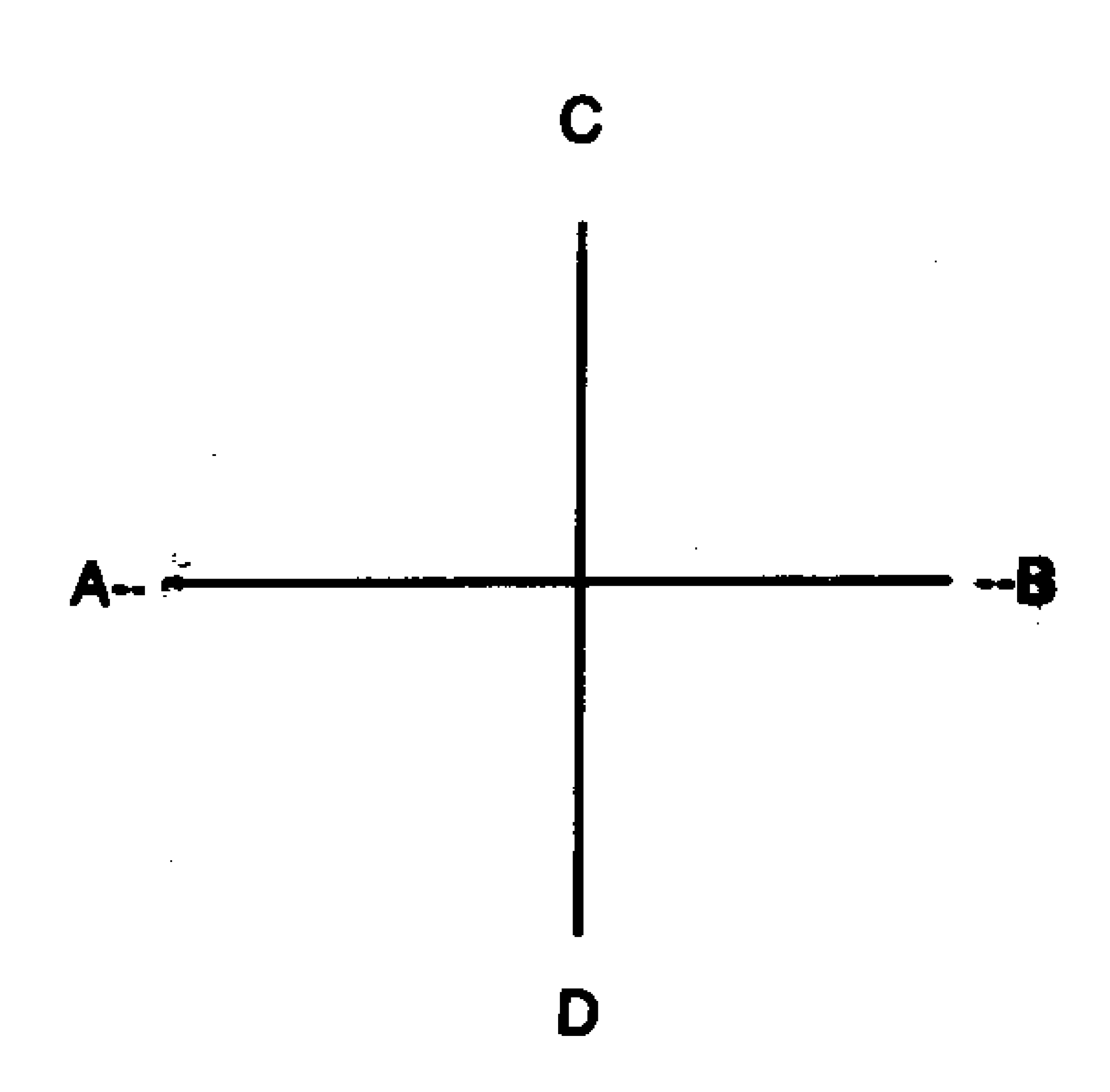
ويهتم علم طبقات الارض (الجيولوجيا) بالتعاقب الزمني في كل لحظة من اللحظات، ولكن دراسته لطبقات الارض لا تغدو فرعاً مستقلاً تماماً من فروع المعرفة. وللقانون فرع يهتم بالوصف وآخر بالجانب التاريخي، ولكن احد الفرعين ليس ضداً للآخر. ولا يظهر التاريخ السياسي للامم الا ضمن الاطار الزمني، ولكن المؤرخ الذي يصف فترة معينة لا يعمل بعيداً عن التاريخ. وعلى خلاف ذلك علم الانظمة السياسية، فهو وصفي في جوهره، ولكنه يستطيع بسهولة اذا اقتضت الحاجة ان يعالج مسألة تاريخية من دون ان يربك وحدته.

وعلى العكس من ذلك العلوم الاقتصادية، فقد اخذت الثنائية تفرض نفسها على هذه العلوم. فالأقتصاد السياسي والتاريخ الاقتصادي يختلفان عن بقية العلوم في انهما يؤلفان فرعين متميزين ضمن علم واحد. والمؤلفات التي ظهرت حديثاً في هذين الموضوعين تشير الى مثل هذا التمييز. اذن فالأقتصاديون بسلوكهم هذا المسلك انما يخضعون لضرورة داخلية من دون ان يشعروا بذلك. وثمة ضرورة مشابهة تحملنا على تقسيم علم اللغة الى قسمين: كل منهما يعتمد على مبدأ خاص به. فنحن نواجه هنا ـ كما في الاقتصاد السياسي ـ مسألة القيمة.

فكلا العلمين يهتم بنظام يعادل بين اشياء من اصناف مختلفة ـ العمل والاجور في الاقتصاد السياسي، والمدلول والدال في علم اللغة.

ومما لا شك فيه ان جميع العلوم تستفيد من التحديد الدقيق للاحداثيات التي يقام عليها موضوعها. اذ ينبغي ان يجري التمييز في كل حقل من حقول المعرفة طبقاً للرسم التوضيحي الآتي: (١) بين محور التوافق AB الذي يمثل العلاقات بين الاشياء المتزامنة،

وقد جرد عنها التدخل الزمني: (٢) محور التعاقب CD الذي ندرس فيه شيئاً واحداً فقط في لحظة واحدة، ولكن تظهر عليه أشياء المحور الاول مع تغييراتها.



إن هذا التمييز ضرورة عملية وفي بعض الاحيان ضرورة مطلقة للعلوم التي تهتم بالقيم. ففي هذه العلوم لا يستطيع العلماء تنظيم بحوثهم على أساس دقيق الا اذا اخذوا بنظر الاعتبار كلا الاحداثين، وميزوا بين نظام القيم لوحده وهذه القيم منسوبة الى الزمن.

ان هذا التمييز ينبغي ان يهتم به اللغوي اكثر من غيره، لأن اللغة نظام من القيم الخالصة التي لا يحدوها سوى ترتيب عناصرها في لحظة معينة. فالقيمة، طالما انها مستأصلة في الاشياء وفي علاقاتها الطبيعية، كما هي الحال مع علم الاقتصاد (حيث ان قيمة قطعة ارض مثلاً تعتمد على خصوبتها) يستطيع المرء الى حد ما ان يقتفي أثرها في الزمن إذا تذكرنا أنها تعتمد في كل لحظة على نظام من القيم المتزامنة. فارتباط القيمة بالاشياء يمنحها، لا شك، اساساً طبيعياً، فالاحكام التي نبنيها على مثل هذه القيم ليست اعتباطية تماماً، وقدرتها على التغيير محدودة. ولكننا لاحظنا قبل قليل ان المعطيات الطبيعية لا مكان لها في علم اللغة.

وكلما كان نظام القيم معقداً وصارماً، زادت الضرورة الى دراسة هذا النظام طبقاً للاحداثيين، بسبب تعقيد النظام. وليس بين الانظمة ما يضاهي اللغة في تجسيمها لهذه الصفة. فاللغة تفوق غيرها من حيث دقة القيم، وكثرة عدد عناصرها وتنوعها، واعتماد جميع هذه الامور بعضها على بعض. ان صفة تعدد الاشارات التي استخدمناها لتوضيح استمرارية اللغة تؤدي الى صعوبة دراسة العلاقات في الزمن والعلاقات ضمن النظام اللغوي في آن واحد.

فالأسباب التي تحملنا على تمييز فرعين من علم اللغة واضحة. ماذا نسمي هذين

العلمين؟ إن الالفاظ المتوفرة تتفاوت في قدرتها على توضيح الفرق بين هذين الفرعين. فاللفظتان «التاريخ اللغوي» و «علم اللغة التاريخي» لا تصلحان لأنهما غامضتان. ولما كان التاريخ السياسي يضم وصف الفترات المختلفة فضلاً عن سرد الحوادث، فقد يعتقد الطالب انه يدرس لغة ما طبقاً لمحور الزمن عندما يصف الحالات المتعاقبة للغة، ولكن هذه المسألة تتطلب دراسة مستقلة للظواهر التي تجعل اللغة تمر من حالة الى اخرىٰ. اما لفظتا «التطور» و «علم اللغة التطوري» فهما اكثر دقة، لذا سأستخدمها غالباً: وفي مقابل ذلك سأستخدم لفظة علم حالات اللغة او علم اللغة الثابت.

ولكن اذا اردنا ان نبرز التقابل بين نمطين من الظواهر التي تعود الى موضوع واحد، فمن الافضل ان نستخدم علم اللغة السنكروني Synchronic وعلم اللغة الدايكروني diachronic. فكل شيء يتعلق بالجانب الثابت لعلم اللغة انما هو تزامني، وكل شيء يتعلق بالتطور انما هو زمني. كما ان السنكرونية والدايكرونية يدلان على حالة لغوية وجانب تطوري على التوالي.

٢ ـ الثنائية الداخلية وتاريخ علم اللغة:

ان اول ما يثير اهتمامنا عندما ندرس حقائق اللغة هو ان التعاقب الزمني لهذه الحقائق لا وجود له عند المتكلم. فالمتكلم يواجه حالة لغوية. لذا على اللغوي الذي يرغب في فهم حالة لغوية ان ينبذ جميع المعرفة المتعلقة بالأمور التي أدت الى تلك الحالة ويهمل العامل الزمني. فهو لا يستطيع ان يدخل الى عقل المتكلم الا بنبذ الماضي تماماً، لأن تدخل التاريخ لا ينتج عنه سوىٰ تشويه احكام اللغوي. إذ لا فائدة من محاولة رسم الخطوط العريضة لمنظر من الالب بالنظر اليه من قمم كثيرة في آن واحد.

ان المنظر ينبغي ان يرسم بالنظر اليه من مكان واحد. ويصح الشيء نفسه في اللغة. فاللغوي لا يستطيع وصف اللغة او وضع مقاييس للاستعمال الا اذا ركز على حالة واحدة فقط. واذا تابع تطور اللغة فهو يشبه الناظر المتنقل الذي يذهب من قمة الى اخرىٰ لكي يسجل التغييرات في زاوية النظر.

لقد انغمس علم اللغة الحديث منذ ظهوره الى الوجود في الدراسة الدايكرونية diachrony. ففقه اللغة المقارن للغة الهندية ـ الاوربية يستخدم المادة المتوفرة ليعيد بناء نمط قديم من اللغة يعتمد على الفرضية. فالمقارنة ما هي الا وسيلة لأعادة بناء الماضي. وتستخدم الطريقة نفسها في الدراسات الفرعية للمجموعات اللغوية (كاللغات الرومانية واللغات الجرمانية وغيرها)، ولا تتخلل هذه الدراسات دراسة الحالات اللغوية الا بصورة غير منتظمة وفي فترات متقطعة. هذا هو الاتجاه الذي ادخله بوب فمفهومه عن اللغة مزيج يتصف بالتردد.

ولكن ما الاتجاه الذي سلكه اولئك الذين درسوا اللغة قبل ظهور علم اللغة

الحديث، واعني «النحويين» الذين ساروا على الاساليب التقليدية؟ من الغريب ان نذكر هنا ان وجهة نظرهم تخلو من كل عيب. إذ تبين مؤلفاتهم انهم حاولوا ان يصفوا الحالات اللغوية. فكانت اساليبهم سنكرونية. ان نحو بورترويال Port Royal Grammar مثلاً يحاول ان يصف حالة اللغة الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر وان يحدد قيم هذه الحالة. وهذه الدراسة لا تحتاج الى لغة القرون الوسطىٰ: فقد اتبع المؤلفون المحور الأفقي بصورة دقيقة (أنظر الرسم في الفصل الثالث) دون الخروج على هذا المحور. لذا كانت الطريقة صحيحة، ولكن لا يعني ذلك ان تطبيقها خال من العيوب. فالنحو التقليدي يهمل أجزاء كاملة من اللغة. كصياغة الكلمات مثلاً: وهو معياري يتخذ لنفسه دور فرض القواعد، وليس تسجيل الحقائق، وهو يفتقر الى نظرة عامة شاملة. وكثيراً ما يعجز هذا النحو عن الفصل بين الكلمة المكتوبة والكلمة المنطوقة وغير ذلك.

أما النحو الكلاسيكي فقد انتقد لأنه غير علمي: ومع ذلك فأساسه أقل خضوعاً للنقد ومعطياته أدق تحديداً من علم اللغة الذي ذكره بوب. فالعلم الاخير يحتل مكانة غير واضحة، وليس له اهداف واضحة. فهو يحتل مكانتين لانه غير قادر على أنْ نميز تمييزاً واضحاً بين الحالات والتعاقب الزمني.

لقد خصص علم اللغة حيزاً كبيراً للتاريخ، اذن عليه ان يعود الى وجهة النظر الثابتة للنحو التقليدي ولكن بروح جديدة وبأساليب اخرىٰ، وبذلك يكون الاسلوب التاريخي قد أسهم في بعث الحياة في الدراسة اللغوية. ويساعد الاسلوب التاريخي بدوره على فهم أفضل للحالات اللغوية. لقد رأىٰ النحو القديم الحقائق التزامنية فقط، اما علم اللغة فقد كشف عن صنف جديد من الظواهر، ولكن هذا لا يكفي، فعلىٰ المرء ان يشعر بالأختلاف بين صنفين من الحقائق ليستخلص جميع النتائج من ذلك.

٣ ـ الثنائية الداخلية موضحة بالأمثلة:

إن التقابل بين وجهتي النظر، التزامنية والزمنية، مطلق لا يقبل أي تساهل. وسنذكر بعض الحقائق لنوضح نوع الاختلاف ولماذا لا يمكن تجاهله.

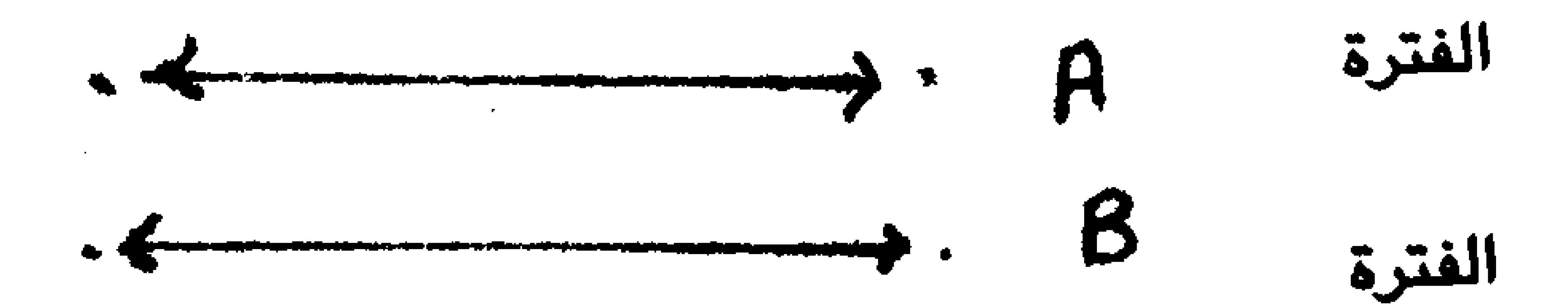
ان اللفظة اللاتينية crispus «هش» جاء منها الجذر الفرنسي -crep الذي اشتق منه الفعلان crépir «متين» وdécrépir «ازالة الملاط عن الحائط». ثم اخذت الفرنسية من اللاتينية كلمة décrepitus من أصل مجهول، فاصبحت الكلمة الاخيرة décrepit «هرم». واليوم يربط المتكلمون بين عبارة un mu decrepit «حائط يسقط عنه الملاط، أي حائط متداع» وعبارة un homme decrepit رجل هرم، مع ان العبارتين لا علاقة بينهما من الناحية التاريخية فيقول الناس غالباً facade decrepite «واجهة بناية قديمة». فهذه حالة لغوية ثابتة، لأنها تتصل بالعلاقة بين صيغتين متزامنتين للغة. وقد تحققت هذه الحالة بسبب

تطور بعض الحوادث. اذ اصَبح لفظ — crisp كلفظ ,— crèp كما دخلت الى اللغة الفرنسية في لحظة ما كلمة جديدة من اللاتينية. فمن الواضح ان الحقائق الزمنية لا علاقة لها بالحقائق الثابتة التي نتجت عنها. فهي تعود الى صنف آخر.

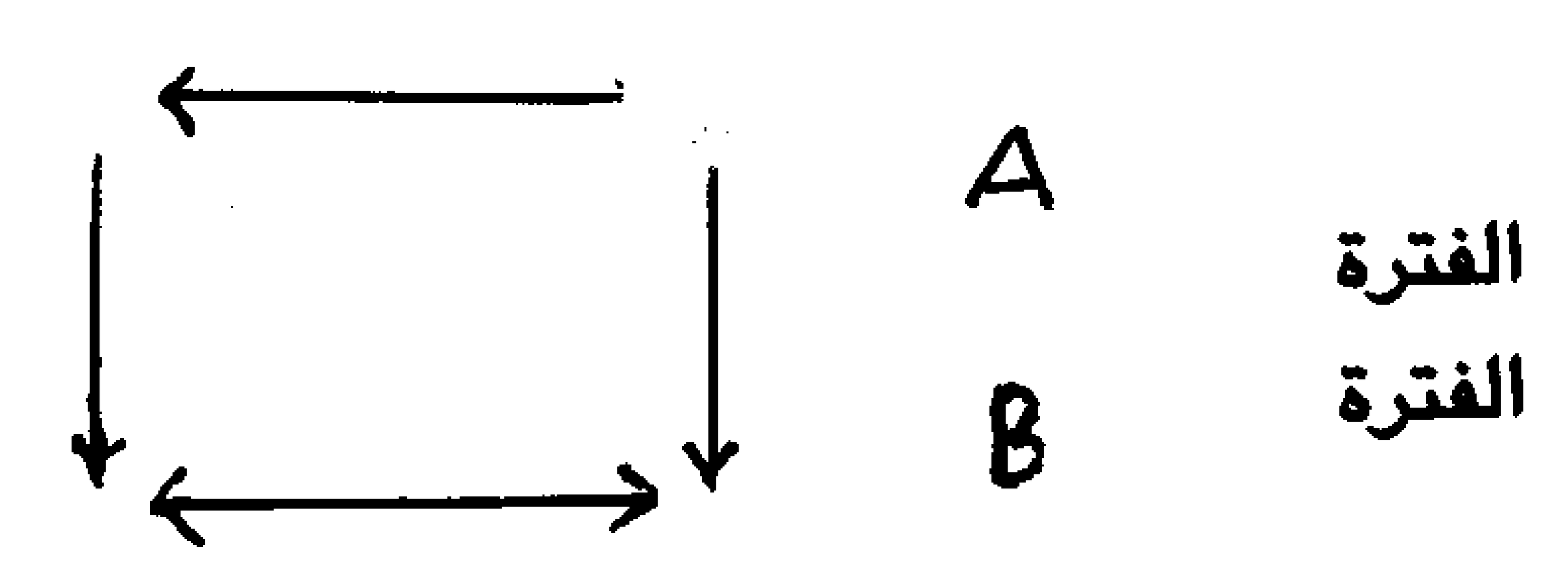
وهذا مثال اوضح. كانت صيغة الجمع اول الامر لكلمة gast «ضيف» في الالمانية القديمة العليا هي gasti «ضيوف» وصيغة الجمع لكلمة hant «يد» hanti الى آخره. ثم ادىٰ الصوت الاخير i الى إمالة: أي ادىٰ الى تغيير الصوت المقطع السابق a الى ie فاصبحت كلمة gasti←gesti : وكلمة hanti ← henti ثم فقد الصوت الاخير جرسه فتغيرت كلمة → gesti geste الى آخره. ونتج عن كل ذلك ان الالمانية اليوم تستعمل Gaste:Gast و H¨ande:Hand . وهناك مجموعة كبيرة من الاسماء تتميز بهذا الفارق بين المفرد والجمع. وقد حدث شيء مشابه لذلك في اللغة الانكلوساكسونية: فكانت الصيغ الاولىٰ foti¨:fot (قدم:أقدام) وtòpi:tòp (سن: أسنان) وgòsl:gòs (وزة:اوز) الى آخره. ثم حدث تغيير صوتي واطالة في المقطع الاول فاصبحت كلمة fòtl←fètl وحدث تغيير ثانٍ تلاشىٰ بموجبه الصوت الاخير i ـ فأصبحت كلمة fèti←pèt وهكذا اصبحت صيغة الجمع لكلمة fòt هي fèt, ولكلمة gès:gòs الى غير ذلك: (في الانكليزية الحديثة teeth:tooth, geese:goose feet:foot,).

كان المتكلم في الزمن السابق يستخدم fòti:fòt, gasti:gast فإضافة الصوت i يعني صيغة الجمع. اما fèt:fòt, Gàsle:Gast فهي طريقة جديدة لصياغة الجمع. فطريقة الجمع في الحالتين ليست واحدة. ففي الانكليزية القديمة ينحصر التقابل في الحركة. اما في الالمانية ففضلاً عن الحركة نضيف الصوتe الى آخر الكلمة. ولكن هذا الاختلاف لا اهمية له هنا.

ان العلاقة بين المفرد والجمع، مهما كانت الصيغتان، يمكن التعبير عنهما في كل لحظة من اللحظات بمحور أفقي:



اما الحقائق التي أدت الى الانتقال من صيغة الى اخرىٰ فيجب وضعها على المحور العمودي، لتظهر الصورة الكاملة كالآتي:



ويوحي هذا الرسم التوضيحي بعدد من النقاط التي تهمنا وهي:

(١) ان الحقائق الزمنية، لا تهدف، في اية حال من الاحوال، الى تحديد قيمة ما عن طريق اشارة اخرىٰ: فتحول كلمة gasti الى gesti ثم geste (Gäste) لا علاقة له بصيغة الجمع في الأسماء: لقد حدث التغيير في الحركات نفسه في الفعل tragit فأصبح trägt وغيره من الافعال. فالحقيقة الزمنية شيء مستقل لا علاقة لها بما قد ينبع منها من نتائج سنكرونية.

(٢) ان الحقائق الدايكرونية ليست موجهة نحو تغيير النظام. فالمتكلمون ما كانوا ليرغبوا في الانتقال من نظام معين للعلاقات الى نظام آخر. إذْ إنَّ التغيير لا يؤثر في ترتيب العلاقات بل في عناصر النظام.

هنا ايضاً نجد المبدأ الذي أشرنا اليه آنفاً: وهو ان النظام لا يتغير أبداً بصورة مباشرة. فالنظام في حد ذاته غير قابل للتغيير: الذي يتغير فيه هو بعض العناصر من غير ان يؤثر ذلك في الوحدة التي تربط بينها وبين الكل. وكأن احد الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس غير ابعاده ووزنه: ان هذه الحادثة المنفصلة عن غيرها ستؤدي الى نتائج عامة. فتحدث خللاً بتوازن النظام بأجمعه. ان التقابل بين عنصرين مهم للتعبير عن الجمع: fóti:fót او fét:fót وكلا الاسلوبين محتمل: ولكن المتكلمين انتقلوا من اسلوب الى آخر من غير ان تكون لهم يد في ذلك. بيد ان ذلك لم يؤد الى الاستعاضة عن الكل. كما لم يؤد نظام الى قيام نظام آخر. فكل ماحدث هو تغيير أحد عناصر النظام. وأدىٰ ذلك الى قيام نظام آخر. وكان هذا التغيير كافياً لقيام نظام آخر.

(٣) ان الملاحظة الواردة سابقاً تشير الى الطبيعة العرضية للحالة اللغوية. وهذا يناقض الرأي الواهي القائل بأننا نصوغ اللغة لخدمتنا فضلاً عن أنَّ اللغة ليست نظام خلق ورتب حسب الفكرة المراد التعبير عنها، بل على النقيض من ذلك، رأينا ان الحالة التي نتجت عن التغيير لم يتح لها المجال ان تعبر عن المعنىٰ الذي انطوت عليه. ففي الحالة العرضية (fét:fót) استغل المتكلمون وجود فارق بين الصيغتين فجعلوه يرمز الى الفرق بين المفرد والجمع. فالفرق بين الصيغتين fét:fót ليس أفضل من الفرق بين foti:fót*. ففي كلتا الحالتين نفذ العقل في مادة معينة ونفخ فيها الحياة. ان هذه النظرة الجديدة التي أوحىٰ بها علم اللغة التاريخي لم تكن عند النحو التقليدي. اذ لم يكن باستطاعته التوصل اليها بالأساليب التي استخدمها. كما ان اكثر فلاسفة اللغة يجهلون هذه المسألة، مع انها تفوق غيرها من وجهة النظر الفلسفية.

(٤) هل تنتمي حقائق التسلسل الدايكروني الى نفس الصنف الذي تنتمي اليه حقائق التسلسل السنكروني (التزامني)؟ الجواب لا، فقد رأينا ان التغييرات لا تحدث عن قصد، اما الحقيقة السنكرونية (التزامنية) فهي دائماً ذات معنىٰ. فهي تتطلب دائماً

عنصرين في آن واحد: فكلمة Gàste لا تكفي وحدها بل تحتاج الى التقابل بين Gast و G¨aste للتعبير عن الجمع. والحقيقة الدايكرونية خلاف هذا تماماً: فهي لا تتطلب الا عنصراً واحداً، ولكي يظهر العنصر الجديد (Gàste) ينبغي للعنصر القديم (gasti) ان يفسح المجال له اولاً.

إن محاولة الجمع بين هاتين الحقيقتين المتباينتين في موضوع واحد للدراسة انما هو أمر غريب. فالنظرة الدايكرونية تعالج الظواهر التي لا تتصل بالنظام مع انها تكيف النظام.

وهذه أمثلة اخرىٰ تدعم ما تقدم من النتائج التي توصلنا اليها وتكملها.

تقع الركزة في الفرنسية على المقطع الاخير دائماً الا اذا كان هذا المقطع يحتوي على حرف e صامت (a). هذه حقيقة سنكرونية، تخص العلاقة بين جميع الكلمات الفرنسية والركزة .accent فما مصدرها؟ حالة سابقة.

كان نظام الركزة في اللاتينية يختلف عنه في الفرنسية وهو أشد تعقيداً. فكانت الركزة تقع على المقطع قبل الاخير اذا كان هذا المقطع طويلاً واذا كان المقطع قصيراً وضعت الركزة على المقطع الذي يسبق قبل الاخير (لاحظ anima، amicus) فالقاعدة اللاتينية تشير الى علاقات لا تشبه بأية حال من الاحوال القاعدة الفرنسية.

مما لا شك فيه أن الركزة واحدة من حيث انها تبقىٰ في المكان نفسه: فهي في الفرنسية تقع دائماً على المقطع الذي كانت تقع عليه في اللاتينية: amícus ← amí ánimum ← áme بيد ان الصيغتين مختلفتان في هاتين اللحظتين لأن اشكال الكلمات قد تغيرت. فنحن نعلم ان الاجزاء التي وقعت بعد الركزة قد اختفت او تحولت الى حرف e صامت. e صامت. ونتج عن هذا التغيير في شكل الكلمة، ان موقع الركزة بالنسبة للكلمة كلها لم يعد نفسه: وحدث بعد ذلك ان المتكلمين باللغة شعروا بهذه العلاقة الجديدة، فراحوا يضعون الركزة بصورة فطرية على المقطع الأخير، حتىٰ في الكلمات التي اخذت من اللغات الاخرىٰ بشكلها المكتوب burgrave, ticket, consul, facile وغيرها). مما لا شك فيه ان المتكلمين لم يحاولوا ان يغيروا الأنظمة اللغوية، باستخدام صيغة جديدة، طالما ان الركزة في كلمات مثل ami←amicum بقيت، دائماً، على المقطع نفسه، ثم تدخلت حقيقة زمنية: فغير المتكلمون مكان الركزة من دون ان يكون لهم يد في ذلك. فقاعدة تعيين الركزة، كغيرها من القواعد التي تتعلق بالنظام اللغوي، انما تعني ترتيباً للعناصر، وهذه مسألة عرضية لا ارادية تأتي نتيجة للتطور.

وهذا مثال اوضح. فلفظة slovo في السلافية القديمة تعرب في المفرد الذي يدل على الآلة بصيغة slovem´b وفي حالة الرفع للجمع، slova والجمع في حالة الجر slouб الى آخره. ففي هذا كل حالة لها اعراب خاص بها يظهر في نهاية الكلمة. ولكن اليوم قد اختفت

الحركتان الضعيفتان b وb̆ وهما الصوتان السلافيان اللذان يقابلان V وا في اللغات الهندية الاوربية الاولىٰ. فاللغة الجيكية مثلاً لها الصيغ الآتية: slov, slova, slovem, slovo وينطبق الشيء نفسه على žena«امرأة» فهي في حالة المفرد المنصوب ženu وفي حالة الجمع المرفوع ženy وفي حالة الجمع المجرور .žen فالجمع المجرور اعرابه صفر (žen, slov) . إذ نرىٰ ان الاشارة الملموسة البارزة ليست ضرورة للتعبير عن فكرة. حيث يكفي للغة وجود تقابل بين شيء ولا شيء. فالمتكلمون بالجيكية يعلمون ان žen هي صيغة الجمع في حالة الجر لسبب بسيط وهو لأنها ليست žena ولا ženu وليست غيرها من الصيغ. وقد يبدو غريباً للوهلة الاولىٰ ان فكرة معينة مثل الجمع في حالة الجر يعبر عنها بالأشارة صفر، ولكن هذه الحقيقة تبرهن ان كل شيء في اللغة يأتي عن طريق المصادفة. فاللغة نظام يستطيع ان يستمر في عمله رغم التدهور الذي يصيبه.

كل هذا يدعم المبدأ الذي ذكرناه سابقاً. وموجز القول: إنَّ اللغة نظام يمكن، بل ينبغي، ان تدرس اجزاؤه ضمن اطار سنكروني موحد.

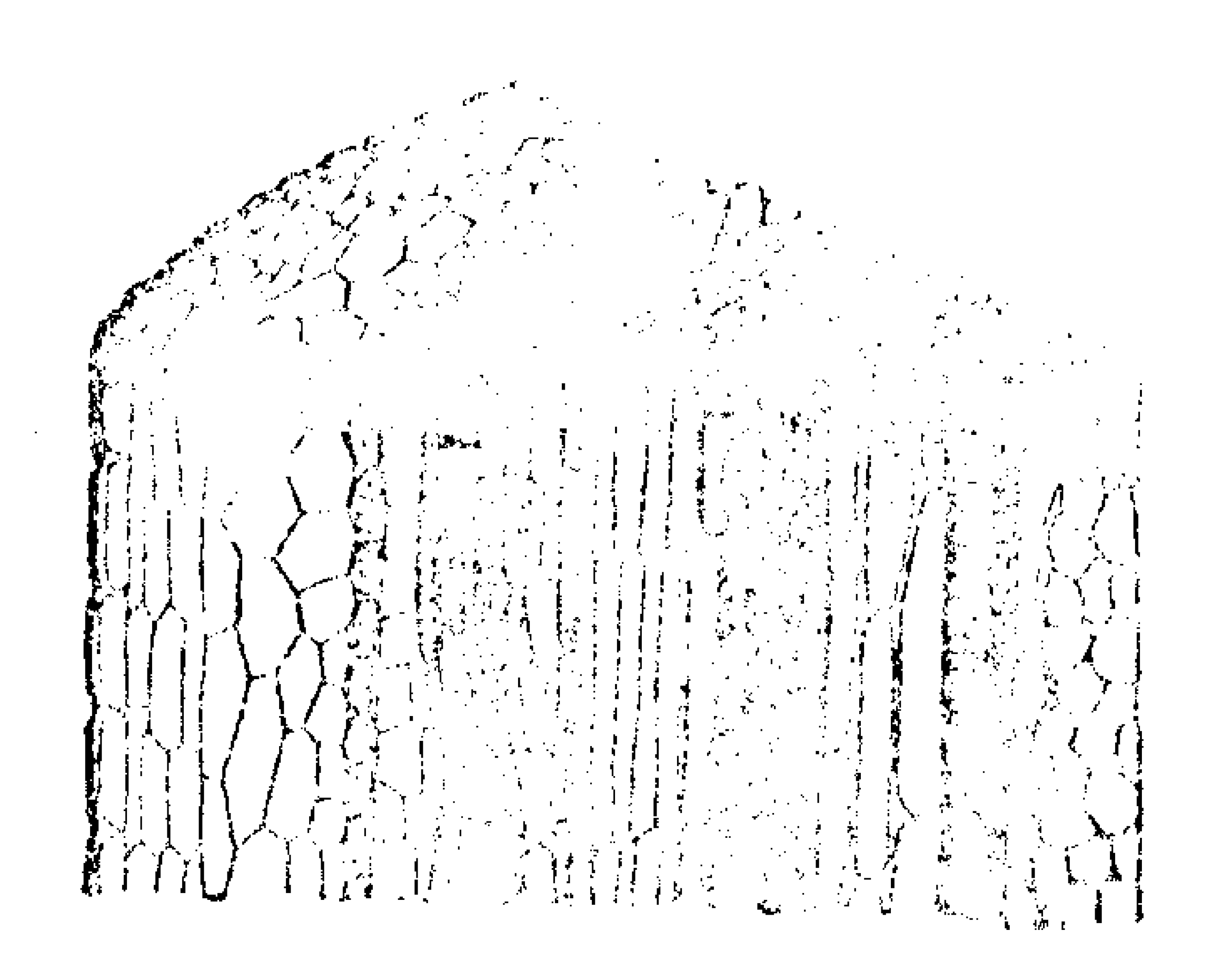
ولما كانت بعض التغييرات لا تؤثر في النظام كله بل في بعض عناصره، أمكنَ دراسة هذه التغييرات خارج النظام. مما لا شك فيه ان لكلّ تغيير انعكاساً على النظام، ولكن الحقيقة الاولىٰ أثرت في نقطة واحدة فيه فقط. ولا توجد علاقة داخلية بين الحقيقة الاولىٰ والأثر الذي قد تحدثه بعد ذلك في النظام بأجمعه. ان الفرق الجوهري بين العناصر المتعاقبة زمنياً والعناصر المتزامنة، بين الحقائق الجزئية والحقائق التي تؤثر في النظام، يحول دون جعل الصنفين من الحقائق موضوعاً لعلم واحد.

٤ ـ الفرق بين الصنفين موضح بالتشبيه:

يمكننا ان نبين استقلال النظام السنكروني واعتماد بعضه على البعض بأن نشبه الجزء الاول بقذف شيء على سطح مستوٍ. فعملية القذف تعتمد بصورة مباشرة على طبيعة الشيء الذي يقذف، ومع ذلك فهي تختلف عنه: لأن الشيء كيان مستقل عن عملية القذف. والا لما وجد علم خاص بالمقذوفات، ولأكتفينا بدراسة الاجسام وحدها، ونجد العلاقة نفسها في علم اللغة بين الحقائق التاريخية والحالة اللغوية، وهذه العلاقة تشبه قذف حقائق معينة في لحظة معينة. فنحن لا نتعلم شيئاً عن الاحوال السنكرونية اذا درسنا الاجسام، أي الحوادث الزمنية، كما اننا لا نتعلم شيئاً عن المقذوفات الهندسية بدراسة الاشكال المختلفة للاجسام، وان كانت دراستنا دقيقة.

وكذلك فاذا قطعنا النبات بصورة عرضية يظهر لنا شكل معقد للسطح الذي قطعناه، وهذا الشكل لا يمثل إلا زاوية واحدة للانسجة الطولية، ونستطيع ان نرىٰ هذه الانسجة اذا قمنا بقطع ثان عمودي على الاول. وفي هذه الحالة ايضاً يعتمد المقطع الاول على المقطع الثاني. فالمقطع الطولي يرينا الانسجة التي تؤلف النبات والمقطع المستعرض

(العرضي) يرينا ترتيب الانسجة على سطح معين. ولكن المقطع الثاني يختلف عن الاول لأنه يبين بعض العلاقات (الانسجة التي لا نستطيع ان نفهمها اذا نظرنا الى المستوىٰ او المقطع الطولي).



ولعل أفضل تشبيه هو بين وظيفة اللغة ولعبة الشطرنج. ففي كلتا الحالتين يوجد نظام من القيم والتغييرات التي نلاحظها عليها. فلعبة الشطرنج تشبه صورة مصطنعة لما تقوم به اللغة بصورة طبيعية.

لنتأمّلْ هذه المسألة تأمّلاً أدقّ.

اولاً: ان اية حالة من حالات ترتيب قطع الشطرنج تشبه كثيراً حالة من حالات اللغة. فقيم القِطَع تعتمد على موقعها على لوحة الشطرنج، كما ان كل عنصر من العناصر اللغوية يستمد قيمته من تقابله مع العناصر الاخرىٰ.

ثانياً ـ ان النظام يرتبط دائماً بلحظة زمنية معينة. فهو يختلف من وضع الى آخر. كما ان القيم تعتمد بالدرجة الاولىٰ على العرف الثابت: أي على قوانين اللعبة الموجودة قبل بدء اللعب وتظل فعالة حتىٰ النهاية، ومثل هذه القوانين المتفق عليها موجودة في اللغة ايضاً: فهي المبادىء الثابتة لعلم الاشارات.

وأخيراً: ان الانتقال من حالة من التوازن الى حالة اخرىٰ ـ او حسب مصطلحنا ـ من حالة سنكرونية الى اخرىٰ لا نحتاج الا الى تحريك قطعة واحدة فقط. ولا نحتاج الى عجيج من الحركة. وهذا شبيه بالظاهرة الدايكرونية بجميع مميزاتها. بل نلاحظ:

(أ) ان في كل حركة لا نحرك الا قطعة واحدة: وكذلك في اللغة، التغيير لا يؤثر الا في عناصر مفردة.

(ب) ومع ذلك فأن للحركة انعكاساً على النظام بأكمله: كما يصعب على اللاعب ان يتنبأ بدقة بمدىٰ الأثر الذي ينتج عن الحركة. فتكون التغييرات الناتجة للقيمة مختلفة حسب الظروف، منها لا أهمية لها ومنها خطيرة للغاية، واخرىٰ لها بعض الاهمية: فقد

تحدث حركة ما، ثورة في اللعبة بأجمعها بل قد تؤثر في القطع التي لا تشترك في الحركة مباشرة. وقد رأينا ان الشيء نفسه ينطبق على اللغة.

(ج) ان كل حركة في الشطرنج متميزة تماماً عن حالة التوازن السابقة واللاحقة. فالتغيير الحاصل لا يعود الى اي من الحالتين: فالمهم هنا هو الحالات، ونجد في الشطرنج ان كل وضع له ميزة في ان هذا الوضع مستقل عن الوضع السابق. ولا اهمية للطريق التي ادت الى هذا الوضع. فالذي يتابع اللعبة من اولها ليس في وضع احسن من الزائر الذي يأتي في لحظة حرجة ويلقي نظرة على حالة اللعبة في تلك اللحظة. واذا اردنا ان نصف ترتيب اللعبة في تلك اللحظة، فلا فائدة من ذكر ماذا حصل قبل عشر ثوان. وهذا كله ينطبق على اللغة ويعمق الفارق الجوهري بين الدايكرونية والسنكرونية. فالكلام يعمل ضمن اطار الحالة اللغوية فقط: اما التغييرات التي تفصل بين الحالات اللغوية فلا مكان لها في دراسة الحالة اللغوية.

ان هذا التشبيه يشكو من ضعف في نقطة واحدة فقط : لاعب الشطرنج يهدف الى احداث تغيير ، وهو بذلك يؤثر في النظام بقصد . اما اللغة فلا يدخل فيها القصد حيث تتغير القطع اللغوية او يصيبها التحوير بصورة تلقائية وعرضية . فوقوع الامالة وتغيير hanti الى Hande و gasti الى Gäste ادى الى نظام جديد لصياغة الجمع ولكنه في الوقت ذاته ادى الى ظهور صيغ فعلية مثل trägt التي تطورت من tragit وغيرها . ولكي نجعل الشبه تاما بين لعبة الشطرنج وعمل اللغة علينا ان نتصور لاعبا يفتقر الى الشعور او الى الذكاء . بيد أن هذا الفارق الوحيد يجعل التشبيه اكثر فائدة في بيان ضرورة التمييز بين هذين الصنفين من الظواهر في علم اللغة . فأذا كنا لا نستطيع ان نخضع الحقائق الزمنية لنظام تزامني تأثر بهذه الحقائق حين يكون التغيير عن قصد ، فكيف نستطيع ان نخضع مثل هذه الحقائق لنظام سنكروني عندما تطلق هذه الحقائق قوى عمياء لتغيير ترتيب نظام من الاشارات .

٥ ـ المقارنة بين هذين الفرعين من فروع علم اللغة طبقا لاساليبهما ومبادئهما

يبرز التقابل بين الدايكرونية والسنكرونية في كل ناحية من النواحي . فعلى سبيل المثال ـ ولنبدأ باوضح المسائل ـ إن الظاهرتين ليستا على درجة واحدة من الاهمية . مما لاشك فيه ان النظرة السنكرونية هي السائدة هنا . لانها المسألة الحقيقية الوحيدة بالنسبة لمجتمع المتكلمين . ويصح الشئ ذاته بالنسبة لعالم اللغة . فاذا تبنى النظرة الدايكرونية فانه لن يلاحظ اللغة بل سلسلة من الحوادث التي تغيير اللغة . كثيرا ما يؤكد الناس ان اهم شئ هو فهم تكوين حالة من الحالات : هذا صحيح في بعض الاحيان فالقوى التي تصيغ الحالة تلقي الضوء على طبيعتها الحقيقية ، واذا عرفنا هذه القوى

تجنبنا الوقوع في الاوهام . ولكن هذا يبرهن بوضوح على ان علم اللغة الدايكروني ليس غاية في حد ذاته . فالذي يقال عن الصحافة ينطبق على الدراسة الزمنية : فهي تؤدي الى كل مكان اذا غادرها المرء .

ان الاساليب التي تتبعها الدايكرونية والسنكرونية مختلفة ايضا في ناحيتين .

(أ) الدراسة التزامنية لها زاوية نظر واحدة ، وهي زاوية نظر المتكلمين ، والاسلوب الذي تتبعه يتكون من جمع الالة من المتكلمين : ولمعرفة مدى حقيقة الشئ من الضروري والمناسب تحديد مدى وجوده في عقول المتكلمين . اما علم اللغة الدايكروني فعليه ان يميز وجهتي نظر : احداهما توقيعية prospective تسير مع مجرى الزمن ، والاخرى تأملية رجعية retrospective تعود الى الوراء في الزمن وهذا يؤدي الى ثنائية في الاسلوب سنتكلم عنها في القسم الخامس .

(ب) والاختلاف الثاني ناتج عن تحديد المجالات التي يتناولها كل علم من هذين العلمين . فالدراسة السنكرونية هدفها ـ ليس كل شئ متزامن ـ بل مجموع الحقائق التي تتعلق بكل لغة من اللغات : وسيتناول الفصل بين الدراستين اللهجات واللهجات الفرعية اذا اقتضى الامر . ان لفظة «السنكروني» ليست دقيقة جدا : لذا ينبغي استخدام لفظة اخرى مكانها ـ اديوسنكروني ـ وهذه عبارة طويلة ولكنها مناسبة . اما علم اللغة الدايكروني فهو لا يحتاج الى مثل هذا التخصص بل يرفضه . والالفاظ التي يدرسها لا تتعلق بالضرورة باللغة نفسها (قارن esti* في اللغة الهندية والاوربية الاولى ، و esti في الاغريقية و ist في الالمانية و est في الفرنسية) . وتعاقب الحوادث الدايكرونية وتعددها في المكان هما العاملان اللذان يؤديان الى تعدد اللغات . واذا اردنا ان نسوّغ ارتباط صيغتين فما علينا الا ان نشير الى انهما مرتبطتان بالآصرة التاريخية ، مهما كانت هذه الرابطة غير مباشرة .

ان التقابلات المارة الذكر ليست أكثرها بروزا او عمقا . فثمة نتيجة واحدة للاختلاف الجذري بين النظرة التطورية والنظرة الثابتة وهي أن الآراء المتعلقة بكل من النظرتين منفصلة عن الأخرى . وهذه حقيقة تدعمها جميع الاراء . (فالظاهرة) السنكرونية والدايكرونية على سبيل المثال ليس بينهما شئ مشترك . فالظاهرة السنكرونية هي عبارة عن العلاقة بين عناصر موجودة في آن واحد . اما الدايكرونية فهي تعوض عنصراً بعنصر اخر في الزمن ، فهي حادثة . وسنرى ان الكيان الدايكروني والكيان السنكروني شيئان مختلفان : فلفظة النفي الفرنسية .pas هي من الناحية التاريخية اصلها pas «خطوة» ولكن اللفظتين متميزتان في الفرنسية الحديثة . إن هذه الملاحظات تكفي لبيان ضرورة عدم المزج بين هاتين النظرتين : ولكن هذه الضرورة ابرز في التمييز الذي سنقوم به في الفقرات الآتية من اي مكان اخر .

٦ - القانون السنكروني والدايكروني :

من الشائع ان تتكلم عن القوانين في علم اللغة . ولكن هل ان حقائق اللغة تتحكم فيها القوانين حقا ؟ فاذا كان الامر كذلك فما هذه القوانين ؟ لما كانت اللغة نظاما اجتماعياً ، أمكن لنا ان نزعم سلفا ان هذا النظام تتحكم فيه معايير شبيهة بتلك التي تتحكم في المجتمعات . وكل قانون اجتماعي له صفتان اساسيتان : اللزوم والعمومية . فهو يفرض كما انه يشمل جميع الحالات - ضمن ابعاد زمنية ومكانية محدودة ، بالطبع .

فهل ينطبق هذا التعريف على قوانين اللغة ؟ ان الخطوة الاولى للاجابة عن هذا السؤال - ضمن المفهوم المتقدّم - هو ان نفصل مرة اخرى بين المجال الزمني والمجال التزامني . ولكن ينبغي ان لانخلط بين المسألتين : فالكلام عن القانون اللغوي يشبه على نحوٍ عام محاولة القبض على شبح .

هذه بعض الامثلة على ذلك ، مستقاة من الأغريقية ، مزج فيها الصنفان عن قصد :

١ - الاصوات المجهورة التنفسية في اللغة الهندية الاوربية الاولى اصبحت مهموسة : Thumos *dhúmos «نسمة الحياة»، phéró *bheró «احمل» الى آخره.

٢ - ان الركزة لاتتأخر ابدا اكثر من مقطعين من النهاية .

٣ - ان جميع الكلمات تنتهي بحركة او بأحد الاصوات الاتية : n,s, او r دون غيرها من الأصوات الصحيحة .

٤ - لقد تحول الصوت s في اول الكلمة الذي تسبقه حركة الى h (وهذه علامة التنفيس) :

*septm ⟵ septem (في اللاتينية) ⟵ heptá.

٥ - تحول الصوت m في اخر الكلمة n : : zugón⟵jugom (لاحظ jugum في اللاتينية)[٣٠].

٦ - اختفت أصوات الغلق في آخر الكلمة .

epheron ⟵ *epheront, éphere ⟵ *epherst, g unai ⟵ *gunaik

---

(٣٠) في رأي ميليه Meillet وكوتيو Gouthiot الصوت m - في آخر الكلمة ليس له وجود في اللغة الهندية الاوربية الاولى. فكانت هذه اللغة تستخدم n - فقط. فإذا قبلنا بهذه النظرية، يمكن صياغة القانون رقم ٥ كالآتي : لقد إحتفظت الاغريقية بالصوت n - الأخير في جميع الحالات : وهذا لا يؤثر في قيمة القانون طالما ان الظاهرة الصوتية المؤدية الى الاحتفاظ بحالة سابقة تساوي في طبيعتها الظاهرة التي تبين تغييراً ما (بالي).

القانون الاول دايكروني تغير الصوت dh الى ih الى آخره .

القانون الثاني يعبر عن العلاقة بين الكلمة والركزة ، وهي نوع من العلاقة بين عنصرين متزامنين .

إذن هذا القانون تزامني . وينطبق الشئ نفسه على القانون الثالث طالما انه يتعلق بالكلمة ونهايتها . اما القانون الرابع والخامس والسادس فهي زمنية : الصوت s اصبح h والصوت n ـ حل محل m ـ واختفت الاصوات k,t الى آخره ، دون ان تترك أثراً .

كما ينبغي ان نلاحظ ان القانون الثالث ناتج عن القانون الخامس والسادس : فقد أدت حقيقتان دايكرونيتان الى حقيقة سنكرونية .

وبعد ان نفصل بين الصنفين من القوانين ، نجد ان القانونين ، الثاني والثالث ، يختلفان جوهريا عن القانون الاول والرابع والخامس والسادس .

ان القانون السنكروني عام ولكنه لايتصف باللزوم . مما لا شك فيه انه قد فرض على الافراد عن طريق الاستعمال الجماعي ، ولكنني هنا لاافكر بالالتزام من جانب المتكلمين . بل اعني انه لاتوجد في اللغة قوة تضمن الاحتفاظ بصفة قياسية اقيمت على نقطة معينة . فالقانون السنكروني انما هو تعبير بسيط عن ترتيب موجود ، إذن فهو يصف حالة معينة . وهو يشبه في ذلك قانونا ينص على ان الاشجار في حديقة ما مرتبة ترتيباً خماسياً . والترتيب يصفه لهذا القانون غير مستقر لانه غير ملزم (يفتقر الى صفة اللزوم) . ليس هناك ما يتصف بالانتظام اكثر من القانون السنكروني الذي يتحكم في موضع الركزة في اللاتينية (فهو يشبه في جميع النواحي القانون الثاني آنف الذّكر) ، ولكن قانون الركزة هذا لم يقاوم قوى التغيير فحل محله قانون جديد ، القانون السائد في الفرنسية (لاحظ الفقرة ٣ من الفصل الثالث آنف الذكر). وموجز القول ان الكلام عن قانون سنكروني يعني ترتيباً معينا ، اي مبدأ الانتظام والقياس .

اما القانون الدايكروني فيفترض وجود قوة فعالة ، ينتج بوساطتها اثر معين : او يتحقق شئ ما . ولكن صفة اللزوم هذه غير كافية لتطبيق فكرة القانون على الحقائق التطورية . اذ لايمكننا الحديث عن قانون ما الا اذا كانت مجموعة من الحقائق تخضع لقاعدة واحدة ، بيد ان الحوادث الزمنية تتصف دائما بالعرضية والخصوصية ، مع ان بعض المظاهر تشير الى غير ذلك .

فالطبيعة العرضية والخصوصية لحقائق علم الدلالة semantics واضحة في الحال . اذ نجد ان الكلمة الفرنسية poutre «فرس» قد اصبح معناها «قطعة خشب» لاسباب معينة ، ولا يعتمد ذلك على التغيير الذي ربما وقع في تلك الفترة . وهذا مثال واحد من الامثلة العرضية المدونة في تاريخ اللغة .

اما بالنسبة للتغييرات الصرفية والنحوية فأن الامر ليس بهذا الوضوح منذ

البداية لقد اختفت في فترة من الفترات جميع الصيغ تقريباً الدالة على حالة الرفع في الفرنسية . نجد في هذا المثال مجموعة حقائق تخضع على مايبدو لقانون واحد . ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك : لان جميع هذه الحقائق ما هي الا مظاهر متعددة لحقيقة واحدة معزولة . فقد تأثرت فكرة الفاعل (المبتدأ) وادى اختفاء هذه الفكرة ، بالطبع ، إلى اختفاء مجموعة كاملة من الصيغ . ان الذي يرى المظاهر الخارجية للغة فقط ، يستطيع ان يرى الظاهرة الفريدة لان مظاهرها الخارجية الكثيرة تغطي عليها ـ فهناك ظاهرة واحدة من حيث الاساس ، وهذه الحادثة التاريخية انما هي معزولة ، كما هي الحال في تغيير دلالة كلمة poutre . وتتخذ هذه الظاهرة هيئة «القانون» لا لسبب الا لأنها تتحقق ضمن نظام معين . فالترتيب الصارم لنظام يخلق الوهم عند المرء بأن الحقيقة الدايكرونية تخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الحقيقة السنكرونية .

لنتناول اخيرا التغييرات الصوتية . اذ نجد ان الشيُ نفسه ينطبق عليها . ومع ذلك فالعادة الشائعة ان يتكلم المرء عن القوانين الصوتية . بل يقال إن في وقت ما وفي مكان ما قد تأثرت جميع الكلمات التي لها صفات صوتية واحدة وخضعت لتغيير واحد . فعلى سبيل المثال القانون رقم واحد ، السابق (Thúmos. ← *dhúmos في الاغريقية) قد اثر في جميع الكلمات الاغريقية التي تحتوي على صوت مجهور تنفسي (لاحظ ankhó ← *anghó، méthu ← *medhu , néphos ← *nebhos الى اخره) . وينطبق القانون الرابع (hepta ← septm) على hûs ← *sús, hérpo ← *serpo وعلى جميع الكلمات التي تبدأ بالصوت s. ان هذه الحالة القياسية، التي هي موضوع خلاف في بعض الاحيان، قد استقرت وثبتت اركانها ، على مايبدو. والشواذ البسيطة لاتقلل من حتمية هذا التغيير ، اذا يمكن تفسيرها باللجوُ الى قوانين صوتية خاصة (لاحظ المثال thriksi : trikhos الآتي)، او بتدخل حقائق من صنف آخر (كالقياس او غيره) فليس افضل من التعريف ، المتقدم ، لقانون الكلمة. ومع ذلك تكون جميع الحقائق التي يضمها هذا القانون انما هي مظاهر متعددة لحقيقة واحدة، ومهما كانت الحالات التي ينطبق عليها القانون الصوتي ، فان جميع الحقائق التي يضمها انما هي مظاهر متعددة لحقيقة معينة واحدة .

فحقيقة المسألة هي ان نرى هل ان التغييرات الصوتية تؤثر في الكلمات ام في الاصوات فقط ؟ إن الجواب عن هذا السؤال واضح. ففي الكلمات ankhó, methu, nephos الى آخره ، اصبح احد الفونيمات ـ الصوت المجهور التنفسي في اللغة الهندية الاوربية الاولى ـ مهموسا : واصبح s في بداية الكلمة في الاغريقية الاولى h الى آخره. كل حقيقة من هذه الحقائق منفصلة معزولة عن غيرها من الحوادث للصنف نفسه ، كما انها

منفصلة عن الكلمات التي وقع فيها التغيير .[٣١] مما لاشك فيه ان المادة الصوتية لجميع هذه الكلمات قد تغيرت ، ولكن ذلك ينبغي ان لايخدعنا فيما يخص الطبيعة الحقيقية للظاهرة .

ماذا يدعم الرأي القائل ان الكلمات نفسها لايشملها التغيير الصوتي بصورة مباشرة ؟ الجواب عن ذلك : الملاحظة البسيطة التي تقول ان هذه التغييرات غريبة في جوهرها عن الكلمات ولا تلمس جوهرها . فالوحدة المسماة بـالكلمة لاتتـألف فقط من المجموع الكلي للفونيمات التي تدخل فيها بل تتألف من مميزات خارج صفتها المادية . لنفرض ان احد اوتار البيانو غير موزون : ينتج عن ذلك انبعاث انغام غير متناسقة كلما لمس لاعب البيانو ذلك الوتر . ولكن اين يكمن عدم التناسق هذا ؟ في القطعة الموسيقية ؟ كلا : فالقطعة الموسيقية لم تتأثر : الخلل في البيانو وحده . وينطبق الشئ نفسه على علم الصوت . فنظام الفونيمات يشبه الالة الموسيقية التي نستخدمها لبعث النطق في كلمات اللغة . فاذا تغير أحد عناصر النظام فقد تنتج عن ذلك نتائج كثيـرة ، ولكن التغيير لا يخص الكلمات التي تشبه ، في هذا المثال ، الانغام او القطع الموسيقية .

اذن فالحقائق التاريخية خاصة : والتغيير الذي يحدث في نظام ما ، تسببه حوادث خارج النظام فضلا عن كونها معزولة لا تؤلف فيما بينها اي نظام .

خلاصة القول ان الحقائق السنكرونية ، مهما كانت تشير الى نوع من القياس او الانتظام ، ولكنها ليست بأي حال من الاحوال لازمة : اما الحقائق الدايكرونية فانها تفرض نفسها على اللغة ولكنها ليست عامة .

وفي الختام ـ هذه هي النقطة التي اردت تأكيدها ـ إن الصنفين من الحقائق لا يخضعان للقوانين بالمفهوم الذي حددناه سابقاً ، فأذا اراد المرء بعد كل هذا ان يتكلم عن القوانين اللغوية ، فأن هذه اللفظة سيكون لهـا معان مختلفـة تمامـا ، ويعتمد هـذا الاختلاف على اي من الصنفين من الحقائق تستخدم له هذه اللفظة .

٧ ـ هل توجد نظرة (عموم الزمن) Panchronic

لقد استخدمت لفظة القانون حتى الآن بمفهوم قانوني . فهل يمكن استخدام هذه اللفظة في اللغة كما هي مستخدمة في العلوم الفيزياوية والطبيعية : اي بمعنى العلاقات

---

(٣١) مما لا شك فيه ان الامثلة السابقة تكون ترتيباً معيناً : ويحق لعلم اللغة ان يحاول إخضاع أكبر عدد ممكن التغييرات الصوتية لمبدأ الصدارة (بداية الكلمة) نفسه. ويفسر ميليه جميع التغييرات للاصوات المغلقة في الاغريقية بالضعف التدريجي الذي أصاب نطق هذه الاصوات (لاحظ mem. de la Soc. de Ling., IX,pp. 163 ff العدد التاسع ، الصفحات ١٦٣ وبعـدها). ممـا لا شك فيـه ان الاستنتاجات عن طبيعة التغييرات الصوتية تنطبق على هذه الحقائق العامة، اينما وجدت. (بالي).

التي يمكن التأكد منها في جميع الحالات ؟ وبأيجاز ، الا يمكن دراسة اللغة من نظرة عموم الزمن ؟ بلى . ولما كانت التغييرات الصوتية قد حدثت وتحدث دائما ، فأن هذه الظاهرة العامة انما هي صفة ثابتة للسان : فهي اذن احدى قوانين اللسان . ثم اننا نجد في علم اللغة وكما نجد في لعبة الشطرنج ، قواعد تبقى بعد انتهاء الحوادث . وهي مبادئ عامة لها وجود مستقل عن الحقائق الملموسة . فعندما نتكلم عن حقائق معينة ملموسة فاننا لانجد نظرة عموم الزمن . إن كل تغيير صوتي ، مهما كان انتشاره الحقيقي ، يتحدد بزمان معين ومكان معين . اذ لايوجد تغيير يحدث في كل زمان ومكان ، فالتغييرات لها وجود زمني فقط . وهذه المبادئ العامة هي التي تستخدم قاعدةً لتحديد ما يتعلق باللغة وما لايتعلق بها . ان الحقيقة الملموسة التي يمكن تفسيرها بعموم الزمن لايمكن ان تعود الى اللغة . لنأخذ الكلمة الفرنسية chose «شئ» من النظرية الدايكرونية فأنها تتقابل مع الكلمة اللاتينية التي اشتقت منها causa : اما من الناحية السنكرونية فهي تتقابل مع كل كلمة يمكن ان ترتبط بها في اللغة الفرنسية الحديثة . ولا يخضع لنظرة عموم الزمن الا اصوات الكلمة اذا اخذت بصورة مستقلة (šoz) ، ولكن هذه الاصوات ليس لها قيمة لغوية . فالاصوات šoz حتى اذا عولجت من وجهة نظر لا زمنية شاملة ضمن سلسلة مثل ün šoz admirabla «شئ عجيب» فهي ليست وحدة ، بل كتلة لا شكل لها : بل لم نقل šoz ولا نقول Oza أو nšo ؟ ان هذه الاصوات لاتؤلف قيمة لانها لا معنى لها . فالحقائق اللغوية المعنية لايمكن الوصول اليها من وجهة نظر عموم الزمن .

٨ - العواقب المترتبة على الخلط بين الدايكرونية والسنكرونية .

نذكر ، فيما يأتي ، مثالين لذلك :

(أ) يبدو ان الحقيقة التزامنية تنفي الحقيقة الزمنية ، وصاحب النظرة السطحية للاشياء قد يظن أن على المرء ان يختار بين النظرتين : ولكن هذا غير ضروري . فالحقيقة التزامنية لاتنفي الحقيقة الزمنية . ان الكلمة الفرنسية depit «حقد» كانت تعني في اول الامر «احتقار» ، ولكن هذا لا يمنع الكلمة من ان تكسب معنى جديدا يختلف عن السابق تماما . فاصول الكلمة والقيمة السنكرونية شيئان متميزان . وكذلك يعلّمنا النحو التقليدي ان اسم الفاعل متغير يتفق مع اسم اخر كما هي الحال مع الصفة في بعض الحالات في الفرنسية الحديثة (لاحظ un eau courante «مياه جارية») وهو غير متغير في حالات اخرى (لاحظ une personne courant dansla rue رجل يركض في الطريق) . بيد ان النحو التاريخي يبين ان المسألة لاتتعلق بصيغة واحدة حسب : فالحالة الاولى وهي استمرار لاسم الفاعل المتغير في اللاتيتنية (currentum) ، اما

الحالة الثانية فهي تأتي من صيغة غير متغيرة للحال في اللاتينية (currendó)[٣٣]. هل تناقض الحقيقة السنكرونية الحقيقة الدايكرونيـة ، وهل ينبغي للمـرء ان ينبذ النحو التقليدي باسم النحو التاريخي ؟ كلا لان ذلك يعني اننا لا نرى سوى نصف الحقائق : اذن ينبغي على المرء ان لايظن ان الحقيقة التاريخية هي كل شئ وانها وحدها تؤلف اللغة . مما لاشك فيه لن اسم الفاعل courant من ناحية اصوله له عنصران ، ولكن في النظرة الجماعية الموجودة عند جمهور المتكلمين يندمج هذان العنصران في صيغة واحدة . اذن فالحقيقة التزامنية مطلقة لاخلاف فيها شأنها شأن الحقيقة الدايكرونية .

(ب) ان الحقيقة السنكرونية كثيرة الشبه بالحقيقة الدايكرونية حتى ان الناس لايميزون بين الحقيقتين او يظنون ان لافائدة من الفصل بينهما . فهم على سبيل المثال يحاولون تفسير الكلمة الفرنسية pére «اب» بقولهم لن الكلمة اللاتينية páter لشئ نفسه . وهذا مثال آخر : الصوت اللاتيني القصير a تحول الى i في ـع المفتوحة بعد المقطع الاول : فنجد confició فضلاً عن fació وinimícus فضلاً عن amicus الى آخره . وكثيراً ما يصاغ القانون كالآتي : «لقد أصبح الصوت a في facio ، i ، في confició لان هذا الصوت لم يعد موضعه في المقطع الاول .» ان هذا غير صحيح : فالصوت لم «يتحول قط» الى i في confició . واذا اردنا ان نعيد الحقيقة الى ـابها فعلينا ان نذكر فترتين زمنيتين واربعة عناصر . فقد استخدم الناس اول مر confacio — facio : ثم تحولت confació الى confici´o في حين بقيت facio على حالها : فاستخدموا confició : facio :

الفترة A confació ⟷ facio

الفترة B confició ⟷ facio

ان التغيير الذي حصل ـ ان كـان قد حصـل تغيير ـ هـو بين confació و canficio : ولكن القانون السابق ، قد وضع في صيغة رديئة ، فهو لا يذكر شيئاً عن confació . إذن فضلاً عن التغيير الدايكروني ثمة حقيقة اخرى ، وتتميز تماماً عن الاولى وتتعلق بالتقابل السنكروني بين facio وconfició . قد يميل المرء الى القول ان هذه نتيجة وليست حقيقة . ومع ذلك فهي حقيقة من صنف خاص : بل ان جميع الظواهـر السنكرونيـة هي من هذا القبيـل . ان القيمة الحقيقيـة للتقابـل بين

---

(٣٢) إن هذه النظرية قد لقيت قبولاً عاماً، ولكنها انتقدت بغير حق في الفترة الأخيرة : انتقدها لارج M. E. Larch في كتابه : Dos invariable Participtium praesentis, Erlangen, 1913.

إذ لا حاجة الى إهمال مثال له قيمة تعليمية. (بالي).

confició : fació قد اهملت لأن هذا التقابل لا أهمية له . أما التقابل بين Gast وGäste : وgebe وgibt مع انه نتيجة عرضية للتطور الصوتي أيضاً، فهو ظاهرة نحوية اساسية من الصنف التزامني. ان الصنفين مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في المسائل الاخرى ، يؤثر كل منهما في الآخر، وهذا يشير الى ان الفصل بين الصنفين لا أهمية له : بل ان علم اللغة قد مــزج بينهما طوال عقــود الزمن ، من دون ان يعلم ان مثل هــذا الاسلوب لاقيمة له.

ان هذا الخطأ يبرز في امثلة معينة . فعلى سبيل المثال، اذا اراد المرء ان يفسر الكلمة الاغريقية phuktós قد يـظن انه يكفي القــول ان الصوت g او kh في الاغريقية تحول الى k قبل الاصوات الصحيحة المهموسة ، ولنوضح ذلك يــذكر الامثلة السنكرونية المشابهة : Léutron : Léuhos , phuktós : phugein الى آخره . ولكن المسألة اكثر تعقيداً بالنسبة لحالة مثل Thriksé : trlkhes ، اذ قد قد تغير الصوت t الى Th . ولا يمكن تفسير اللفظتين إلا بالنظرة التاريخية ، بالتعاقب الزمني النسبي . إن الاساس Theme في الاغريقية الاولى المتبوع بالنهاية si اصبح Thriksé وهذا تطور قديم جداً يشبــه التطور الذي أدى الى ظهــور كلمة Lektron المشتقــة من الجذر Lekh — . ثم وقع تغير آخر . قد تحول الصوت التنفسي المتبوع بصوت تنفسي آخر في الكلمة نفسها الى صوت غلق ، فاصبحت كلمة Thrikhes : trikhes . ومن الطبيعي ان Thriksi لم تخضع لهذا القانون .

٩ ـ الخاتمة :

ينقسم علم اللغة مرة اخرى الى قسمين : فقد لاحظنا اول الامر ان علينا ان نختار بين اللغة والكلام . اما الان فامامنا مرة اخرى تقاطع طريقين ، احدهما يؤدي الى علم اللغة الزمني والآخر الى علم اللغة التزامني .

واذا ادركنا هذا المبدأ الثنائي للتصنيف، نستطيع ان نضيف ان كل شئ دايكروني في اللغة انما هو دايكروني بسبب الكلام. فجميع انواع التغيير تنبع من الكلام. وكل تغيير يبدؤه عدد من الافراد قبل ان يقبله عامة الناس فيدخل الاستخدام الشائع. فالالمانية الحديثة تستعمل ichwar, wir waren ، في حين كان الاستعمال الشائع حتى القرن السادس عشر هو ich was, wir waren (قارن I was, We were في الانكليزية) . كيف حدث ان حَلَّ الفعل war محل was ؟ لقد تأثر بعض المتكلمين بالصيغة waren فابتدعوا الفعل war بطريقــة القياس : وكانت هذه حقيقة تعود الى الكلام : ثم تكررت الصيغة الجديدة مرات كثيرة فاصبحت مقبولة عند مجتمع المتكلمين ، وغدت حقيقة من حقائق اللغة . بيد ان النجاح

لا يحالف دائماً الصيغ الجديدة للكلام . ان صيغ الكلام التي تبقى فردية قد يصيبها الاهمال من قبل الباحث ، لاننا ندرس اللغة : فهذه الصيغ لاتدخل ضمن مجال دراستنا حتى يتبناها مجتمع المتكلمين.

إن كل حقيقة من حقائق التطور تسبقها حقيقة او مجموعة حقائق مشابهة تعود الى مجال الكلام . وهذا لايقلل من شأن التقسيم الذي اشرنا اليه بل يدعمه طالما اننا نجد في تاريخ كل صيغة جديدة لحظتين متميزتين : (١) اللحظة التي تظهر فيها الصيغة في استعمال الأفراد (الاستعمال الفردي) : و(٢) اللحظة التي تصبح فيها الصيغة حقيقة من حقائق اللغة ، وهي تشبه ظاهرياً الحقيقة الاولى ولكنها تصبح الآن مقبولة لدى المجتمع.

ويشير الجدول الآتي الى الاسلوب المنطقي الذي ينبغي لعلم اللغة ان يتبناه :

اللسان (البشري)	اللغة	السنكرونية
	الكلام	الدايكرونية

وعلى المرء ان يدرك ان الصورة المثالية النظرية للعلم ليست دائما الصورة التي تفرضها المتطلبات العملية لذلك العلم. وهذه المتطلبات في علم اللغة أكثر صرامة من العلوم الاخرى. فهي مسؤولة الى حد ما عن الارباك الذي يسود الآن في البحوث اللغوية. ان التمييز الذي أكدّناه، هنا، حتى وان قبله الباحثون ولم يرفضه أحد قط ، ربما لانستطيع ان نفرضه على نحو دقيق على البحوث باسم الصورة المثالية التي ذكرناها آنفاً .

ففي الدراسات السنكرونية عن الفرنسية القديمة مثلا يتعامل اللغوي مع الحقائق والمبادئ التي لا علاقة لها بالحقائق التي يمكن ان يتوصل اليها عن طريق تتبع تاريخ هذه اللغة من القرن الثالث عشر حتى القرن العشرين : بل انه يتعامل مع حقائق ومبادئ تشبه تلك التي يجدها المرء عند وصف لغة من لغات البانتو المستعملة الآن ـ او اللغة الاغريقية لاتيكا في عام ٤٠٠ ق.م او اللغة الفرنسية اليوم . ان هذه الصور الوصفية المتنوعة تعتمد على علاقات واحدة : فاذا كانت كل لغة عبارة عن نظام مغلق ، فان جمع اللغات تضم عدداً من المبادئ الثابتة المشتركة التي يصادفها اللغوي مرة بعد اخرى عند الانتقال من لغة الى اخرى ، لانه مايزال يعمل في الصنف نفسه . والدراسة التاريخية لاتختلف عن هذا : فسواء درس اللغوي فترة معينة في تاريخ اللغة الفرنسية (لنقل من القرن الثالث عشر حتى القرن العشرين) او لغة جاوا او اية لغة اخرى ، فهو دائما

يتعامل مع حقائق مماثلة، وما عليه الا ان يقارن بين هذه الحقـائق لكي يتوصـل الى الحقائق العامة للصنف الدايكروني. والصورة المثالية هي ان يكرس كل عالم نفسه لحقل واحد من حقول البحث ويتناول اكبر عدد ممكن من الحقائق في ذلك الصنف. بيد انه يصعب على العالم ان يتقن اتقانا جيدا وبصورة علمية جميع هذه اللغات المختلفة. ويقابل ذلك ان كل لغة في الواقع تؤلف وحدة دراسية : تحملنا متطلبات الظروف اللغوية ان ندرسها مرة حسب النظرية التاريخية ومرة اخرى حسب النظرة الثابتة. وفوق كل ذلك علينا ان لاننسى ابداً ان هذه الوحدة مصطنعة من الناحية النظرية : في حين يخفي تنوع اللغات وحدة عميقة. ومهما كانت النظرة التي ننظرها الى اللغة في دراستها فعلينا ان نضع كل حقيقة في الصنف الذي تعود له وان لانخلط بين الأسلوبين.

ان الجزأين من علم اللغة اللّذين حددناهمـا سابقـاً، سيكونـان موضـوع هذه الدراسة.

إذ سيتناول **علم اللغة التزامني** العلاقات المنطقية والسايكولوجية التي تربط بين العناصر المتزامنة وتكون نظاماً في العقل الجماعي للمتكلمين.

أما **علم اللغة الزمني** فيدرس العلاقات التي تربط بين العناصر التي تتعاقب زمنيا ولا يدركها العقل الجماعي ، وكل عنصر يحل محل العنصر الآخر، من غير أن تؤلّف هذه العناصر نظاماً.

الجزء الثاني

علم اللغة السنكروني

الفصل الاول

مبادئ عامة

يهدف علم اللغة التزامني العام الى وضع المبادئ الأساسية لأي نظام اديوسنكراسي أي لمكونات اية حالة لغوية . فكثير من الامور التي تحدثنا عنها في الجزء الاول هي جزء من السنكرونية : مثال ذلك الصفات للاشارة هي جزء لا يتجزأ من السنكرونية مع اننا عددناها دليلا على ضرورة الفصل بين علم اللغة الدايكروني والسنكروني .

ويعود الى السنكرونية كل ما يطلق عليه «بالنحو العام» لاننا لا نستطيع ان نتوصل الى العلاقات المختلفة التي هي موضوع النحو إلا عن طريق دراسة الحالات اللغوية. وسنتحدث في الفصول القادمة عن المبادئ الاساسية الضرورية لمعالجة المسائل الخاصة بعلم اللغة الثابت او لتوضيح الحالات اللغوية بصورة تفصيلية .

تُعَدُّ دراسة علم اللغة الثابت، على العموم، أكثر صعوبة من دراسة علم اللغة التاريخي ، لان حقائق التطور ملموسة واضحة اكثر من غيرها : وعلاقاتها المرئية تربط بين العناصر، المتعاقبة زمنيا، التي يسهل فهمها. فتتبع سلسلة من التغييرات من الامور السهلة بل من الأمور المسلية. أما علم اللغة الذي يعالج القيم والعلاقات المتزامنة فتكثر فيه الصعوبات.

ليست الحالة اللغوية في الواقع نقطة بل فترة من الزمن يكون فيها المجموع الكلي للتغييرات الحاصلة ضئيلاً جداً ينحصر في الحدود الدنيا. وقد تضم هذه الفترة عشر سنوات او جيلا او قرنا بل أكثر من ذلك . فقد لاتتغير لغة ما طوال فترة طويلة من الزمن، ثم يقع فيها تغيير جذري في بضع سنوات. وقد نلاحظ لغتين قائمتين جنبا الى جنبٌ خلال فترة معينة، تتطور احداهما تطوراً جذريا وتبقى الثانية على حالها من دون أي تغيير يذكر. فتكون الدراسة زمنية للغة الاولى وتزامنية للغة الثانية . ويمكن تعريف الحالة اللغوية المطلقة بأنها الحالة التي لا يظهر فيها اي تغيير. ولما كانت اللغة تتغير بطريقة ما رغم كل شئ ، فان دراسة الحالة اللغوية يعني في الواقع إهمال التغييرات التي لا اهمية لها، كما ان عالم الرياضيات يهمل الكميات الصغيرة جدا في بعض الحسابات كاللوغارتمات.

يميز التاريخ السياسي بين مفهوم **العصر** era وهو نقطة في الزمن، و**الفترة** period وهي حقبة زمنية . ومع ذلك فالمؤرخ يقول «عصر انطونيو» وعصر الحروب الصليبية وغير ذلك، عندما يتحدث عن مجموعة من المميزات او الصفات التي تبقى ثابتة خلال هذه الازمنة. وكذلك يستطيع المرء ان يقول ان علم اللغة الثابت يدرس العصور. ولكن افضل من ذلك استعمال لفظة **الحالة**. ان بداية عصر ما ونهايته تتميزان عادة بحدوث ثورة فجائية كثيرا ماتؤدي الى تغيير الحالة الراهنة . ولكي نتجنب مثل هذا الانطباع في اللغة فمن المفضل ان نستخدم لفظة الحالة . ثم ان كلمة «العصر» مقتبسة من التاريخ ، لذا فهي تجعل المرء يفكر بالظروف المحيطة باللغة اكثر من التفكير باللغة نفسها . وباختصار فهي توحي لنا بفكرة ما يسمى بعلم اللغة الخارجي (لاحظ المقدمة ، الفصل الخامس) .

ثم إن التحديد الزمني ليس الصعوبة الوحيدة التي تواجهنا في تعريف الحالة اللغوية : فالمكان يقدم لنا مثل هذه الصعوبة . وباختصار لايمكن أن تكون فكرة الحالة اللغوية الا تقريبية . ففي علم اللغة الثابت ، وكذلك في اكثر العلوم ، لايمكن ان نستخدم اي اسلوب من التفكير دون تبسيط المعطيات عادة .

الفصل الثاني

الكيانات الملموسة للغة

تعريف :ـ الكيان والوحدة .

الاشارات التي تتألف منها اللغة ليست اشياء مجردة بل اشياء حقيقية ، وهذه الاشارات والعلاقات بينها هي موضوع دراسة علم اللغة : فهي الكيانات الملموسة لعلم اللغة . نود اولا ان نعيد الى الاذهان مبدأين اساسيين في هذا الموضوع :ـ

١ ـ ان الكيان اللغوي يستمد وجوده من الارتباط بين الدال والمدلول

(لاحظ الجزء الاول الفصل الاول) . فاذا ابقينا على عنصر واحد فقط ، تلاشى الكيان : اذ لانجد سوى شئ مجرد بدلا من شئ ملموس . وكثيرا ما ندرك جزءاً من الكيان فنظن اننا ندركه جميعه وهذا ما يحدث ـ على سبيل المثال ـ اذا قسمنا السلسلة المنطوقة الى مقـاطع ، لان المقطع لاقيمـة له الا في النظام الصـوتي (الفونـولوجي) . فتعاقب الاصوات ليس شيئا لغويا الا اذا عبر عن فكرة ما . اما اذا اخذ هذا التعاقب للاصوات بصورة مستقلة اصبح مادة لدراسة فسلجية ليس الا .

ويصح الشئ نفسه على المدلول حالما يفصل عن الدال . فاذا نظرنا الى مفهومات مثل «البيت» و «ابيض» و «راى» وغيرها بصورة مستقلة ، فهي جزء من علم النفس . ولا تصبح كيانات لغوية الا اذا ارتبطت بالصور الصوتية . فالفكرة في اللغة ما هي إلا صفة من صفات المادة الصوتية كما ان أية شريحة صوتية ما هي إلا صفة من صفات الفكرة .

كثيراً ما شبهت الوحدة اللغوية الثنائية بالكائن البشري الذي يتألف من الجسم والروح. ولكن هذا التشبيه غير مقنع. وافضل منه التشبيه بالمركب الكيميائي كـالماء ، التركيب المؤلف من الهايدروجين والأوكسجين. فاذا اخذنا ايا من العنصرين لوحده لم نجد له اية صفة من صفات الماء.

٢ ـ ان الكيان اللغوي لايمكن تعريفه بدقة الا اذا حدد ، اي اذا عزل عما يحيط به في سلسلة الصوت . وهذه الكيانات او الوحدات المحددة تقابل بعضها البعض في النظام اللغوي .

قد يميل المرء في بادئ الامر الى تشبيه الاشارات اللغويـة بالاشـارات المرئيـة الموجودة في الفضاء ، من دون ان تمتزج بعضها ببعض : فيزعم ان فصـل العناصر المهمة يمكن انجازه بالطريقة نفسها ، من دون اللجوء الى أية عملية عقلية . ومما يدعم هذا الخطأ لفظة «الصيغة» التي كثيراً ماتستخدم للاشارة الى هذه العناصر (لاحظ عبارة

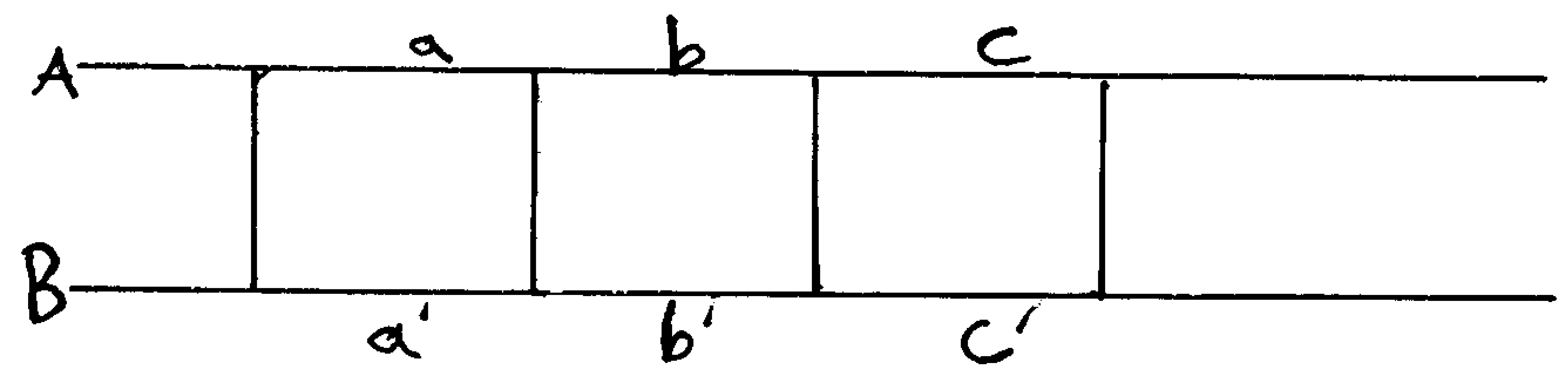
«صيغة الفعل» و«صيغة الاسم». ولكننا نعلم ان الصفة الاساسية للسلسلة الصوتية هي انها خطية (لاحظ الجزء الاول، الفصل الأول، الفقرة٣) . فليست هذه السلسلة، إذا أخذت لوحدها ، إلا خطاً ، شريطاً مستمراً لاتستطيع الاذن ان تميز فيه تقسيما واضحا . واذا اردنا تقسيم هذه السلسلة فعلينا ان نستعين بالمعنى . فحين نسمع لغة غير معروفة لدينا ، لانعلم كيف نحلل تعاقب الاصوات : لان التحليل غير ممكن اذا اقتصر اهتماما بالجانب الصوتي للظاهرة اللغوية . اما اذا عرفنا الوظيفة والمعنى اللذين ينسبان لكل جزء من اجزاء السلسلة ، وجدنا ان هذه الاجزاء تنفصل بعضها عن البعض الآخر ، وينقسم الشريط الصوتي الذي لاشكل له الى اقسام . ومع ذلك يخلو هذا التحليل من أي شئ مادي .

وموجز القول ان اللغة لاتظهر لنا بصورة مجموعة من الاشارات المحددة سالفا التي لا تحتاج الا الى دراستها طبقا لمعانيها وترتيبها : بل هي كتلة مرتبكة لايدرك عناصرها الخاصة الا الشخص النبيه الذي له المام بها . والوحدة ليس لها طبيعة صوتية معينة ، والتعريف الوحيد الذي يمكننا ان نقدمه لها هو : **انها شريحة صوتية** ، تتميز عما يسبقها ويليها في السلسلة المنطوق بها ، بانها دال لفكرة معينة .

٢ ـ اساليب التحديد :

إن الذي يحسن لغة ما يشخص وحداتها بطريقة بسيطة جدا ـ من الناحية النظرية في الاقل . وهذه الطريقة عبارة عن استعمال الكلام مادة اولية للغة ، وعدّه مؤلفا من سلسلتين متوازيتين ـ الاولى الافكار (A) والثانية الصور الصوتية (B) .

واذا كان تحديد الوحدات دقيقا اتفقت التقسيمات في سلسلة الصور الصوتية (a,b,c) مع التقسيمات في سلسلة الافكار (á,b́,ć) :



لنأخذ العبارة الفرنسية sižlapr'a . هل نستطيع ان نقطع السلسلة بعد الصوت L ونجعل من sižl وحدة ؟ الجواب لا ، وما علينا الا ان ننظر الى الافكار التي في هذه السلسلة حتى ندرك ان هذا التقسيم غير صحيح . كما اننا ينبغي ان لانأخذ التقسيم المقطعي siž - La - prá وكأن له قيمة لغوية لاشك فيها . فالتقسيم الوحيد ينبغي ان يكون

باحدى الطريقتين :

(١) Si je la prends) si — ž — la — prá اذا اخذتها) و (٢) (si je Lapprends) si - z - la — prá إذا تعلمتها) . وهذان التقسيمان يحددهما المعنى الذي تعبر عنه الكلمات .

واذا اردنا ان نتأكد من نتيجة هذه الطريقة ونكون على بينة من اننا نتعامل مع وحدة لغوية ، ينبغي ان نقارن مجموعة من الجمل التي تحتوي على الوحدة نفسها كي نفصل هذه الوحدة عن بقية النص ونجد في كل حالة ان المعنى يسوّغ التحديد . لنأخذ العبارتين الفرنسيتين : La force du vent) Laforsdüvá = قوة الهواء) و abudfors a bout de force) = وتعني حرفيا : بلغ المرء نهاية قوته = انه مجهد) . ففي كل من العبارتين تتفق الفكرة نفسها مع شريحة صوتية واحدة وهي fors ، لذا فهي ولاشك وحدة لغوية . اما في عبارة : (ilme force a parler) ilma forsa parle ارغمني على الكلام) فان لفظة fors لها معنى مختلف تماما : لذا فهي وحدة لغوية مختلفة عن fors في المثال الاول .

٣ - الصعوبات العملية للتحديد

ان الطريقة التي تحدثنا عنها بسيطة جدا من الناحية النظرية ، ولكن هل هي سهلة التطبيق ؟ قد نظن انها سهلة حقا اذا بدأنا بفكرة ان الوحدات التي نريد عزلها هي الكلمات . وهل تتكون الجملة من شيءٍ سوى الكلمات ؟ وهل هناك شيء اسهل على الفهم من الكلمات ؟ لنعد الى المثال السابق ، حيث نستطيع القول ان تحليل السلسلة المنطوقة sižlaprá ينتج عنه تحديد اربع وحدات ، وان الوحدات هي كلمات . — si — je — L apprends ولكننا سرعان ما نشك في الامر اذ نلاحظ ان العلماء قد اختلفوا في طبيعة الكلمة ، ولا نحتاج الى كثير من التفكير لندرك ان المعنى المألوف للكلمة لايتفق وفكرة الوحدة الملموسة .

واذا اردنا دليلا مقنعا فما علينا الا ان نتأمل الكلمة الفرنسية cheval «حصان» وصيغة الجمع لها . chevaux . فالناس متفقون على انهما صيغتان لكلمة واحدة . ولكننا اذا اخذنا الكيان الكلي لهما فانهما ولاشك شيئان متميزان من ناحية المعنى والصوت . وفي mois) mwa كما في mois de septembre = شهر ايلول) و mois) mwaz في عبارة un mois après = بعد شهر) صيغتان لكلمة واحدة ، اما مسألة الوحدة الملموسة فغير واردة . ان المعنى واحد ولكن الشريحتين الصوتيتين مختلفتان . فاذا حاولنا تشبيه الوحدات الملموسة بالكلمات ، فاننا سرعان ما نقع في معضلة : اذ نجد انفسنا مضطرين الى اهمال العلاقة الواضحة التي تربط cheval وchevaux ، التي تربط الصوتين mwa وmwaz وغيرهما، والى القول انهما كلمتان مختلفتان ، او نضطر الى اهمال الوحدات الملموسة ونقتنع عوضا عنها بالشيْ المجرد الذي يربط بين الصيغ المختلفة للكلمة الواحدة . علينا اذن ان نبحث عن الوحدة الملموسة في مكان آخر غير الكلمة . ثم ان كثيراً من الكلمات

انما هي وحدات مركبة ، يسهل علينا تشخيص الوحدات الفرعية فيها (كاللاحقة suffix والبادئة prefix والاصل radical) . فالكلمات المشتقة مثل[٣٣] pain - ful و delight - ful يمكن تقسيمها الى اجزاء متميزة ، كل منها له معنى واضح ووظيفة واضحة . وهناك وحدات اكبر من الكلمة : كالوحدات المركبة (مثال ذلك porte - plume = حاملة القلم في الفرنسية) والعبارات الشائعة (s,il vous plait = من فضلك) والصيغ المعربة (كما في ilaete = كان (هو) وغيرها . ان هذه الوحدات غير قابلة تحديد شأنها شأن الكلمات الحقيقية فيصعب الفصل بين العلاقات المتشابكة للوحدات الموجودة في السلسلة الصوتية ، كما يصعب تحديد العناصر الملموسة التي يعتمد عليها عمل اللغة .

مما لاشك فيه ان المتكلمين لايدركون الصعوبات العملية التي تواجه من يريد تحديد الوحدات . فكل شئ له نزر من الدلالة يبدو لهم عنصراً ملموساً ، يشخصونه دائماً في الحديث . ولكن الشعور بالصلة السريعة الدقيقة بين الوحدات شئ وتفسير هذه الوحدات باسلوب تحليلي منتظم شئ آخر .

وثمة نظرية أخرى واسعة الانتشار تجعل من الجمل وحدات لغوية ملموسة . فنحن نتكلم بالجمل ثم نشخص فيها الكلمات . ولكن الى اي مدى تنتمي الجملة الى اللغة (لاحظ الفصل الخامس ، الفقرة٢) ؟ فاذا كانت الجملة جزءاً من الكلام ، فانها لايمكن ان تكون وحدة من وحدات اللغة . ولنفرض ان هذه الصعوبة يمكن تخطيها . فاذا تصورنا الكيان الكلي للجمل التي يمكن النطق بها فان ابرز صفة من صَفات هذه الجمل انها لاتشبه بعضها البعض في اي شئ . وقد نحاول اول الامر ان نشبه التنوع الشديد للجمل بالتنوع الشديد بالافراد التي تتألف منها الفصيلة في علم الحيوان . ولكن هذا ضرب من الوهم : فالمميزات التي تشترك فيها الحيوانات التي تنتمي الى فصيلة واحدة ابرز من الاختلافات التي تفصل بينها . اما في الجمل فالعكس هو الصحيح ، حيث ان التنوع هو السائد ، فاذا بحثنا عن الجسر الذي يربط بين هذه الفروق ، نجد ثانية ، دون قصد ان هذا الجسر هو الكلمة بمميزاتها النحوية . فنعود مرة آخرى لنواجه الصعوبات التي مر ذكرها .

٤ ـ الخاتمة :

ان مسألة الوحدات لاتظهر في كثير من العلوم : فهذه الوحدات تحدد منذ البداية .. ففي علم الحيوان يظهر الحيوان منذ البداية . ويستخدم علم الفلك وحدات معزولة في الفضاء وهي النجوم . ويستطيع الكيمياوي ان يدرس طبيعة بايكرومات البوتاسيوم

---

(٣٣) وفي العربية مدرسـ . . . ون ، مدرسـ . . . ـة ، مد . . . ا . . رس وغيرها ، يمكن تمييز الأصل والاضافات. (المترجم).

وتركيبها من دون ان يشك ولو لحظة واحدة ان هذا الشئ الذي يتعامل معه انما هو شئ له كيان محدد .

وإذا لم يكن لعلم ما وحدات ملموسة يمكن تشخيصها من الوهلة الاولى ، فان سبب ذلك هو ان مثل هذه الوحدات ليست ضرورية . ولنأخذ التاريخ على سبيل المثال : ما الوحدة هنا ؟ الفرد ام العصر ام الامة ؟ لانعلم . ولكن ما اهمية ذلك ؟ فنحن نستطيع ان ندرس التاريخ من دون ان نعرف جواب الاسئلة آنفة الذكر .

اما اللغة فتشبه تماما لعبة الشطرنج . ففي لعبة الشطرنج تعتمد اللعبة كلياً على الارتباط بين قطع الشطرنج المختلفة ، وكذلك تتميز اللغة بانها نظام يعتمد كلياً على التقابل بين وحداته الملموسة . فنحن لا نستطيع الاستغناء عن الالمام بهذه الوحدات ولا نستطيع ان نخطو خطوة واحدة من دون ان نعود اليها ، ومع ذلك يكون تحديد هذه الوحدات مسألة دقيقة تجعلنا نتساءل في بداية الأمر ، هل لهذه الوحدات وجود ؟

إذن فاللغة تتميز بصفة بارزة غريبة وهي انها لاتملك كيانات يمكن رؤيتها منذ البداية ، ومع ذلك لانشك ان هذه الكيانات موجودة . وان وجودها يتوقف على عملها . ان هذه الصفة ولاشك تميز اللغة عن غيرها من أنظمة الاشارات .

الفصل الثالث

التطابق اللغوي والحقائق الواقعية والقيم

ان ما قلناه سابقاً يؤدي بنا الى مسألة مهمة لان اية فكرة اساسية في علم اللغة الثابت تعتمد بصورة مباشرة على مفهومنا للوحدة بل تمتزج به . وهذا ما سأوضحه شيئاً فشيئاً بالنسبة لمفهوم التطابق والحقيقة الواقعية والقيمة في علم اللغة التزامني .

أ - ماذا نعني بالتطابق السنكروني ؟ ان المسألة هنا لاتتعلق بالتطابق الذي يربط بين اداة النفي الفرنسية pas = «لا» واللفظة اللاتينية passum «خطوة» فهذا تطابق دايكروني سنتحدث عنه في مكان آخر (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الثامن) ، بل المقصود التطابق التزامني الذي لا يقل اهمية عن التطابق الدايكروني وهو التطابق الذي يساعدنا على القول بأن جملتين مثل jene sais pas = «لا اعلم» و ne dites pas cela = «لاتقل ذلك» يحتويان على العنصر نفسه . وقد يقول احدهم هذه مسألة لافائدة فيها ، فوجود التطابق سببه ان الشريحة الصوتية الواحدة لها معنى واحد في الجملتين . ولكن هذا تفسير غير مقنع ، فاذا كان التشابه بين الشرائح الصوتية والافكار دليلاً على التطابق اللغوي (لاحظ ، فيما تقدّم ، العبارتين : la force du vent : about de force) فأن العكس غير صحيح . اذ قد يوجد تطابق لغوي من دون وجود مثل هذا التشابه فأذا اعيدت لفظة Gent lemen ! = «ايها السادة» عدة مرات في اثناء محاضرة ، يشعر المستمع ان العبارة ذاتها تستعمل في كل مرة . ومع ذلك يؤدي الاختلاف في النطق والتنغيم الى اختلاف صوتي ملموس في السياقات المختلفة - وهذه اختلافات لاتقل اهمية عن تلك التي تفصل بين الكلمات المختلفة (لاحظ الكلمات الفرنسية : pomme = تفاح و paume «كف اليد» ، goutte = نقطة وje goute اذوق ، fuir = يهرب و fouir = يحشو وغيرها . ثم ان الشعور بالتطابق يبقى حتى اذا لم يكن هناك تطابق مطلق بين لفظة «ايها السادة في الحالة الاولى وفي الحالات الاخرى من ناحية المعنى . وكذلك يمكن أن تعبّر الكلمة الواحدة عن افكار مختلفة من دون ان يؤثر ذلك في تطابق الكلمة (لاحظ الكلمات الفرنسية adopter une mode = يتبنى طرازا معينا و adopter un eufaut يتبنى طفلا ، Lafleur du pommier = زهرة التفاح و La fleur de la nololesse = زهرة النبلاء وغيرها) .

إن النظام اللغوي مكيف للاعراب عن الفروق والتطابق ، والفروق تقابل التطابق . فمسألة التطابق تظهر في كل مكان ، وهي تمتزج جزئياً بمسألة الكيانات والوحدات ، وتُعَدّ مظهرا معقدا لمسألة اكبر ، تلقي بعض الضوء عليها احياناً . وتظهر هذه الميزة

بنحوٍ بارز اذا اجرينا مقارنة بينها وبين بعض الحقائق المأخوذة من خارج اللسان . مثال ذلك ، نحن نتكلم عن التطابق بين القطارين المغادرين من جنيف الى باريس الساعة ٢٥ر٨ مساء ويفصل بين كل قطار واخر أربع وعشرون ساعة . فنحن نشعر ان القطار واحد في كل يوم . مع ان كل شيْ قد يكون مختلفاً ـ القاطرة والعربات والعاملين ـ او اذا هدم شارع ثم اعيد بناؤه نقول ان الشارع هو نفسه ، مع ان الشارع القديم ربما لم يبق منه شيْ . لماذا يبقى الشارع نفسه رغم اعادة تشييده كلياً ؟ الجواب لان الشارع ليس عبارة عن كيان مادي محض ، بل انه يعتمد على شروط معينة تتميز عن الخواص المادية التي تناسب هذه الشروط : كموقع الشارع بالنسبة للشوارع الاخرى وكذلك القطار السريع الذي يغادر كل يوم من جنيف الى باريس هو القطار نفسه بسبب ساعة المغادرة والطريق الذي يسلكه القطار وبصورة عامة جميع الظروف التي تميزه عن غيره من القاطرات . فاذا تحققت الشروط نفسها وجدت الكيانات ذاتها . ومع ذلك ليست هذه الكيانات اموراً مجردة إذ اننا لانستطيع ان نتصور شارعاً او قطاراً بدون كيانه المادي .

لنقارن المثالين السابقين بمثال آخر مختلف وهو بدلة سرقت مني ثم وجدتها في دكان لبيع الملابس العتيقة . عندنا في هذه الحالة كيان مادي يتألف من مادة خاملة العناصر كوجه القماش وبطانته والزركشة وغير ذلك . ان بدلة اخرى لن تكون بدلتي رغم الشبه بينهما . ولكن التطابق اللغوي يختلف عن التطابق في الملابس ويشبه التطابق في القطار والشارع . وكل مرة اقول «ايها السادة !» انما اجدد المادة التي تتألف منها العبارة فكل نطق بهذه العبارة ينطوي على عمل صوتي جديد وعمل سايكولوجي جديد . والرابطة بين الاستعمالين للكلمة الواحدة لاتعتمد على التطابق المادي ولا على معنى واحد بل تعتمد على العناصر التي ينبغي على الباحث ان يفتش عنها ، التي تشير الى الطبيعة الحقيقية للوحدات اللغوية .

ب ـ ما الحقيقة الواقعية السنكرونية ؟ وما العناصر اللغوية الملموسة او المجردة التي تنطبق عليها هذه التسمية ؟

لنأخذ مثلاً التمييز بين اقسام الكلام . ما الدليل الذي يدعم تصنيف الكلمات الى اسماء وصفات وغيرهما ؟ هل يعتمد هذا التصنيف على مبدأ منطقي غير لغوي طبق على النحو من الخارج كخطوط الطول والعرض التي ترسم على الكرة الارضية ؟ ام انه يشبه شيئاً له مكان في النظام اللغوي وتكيف به ؟ وموجز القول : هل هو حقيقة واقعية سنكرونية ؟ تبدو الفرضية الثانية شيئاً محتملاً ، كما ان الفرضية الاولى لها ما يسوّغها . ففي الجملة الفرنسية ces gants sont bon marche «هذه الكفوف رخيصة» هل bon marche صفة ؟ من الواضح انها صفة من وجهة النظر المنطقية ولكنها ليست صفة من وجهة النظر النحوية ، لان bon marche لاتسلك سلوك الصفة (فهي ذات صيغة واحدة كما

انها لايمكن ان تسبق الاسم . الى اخره) ، فضلا عن انها تتألف من كلمتين . ان التمييز بين اقسام الكلام هو الشئ الذي ينبغي ان يساعد على تصنيف الكلمات في اللغة . ولكن كيف يمكن ان تنسب مجموعة من الكلمات الى احد هـذه «الاقسام» ؟ واذا قلنـا ان bon = «جيد» هو صفة و marché = «سوق» اسم فان ذلك لن يفسر شيئا . إذ انه تصنيف ناقص غير كامل . ولكن تقسيم الكلمات الى أسماء وافعال وصفات وغيرها ليست حقيقة واقعية لغوية ، لايمكن اغفالها(٣٤) .

فعلم اللغة اذن يستخدم دائما مفهومات صاغها النحويون ، من دون ان يعرفوا هل ان هذه المفهومات تطابق فعلا مكونات النظام اللغوي . ولكن كيف نستطيع ان نعرف ذلك ؟ واذا كانت هذه المكونات اشباحا فما الحقائق الواقعية التي يمكن ان تقابلها ؟

إذا اردنا ان نتخلص من الاوهام فعلينا ان نقنع انفسنا ان الكيانات الملموسة للغة لايمكن الوصول اليها بصورة مباشرة . وإذا اردنا ان نفهمهـا عثرنـا على الحقـائق الصحيحة . ثم نبدأ من هناك فنضع جميع انواع التصنيف التي يحتاج اليها علم اللغة لتنظيم جميع الحقائق المتوفرة لديه . ومن جهة اخرى يعني إقامة التصنيف على أي اساس عدا الكيانات الملموسة كالقول مثلا إن اقسام الكلام هي مكونات اللغة لا لسبب إلا لانها تشبه المقولات في علم المنطق ـ يعني اننا ننسى ان الحقائق اللغوية لاوجود لها عدا مادة الصوت المقسمة الى عناصر ذات معنى .

ج - وأخيرا ، ليست جميع الافكار التي ذكرناها ، في هـذا الفصل مختلفـة بصورة جوهرية عما اطلقنا عليه في مكان آخر بـ «القيم» ونذكر هنا مقارنة جديدة بقطع الشطرنج توضح هذه المسألة (لاحظ الجزء الاول ، الفصل الثالث ، الفقرة٤) . لنأخذ الحصان - على سبيل المثال ـ أ هو في حد ذاته عنصر في لعبة ؟ الجواب : لا . فالتكوين المادي لهذه القطعة ـ خارج المربع والشروط الاخرى للعبة ـ لااهمية له للاعب : ولا تصبح القطعة عنصرا ملموسا حقيقيا الا عندما تمنح قيمة وتبقى هذه القيمة ملاصقة لها . ولنفرض ان القطعة فقدت او كسرت في اثناء اللعب . هل يمكن ان تحل محلها قطعة مماثلة ؟ نعم . ولا يشترط أن تكون القطعة الجديدة على هيئة حصان ، بل يمكن ان تكون باية هيئة أخرى ، وتشبه الحصان أو يتفق عليها أنها تشبه الحصان ، على شرط ان تكون لها قيمة القطعة الاولى . وهكذا نرى أن في انظمة الاشارات ، كما في اللغة ، حيث العناصر تحتفظ بحالة تعادل فيما بينها ، تمتزج فكرة التطابق مع فكـرة القيمة

---

(٣٤) ان الشكل والوظيفة والمعنى تجعل من تصنيف اقسام الكلام في الانكليزية امرا اكثر صعوبة من الفرنسية . لاحظ — ten : ten foot في feet — pole — foot — aten : the pole is ten feet long (باسكن)

والعكس هو الصحيح . وبايجاز ، هذا هو سبب أن فكرة القيمة تضم مفهومات الوحدة والكيان الملموس والحقيقة الواقعية . واذا لم يكن أي فرق جوهري بين هذه المفهومات المتنوعة ، فأن ذلك يعني ان المسألة يمكن التعبير عنها على التوالي وباساليب متعددة . وسواء حاولنا ان نعرف الوحدة أو الحقيقة الواقعية أو الكيان الملموس أو القيمة ، فأننا نعود دائما الى المسألة الأساسية التي تسود علم اللغة الثابت باجمعه .

ومن المهم ، من الناحية العملية ، أن نبدأ بالوحدات فنحدد ماهيتها ونفسر تنوعها عن طريق تصنيفها . ومن الضروري ايضا ان نبحث عن الاسباب التي نقسم بموجبها اللغة الى كلمات ـ فرغم صعوبة تعريف الكلمة ، فهي وحدة تجذب الانتباه ، بكونها شيئاً يمثل كيانا اساسيا في النظام اللغـوي . إن هذا المـوضوع يمكن ان يكـرس له كتاب بأكمله . وعلينا بعد ذلك ان نصنف الوحدات الفرعية ثم الوحدات الكبيرة الى آخره . فعلم اللغة السنكروني بتحديده بهذا الاسلوب ، العناصر التي يستخدمها يؤدي وظيفته بصورة كاملة . إذ انه ينسب جميع الظواهر السنكرونية الى المبدأ الاساسي .

ولايمكن القول ان هذه المسألة الاساسية قد عولجت او فهم مجالها وصعوبتها : فقد اقتنع الناس دائما في الامور اللغوية بالوحدات المبهمة .

وعلى كل حال ، من الافضل ان ندرس مسألة الوحدات ـ مع اهميتها الكبيرة ـ عن طريق دراسة القيمة ، لأنني أرى أن القيمة ذات أهمية كبرى .

الفصل الرابع

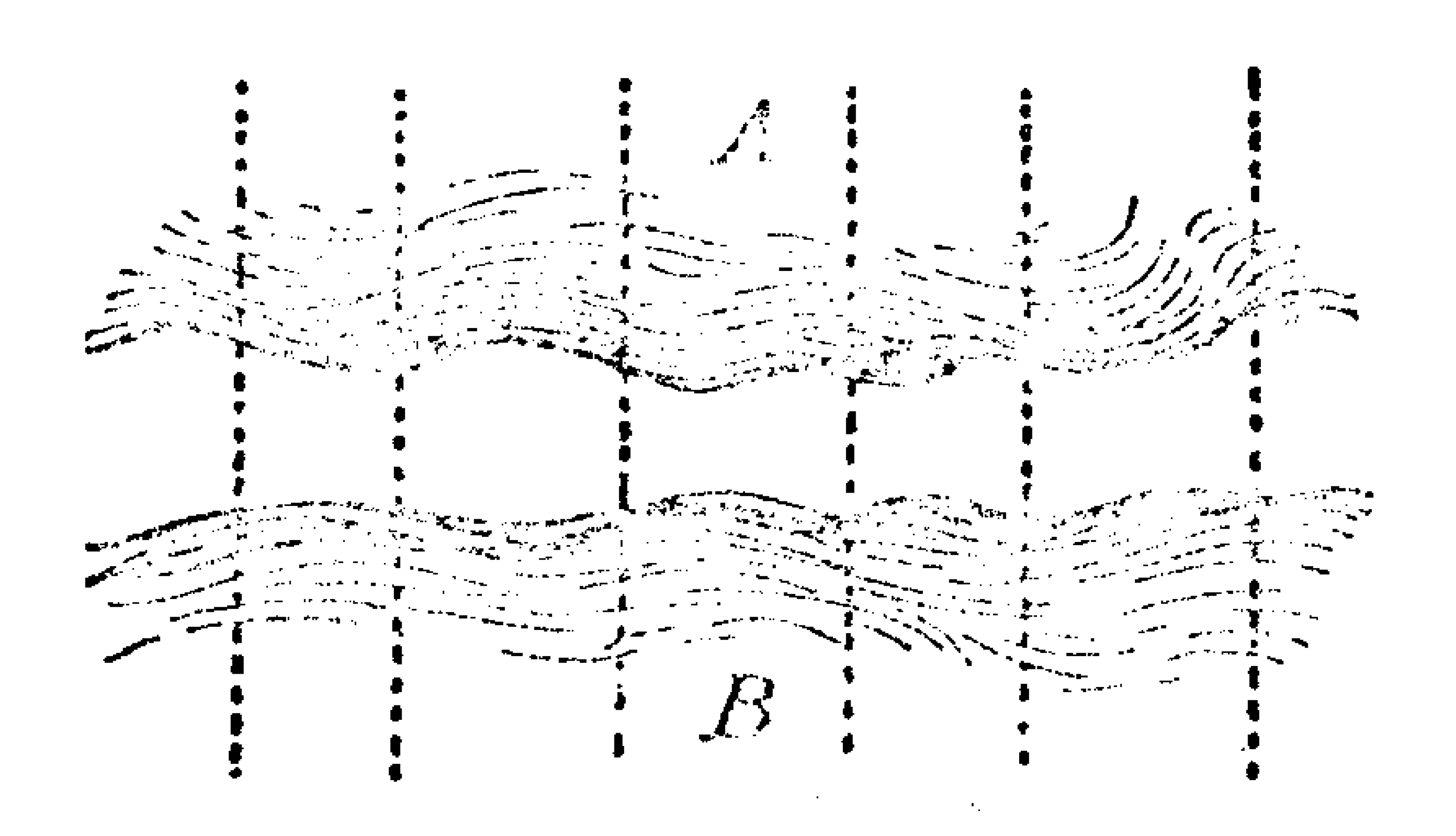
القيمة اللغوية

١ ـ اللغة فكرة منظمة مقرونة بالصوت :

اذا أردنا ان نبرهن على ان اللغة ليست الا نظاماً للقيم ، فما علينا الا ان نتأمل عنصرين ، يشتركان في تأدية اللغة لوظيفتها : وهما الافكار والاصوات .

إن تفكيرنا من الناحية السايكولوجية ـ اذا اغفلنا التعبير عنه بالكلمات ـ ما هو الا كتلة غير متميزة لا شكل لها . وقد اتفق الفلاسفة وعلماء اللغة دائما على انه لولا الاشارات لما استطعنا ان نميز تمييزا واضحا ، ثابتاً بين فكرتين . فلولا اللغة أصبحت الفكرة شيئا مبهما ، غير واضح المعالم . اذاً لا توجد افكار يسبق اللغة وجودها ، ولا تتميز هذه الافكار قبل ظهور اللغة .

واذا قارنا مملكة الفكر العائمة بالاصوات ، فهل لهذه الاصوات ، بذاتها ، كيانات محددة سلفا ؟ كلا . فالاصوات كالافكار في هذه الناحية . ان المادة الصوتية ليست أكثر ثبوتا ولا أشد تحديدا من الفكر : وهي ليست قالبا يصب فيه الفكر بالضرورة : بل هي مادة مرنة تنقسم في كل حالة الى أجزاء متميزة لتوفر الدوال Signifiers التي يحتاج اليها الفكر . وبذلك يمكن ان نتصور الحقيقة اللغوية في مجملها ـ أي اللغة على انها سلسلة من التقسيمات المتجاورة التي حُددت على مستويين ـ المستوىٰ غير المحدد للافكار المكدسة(A) ومستوى الاصوات (B) الذي لا يقل عن الاول ابهاماً. ان الصورة الآتية ، توضح لنا هذه الفكرة بصورة عامة :



ان الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الافكار، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر والصوت، في ظروف تؤدي بالضرورة الى التمييز المتبادل لوحدات الفكر والصوت. فالفكر الذي هو بطبيعته غير منتظم، يتخذ نظاما معينا في اثناء عملية تحليله. ولا تتخذ الافكار شكلا ماديا، كما ان الاصوات لا تتحول الى كيانات عقلية: والحقيقة الغامضة هي ان «الفكر ـ الصوت» ينطوي على التقسيم، وان اللغة تصوغ وحداتها في اثناء اتخاذها شكلا معينا بين كتلتين لا شكل لهما.

تصور الهواء عند ملامسته سطح الماء: فاذا تغير الضغط الجوي، تموج سطح الماء الى سلسلة من الاقسام، او الامواج: وهذه الأمواج تشبه الربط بين الفكر ومادة الصوت.

ويمكن وصف اللغة بأنها ميدان النطق، تستخدم فيه الكلمة طبقا للتعريف الوارد في الصفحات الاولى من هذا الكتاب. فكل عنصر لغوي هو عضوا او نطق articulus ثبتت فيه فكرة في صوت ويصبح الصوت علامة للفكرة.

كما يمكن تشبيه اللغة بورقة: وجهها الفكرة وظهرها الصوت: لا يستطيع المرء ان يقطع الوجه من دون أن يقطع الظهر في الوقت ذاته. وكذلك في اللغة لا يستطيع المرء فصل الصوت عن الفكر كما لا يستطيع فصل الفكر عن الصوت.

ولا يمكن تحقيق هذا الفصل الا عن طريق التجريد، فتكون النتيجة لا شيء سوى علم النفس او النظام الصوتي. فميدان علم اللغة، اذن. منطقة حدود ترتبط فيها عناصر الصوت والفكر: وينتج عن أرتباطهما شكل، وليس مادة.

ان هذه الآراء توضح بصورة افضل ما قيل سابقا (الجزء الاول، الفصل الاول) عن اعتباطية الاشارات. فالمسألة لا تقتصر على ان الميدانين اللذين تربط بينهما الحقيقة اللغوية لا شكل لهما، بل اختيار شريحة صوتية معينة للتعبير عن فكرة معينة عملية اعتباطية محضة. ولو لم يكن هذا صحيحا لقلت اهمية فكرة القيمة، لانها ستضم عنصرا فرض عليها من الخارج. بيد ان القيمة تبقى دائما نسبية، ولذلك تكون العلاقة بين الصوت والفكرة اعتباطية بصورة جذرية.

وتفسر الطبيعة الاعتباطية للاشارة بدورها قدرة الحقيقة الاجتماعية، وحدها، على خلق النظام اللغوي. فالمجتمع ضروري لوضع قيم يعتمد وجودها بصورة كلية على استعمالها وقبولها من قبل الجمهور. ان الفرد وحده لا يستطيع وضع قيمة لغوية واحدة.

وفكرة القيمة، تبين ان عدّها عنصراً ما يتألف فقط من الربط بين صوت معين وفكرة معينة ـ طبقا للتعريف السابق ـ شيء مضلل. فاستخدام هذا الاسلوب من التعريف بعزل العنصر عن النظام الذي ينتمي اليه: وهذا ينطوي على الزعم بأن المرء يستطيع ان يبدأ بالعناصر ويبني منها النظام عن طريق الجمع بين هذه العناصر. في حين ان العكس

هو الصحيح ، اذ ينبغي للمرء ان يبدأ من الكل المترابط الاجزاء ، ويتوصل الى عناصره عن طريق التحليل .

وسنطور هذا الرأي عن طريق دراسة القيمة بصورة تدريجية عن وجهة نظر المدلول او الفكرة (الفقرة ٢) ، والدال (الفقرة ٣) والاشارة الكاملة (الفقرة ٤) .

وسنستخدم الكلمات لاننا غير قادرين على الحصول على الكيانات او الوحدات الملموسة للغة بصورة مباشرة . حقا ان الكلمة لا تطابق بدقة تعريف الوحدة اللغوية (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل الثاني) ، فهي مع ذلك قريبة الشبه بالوحدة ، وتمتاز بأنها شيء ملموس . لذا سنستعمل الكلمات بوصفها نماذج موازية للعناصر الحقيقية في نظام تزامني ، والمبادىء التي نتوصل اليها بالنسبة للكلمات تصح بالنسبة للكيانات بصورة عامة .

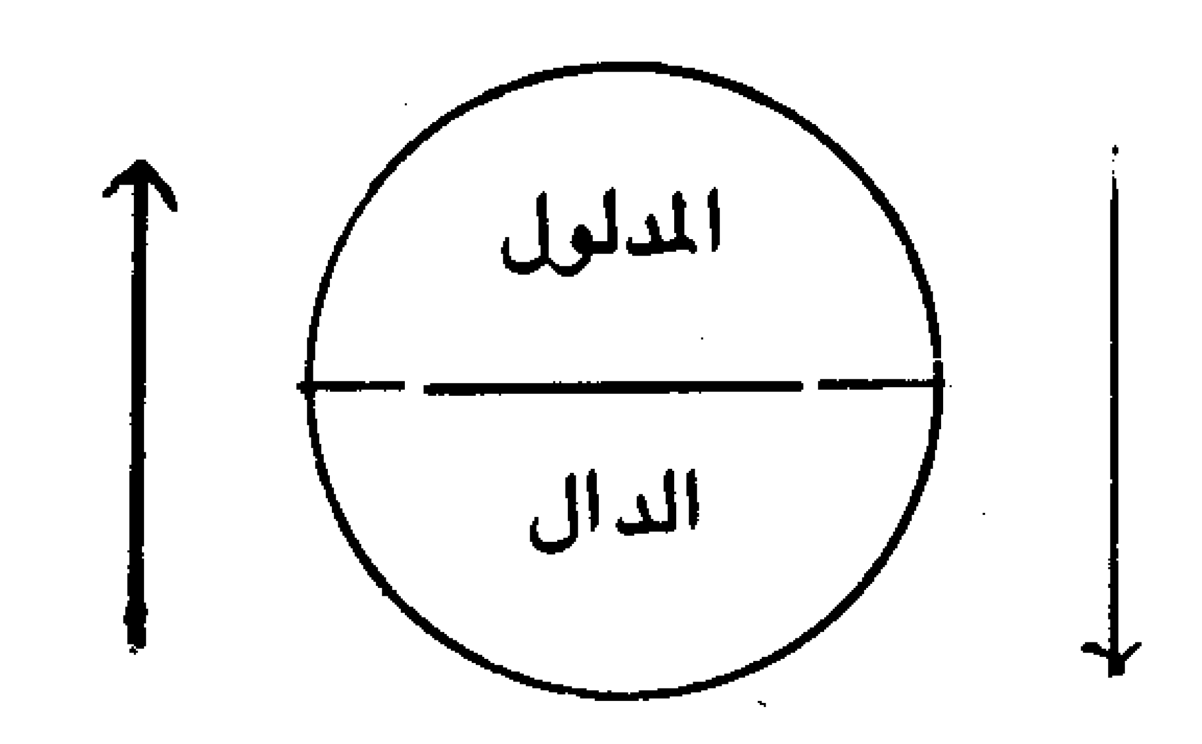
٢ ـ القيمة اللغوية من وجهة نظر فكرية

عندما نتحدث عن قيمة كلمة ما، نفكر أولاً بالصفة التي تجعل الكلمة تمثل فكرة، وهذا في الحقيقة جانب من القيمة اللغوية. ولكن إذا كان ذلك صحيحاً، فكيف تختلف القيمة عن الدلالة signification؟ هل ان اللفظتين مترادفتان؟ لا أعتقد ذلك، مع انه من السهولة الخلط بينهما، طالما ان الالتباس لا يأتي في المقام الأول، من التشابه بل من التمييز الدقيق الذي يفصل بينهما.

إن القيمة، من وجهة النظر الفكرية، ليست سوى عنصر واحد من عناصر الدلالة، ومن الصعب أن نزعم ان الدلالة تعتمد على القيمة ومع ذلك تتميز عنها. وعلى كل حال علينا أن نوضح المسألة وإلا جعلنا من اللغة عملية تسمية الأشياء حسب.

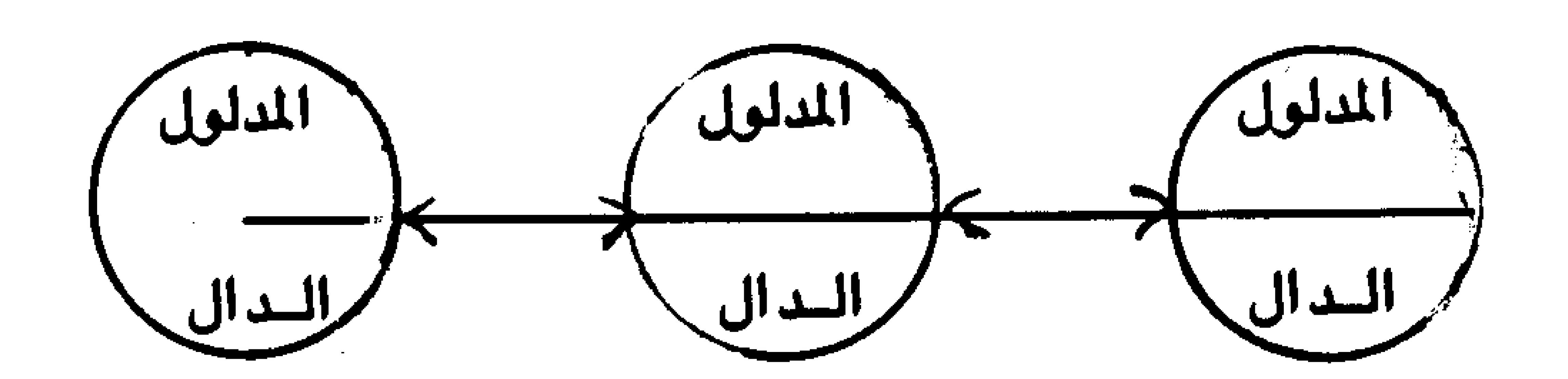
(لاحظ الجزء الأول، الفصل الأول).

لنأخذ الدلالة أولاً بمعناها السائد، وكما صورناها في الجزء الأول، الفصل الأول، يبيّن السهمان في الصورة أن الدلالة ليست سوى الجانب المقابل للصورة الصوتية. فكل ما يحدث يتعلق فقط بالصورة الصوتية والفكرة حين ننظر الى الكلمة على انها مستقلة قائمة بذاتها.



ولكن هذه حقيقة غريبة: فالفكرة من جهة الجانب المقابل للصورة الصوتية، ومن جهة أخرى تكون الاشارة بدورها الجانب المقابل للاشارات الأخرى في اللغة.

إن اللغة نظام من العناصر المعتمد بعضها على بعض، تنتج قيمة كل عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد، كما تبين لنا الصورة الآتية:



كيف يمكن إذن أن يحصل الالتباس بين القيمة والدلالة: أي الجـانب المقابـل للصورة الصوتية؟ يبدو أنه من الصعب أن نشبه العلاقات التي يعبر عنها السهمان الأفقيان بالعلاقات التي يعبر عنها السهمان العمودياُن: وبعبارة أخرى، إذا أخذنا مثال الورقة الذي يحاول المرء أن يقطعها الى قسمين، فمن الواضح ان العلاقة المرئية بين القطع المختلفة ,A, B, C, D الى آخره تختلف عن العلاقة بين وجه الورقة وظهرها كما في A/A', B/B' الى آخره.

من أجل حسم هذه المسألة، نقول في بداية الأمر ان جميع القيم - حتى إذا كانت خارج اللغة - تخضع، على ما يبدو لمبدأ واحد، يظهر وكأنه ينطوي على تناقض. فهذه القيم تتكون دائماً من:

(١) شيء مختلف يمكن إستبداله بالشيء الذي نريد تحديد قيمته.

(٢) شيء مشابه يمكن مقارنته بالشيء الذي نريد تحديد قيمته.

إن كلا العاملين ضروري لوجود القيمة. فإذا أردنا تحديد قيمة قطعة ذات خمسة فرنكات فعلينا أن نعرف: (١) ان باستطاعتنا استبدالها بكمية ثابتة من شيء مختلف عنها كالخبز مثلاً، (٢) إن باستطاعتنا مقارنتها بقيمة مشابهة في النظام نفسه، كقطعة ذات الفرنك الواحد أو بقطعة نقود من نظام آخر (كالدولار أو غيره). وبهذا المفهوم يمكن أن نستبدل الكلمة بشيء مختلف كالفكرة: كما نستطيع ان نقارنها بشيء له طبيعة هذه الكلمة، أي نقارنها بكلمة أخرى. إذن فقيمة الكلمة لا تحدد بمجرد القول بأن الكلمة يمكن «إستبدالها» بفكرة معينة: أي ان لها هذه الدلالة أو تلك: بل ينبغي مقارنتها بقيم مشابهة، أي بكلمات أخرى تتقابل معها. فمحتوى الكلمة يحدد فقط بمجموع الأشياء التي تقع خارجها. ولما كانت الكلمة جزءاً من نظام، فهي لا تملك الدلالة حسب، بل لها

ايضا قيمة، فالقيمة والدلالة شيئان مختلفان.

ويمكن أن نبين صحة هذا القول بضرب بعض الأمثلة. ان اللفظة الفرنسية الحديثة mouton «غنم» يمكن أن تكون لها نفس الدلالة التي للكلمة الانكليزية sheep ولكن لا يمكن أن تكون لها نفس القيمة، لأسباب كثيرة، أهمها أن الانكليزية تستخدم mutton وليس sheep عند الكلام عن قطعة لحم جاهزة على مائدة الطعام. فالفرق في القيمة بين sheep وmouton يرجع الى ان sheep في الانكليزية لها لفظة أخرى تستعمل معها وهي mutton : في حين ليس للكلمة الفرنسية كلمة أخرى.[٣٥]

إن الكلمات التي تعرب عن أفكار متقاربة في اللغة الواحدة يحدّد بعضها البعض. فالمرادفات مثل الكلمات الفرنسية redouter (يرعب)، craindre (يخاف)، avoir peur (يشعر بالخوف) تستمد قيمتها من التقابل فيما بينها. فلو لم تكن كلمة redouter موجودة لتوزع محتواها على اللفظتين المنافستين فيما سبق. وعلى العكس من ذلك يزيد معنى بعض الكلمات غنى عن طريق اتصاله بغيره: مثال ذلك العنصر الجديد في (unvieillard décrépit عجوز هرم) ناتجة من وجودها في آن واحد مع un murd.) decrépit = حائط متداع). إذن فقيمة كل عنصر تتحدد طبقاً لمحيطه environment إذ يصعب تحديد قيمة حتى الكلمة التي تدل على «الشمس» من دون أن نرجع أولاً الى ما يحيط بها. ففي بعض اللغات لا يمكن القول «أجلس في الشمس».

إن ما قلناه عن الكلمات ينطبق على العناصر الأخرى في اللغة، كالكيانات النحوية مثلاً. فقيمة صيغة الجمع في الفرنسية لا تطابق قيمة الجمع في السانسكريتية، من ان دلالة الجمع في اللغتين واحدة عادة. ففي السانسكريتية ثلاث صيغ تدل على العدد (المفرد والمثنى والجمع) بدلاً من الصيغتين في الفرنسية (المفرد والجمع). إذن من الخطأ أن ننسب قيمة واحدة الى الجمع في السانسكريتية والفرنسية لأن قيمة الجمع تعتمد على العوامل الخارجية والمحيطة بهذه الصيغة.

---

(٣٥) يمكن توضيح هذه المسألة كالاتي :

العربية	الانكليزية	الفرنسية
غنم	sheep	mouton
	mutton	

ففي الانكليزية تتقابل sheep مع mutton ، في حين ليس مثل هذا التقابل في الفرنسية ، والعربية وهذا سبب الاختلاف في القيمة للكلمة الفرنسية والانكليزية . (المترجم) .

لو كانت الكلمات تمثل أفكاراً حول وجودها سلفاً، لكانت جميعاً تعبر عن معان واحدة في اللغات المختلفة. ولكن هذا غير صحيح. فـالفرنسيـة تستخدم كلمـة واحدة louer (une maison) للدلالة على معنى يؤجر ويستأجر في حين تستخدم الألمانيـة كلمتين mieten وvermieten. فمن الواضح عدم وجـود تطابق في القيمـة بين الكلمـة الفرنسيـة والألمانية. ان الفعلين الألمانيين schätzen وurteilen يشتـركان في عـدد من الدلالات، مع الكلمتين الفرنسيتين estimer وjuger ولكنهما يختلفان عنهما في نقاط كثيرة.

ومن الأمثلة البارزة على مسألة القيمة الاعراب inflection. فتتميز الصيغ حسب الزمن وهو أمر مألوف عندنا، لا وجود له في بعض اللغات، فالعبرية لا تميـز حتى بين الأزمنة الأساسية وهي الماضي والمضارع والمستقبل. والألمانية الأولى ليس لهـا صيغة خاصة للمستقبل: والقول بأن المستقبل يعرب عنه بـاستخدام صيغـة المضارع غـير صحيح، لأن صيغة المضارع ليست واحدة في الألمـانية وفي اللغـات التي تملك صيغة للمستقبل الى جانب صيغة المضارع. واللغات السلافية تميز بين صيغتين للفعل: صيغة الماضي وتمثل اكتمال الحدث في نقطة زمنية معينة، وصيغة المضارع، وتمثل استمرار الحدث على خط الزمن. ان هاتين الصيغتين يصعب على الفرنسي فهمهما لأنهما لا توجدان في الفرنسية. فلو كانتا محددتين سلفاً، لما وجد الفرنسي (أو غيره) صعوبة في فهم هذه الفكرة. ان ما نجده في جميع هذه الأمثلة ليس أفكاراً محددة سلفاً، بل قيماً تستمـد وجودها من النظام. وإذا قيل ان هذه القيم تطابق الأفكار فالمقصود ان الأفكار إنما هي تفاضلية differential يحدد معناهـا ليس بمداهـا الايجابي بـل يحدد سلبيـاً عن طريق علاقاتها بغيرها من العناصر في ذلك النظام. ان أدق ميزة فيها انها تختلف عن غيرها.

وهكذا يصبح التفسير الحقيقي للصورة واضحاً.



فالرسم السابق يعني ان الفكرة «يحكم» في الفرنسية مرتبطة بالصورة الصوتية juger: بايجاز فهي ترمز الى الدلالة. ولكن من الواضح ان الفكرة في أول الأمر لا تعني شيئاً، أي انها قيمة لا تحددها إلا علاقاتها بالقيم المشابهة الأخرى، وبدون هذه القيم لا وجود للدلالة. فإذا قلت ان كلمة ما تدل على شيء ما حين أقصد بذلك الارتباط بين الصورة الصوتية والفكرة، فإنما أعبر عن قول قد يوحي بما حـدث فعلاً، ولكنني لا أعبـر عن الحقيقة اللغوية في جوهرها، تعبيراً كاملاً.

٣ ـ القيمة اللغوية من وجهة النظر المادية

يتكون الجانب الفكري للقيمة من العلاقات والفروق بينها وبين العناصر الأخرى في اللغة حسب، ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن الجانب المادي للقيمة. والمهم في الكلمة ليس الصوت فقط بل الفروق الصوتية التي تساعد على تمييزه هذه الكلمة عن غيرها من الكلمات، لأن الفروق لها دلالة.

وقد يبدو هذا غريباً؟ ولكن كيف يصح عكسه؟

فأية صورة صوتية ليست أفضل من غيرها للتعبير عما كرست له، لذا فمن الواضح ـ بل من الواضح سلفاً ـ ان أي جزء من اللغة لا يمكن في أساسه ان يعتمد على أية فكرة سوى عدم التطابق بينه وبين غيره. فالاعتباطية والتفاضل هما صفتان متلازمتان.

إن تغيير الاشارات اللغوية يوضح هذه المسألة. فالعنصران a وb غير قادرين في جوهرهما بلوغ مستوى الشعور ـ لأن المرء يشعر دائماً بالفرق بين b / a فقط ـ لذا فكل عنصر منهما له حرية التغيير حسب القوانين التي لا تمت بصلة الى وظيفة الدلالة للعنصر. وفي اللغة الجيكية لا توجد إشارة خاصة تميز صيغة الجمع المجرور žen (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثالث، الفقرة ٣) ومع ذلك تقوم الصيغتان žen = zena بوظيفتهما بأسلوب لا يقل جودة عن أسلوب الصيغتين القديمتين ženb, žena ان قيمة žen في كونها مختلفة ليس إلا.

وهذا مثال آخر يبين بصورة أوضح الدور المنتظم للفروق الصوتية: ففي الأغريقية تدل لفظة éphēn على الصيغة غير المكتملة وصيغة estēn على الماضي البسيط مع ان اللفظتين قد صيغتا بأسلوب واحد: فالأولى تعود الى نظام المضارع الخبري للفظة phēmi (أقول) في حين لا توجد صيغة مضارع. ان العلاقة بين phēmi وéphēn هي التي تدل على العلاقة بين المضارع وغير المكتمل (لاحظ dèiknūmi وedèiknun وغيرهما). فالاشارات إذن تقوم بوظيفتها ـ ليس بفضل قيمتها الموروثة فيها، بل بفضل موقعها النسبي.

ثم إن الصوت وهو عنصر مادي لا يمكن أن يعود الى اللغة. فهو شيء ثانوي، مادة يمكن استخدامها. وجميع قيمنا التقليدية تتميز بأنها تختلف عن العنصر الملموس الذي يدعمها. فعلى سبيل المثال ان قيمة العملة المعدنية ليست بالمعدن الذي تحتوي عليه العملة. فالقطعة المعدنية التي تساوي خمسة فرنكات قد تحتوي من معدن الفضة أقل من نصف قيمتها. حيث ان قيمتها تختلف طبقاً للرقم المكتوب عليها واستعمالها داخل حدود سياسية معينة أو خارجها. ويصح هذا بدرجة أكبر في الدال اللغوي، فهو لا يتكون من مادة صوتية ولا يتكون من أية مادة بل من الفروق التي تميز الصورة الصوتية لهذا الدال عن غيره.

إن هذا المبدأ أساسي جداً وينطبق على جميع العناصر المادية للغـة، بما في ذلك الفونيمات. فجميع اللغات تصوغ كلماتها على أساس نظام من العناصر الصوتية، يكون كل عنصر فيه وحدة محددة تحديداً، وهي جزء من عدد ثابت من الوحدات في ذلك النظام. فالفونيمات لا تتميز ـ كما قد يعتقد المرء ـ بصفتها الايجابية الخاصة بها، بل بسبب انها متميزة فقط. ان الفونيمات هي قبل كل شيء كيانات تقابلية سلبية نسبية.

والبرهان على ذلك الحرية التي يتمتع بها المتكلم في نقاط الالتقاء ف النطق بالاصوات المتميزة . فالاستخدام العام في الفرنسية لنوع من صوت r ظهري لايمنع بعض المتكلمين من استعمال صوت r رفيع في نهاية اللسان . فهذا لايحدث اي ارباك في اللغة : ان كل ما تحتاج اليه اللغة ان يكون الصوت مختلفا ، وليس ـ كما قد يعتقد البعض ـ ان تكون له صفة ثابتة . بل انني استطيع ان الفظ الصوت r الفرنسي كالصوت الالماني ch في كلمة Bach و doch وغيرهما ، ولكنني لا استطيع في الالمانية ان استعمل r بدلا من ch ، لان الالمانية تضم كلا الصوتين وعليها ان تميز بينهما . والمتكلم في الروسية لايملك حرية التصرف في لفظ الصوت t باتجاه t´ (وهو صوت حلقي) اذ ان ذلك يؤدي الى الخلط بين صوتين تميّز بينهما الروسية (لاحظ govorit «تكلم» و goverit «هو» يتكلم) ولكن للمتكلم حرية النطق بالصوت Th (صوت t تنفسي) طالما ان هذا الصوت لا وجود له في نظام الفونيمات في اللغة الروسية .

ويلاحظ مثل هذه الحالة في الكتابة ، وهي نظام اخر من الاشارات ، لذا سنستخدم الكتابة للتعبير عن بعض المقارنات التي توضح هذه المسألة بأجمعها .

١) الاشارات المستخدمة في الكتابة اعتباطية : اذ لاتوجد صلة بين الحرف t على سبيل المثال والصوت الذي يعبر عنه هذا الحرف .

٢) قيمة الحروف سلبية تفاضلية فحسب . اذ يستطيع الشخص نفسه ان يكتب الحرف بطرق مختلفة .

فالشرط الوحيد هنا هو ان الاشارة t ينبغي ان لاتخلط عند كتابتها بالاشارات L وd الى آخره .

٣) القيم في الكتابة لاتقوم بعملها الا من خلال التقابل المتبادل ضمن نظام ثابت يتألف من عدد ثابت من الحروف . ان الخاصية الثالثة هذه مع انها تتميز عن الخاصية الثانية ، فهي ترتبط بها لان الاثنتين تعتمدان على الخاصية الاولى . ولما كانت الاشارة الكتابية اعتباطية فلا اهمية لشكلها او ان اهمية الشكل تنحصر ضمن الحدود التي يفرضها النظام .

٤) الوسيلة التي تخلق الاشارة لا اهمية لها ، لانها لاتؤثر في النظام (وهذا ايضا نتيجة للخاصية الاولى) . فسواء أكتبت الحروف باللون الابيض أم الاسود أم بصورة بارزة أم محفورة أم بالقلم أم بالازميل لا اهمية له بالنسبة لدلالة الحرف .

٤ ـ نظرة شاملة الى الاشارة باجمعها

يمكن ان نوجز جميع ماقلناه حتى الان بما يأتي : لاتوجد في اللغة سوى الفروق . والاهم من ذلك : ان الفرق ينطوي عادة على عناصر ايجابية يظهر بينها الفرق : اما في اللغة فلا يوجد سوى الفروق أي العناصر السلبية دون العناصر الايجابيـة . وسواء اخذنا المدلول او الدال فأن اللغة لاتملك افكاراً ولا اصواتاً لها وجود قبل النظام ، وكل ما تملكه هو الفروق الفكرية والصوتية التي نبعت من النظام . فالفكرة او المادة الصوتية التي تحتوي عليها الاشارة اقل اهمية من الاشارات الاخرى المحيطة بهذه الاشارة . والدليل على ذلك ان قيمة عنصر ما قد تتغير من دون ان يتأثر معناها او صوتها ، ويقتصر سبب ذلك على تغيير عنصر مجاور (انظر الفقرة الثانية من هذا الفصل) .

ولكن القول بأن كل شئ في اللغة سلبي انما يصح اذا اخذنا بنظر الاعتبار المدلول والدال بصورة منفصلة . اما اذا نظرنا الى الاشارة بأكملها ، وجدنا شيئا ايجابيا في الصنف الذي تنتمي اليه . والنظام اللغوي هو سلسلة من الفـروق الصوتيـة ترتبـط بسلسلة من الفروق في الافكار : ولكن الربط بين عدد من الاشارات الصوتية السمعية وعدد مشابه من قطع مستمدة من كتلة الفكر يؤدي الى نظام من القيم : وهذا النظام يربط بين العناصر الصوتية والسايكولوجية في كل اشارة . ومع ان المدلول والدال كليهما تفاضلي وسلبي اذا نظرنا اليهما بصورة منفصلة ، فارتباطهما حقيقة ايجابية ، بل هي الحقيقة الايجابية الوحيدة التي تملكها اللغة لان الحفاظ على التوازي بين هذين الصنفين من الفروق انما هو الوظيفة المميزة للنظام اللغوي .

ان بعض الحقائق الدايكرونية نموذجية بالنسبة لهذه المسألة . لنأخـذ الامثلة الكثيرة التي يؤدي فيها تغيير الدال الى تغيير في الفكرة وحيث المجموع الكلي للافكـار المتميزة يساوي من حيث المبدأ المجموع الكلي للاشارات المتميزة . فأذا حصل مزج بين كلمتين بسبب التغيير الصوتي (كما في الكلمة الفرنسية decrepit المشتقة من decrepitus ، وكلمة decrepi المشتقة من crispus) فكثيراً ما يحصل الشيء نفسه في الفكرتين اللتين تعبر عنهما الكلمتان ، اذا كان بين الفكرتين صلة . او قد يكون للكلمة الواحدة اشكال مختلفة (لاحظ chaise كرسي و chaire منضدة) . فأذا ظهر فرق ما فأنه يصبح ، لاشك ، ذا دلالة ، مع انه قد لاينجح في ذلك من المحاولة الاولى . وعلى العكس من ذلك ، فأذا أدرك العقل فرقاً فكرياً ، فأن هذا الفرق يحاول أن يجد التعبير عن نفسه باستخدام دال متميز ، اما الفكرتان اللتان لم يعد لهما وجود متميز في العقل فأنهما يجنحان نحو الامتزاج في دال واحد

واذا قارنا الاشارات ـ العناصر الايجـابية ـ بعضهـا ببعض لم يعد بمقـدورنا الحديث عن الفروق : لان مثل هذه العبارة غير مناسبة ، لانها لاتصح الا على مقارنة صورتين صوتيتين كما في الاب والام او فكرتين كما في فكرة «الاب» وفكرة «الام» . واذا

اخذنا اشارتين من الاشـارات لكل منهمـا دال ومدلول فـانهما ليستـا مختلفتين بـل متميزتين . ولا يوجد بينهما سوى التقابل opposition . فالنظام اللغوي باجمعه ، الذي سنتناوله فيما بعد ، يعتمد على مثل هذا التقابل وعلى الفروق الفكرية والصوتية التي ينطوي عليها التقابل .

ان الذي ينطبق على القيمة ينطبق على الوحدة اللغوية ايضا (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل الثالث) . فالوحدة هي جزء من السلسلة المنطوق بها التي توازي فكرة معينة . فكلتاهما تعتمد على طبيعة تفاضلية بحتة .

ومبدأ التفاضل ، اذا طبق على الوحدات ، يمكن التعبير عنه كالآتي : **ان مميزات الوحدة تمتزج بالوحدة نفسها** . ففي اللغة ـ كما في غيرها من انظمة الاشارات كل ما يميز بين اشارة والاشارات الاخرى يكون الاشارة والفرق ، يصنع الصفة المميزة كما يصنع القيمة والوحدة .

وهذه نتيجة اخرى غريبة بعض الشيء ، مستمدة من المبدأ نفسه : ان الذي يشار اليه «بالحقيقة النحوية» يطابق في جوهره تعريف الوحدة ، لانه يعبر دائما عن التقابل في العناصر ، ولا يختلف الا في ان التقابل له دلالة خاصة (كما في صيغة الجمع الالمانية في Nachte : Nacht) فكل عنصر في الحقيقة النحوية (المفرد دون الامالة والصوت الاخير e يقابل الجمع بالادغام والصوت الاخير e) يتألف من العلاقة المتبادلة لعدد من التقابلات ضمن النظام . واذا فصلنا بين Nach و Nachte لم تعد لاية من اللفظتين اهمية . فالتقابل كل شئ . وبعبارة اخرى ان العلاقـة التي تتمثل في Nachte : Nacht يمكن التعبـير عنها بالصيغة الجبرية a / b وفي هذه الصيغة ليس الحرف a والحرف b عنصرين بسيطين ، بل نتجا عن مجموعة من العلاقات . فاللغة بمفهوم معين ما هي الا نوع من الصيغة الجبرية المؤلفة من العناصر المركبة فقط . وبعض انواع هذا التقابل اكثر دلالة من غيرها . ولكن الوحدات والحقائق النحوية انما هي اسماء مختلفة للتعبير عن جوانب متنوعة لحقيقة عامة واحدة : وهي الوظيفة التي يقوم بها التقابل اللغوي . ويعبر هذا القول عن حقيقة جوهرية تساعدنا على معالجة مسألة الوحدات بتناول الحقائق النحوية اولاً . فاذا تناولنا تقابلا مثل Nachte : Nacht فقد نسأل ما الوحدات التي يضمها هذا التقابل . هل يضم الكلمتين فقط ، ام جميع الكلمات المشابهة لهما ، ام الصوت a والصوت ä ام جميع صيغ المفرد والجمع الى آخر ذلك ؟

لو كانت الاشارات اللغوية مؤلفة من شئ آخر غير الفروق لما خلطنا بين الوحدات والحقائق النحوية . ولكننا لن نجد شيئاً بسيطاً في اللغة ، وهي في هذه الصورة ، مهما كان الاسلوب الذي اتبعناه في دراستها . اذ نجد دائماً التعادل المعقد مابين العناصر التي تؤثر بعضها ببعض . وبعبارة أخرى **اللغة هي شكل وليست مادة** (لاحظ الجزء الثاني

الفصل الرابع) . وهذه حقيقة بالغة الاهمية ينبغي تأكيدها لان جميع الاخطاء في تعابيرنا وجميع اساليبنا غير الصحيحة في تسمية الاشياء التي تعود الى اللغة ، تنبع من التصور اللاشعوري بأن الظاهرة اللغوية ينبغي ان يكون لها مادة .

الفصل الخامس

العلاقات السنتاكمية والايحائية

١ ـ تعريف :

يعتمد كل شئ في الحالة اللغوية على العلاقات . فكيف تعمل هذه العلاقات ؟

تنقسم العلاقات والفروق بين العناصر اللغوية الى مجموعتين متميزتين ، ينبع من كل منهما صنف معين من القيم . ان التقابل بين الصنفين خير وسيلة لفهم طبيعة كل منهما . فهما يماثلان اسلوبين من النشاط العقلي ، لاغنى عنهما لحياة اللغة .

تكتسب الكلمات ، في الحديث ، علاقات تعتمد من جهة على الطبيعة الخطية للغة لانها نرتبطة بعضها ببعض . وهذه الحقيقة تحول دون النطق بعنصرين في آن واحد (لاحظ الجزء الاول ، الفصل الاول) . ان هذه العناصر مرتبة بصورة متعاقبة في سلسلة الكلام . فالربط الخطي بين العناصر تنتج عنه السنتاكم syntagm[٣٦]. ويتألف السنتاكم من وحدتين متعاقبتين او اكثر (كما في الالفاظ الفرنسية re — lire = يقرأ ثانية ، وcontretous = ضد الجميع ، Laviehumaine الحياة البشرية ، Dieu est bon = الله خير ، s,il fait beau temps, nous sortirans = اذا كان الطقس جميلا خرجنا ، الى غير ذلك) . ويكتسب العنصر قيمته في السنتاكم لانه يتقابل مع كل ما يسبقه او يأتي بعده ، او معهما في آن واحد .

كما تكتسب الكلمات علاقات خارج الحديث ـ تختلف عن الصنف المذكور آنفاً . فالكلمات التي تشترك في امر ما ترتبط معا في الذاكرة . ويتألف منها مجموعات تتميز بعلاقات متنوعة . فعلى سبيل المثال ، توحي الكلمة الفرنسية enseignement (تعليم) بصورة لاشعورية بعدد كبير من الكلمات (مثل enseigner : يعلم ، renseigner يتعرف على ، او توحي بالالفاظ armenrent = تسليح و changement تعديل ، او education تربية وتعليم ، apprentissage تلمذة الى غير ذلك) . جميع هذه الكلمات ترتبط بعضها ببعض بطريقة ما .

ونلاحظ ان الارتباط الذي يتألف خارج الحديث يختلف كثيرا عن ذلك الذي يتكون داخل الحديث . فالارتباطات التي تقع خارج الحديث لايدعمها التعاقب الخطي . ويكون مكانها في الدماغ : فهي جزء من الذخيرة الداخلية للغة التي يملكها كل متكلم . وتسمى هذه العلاقات **بالعلاقات الايحائية** .

---

(٣٦) ان دراسة السنتاكم تختلف عن دراسة النحو syntay فالنحو ما هو إلا اجزاء من دراسة السنتاكم (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل السابع) (بالي) .

ان العلاقات السنتاكمية هي علاقات حاضرة : يعتمد على عنصرين او اكثر يقعان في سلسلة حقيقية فعالة . اما العلاقات الايحائية associative فهي تربط بين العناصر بصورة غيابية سلسلة ممنكة تعتمد على الذاكرة .

تشبه الوحدة اللغوية من وجهة النظر الايحائية والسنتاكمية جزءاً ثابتا من بناية ، كالدعامة ترتبط من جهة بالقوس الذي فوقها : فترتيب الوحدتين في الفضاء يوحي بالعلاقة السنتاكمية . اما اذا كانت الدعامة اغريقية من نوع دورك ، فهي توحي بشبه عقلي لهذا الطراز مع انماط اخرى من الدعامة (الدعامة الايونية والكورنثية وغيرها) مع ان جميع هذه الدعامات لاوجود لها في المكان الذي فيه الدعامة الاولى : فالعلاقة ايحائية .

ان كل صنف من هذين الصنفين من الارتباط يحتاج الى شرح .

٢ ـ العلاقات السنتاكمية

تشير الامثلة التي ورد ذكرها آنفاً ، الى ان فكرة السنتاكم لاتصح على الكلمات فقط بل على مجموعة من الكلمات ايضا ، وكذلك على الوحدات المعقدة مهما كان طولها او نمطها (المركبة منها والمشتقة ، والعبارات الخالية من الافعال والجمل بأكملها) .

ولا يكفي ان ننظر الى العلاقة التي تربط بين الاجزاء المختلفة للسنتاكم (مثال ذلك الربط في الفرنسية بين contre = «ضد» و tous «الجميع» في عبارة contre tous ، والربط بين contre و miaitre = السيد كما في contremaitre = رئيس المراقبين) . بل ينبغي ان يتذكر المرء العلاقة التي تربط الكل الى اجزائه (مثال ذلك contre tous مقابل contre من جهة وtous من جهة اخرى ، contremaitre مقابل contre وmaitre[٣٧] .

قد يعترض احدهم هنا بقوله ان الجملة هي النمط المثالي للسنتاكم . ولكن الجملة هي جزء من الكلام وليست جزء من اللغة (لاحظ المقدمة ، الفصل الثالث) . الا يعني ذلك ان السنتاكم هو جزء من الكلام ؟ انني لااعتقد ذلك . فالكلام يتميز بحرية تكوين ارتباطات ، اذن ينبغي على المرء ان يتساءل هل ان جميع انواع السنتاكم حرة ام لا ؟

يتضح منذ البداية ان كثيرا من العبارات هي جزء من اللغة . وهذه العبارات ثابتة لايصيبها أي تغيير نتيجة الاستعمال ، وان كنا نستطيع تشخيص معاني عناصرها (لاحظ العبارتين الفرنسيتين ?a quoi bon = ما فائدة ذلك ؟ : allonsdonc = هراء) . وينطبق الشئ نفسه ، ولو بدرجة أقل على عبارات مثل prendre la mouche = سريع الغضب ، forcer la main a quiqu, un = اجبر الشخص على : rompre une lance = فتح

---

(٣٧) قارن هذا بالمثال الانكليزي head و waiter في headwaiter «رئيس الخدم» والمثال العربي رأس ومال في الرأسمال . (المترجم) .

صفحة جديدة ، بل حتى avoir mal = شعر بصداع : aforce de (soins) = بقوة . que vousen semble ما رأيك في ؟ pas n'est besoin de لا حاجة الى ... وغيرها . ان هذه العبارات تتميز بأنها تتكون من تراكيب نحوية أومعان خاصة . فهذه العبارات الاصطلاحية لايمكن ارتجالها ، لانها من صنع التقاليد . كما يجد المرء كلمات ، مع انها قابلة للتحليل ، تتميز ببعض الشذوذ في تركيبها الصرفي الذي يعتمد في وجوده على الاستعمال (لاحظ difficulte «صعوبة» ، الى جانب facilite «سهولة» وغيرهما ، وكذلك mourrai = «ساموت» و dormirai سأنام) .

وثمة براهين اخرى . فالانماط السنتاكمية التي تصاغ حسب الصيغ القياسية هي جزءٌ من اللغة وليست جزءاً من الكلام . ولما كانت اللغة لاتحتوي على اي شئٍ تجريدي ، فأن هذه الانماط لايكون لها وجود الا اذا جمعت اللغة عددا كافيا من نماذج هذه الانماط . فاذا ظهرت كلمة مثل indecorable في الكلام (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الخامس) ، فأن ظهورها ينطوي على وجود نمط ثابت ، وهذا النمط لايكون ممكنا الا اذا وجد عدد كاف من الكلمات الشبيهة بها ، التي تعود الى اللغة (imepardonable لايمكن التسامح معه ، intolérable لايمكن تحمله ، infatigable لايشعر بالتعب وغيرها) . وينطبق الشئ نفسه على الجمل والتعابير التي تُبنى على انماط قياسية . فالعبارتان الفرنسيتان la terre tourne تدور الارض و que vous dit — il ماذا يقول لك ؟ وغيرهما) تطابقان الانماط العامة التي تدعمها في اللغة الذكريات الملموسة .

ولكن ينبغي ان نتذكر أنه لاتوجد في السنتاكم حدود واضحة بين حقائق اللغة ، وهي علامات للاستعمال الجماعي ، والحقائق التي تعود الى الكلام وتعتمد على الحرية الفردية . ومن الصعب في عدد كبير من الأمثلة أن نصنف ارتباط الوحدات لان كلا العاملين قد اشترك في تكوينها بنسب غير مقررة .

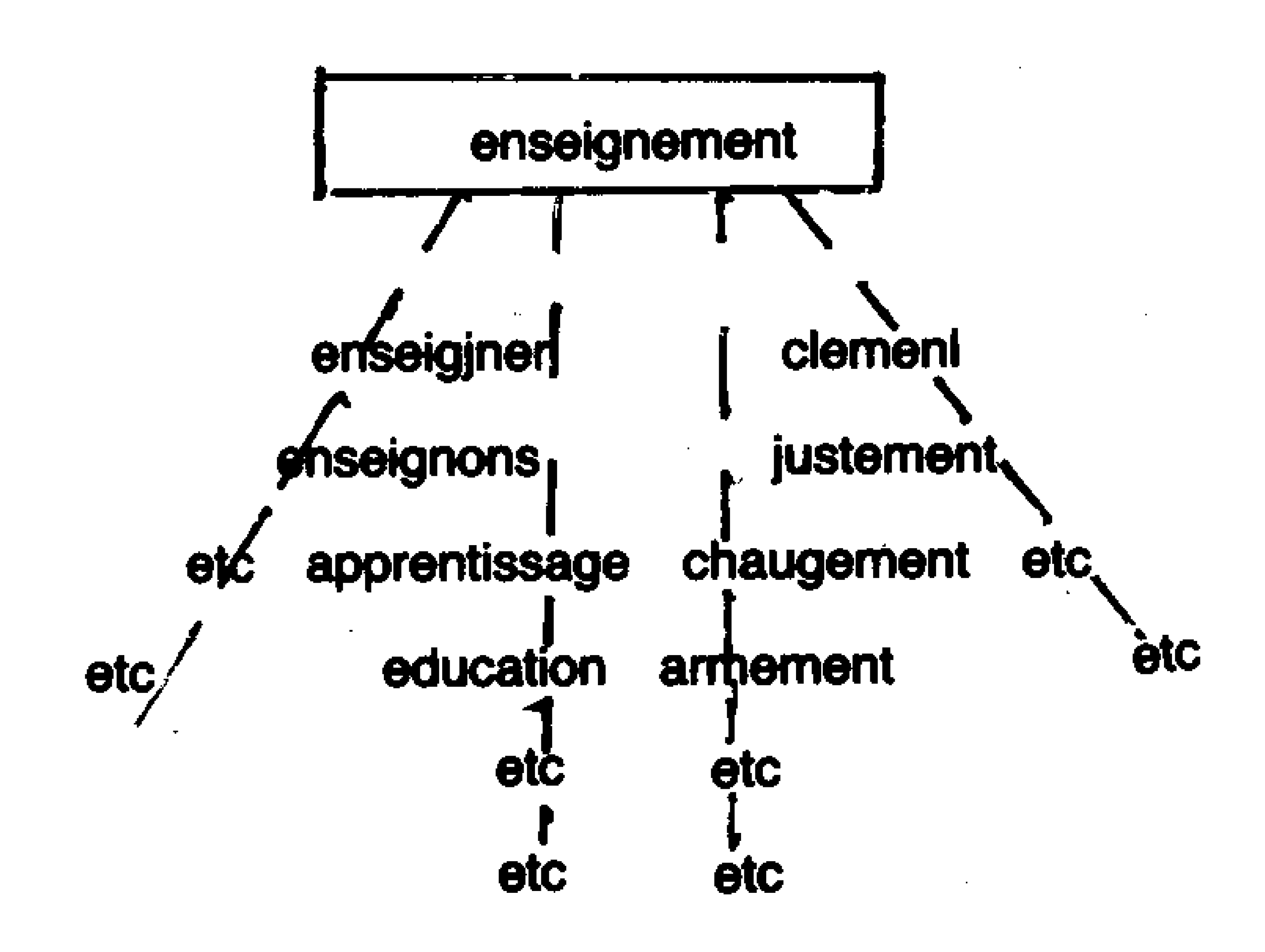
٣ ـ العلاقات الايحائية

ان الارتباطات الفكرية تخلق مجاميع اخرى فضلا عن المجاميع التي تستند الى المقارنة بين العناصر التي تشترك في صفة او اكثر .

فالعقل يدرك طبيعة العلاقات التي تربط بين هذه العناصر ، ثم يخلق عددا من المجاميع الايحائية ؛ يساوي عدد العلاقات المتنوعة الموجودة بين العناصر . مثال ذلك تشترك الكلمات enseignement (تعليم) enseigner (يعلم) و enseignons (نعلم) وغيرها في عنصر واحد هو الاصل . وقد ترد الكلمة نفسها في مجموعة مختلفة ترتكز على عنصر مشترك اخر ، وهو الحروف الزائدة التي تضاف الى اخر الكلمة (اللاحقة suffix) كما في chongement, armement, changement وغيرها) ، وقد ينبع الارتباط الايحائي من القياس analogy للفكرة الموجودة في المدلول . enseignement education, apprentissage, instruction

وغيـرها) : وقـد يتكون الارتبـاط من مجرد التشـابه في الصـور الصوتيـة (كمـا في enseignemenut و justement (على وجه التحديد)[٣٨] وهكذا نجد في بعض الاحيان تشابهاً ثنائياً في المعنى والشكل ، وفي احيان اخرى تشابهاً في الشكل او المعنى فقط . فالكلمة تستطيع دائما ان توحي بكل ما يرتبط بها على هذا النحو أو على ذاك .

ان السنتاكم يدل دائما على نظام من التعاقب وعلى عدد ثابت من العناصر ، اما العناصر في المجموعة الايحائية فهي لاتقع في نظام ثابت او عدد ثابت . فاذا ربطنا ايحائيا بين painfil و delightful و frighrful وغيرها ، فننا لانستطيع التنبؤ بعدد الكلمات التي توحي بها الذاكرة او النظام الذي تظهر فيه هذه الكلمات . فالكلمة تشبه المركز في مجموعة فلكية : يلتقي فيها عدد غير محدود من العناصر المتشابهة (لاحظ الرسم الآتي)



(٣٨) ان الحالة الاخيرة نادرة ، يمكن أن تصنف ضمن الشواذ لان العقل عادة يرفض الارتباطات التي تؤثر سلبيا في فهم الحديث . ولكن وجود الارتباطات يدل عليه صنف من التورية الذي يعتمد على الخلط بين المعاني ، وهو يمكن ان ينبع من تشابه الاصوات كما في العبارة الفرنسية les musiciens produisent les sons et les grainetiers les vendent = الموسيقار يؤلف الالحان (sons = الحان او نخالة) وتاجر الحبوب يبيعها . وفي الانكليزية : عبارة شكسبير Not on thy sole, but on thy soul (باسكن) : وفي العربية الى حتفي سعى قدمي ارى قدمي اراق دمي (المترجم) . وهذا يختلف عن الارتباط الايحائي الذي ، مع الله عرضي ، يستند الى مقارنة الافكار (كما في الفرنسية) eryot (مهماز) و eryoter (يجادل) ، وفي الالمانية blau (ازرق) و durchblauen (ضربه ضربا شديدا) . فالمسألة تتعلق باحد العناصر الذي يكتسب تفسيرا جديدا . كما ان الاعتقاد الشعبي السائد في اصل الكلمة مهم في دراسة تطور المعنى ، ولكنه من الناحية التزامنية يشبه الارتباط الايحائي بـين enseigner و enseignement (بالي) .

بيد اننا لانستطيع ان نتحقق الا من اولى الصفتين اللتين تمتاز بها المجموعة وهما النظام غير المحدد والعدد غير المحدد . اما الصفة الثانية فلا تخضع للتجربة . وهذا ما يحدث في الصيغ الاعرابية ، التي تعُدّ نموذجا للمجوعات الايحائية . ومما لاشك فيه ان الكلمات اللاتينية dominus, domini, domino الى آخره هي مجموعة ايحائية ترتكز حول عنصر مشترك ، وهو الاساس ـ domin . ولكن المجموعة ليست غير محددة كما هي الحال مع enseignement, chanement الى آخره . اذ إن عدد الحالات محدود . ومقابل ذلك ، ليس للكلمات نظام محدد من التعاقب ، والجمع بينها على نحو أو آخر ، انما هو عمل اعتباطي من جانب النحويين . ان حالة الرفع في عقل المتكلم ليست الحالة الاولى في الاعراب ، والترتيب الذي يتذكر به العقل هذه العناصر يعتمد على الظروف .

الفصل السادس

جهـــاز اللغة

١ ـ الترابط السنتاكمي:

إن الفروق الصوتية والفكرية، التي تُؤلف اللغة تنتج عن نوعين من المقـارنات: فالعلاقات، في بعض الأحيان، إيحائية، وهي في أحيان أخرى سنتاكمية. والمجموعات في كلا الصنفين تحددها، في أغلب الأحيان، اللغة: ان هذه المجموعة من العلاقات المألوفة تؤلف اللغة وتتحكم في وظيفتها.

وأبرز ما في ترتيب اللغة هو الترابط السنتاكمي: إذ تكاد جميع الوحدات اللغوية تعتمد على ما يُحيط بها في السلسلة المنطوقة أو تعتمد على الأجزاء التالية لها.

ويدلُّ على ذلك تكوين الكلمات. فالوحدة painful (مـؤلم) مثلاً يمكن تحليلهـا الى وحدتين فرعيتين (pain — ful)، ولكن هاتين الوحدتين الفرعيتين ليستا جزأين مستقلين جمع بينهما اعتباطاً (paint + ful) ان الوحدة ناتج نهائي، أو ترابط لعنصرين يعتمد أحدهما على الآخر، ويكتسبان قيمتيهما من الفعل المتبادل بينهما في الوحدة العليا (pain × ful)(٣٩) ولا وجود للاحقة (ful —) إذا عزلناها عن هذه الوحدة. فهذا الملحق يأخذ مكانه في اللغة بفضل مجموعة من العناصر المألوفة مثل delight — ful, fright — ful وغيرهما. كما ان الأصل ليس عنصراً مستقلاً: بل يعتمد وجوده على إرتباطه بالملحق ففي كلمة gos — ling (فرخ الأوز) لا وجود للعنصر ـ gos دون اللاحقة Ling — ولا قيمة للكل إلا من خلال أجزائه: كما لا قيمة للأجزاء إلا بفضل موقعها في الكل. لذلك لا تقلُّ العلاقة السنتاكمية بين الجزء والكل أهمية عن العلاقة بين الأجزاء.

إن هذا المبدأ العام ينطبق على جميع أنواع السنتاكم التي ورد ذكرها آنفاً (أنظر الفصل السابق)، لأن الوحدات الكبيرة تتألف دائماً من وحدات أصغر ترتبط بعلاقات متبادلة.

مما لا شك فيه ان للغة وحدات مستقلة ليس لها علاقات سنتاكمية، لا بأجزائها ولا بالوحدات الأخرى. وخير أمثلة على هذه الوحدات المستقلة هي العبارات الشبيهة بالجمل مثل نعم، لا، شكراً، وغيرها. ولكن هذه الحقيقة الاستثنائية لا تؤثر في أهمية المبدأ العام. فنحن عادة لا نتفاهم باستخدام إشارات فردية معزولة، بل باستخدام مجموعات من الاشارات، أو كتل منتظمة، هي في حد ذاتها إشارات. ففي اللغة يمكن إرجاع كل شيء الى

---

(٣٩) ويصح الشئ نفسه في الكلمة العربية مدرسون وغيرها. فهذه الكلمة لاتتألف من مدرس + ون، بل مدرس × ون ـ اي من الفعل المتبادل بين الوحدتين الفرعيتين في الوحدة العليا. (المترجم).

الفروق وكذلك الى المجموعات. ان جهاز اللغة الذي يتألف من التأثير المتبادل بين العناصر المتعاقبة يُشبه عمل محرك تقوم اجزاؤه بوظائفها، معتمداً بعضها على البعض الآخر، مع أن هذه الأجزاء مرتبة في بعد واحد (أي انها على هيئة خط).

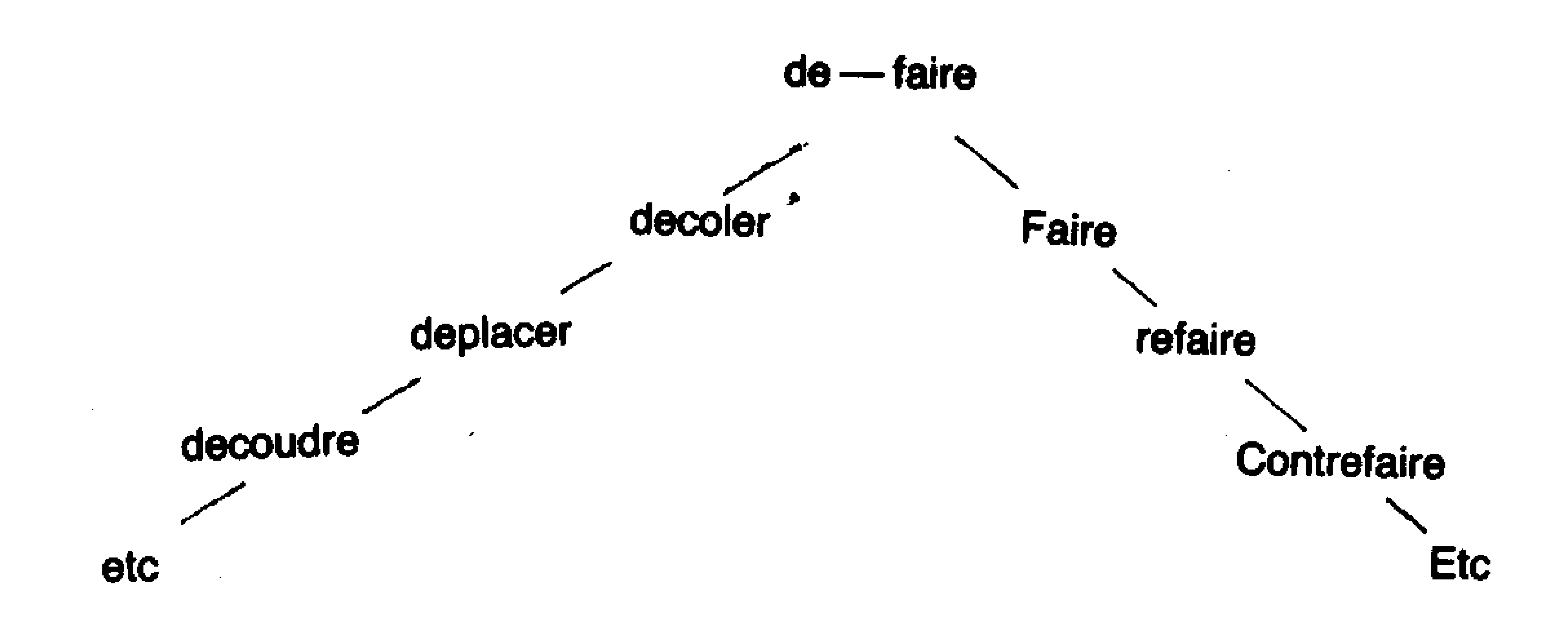
٢ - المجوعتان تعملان في آن واحد

ترتبط المجوعات السنتاكمية - كما عرفناها - بعلاقات متبادلة: ويكيف بعضها بعضاً. بل ان الارتباطات المكانية تساعد على خلق إرتباطات إيحائية، التي هي بدورها ضرورية لتحليل الأجزاء التي يتكون منها السنتاكم.

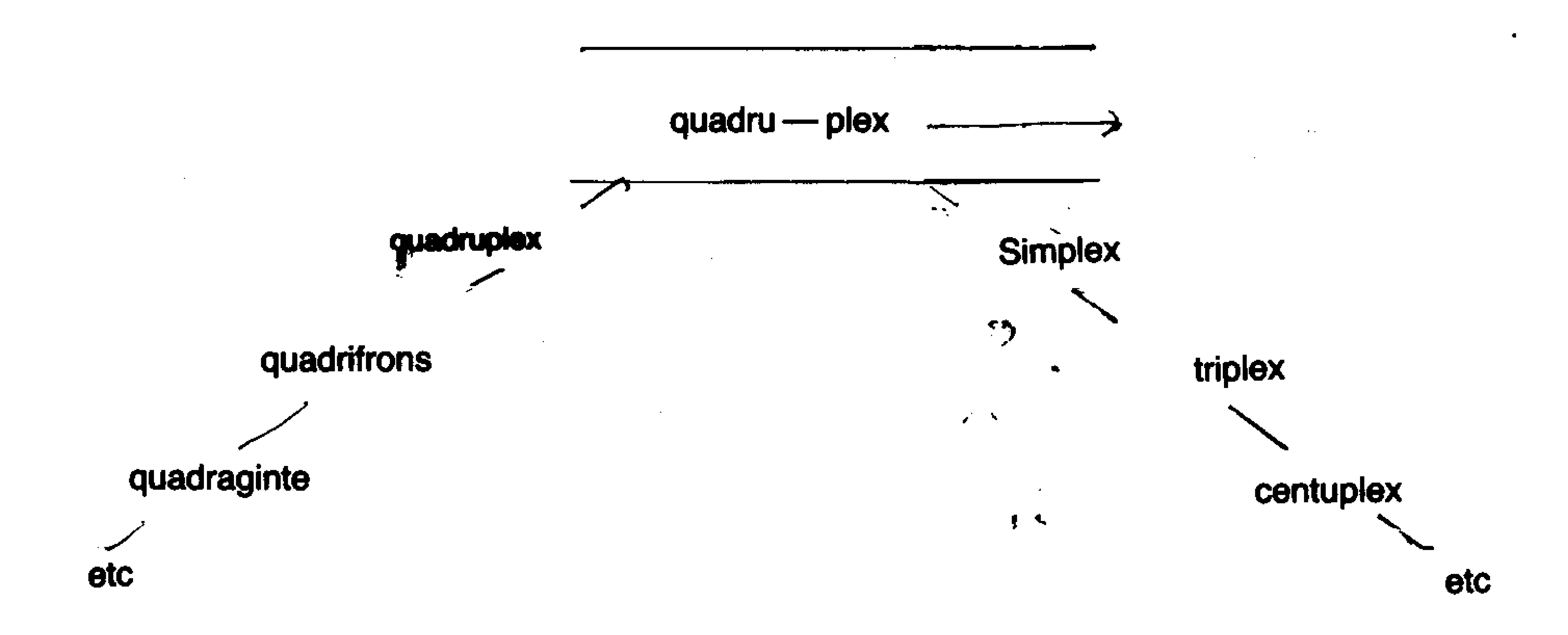
لنأخذ الكلمة الفرنسية المركبة dé — faire «حل، ابطل». ان هذه الكلمة يمكن تشبيهها بشريط أفقي يماثل السلسلة المنطوقة:



وتوجد في الوقت ذاته في محور آخر، وبصورة لا شعورية، مجموعة إيحائية أو أكثر تتألف من وحدات تشترك مع السنتاكم بعنصر واحد:



وينطبق الشيء نفسه على الكلمة اللاتينية quadruplex فهي سنتاكم. والسبب في ذلك انها ترتبط بمجموعتين إيحائيتين:



إذ يمكن تحليل الكلمتين الى وحدات فرعية طبقاً للصيغ التي تطفو حول quadruplex defaire ويمكن التعبير عن ذلك بالقول ان كلاً من الكلمتين هو سنتاكم. فكلمة défaire لا يمكن تحليلها ـ على سبيل المثال ـ لو اختفت الألفاظ الأخرى التي تحتوي على — dé أو faire من اللغة. حيث تصبح هذه الكلمة آنذاك وحدة بسيطة، لا يمكن عقد تقابل بين جزأيها.

إن عمل هذا النظام الثنائي في الحديث واضح. إذ تحتفظ ذاكرتنا بذخيرة احتياطية من جميع الأنماط المُعقَّدة للسنتاكم، مهما كان صنفها أو طولها، ثم نستعين بالمجاميع الايحائية لنختار منها حين يحل وقت استعمالها. فعندما يقول الفرنسي marchons! «لنمشِ» يفكر بصورة لا شعورية عن عدد كبير متنوع من المجموعات الايحائية التي تلتقي في السنتاكم marchons !إذ يظهر هذا السنتاكم في المجموعة marchez (امش أو امشوا) .

والتقابل بين marchons والصيغ الأخرى يحدد اختيار المتكلم: فضلاً عن ذلك فالكلمة marchons توحي بالمجموعة montons (لنصعد)، mangons (لنأكل) الى آخره: ويقع الاختيار على الكلمة الأولى بالأسلوب الذي مر ذكره في المثال السابق. ففي كل مجموعة يعلم المتكلم أي عنصر ينبغي تغييره لكي يحصل على التفاضل الذي يناسب الوحدة المطلوبة. فإذا غير المتكلم الفكرة التي يراد التعبير عنها، فانه يحتاج الى أنواع أخرى من التقابل للحصول الى قيمة أخرى: مثال ذلك قد يقول marchez (أمش، امشوا) أو ربما montons (لنصعد).

لا يكفي القول ـ إذا نظرنا الى المسألة نظرة إيجابية ـ ان المتكلم يختار marchons (لنمش) لأن هذه العبارة تدل على ما يؤيد التعبير عنه. ان الفكرة ـ في الحقيقة ـ لا توحي بصيغة واحدة بل بنظام كامن بأكمله يساعد على إيجاد التقابل الضروري لتكوين الاشارة. ان الاشارة في حد ذاتها لا دلالة لها. فلولا صيغ مثل marchez, marche مقابل marchons، لاختفى عدد من التقابلات، وتغيرت قيمة marchons للسبب ذاته.

إن هذا المبدأ ينطبق حتى على الأنماط المعقدة جداً للسنتاكم والجمل. فالمتكلم حين يصوغ السؤال ؟que vous dit — iL ماذا يقول لك؟ يغير أحد عناصر النمط النحوي الكامن، مثال ذلك quete dit — il ماذا قال لك؟ que nous dit — il ماذ ا يقول لنا؟ الى آخره، حتى يقع اختياره على الضمير vous (لك). في هذه العملية، التي تتألف من الغربلة العقلية لكل شيء لا يساعد على الحصول على التفاضل المرغوب في اللحظة المرغوبة، تقوم المجاميع الايحائية والأنماط السنتاكمية بدور فعال.

وعلى العكس من ذلك تتحكم عملية التحديد والاختيار بأصغر الوحدات وحتى العناصر الفونولوجية حيثما اكتسبت قيمة. أنا لا أفكر هنا فقط بحالات موجودة في الفرنسية كلفظة potit (صغيرة) (صيغة المؤنث التي تكتب pdtite) التي تقابل poti (صغير) (صيغة المذكر التي تكتب petit) أو الكلمة اللاتينية domini مقابل dominv حيث يعتمد الفرق على الفونيم البسيط، بل أفكر أيضاً بالحقيقة الدقيقة المتميزة التي مفادها ان الفونيم وحده، يقوم بدور فعال في نظام حالة لغوية. مثال ذلك إذا كانت الأصوات m, p, t وغيرها لا تقع في نهاية الكلمة الاغريقية، فان ذلك يعني ان وجودها أو غيابها في موقع معين مهم في تركيب الكلمة وفي تركيب الجملة. ان في كل حالة من هذه الحالات يكون اختيار الصوت المفرد وكذلك كل وحدة من الوحدات الأخرى، بعد تقابل ثنائي عقلي. ففي المجموعة الخيالية anma على سبيل المثال، يتقابل الصوت m في علاقة سنتاكمية مع الأصوات المجاورة له وفي التقابل الايحائي مع جميع الأصوات التي تخطر على البال:

anma

v

d

٣ ـ الاعتباطية النسبية والمطلقة

يمكن توضيح جهاز اللغة من زاوية مهمة أخرى.

إن المبدأ الاساسي لاعتباطية الاشارة لا يمنعنا من تشخيص العنصر الاعتباطي الأساسي في كل لغة: أي الاعتباطي المطلق والعنصر الاعتباطي النسبي. ان بعض الاشارات اعتباطي مطلق ونلاحظ ان بعضها الآخر يتميز بدرجات من الاعتباطية: فقد

تكون الاشارة محفزة motivated نسبيا.

فكلمة vingt (عشرون) الفرنسية غير محفزة و كذلك كلمة dix — neuf (تسعة عشر) ولكن ليس بدرجة واحدة، فكلمة dix — neuf توحي بعناصرها وبالعناصر الأخرى المرتبطة بها (مثال ذلك dix (عشر)، neuf (تسعة) vingt — neuf (تسعة وعشرون)، dix — huit (ثمانية عشر) soixante — dix (سبعون) الى آخره). فإذا أخذنا كل من dix وneuf بصورة مفردة فانهما من صنف vingt، ولكن dix — neuf مثال للتحفيز النسبي ويصح الشيء نفسه في كلمة poirer (شجرة الكمثرى) التي توحي بكلمة poire (الكمثرى)، كما توحي عن طريق اللاحقة فيها بكلمة cerisier (شجرة الكرز) وبكلمة pommier (شجرة التفاح) وغيرها. أما بالنسبة لكلمة frene (شجرة مرّان) وكلمة chene (بلوط) وغيرهما فالأمر مختلف تماماً. ولنقارن أيضاً كلمة berger (راع) وهي غير محفزة vacher (راعي البقر) محفزة نسبياً ويصح الشيء نفسه في geole (سجن) وdungeon (زنزانة) وhache (فأس) وcouperet (ساطور) وconcierge (فراش) وportier (بواب) وjadis (منذ القديم) وautrefois (سابقاً) وsouvent (غالباً) وfrequemment (كثيراً) aveugle (أعمى) وboiteux (أعرج) وsourd (أطرش) وbossu (أحدب) وsecond (ثانية) وdeuxieme (الثاني) وفي الألمانية Laub والفرنسية feuillage (أوراق الشجر) وفي الفرنسية metier (حرفة) والألمانية Handwerk. وصيغة الجمع الانكليزية ships (سفن) توحي بفضل تركيبها بالمجموعة flage (أعلام) وbirds (طيور) وbooks (كتب) وغيرها.[40] أما صيغة الجمع men (رجال) فلا توحي بشيء. وفي الاغريقية doso (سأعطي) تحتوي على فكرة الاستقبال التي عبر عنها باشارة توحي بالعبارة Luso، tupso steso وغيرها. أما eimi (سأذهب) فهي عبارة مفردة معزولة.

ليس هذا بالمكان الذي ينبغي أن نبحث فيه عن القوى التي تكيف التحفيز في كل حالة، ولكن التحفيز يختلف، فهو يتناسب مع سهولة تحليل السنتاكم ووضوح المعنى للوحدات الفرعية الموجودة. ان بعض العناصر المكونة للسنتاكم مثل ier — في كلمة poir — ier تتقابل بسهولة مع ceris — ier وpomm — ier وغيرهما أما بعض العناصر الأخرى فهي غامضة أو لا معنى لها. مثال ذلك، هل ترتبط اللاحقة ot — بعنصر ذي معنى في الكلمة الفرنسية cachot «زنزانة»؟ وإذا قارن المرء الكلمات coutelas (سيف الملاح) وfatras (كومة) وplatras (قمامة) وcanevas (قماش للرسم) وغيرها لا يتكون عنده سوى شعور غامض بأن as — هو عنصر يدخل في تكوين الأسماء. وعلى كل حال لا يكون التحفيز، حتى في أحسن الأحوال، مطلقاً لأن العناصر المكونة للاشارة المحفزة ليست محفزة (قارن dix

(٤٠) وفي العربية توحي صيغة الجمع «مدرسون» بمجموعة تشمل على الكلمات «مهندسون»، «معلمون» و«رسامون» وغيرها. (المترجم).

(عشرة) وneuf (تسعة) فهما عنصران غير محفزين، يشتركان في تكوين الاشارة المحفزة dix — neuf (تسعة عشر) فضلاً عن ان قيمة الاشارة بأكملها لا تساوي مجموع قيم الأجزاء المكونة لها. فالتركيب مدرس + ون لا يساوي مدرس × ون (لاحظ ما ذكرنا سابقاً).

لقد وضحنا التحفيز بذكر المبادئ التي أوردناها في الفقرة ٢. ففكرة التحفيز النسبي تنطوي على: (١) تحليل لفظة معينة، أي العلاقة السنتاكمية، و(٢) الايحاء بلفظة أخرى أو أكثر، أي العلاقة الايحائية. وهذه هي الطريقة التي بوساطتها تقوم كل لفظة بوظيفتها للتعبير عن فكرة ما، ليس إلا. لقد ظهرت الوحدات حتى الآن على انها قيم أي انها عناصر في نظام معين، وقد نظرنا الى تقابل هذه العناصر باهتمام. أما الآن فنتعرف على الروابط التي تربط بينها: وهي روابط إيحائية وسنتاكمية، كما انها تحدد الاعتباطية فكلمة dix — neuf ترتبط إيحائياً بكلمة dix — huit وsoixante — dix وغيرهما، كما ترتبط سنتاكياً كما انها تحدد الاعتباطية. فكلمة dix — neuf ترتبط إيحائياً بكلمة dix — huit (ثمانية عشر) وsoixante — dix (سبعون) وغيرهما كما انها ترتبط سنتاكمياً بالعنصرين dix (عشرة) وneuf (تسعة). ان هذه العلاقة الثنائية تمنح الكلمة جزءاً من قيمتها.

إن كل شيء يرتبط باللغة نظاماً ينبغي، على ما أعتقد ، أن يدرس من وجهة نظر تحديد الاعتباطية: وقد أهمل اللغويون وجهة النظر هذه مدة طويلة من الزمن. ان هذه هي خير وسيلة لدراسة اللغة على انها نظام بل ان النظام اللغوي بأجمعه يستند الى هذا المبدأ غير المنطقي وهو اعتباطية الاشارة. الذي قد يؤدي الى تعقيد شديد إذا طبق دون قيد أو شرط، بيد ان العقل يحاول ان يدخل مبدأ الانتظام والقياس في بعض أجزاء كتلة الاشارات، و هذا هو الدور الذي يقوم به التحفيز النسبي. ولو كان جهاز اللغة منطقياً عقلانياً، لاختلف أسلوب دراسته. ان جهاز اللغة هو تصحيح جزئي لنظام تتصف طبيعته بالفوضى لذا فنحن نتبنى وجهة النظر التي تفرضها طبيعة اللغة وتدرسها بوصفها حدود الاعتباطية.

لا توجد لغة من اللغات وكل شيء فيها غير محفز، كما ان تعريفنا لا يسمح لنا ان نتصور لغة من اللغات، وكل شيء فيها محفز، اننا نجد جميع الأصناف الممكنة بين هذين القطبين ـ الحد الأدنى من الترتيب والحد الأدنى من الاعتباطية ـ واللغات المختلفة تضم دائماً عناصر من كلا النمطين ـ الاعتباطية الأساسية والتحفيز النسبي ـ ولكن بنسب مختلفة جداً. وهذه صفة مهمة قد تساعد على تصنيفها.

ويمكن القول ان اللغات التي تحتوي على أقل درجة من التحفيز هي أكثر معجمية Lexicological واللغات التي تحتوي على أكبر قدر من التحفيز هي نحوية. ولكننا ينبغي أن لا نغالي في هذا الرأي، وان كان يوضح نوعاً من التقابل. وليس السبب في ذلك ان

«المعجمية» والاعتباطية يكونان جانباً من المعادلة وان النحوية والتحفيز النسبي يكون الجانب الآخر لها. بل لانهما يعتمدان على مبدأ واحد. فالطرفان يشبهان قطبين يتحرك بينهما النظام بأجمعه، فهما تياران متعاكسان يشتركان في حركة اللغة: التيار الذي يجنح نحو استخدام الجهاز المعجمي (الاشارة غير المحفزة) والتيار الذي يفضل إستخدام الجهاز النحوي (قوانين التركيب).

فنجد مثلاً ان التحفيز له دور أكبر في الألمانية منه في الانكليزية. ولكن أشد الأنماط جنوحاً نحو المعجمية هو اللغة الصينية، في حين تمثل اللغة الهندية - الأوربية الأولى واللغة السانسكريتية أشد نمطين جنوحاً نحو القواعد. فحركة التطور في أية لغة من اللغات يمكن أن تتميز بالانتقال المستمر من التحفيز الى الاعتباطية ومن الاعتباطية الى التحفيز: وغالباً ما يؤدي هذا التأرجح الى تغيير ملموس في النسب التي يتصف بها كل صنف من هذين الصنفين من الاشارات. وهكذا إذا قارنا الفرنسية باللاتينية وجدناها تحتوي على قدر كبير من الاعتباطية. فالكلمة اللاتينية inimicus توحي بالبادئة — in وamicus وهما عنصرا التحفيز في هذه الكلمة. أما الكلمة الفرنسية ennemi (عدو) فليس فيها أي عنصر من عناصر التحفيز - إذ انها ارتدت الى الاعتباطية المطلقة التي هي، في الحقيقة، الصفة الأساسية المميزة للاشارة اللغوية. ونلاحظ هذا التغيير في مئات الأمثلة: لاحظ couter : (stare) constare (يكلف)، forge: (faber) fabrica (كور، ورشة حدادة)، (magis) magister maitre (سيد) berger (berbia) berbicarius (راع) وغيرها.

فاللغة الفرنسية مدينة في مظهرها المتميز الى هذه الحقيقة.

الفصل السابع

القواعد وأقسامها

١ - تعريفات : الأقسام التقليدية

إن علم اللغة الثابت أو وصف الحالة اللغوية هو القواعد بالمفهوم الدقيق الاعتيادي الذي تستخدم فيه هذه الكلمة في عبارات مثل «قواعد البورصة» وغيرها حيث نقصد بالقواعد شيئاً نظامياً معقداً يتحكم بالعلاقات المتبادلة بين القيم الموجودة في آن واحد .

والقواعد تدرس اللغة على انها نظام وسائل التعبير والشيء القواعدي يعني السنكروني (التزامني) الذي له معنى، ولما كان النظام لا يضم فترات كثيرة لم يوجد شيء، إذن، يسمى «القواعد التأريخية» ان المادة التي تطلق عليها هذه التسمية ما هي إلا علم اللغة التأريخي.

إن التعريف الذي قدمته للقواعد يختلف عن التعريف الضيق السائد. فقد جرت العادة ان يطلق على الصرف morphology والنحو syntax بالقواعد grammar، في حين يستثنى من هذه التسمية المعجم Lexicology أو علم الكلمات.

نبدأ بالقول : هل ان هذه التقسيمات تتفق مع الحقائق؟ هل تتفق مع المبادىء التي مر ذكرها قبل قليل؟

إن الصرف يدرس أصنافاً متنوعة من الكلمات (كالأفعال والأسماء والصفات والضمائر وغيرها والتغيير الذي يصيب أشكالها. ويفصل اللغويون بين هذا الفرع من الدراسة وبين النحو، فيقولون ان النحو يهدف الى دراسة الوظائف التي ترتبط بالوحدات اللغوية، أما الصرف فيدرس أشكال هذه الوحدات. فالصرف على سبيل المثال يقتصر على القول بأن صيغة المجرور للكلمة الاغريقية phulax (ولي الأمر) هي phulakos، ويوضح النحو استعمال هاتين الصيغتين.

بيد ان هذا التمييز لا يستند الى الحقيقة. فالمجموعة التي تحتوي على صيغ الاسم phulax لا تصبح نمطاً اعربياً إلا عن طريق مقارنة الوظائف التي ترتبط بالصيغ المختلفة : وكذلك ليست الوظائف صرفية إلا إذا كانت كل وظيفة تطابق إشارة صوتية معينة. فالتصريف ليس قائمة من الصيغ أو الأشكال كما انه ليس قائمة من الأمور المنطقية المجردة، بل انه يتكون من الجمع بين المسألتين (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثاني). فالأشكال والوظائف يعتمد بعضها على البعض الآخر، ومن الصعب، بل من المستحيل،

الفصل بينهما. والصرف من الناحية اللغوية ليس له موضوع مستقل. فهـو لا يكون موضوعاً متميزاً عن النحو.

ثانياً: هل من المنطق أن نستثني علم المعجم عن القواعد؟ ان الكلمات كما ترد في المعجم تبدو وكأنها لا تخضع للدراسة القواعدية، التي تقتصر عادة على دراسة العلاقات بين الوحدات. ولكننا نلاحظ في الحال ان عدداً كبيراً من العلاقات يمكن التعبير عنها، بالكلمات بطريقة لا تقل كفاءة عن التعبير عنها بالقواعد مثال ذلك ان كلمتي fio، facio اللاتينيتين تتقابلان، كما تتقابل dicor وdico وهما صيغتان من صيغ القواعد للكلمة ذاتها.

والتمييز بين الصيغة الكاملة وغير الكاملة يعبر عنه بالقواعد في اللغة الروسية -spra sivat: sprosit (يسأل) كما يعبر عنه معجميـاً في الكلمتين govŕit: skazát (يقـول). وتضم حروف الجر عادة الى القواعد، ولكن عبارة الجر en considération de (إذا أخذنـا بنظر الاعتبار) هي معجمية في جوهرها طالما ان كلمة considération تحتفظ بمعناها في العبارة الفرنسية هذه. وإذا قارنا العبارتين الاغريقيتين peitho: peíthomai بالعبارتين الفرنسيتين je persuade: (اقنع) وje obeis (اطيع) نجد ان التقابل قد عبر عنه بالقواعد في الحالة الأولى (الاغريقية) ومعجمياً في الحالة الثانية (الفرنسية). وعدد كبير من العلاقات التي يعبر عنها في بعض اللغات عن طريق الحالات أو حروف الجر، يعبر عنها في لغات أخرى بألفاظ مركبة تشبه كلمات حقيقية (لاحظ في الفرنسية royaume de cieux «مملكـة السماء» وفي الألمانية Himmelreich) أو يعبر عنها بـالألفاظ المشتقـة (كما في الفـرنسية moulin á vent «طاحونة هوائية» وفي البولونية wiatr — ak). وأخيراً قد يعبر عنها بالكلمات البسيطة (كما في الفـرنسية bois de chauffage «حـطب» وفي الروسيـة drová، وفي الفـرنسيـة bois de construction (خشب البنـاء) وفي الروسية lès). كمـا نجد كثيـراً التبادل بـين الكلمات البسيطة والعبارات في لغـة واحدة (كمـا في الفرنسيـة considérer «يتأمـل» prendre en considération يأخذ بنظر الاعتبار، se venger de «ينتقم» tirer vengeance يأخذ الثأر»).

فالنحو والمعجم إذن قد يمتزجان في وظيفتهما، فلا يوجد من ناحية الجوهر أي فرق بين كلمة (غير) البسيطة والوحدة التي لا تتجزأ الى وحدات فرعية والعبارة، التي هي حقيقة نحوية. فترتيب الوحدات الفرعية للكلمة يخضع للمبادئ الأساسية نفسها التي تخضع لها مجموعة الكلمات في العبارة.

وموجز القول، إن التقسيمات التقليدية للقواعد قـد تكون مفيـدة من الناحيـة العملية، ولكنها لا تتفق مع التقسيمات الطبيعية. وإذا أردنا إقامة علم القواعد علينا أن نبحث عن مبدأ آخر من مرتبة أعلى.

٢ ـ التقسيم على أساس العلاقات:

الصرف والنحو والمعجم يتصل بعضها ببعض وتتداخل جميعهـا لأن الحقائق

السنكرونية (التزامنية) متماثلة، ولا يمكن رسم حدود تميز بينها سلفا. ويقتصر التمييز على الصنفين المذكورين سابقاً ـ وهي العلاقات السنتاكمية والعلاقات الايحائية. وهذا هو التمييز الوحيد الذي لم يفرض من الخارج. فلا يمكن لنظام القواعد أن يكون له أساس آخر غير هذا الأساس.

ينبغي إذن أول الأمر ، ان نجمع كل ما تتكون منه الحالة اللغوية ثم نضع هذه العناصر في نظرية للسنتاكمات وأخرى للعلاقات الايحائية. ونجد في الحال ان بعض أجزاء القواعد التقليدي تناسب الصنف الأول بسهولة، في حين تطابق الأجزاء الأخرى الصنف الآخر. فاعراب أواخر الكلمات هو ولا شك نموذج مثالي للترابط الايحائي بين الأشكال، الذي يحصل في عقل المتكلم: والنحو (أي نظرية الجمع بين الكلمات، طبقاً للتعريف المألوف) يعود الى نظرية السنتاكم، لأن هذه المجموعات تعتمد دائماً على وحدتين في الأقل موزعتين في الفراغ المكاني. ولا يصح ان نصنف كل حقيقة سنتاكمية الى سنتاكم، ولكن كل حقيقة نحوية تعود الى صنف السنتاكم.

ونستطيع أن نأخذ أية مسألة في القواعد لنبرهن بها على ضرورة هذه النظرة الثنائية. ففكرة الكلمة، مثلاً، تواجهنا بمشكلتين متميزتين طبقاً للنظرة التي تدرس بها الكلمة: هل هي ايحائية أم سنتاكمية؟ ففي الفرنسية نجد للصفة grand «كبير» شكلين من النظرة السنتاكمية (وهما grāgarcon وتكتب grand grcon (ولد كبير) وgrat afa وتكتب grand enfant (طفل كبير)، وثمة شكلان آخران من النظرة الايحائية (المذكر grā ويكتب grand والمؤنث grād و يكتب grande).

وهكذا ينبغي أن نوضح كل حقيقة في الصنف المناسب ـ الصنف السنتاكمي أو الصنف الايحائي: ويرتب موضوع القواعد بأكمله طبقاً لهذين البعدين الطبيعيين ولا يوجد تقسيم آخر يستطيع ان يبين الأمور التي ينبغي تغييرها في الاطار المألوف لعلم اللغة السنكروني. بيد انني لا أستطيع بحث هذه المسألة هنا، لأن مهمتي تقتصر على ذكر المبادئ العامة حسب.

الفصل الثامن

«دور الكيانات المجردة في القواعد»

لم أتحدث حتى الآن عن موضوع مهم يشير الى ضرورة دراسة كل مسألة في القواعد من وجهتي النظر اللتين أشرنا اليهما في الفصل السابع : وهو موضوع الكيانات المجردة في القواعد . ولنتحدث عنها ، أولا ، من الناحية الايحائية .

ان الربط الايحائي بين شكلين لايعني فقط شعور المرء بوجود شيُ مشترك بينهما بل يعني ايضا تشخيص طبيعة العلاقات التي تتحكم في الروابط الايحائية . مثال ذلك ان المتكلمين يشعرون دائما بأن العلاقة بين enseigner و enseignement او بين juger و jugement لاتشبه العلاقة بين enseignement و jugement (لاحظ الفصل الخامس) . وهذا يفسر كيفية ارتباط نظام العلاقات الايحائية بنظام القواعد . اذ نستطيع القول ان المجموع الكلي للتقسيمات الشعورية المنتظمة التي يقوم بها علماء القواعد الذين يدرسون الحالة اللغوية بدون اللجوء الى التاريخ ، يتفق مع الارتباطات الايحائية - الشعورية واللاشعورية ، التي يتوصل اليها الباحث في الكلام . ان هذه الارتباطات تحدد في عقولنا اصناف الكلمات وانماط الاعراب ، والعناصر المكونة للكلمات (المصدر واللاحقة والنهايات الاعرابية وغيرها ..) .

لكن ، هل يقتصر الايحاء على تشخيص العناصر المادية ؟ كلا . فقد رأينا انه يجمع بين الكلمات التي لا علاقة بينها سوى المعنى (مثال ذلك apprentissage , enseigne- ment education وغيرها) . ويصح الشيُ نفسه في القواعد . لنأخذ الاشكال الثلاثة للخفض (المجرور) في اللاتينية 1 — ros — árum, rég — is, domin ان اصوات النهايات الثلاثة لا يمكن ان تكون أساسا لاي نوع من الايحاء ، ومع ذلك ترتبط هذه النهايات فيما بينها ، بنوع من الشعور ، يوحي بوجود قيمة مشتركة بينها تحدد قيام هذه العناصر بوظيفة واحدة . وهذا يكفي لخلق الارتباط الايحائي عند عدم وجود اي ارتباط مادي ، وبذلك نأخذ فكرة المجرور مكانها في اللغة[٤١] . وترتبط بالطريقة ذاتها النهايات الاعرابية us — I — o,´ وغيرها (كما في domini , dominus dominó الى اخره) بعضها ببعض في العقل ، فتؤلف اساسا للفكرة العامة للحالات النحوية والنهايات الاعرابية . وتربط علاقات

---

(٤١) وفي العربية يستند الارتباط الايحائي بين المجرورات الى فكرة (النسبة) سواء كان المجرور مجرورا باضافة اسم أو مجرورا بحرف اضافة . (المراجع) .

ايحائية من الصنف ذاته ، ولكنها اوسع ، بين جميع الاسماء ، والصفات وغيرهما ، فتحدد فكرة اقسام الكلام .

جميع هذه الامور لها وجود في اللغة ، ولكنها كيانات مجردة ، يصعب دراستها لاننا لانعلم ، على وجه التحديد ، هل ان شعور المتكلم بها يماثل تحليل النحوي لها ام لا ؟ والمهم ان الكيانات المجردة تستند دائما في جوهرها ، الى الكيانات الملموسة . ولا يمكن القيام بأي تجريد في القواعد من دون ان نعتمد في ذلك على مجموعة من العناصر المادية . وينبغي في آخر الأمر أن نعود دائما الى هذه العناصر .

لنتناول الآن النظرة السنتاكمية . ان قيمة مجموعة ما غالبا ما تعتمد على تسلسل العناصر فيها . فالمرء عند تحليله للسنتاكم لايقتصر على تشخيص اجزائه : فهو يلاحظ نظاما معينا من التسلسل في هذه العناصر . فمعنى الكلمة العربية (مؤلمة) والكلمة اللاتينية signi — fer يعتمد على مواقع الوحدات الفرعية في كل منها . فلا نستطيع ان نقول ـة ـ مؤلم او signum — fer . وقد لاتكون هناك علاقة بين قيمة ما وبين عنصر ملموس (كما في ـ ـة او fer ـ) بل تنبع النتيجة فقط من ترتيب الالفاظ . مثال ذلك اختلاف الدلالتين للمجموعتين الفرنسيتين Je dois (ينبغي ان) ، و ؟ dois — je (هل ينبغي ان) سببه اختلاف نظام الكلمتين في كل مجموعة .[٤٢] وقد تعبر لغة ما عن فكرة معينة عن طريق نظام تسلسل الالفاظ في المجموعة ، في حين تستخدم لغة اخرى لفظة ملموسة اضافية او اكثر للتعبير عن هذه الفكرة . وفي النمط السنتاكمي gold watch, gooseberry wine وغيرها تعبر الانكليزية عن طريق تسلسل الكلمات عن العلاقات التي تعبر عنها الفرنسية الحديثة باستخدام حروف الجر (لاحظ vin de groseilles = شراب الكشمش البري ، و montre en or = ساعة ذهبية الى آخره) . وتعبر الفرنسية الحديثة عن فكرة التكملة المباشرة direct complement (المفعول به) بوضع الاسم بعد الفعل المتعدي مباشرة (كما في je cueille une fleur = اقطف زهرة) في حين تستخدم اللاتينية وبعض اللغات الاخرى حالة النصب التي تتميز باعراب معين في آخر الكلمة .[٤٣]

مما لاشك فيه ان نظام الكلمات في المجموعة هو كيان تجريدي : ولكن وجوده يعتمد كليا على الوحدات الملموسة التي يضمها نظام الكلمات هذا ، تلك الوحدات التي تمتد على بعد واحد (اي لها تسلسل خطي) . ولكن من الخطأ ان نتصور وجود نحو غير ملموس خارج الوحدات المادية موزع في الفراغ المكاني . ففي العبارة the man I have seen (الرجل

---

(٤٢) يلاحظ ان اختلاف المعنى في الترجمة العربية لا يعتمد على تغيير تسلسل الكلمات في كل مجموعة بل على اضافة اداة الاستفهام «هل» فتسلسل الكلمات في العبارة اقل اهمية في العربية منه في الانكليزية او الفرنسية : لاحظ ، جاء علي ، علي جاء . (المترجم) .

(٤٣) العربية اقرب الى اللاتينية منها الى الفرنسية : لاحظ قرات كتاباً ، كتابا قرات . فالمفعول به يدل عليه خروجه على الاسناد (النصب) وليس موقع الكلمة في المجموعة . (المترجم) .

الذي رأيته) تستخدم الانكليزية علامة الصفر للتعبير عن حقيقة نحوية في حين تستخدم الفرنسية que (that = الذي) للتعبير عن هذه الحقيقة (L'home que j'ai un) . ولكن مقارنة الحقيقة النحوية الانكليزية بالحقيقة النحوية الفرنسية انما يـؤدي الى وهم مفاده ان اللاشيً يمكن ان يعبر عن الشيً . والحقيقة ان الوحدات المادية وحدها تخلق القيمة عن طريق ترتيبها باسلوب معين . حيث لانستطيع ان ندرس اية قيمة نحوية خارج عدد من الالفاظ الملموسة ، ثم ان فهمنا لوحدة لغوية مركبة (لاحظ الكلمات الانكليزية المذكورة آنفاً) انما هو دليل على ان نظام تسلسل الكلمات وحده يعبر عن الفكرة .

إن الوحدة المادية لاجود لها الا من خلال معناها ووظيفتها . وهذا المبدأ له اهمية خاصة في فهم الوحدات الصغيرة ، لان المرء يميل الى الاعتقاد ان هذه الوحدات لاجود لها الا بفضل صفتها المادية ـ فكلمة love (حب) على سبيل المثال لاجود لها الا بفضل الاصوات التي فيها . وعـلى العكس من ذلك ، رأينا ان المعنى والوظيفـة يعتمدان في وجودهما على بعض الاشكال المادية . ان هذا المبدأ قـد صيغ بـالنسبة للسنتـاكمات الكبيرة او الانماط النحوية الكبيرة ، لالسبب الا لان المرء يميل الى رؤية هذه الوحدات على انها اشياء تجريدية ليس لها كيان مادي ، تطفو فوق عناصر الجملة . وهكذا يكمل المبدآن أحدهما الآخر ، ويوضحان سوية ماقلته عن تحـديد الوحـدات (انظر الجـزء الثاني ، الفصل الثاني) .

○

الجزء الثالث

علم اللغة الدايكروني

الفصل الاول

مبادئ عامة

لايدرس علم اللغة الدايكروني diachronic العلاقات بين العناصر الموجودة في حالة لغوية ، بل العلاقات بين عناصر متعاقبة يحل كل عنصر منها محل العنصر الآخر بمرور الزمن .

ان عدم التغيير المطلق لاجود له . فكل جزء من اللغة يخضع للتغيير . ويعود لكل فترة . شيء من التطور الملموس . وقد يختلف التطور في سرعته وشدته ، ولكن هذا لايؤثر في صحة مبدأ التغيير . فجدول اللغة يجري من دون انقطاع ، وسواء كان المجرى هادئاً او هائجاً فذلك امر ذو أهمية ثانوية .

وكثيرا ما يخفى عنا هذا التطور المستمر وسبب ذلك ان اهتمامنا ينصب على اللغة الادبية ، وتُفْرَضُ هذه اللغة على اللغة الدارجة (اي اللغة الطبيعية) (كما سنرى في الجزء الرابع ، الفصل الثالث) كما انها تخضع لعوامل اخرى . فاللغة الادبية بعد ان تظهر الى الوجود ويتعزز مركزها ، تبقى عادة ثابتة الى حد كبير وتجنح نحو الاحتفاظ بكيانها . فاعتمادها على الكتابة يمنحها ضماناً خاصاً في الحفاظ على نفسها . لذا لاتبين لنا هذه اللغة مدى التغيير الذي يحدث في اللغة الطبيعية عندما تحرر من القيود الادبية .

ان علم الصوت ـ بجميع اجزائه ـ هو الموضوع الاساسي لعلم اللغة الدايكروني . بل ان تطور الاصوات يناقض فكرة الحالات اللغـوية . فـالمقارنـة بين الفـونيمات او مجموعات الفونيمات في فترة ما مع ماكانت عليه في فترة سابقة يعني اقامة دايكرونية . وقد تكون احدى الفترات شديدة الصلة بالفترة التي تليها . ولكن بعد ان تندمج الفترتان ينتفي دور علم الصوت . ولايبقى سوى وصف للاصوات الموجودة في حالة لغوية ، وهذه مهمة النظام الصوتي ، الفونولوجيا .

ان الطبيعة الزمنية لعلم الصوت تلائم جيداً المبدأ القائل بأن كل ما هو ضمن علم الصوت لا دلالة له ولا قواعد بالمفهوم الواسع للفظة علم الصوت (لاحظ المقدمة ، الفصل الرابع) . وعند دراستنا لتاريخ الاصوات في كلمة ما نستطيع ان نهمل المعنى ، ونقتصر على دراسة الغلاف المادي للكلمة ، فنقوم بتقطيع الشرائح الصوتية من دون ان نتساءل هل إن لهذه الشرائح دلالة ؟ فعلى سبيل المثال يمكن ان نتتبع تاريخ المجموعة — ewo — التي لامعنى لها ، في الاغريقية الاتيكية . ولو كـان تطور اللغـة لايعني سوى تـطور الاصوات فيها لاصبح التقابل واضحاً جداً بين الاشياء التي تعود الى كل فرع من فرعي

علم اللغة . وبذلك تعني الدرأسة الدايكرونية تلك التي لاعلاقة لها بالقواعد ، والدراسة السنكرونية تلك التي لها علاقة بالقواعد .

بيد ان الاصوات ليست الامور الوحيدة التي تتغير مع الزمن . فالكلمات تتغير دلالاتها . والاصناف النحوية تتطور . فتختفي بعضها وتختفي معها الصيغ والالفاظ التي كانت تعبر عنها (مثال ذلك المثنى في اللاتينية) . واذا كانت الحقائق الايحائية والسنتاكمية في الحالة السنكرونية لها تاريخها الخاص بها ، فكيف يمكن ان نحافظ على التمييز المطلق بين الدايكروني والسنكروني ؟ اذ يصبح هذا الامر صعباً حين نخرج من نطاق علم الصوت .

من الملاحظ أن كثيراً من التغييرات التي غالباً ما تنسب الى القواعد انما هي في الحقيقة صوتية . فصيغ «القواعد» التي ظهرت الى الوجود مثل Hande : Hand في الالمانية وحلتا محل hanti : hant (لاحظ الجزء الاول ، الفصل الثالث) يمكن ان تفسر باللجوء الى علم الصوت . وثمة حقيقة صوتية اخرى هي اساس الالفاظ المركبة مثل Springbrunnen و Reitschule في الالمانية . ففي الالمانية العليا القديمة لم يكن العنصر الاول فعلاً بل اسماً . والكلمة المركبة Bete — hûs كانت تعني «بيت الصلاة» ثم حصل تغير صوتي ادى الى اختفاء الحركة الاخيرة في beta (فأصبحت اللفظة — bet وحصل الشيُ نفسه في غيرها من الكلمات) وارتبطت الكلمة من حيث المعنى بالفعل (beten وغيره) ! فأصبحت كلمة Bet haus تدل على «بيت للصلاة» .

وحدث شيء مشابه لذلك في الكلمات المركبة التي تحتوي على كلمة Lich «المظهر الخارجي» في الالمانية القديمة العليا (لاحظ redolich = له مظهر العقل ، mannolich له مظهر الرجل ، الى اخره) . واليوم يضم عدد من الصفات (لاحظ verzeilich وغيرهما) اللاحقة lich ـ التي تشبه اللاحق في believ — able, pardon — able وغيرهما ، وفي الوقت ذاته أصبح العنصر الاول ، بعد أن فقد الحركة الاخيرة (كما في redo —— red) يشبه الجذر في الفعل (red من reden) .

وفي كلمة glaublich يشبه الجذر — glaub بالفعل glauben وليس بالاسم Glaube ثم ان الاصل في sichtlich رغم الاختلاف ، ارتبط بالفعل sehen وليس بالاسم sicht .

فالتمييز بين الصنفين يبقى واضحا في جميع الامثلة مارة الذكر وامثلة اخرى كثيرة مشابهة لها . وعلى اللغوي ان يحتفظ بهذا التمييز في عقله والا توهم بانه يدرس علم القواعد التاريخي ، في حين انه ـ في الحقيقة ـ ينتقل بصورة متعاقبة من الدايكرونية ، حيث يدرس التغييرات الصوتية ، الى السنكرونية حيث يتمحّص النتائج التي تنبع من هذه التغييرات .

ولكن هذا القيد لايزيل جميع العقبات . فتطور الحقيقة القواعدية سواء كانت

سنتاكمية اولها طبيعة قواعدية ، ليس كتطور الصوت . فهو ليس بسيطا بل يمكن تحليله الى عدد كبير من الحقائق المعينة وليست حقائق علم الصوت سوى جزء منها . اذ نجد في تكوين صيغة المستقبل الفرنسية prendre ai التي اصبحت preudrai «سوف آخذ» حقيقتين متميزتين في الاقل ، الاولى سايكولوجية (اندماج عنصري الفكرة وهما prendre = يأخذ و ai) ، والثانية صوتية تعتمد على الاولى (اختزال الركزتين الى ركزة واحدة بعد ان اندمج العنصران في كلمة واحدة : prendrai ← prendre ai) .

ويعتمد تصريف الافعال القوية في الالمانية (كما في الالمانية الحديثة gab, geben, gegeben ، الى اخره ، لاحظ ايضا في الاغريقية leipo, elipon, liloipa الى اخره) على تغيير الحركة في الجذور بصورة رئيسة . ان هذه التغييرات التي بدأت بنظام بسيط نسبيا (لاحظ الفصل الثالث من هذا الجزء) هي ولا شك نتيجة محضة لحقيقة صوتية . ولكن التقابل لم يكتسب مثل هذه الاهمية الوظيفية الا بعد ان اصبح النظام الاعرابي الاول بسيطا بسبب عدد من التطورات : فاختفت الانواع الكثيرة من صيغ الحاضر وظلال المعاني التي كانت مرتبطة بها : كما اختفت صيغة الفعل غير الكامل ، والمستقبل ، والماضي ، واندثرت صيغة التكرار للكامل وغيرها . ان هذه التغييرات غير الصوتية اختزلت الصيغ الصرفية للفعل الى مجموعة صغيرة من الاشكال (الصيغ) واصبحت تغييرات الاصل فيها مهمة جدا في تشخيص المعنى فالتقابل بين e : a اشد دلالة في geben منه في gab e : o في الاغريقية leipo : Léloipa لان صيغة الفعل الكامل في الالمانية لاتنطوي على تكرار ما ، في حين نجد التكرار في الاغريقية .

ان التغيير الصوتي ، مع كونه يؤثر في التطور عادة ، لايمكن ان يفسر التطور بأكمله . فما ان يختفي العامل الصوتي ، حتى تبقى لدينا البقية التي تبدو وكأنها تسوّغ فكرة «تاريخ القواعد» وفي هذا تكمن الصعوبة الحقيقيّة . ان هذا التمييز الضروري بين ماهو دايكروني وما هو سنكروني يتطلب توضيحا مفصلا لامجال للقيام به في هذا الكتاب(٤٤) .

---

(٤٤) يمكن ان نضيف الى هذا السبب التلقيني الخارجي سببا آخر : وهو ان دي سوسور لم يتناول قط علم لغة الكلام (لاحظ المقدمة ، الفصل الثالث) . وعلينا ان نتذكر ان اية صيغة جديدة تنبع دائما من سلسلة من الحقائق الفردية (لاحظ الجزء الاول ، من الفصل الثالث ، الفقرة ٩) . ويمكننا القول إن المؤلف رفض ان يصنف هذه الحقائق على أنها جزء من القواعد ، لان الحقيقة الفردية المعزولة هي بالضرورة طارئة على اللغة وعلى نظامها ، الذي يعتمد على مجموعة من الانماط الجماعية . وما دامت هذه الحقائق جزءاً من الكلام ، فهي خاصة جدا ، واستعمالات استثنائية للنظام القائم . وعندما تنطبع صيغة جديدة في الذاكرة بسبب التكرار المستمر ، وتدخل النظام اللغوي ، اذ ذاك تحدث تغييرا في ميزان القيم وتتغير اللغة ، تلقائيا بسبب هذه الحقيقة ذاتها . ويمكننا تطبيق ما قلناه في المقدمة (الفصل الرابع) وفي الجزء الاول ، الفصل الثالث الفقرة ٣ ، عن التطور الصوتي على التطور في القواعد ، فالنتيجة النهائية للتطور الاخير تكون خارج النظام : لان النظام لا يلاحظ ابداً في اثناء تطوره : بل يختلف من لحظة الى اخرى . ان هذه المحاولة للتوضيح ما هي الا اقتراح بسيط نقدمه للقارئ . (بالي) .

سندرس في الفصول الاتية التغييرات الصوتية ثم التبدل والحقائق القياسية ، ثم نختم دراستنا ببعض الملاحظات عن الاصول الشائعة للكلمات folk etymology- وعملية اللصق agglutination .

○

الفصل الثاني

التغييرات الصوتية

١ ـ طبيعتها القياسية المطلقة

لقد رأينا (الجزء الاول ، الفصل الثالث ، الفقرة ٦) ان التغيير الصوتي لايؤثر في الكلمات بل في الأصوات . فالذي يتغير هو الفونيم . وهذا التغيير ، مع انه مفرد منفصل عن غيره شأنه شأن بقية الاحداث الزمنية ، يؤدي الى تغيير مماثل في جميع الكلمات التي تضم ذلك الفونيم . وبهذا المفهوم تصبح التغييرات الصوتية منتظمة انتظاما مطلقا .

ففي اللغة الالمانية تغير كل صوت i الى ei ثم الى ai : فتغيرت الكلمات zit, lihen, triden, win واصبحت zeit, leihen, treiben, wein واصبح الصوت u´ مركبا au : وتغيرت الكلمات r´uch, zûn, hûs واصبحت Rauch, Zaun, Haus : وتغير بالطريقة ذاتها û الى eu : كما في hûser فاصبحت Hauser وغيرها . وعلى العكس من ذلك أصبحت الحركة الثنائية ie حركة فردية i ، وما تزال تكتب ie: لاحظ Tier, Lieb, biegen . كما تغير الصوت uo فأصبح û كما في muot : Mut وغيرها . وتغير الصوت z الى s (ويكتب ss . لاحظ المقدمة ، الفصل السابع) : كما في wazer ← Wasser ; fliezen ← fliessen وغيرهما . واُختفى الصوت h الذي يقع بين حركتين كما في sehen, Lihen (وتكتبان sehen, Leihen وأصبح w وهو صوت شفوي أسناني (يكتب v) كما في wazer ← waser (وتكتب Wasser) .

وتغير في الفرنسية الصوت L الى y : كما في piller (عمود) و bouillir (يغلي) فاصبحت الكلمتان تلفظان (buyir, piye) .

وفي اللاتينية ، تغير الصوت s الواقع بين حركتين فاصبح r في فترة اخرى : كما في ‎*asēna, *genesis ← arēna, generis‎ وغيرها .

فكل تغيير صوتي ، اذا نظرنا اليه نظرة حقيقية وجدنا انه يؤكد الانتظام المطلق لجميع هذه التحولات .

٢ ـ التغييرات الصوتية المشروطة .

تبين الامثلة السابقة ان الظواهر الصوتية ليست مطلقة دائما ، بل انها ترتبط في اغلب الاحيان بشروط ثابتة . وبعبارة اخرى فالذي يتغير ليس الفصيلة الفونولوجية بل الفونيم حسب موقعه في ظروف معينة ـ كالعناصر المحيطة به والركيزة وغير ذلك . فعلى سبيل المثال تغير الصوت s فاصبح r في اللاتينية عند وقوعه بين حركتين ، وفي بعض المواقع الاخرى : اما في غير ذلك فبقي على حاله (لاحظ equos, senex, est) .

اما التغييرات المطلقة التي لاتتقيد بأي شرط فنادرة جدا . فالتغييرات التي غالبا

ما تظهر وكأنها مطلقة ، سببها طبيعة الشروط المبهمة او العامة جدا . مثال ذلك ان الصوت i في الالمانية اصبح ai,ei في المقاطع المشددة tonic فقط . واصبح الصوت k_1 في اللغة الهندية - الاوربية الاولى h في اللغة الجرمانية (لاحظ $k_1$olsom في الهندية الاوربية الاولى ، collum في اللاتينية و Hats في الالمانية) ولكن هذا التغيير لم يحصل بعد s (لاحظ skotos في الاغريقية skadus (ظل) في الغوطية) .

ثم ان تصنيف التغيير الى مطلق ومشروط يعتمد على نظرة سطحية للامور . فأكثر منطقية وملائمة للاتجاه السائد الآن ، ان نقول : الظواهر الصوتية التلقائية والمترابطة combinatory . وتُعدّ التغييرات تلقائية اذا كان سببها داخليا . وتكون مترابطة اذا كانت ناتجة عن وجود فونيم آخر أو اكثر . فانتقال الفونيم o من الهندية الاوربية الاولى الى a في اللغات الجرمانية (كما في Skadus الغوطية و Hals الالمانيـة وغيرهمـا) انما هـو حقيقة تلقائية . والتغيير في الأصوات الصحيحة الجرمانية او مـا يسمى Lautverschiebungen يمثل تغييرا تلقائيا : فقد تغير k_1 في الهندية الاوربية الاولى واصبح h في اللغات الجرمانية الاولى (لاحظ collum في اللاتينية و hals في الغوطية) كما تغير الصوت t في الجرمانية الاولى واصبح z (يلفظ ts) في الالمانية العليا ، في حين بقي t في الانكليزية (كما في taihun الغوطية و ten الانكليزية و zehen الالمانية) . اما انتقال الصوتين ct و pt من اللاتينية الى الايطالية وظهورهما بهيئة tt انما هو حقيقة مترابطة . لان الصوت الاول اندمج في الثاني (كما في cattivo ← captivum; fatto ← factum كمـا ان الامـالة في الالمـانيـة umlaut تعـود الى سبب خارجي ، وهو وجود الصوت i في المقطع التالي : فالكلمة gast لم تتغير في حين تغيرت gasti الى gesti ثم Gaste .

ان النتيجة ليست مهمة في كلتا الحالتين (التلقائية والمترابطة) ، فسواء أحصل تغيير ام لا فلا اهمية لذلك . مثال ذلك ، عند مقارنة fisks الغوطية بالكلمة اللاتينية piscis ، والغوطية skadus بالكلمة الاغريقية skótos ، نلاحظ ، في الزوج الاول ، عدم حصول اي تغيير في i ، في حين تحول الصوت o الى a في الزوج الثاني . فالفونيم الاول بقي على حاله ، في حين تغير الفونيم الثاني ، ولكن المهم ان كل فونيم قام بدوره بصـورة مستقلة عن الآخر .

ان الحقيقة الصوتية المترابطة مشروطة دائما ، اما الحقيقة التلقائيـة فليست مطلقة بالضرورة ، لانها ربما تكون مشروطة بشرط سلبي ، كعدم وجود بعض عوامل التغيير . وهكذا فقد تغير تلقائيا الصوت k_2 في الهندية الاوربية الاولى واصبـح qu في اللاتينية (لاحظ inquilina, quattuor وغيرهما) في حين لم يتغير هذا الصوت عنـدما كـان متبوعا باحد الصوتين o او u (لاحظ coló, cottidie, secundus وكلمات اخرى) . وكذلك يكون بقاء الصوت i في الهندية الاوربية الاولى على حالة بعد انتقاله الى الغوطية كما في fisks

وغيرها من الكلمات امراً مشروطاً ـ فالصوت i لايمكن ان يتبعه الصوت r او h والا اصبح e ويكتب ai (لاحظ wair ← في اللاتينية maihstus, vir ← Mist في الالمانية) .

٣ ـ قضايا اسلوبية

حينما نقوم بوضع اساليب للتعبير عن التغييرات الصوتية علينا ان نميز بين المسألتين المتقدمتين والا كانت دراستنا للحقائق غير دقيقة .

وهذه بعض الامثلة على عدم الدقة :

تقول الصيغة القديمة لقانون فيرنر verner «ان الصوت P في اللغات الجرمانية الذي لم يكن في اول الكلمة قد تغير الى اذا اعقبت هذا الصوت ركزة» ، كما في faðer ← faper (vater في الالمانية) ، Lipumé* ← Liðumé* (Litten في الالمانية) : اما في الامثلة الاتية فقد بقي الصوت p على حالة في pris* (drei في الالمانية) و bropr* (Bruder في الالمانية) Lipo* (Leide) . ان هذه الصيغة تمنح دورا فعالا للركزة وتفرض قيدا للصوت p في اول الكلمة . اما الذي حصل فعلا فأمر اخر . لقد جنح الصوت p في اللغات الجرمانية ، وفي اللاتينية ، الى ان يصبح صوتا مجهوراً (ذا رنين) بصورة تلقائية في الكلمة ، ولم يمنع هذا التغيير الا وقوع الركزة على الحركة التي تسبق هذا الصوت . اذن فالمسالة معكوسة . ان هذا التغيير تلقائي ، وليس تغييرا مترابطا ، اما الركزة فهي عائق وليست عاملا مساعدا . لذا ينبغي ان نقول «ان كل صوت p في داخل الكلمة اصبح d الا اذا اعاقه موقع الركزة في الحركة التي تسبق هذا الصوت» .

ولكي نفصل بين ماهو تلقائي وما هو مترابط علينا ان نحلل مراحل التحول ولا نخلط بين النتيجة الوسيطة والنتيجة المباشرة . فمن الخطأ ان نفسر استخدام الصوت راء (كما في genesis* ← generis في اللاتينية) بقولنا مثلا ان الصوت s اصبح r بين حركتين ، لان الصوت s ليس حنجريا ، لذا فلا يمكن ان يتحول الى r مباشرة . ان هذا التغيير يضم حادثتين : فقد تغير الصوت s اولا الى z تغيرا مترابطا . ثم حل محل هذا الصوت صوت مقارب له وهو r طالما ان z لم يعد له وجود في النظام الصوتي للاتينية . والتغيير التالي تلقائي . فمن الخطأ الجسيم ، إذن ، ان نعد الحقيقتين المختلفتين ظاهرة واحدة . فالخطأ هنا هو الخلط بين النتيجة الوسيطة والنتيجة المباشرة (s ← r بدلا من z ← r) ، وكذلك عدّ الظاهرة باجمعها مترابطة ، في حين ان ذلك يصح في الجزء الاول فقط . وهذا يشبه القول بأن e اصبح a قبل صوت انفي في الفرنسية . والحقيقة هي حدوث ظاهرتين على التعاقب ـ التغيير المترابط ـ حيث تحول الى صوت انفي e بتأثير الصوت n (كما في ventum في اللاتينية vẽnt في الفرنسية ، و fémina في اللاتينية fẽmd, femd في الفرنسية) : اعقب ذلك تغير تلقائي للصوت e الى a (كما في fãmd, vãnt وهما الان fam, va . اما الاعتراض القائل بان التغيير لايمكن ان يحدث الا قبل صوت انفي فلا معنى له .

فالمسألة ليست : لماذا تحولت الصوت e الى صوت انفي ، بل : هل ان تحول e الى a هو تلقائي ام مترابط ؟

ان اكبر خطأ في الاسلوب هو ما سأذكره الآن - مع انه لايتعلق بالمبدأ المذكور آنفاً - وهو صياغة القانون الصوتي بصيغة المضارع وكأن الحقائق التي يضمها القانون لها وجود ابدي في حين انها ظهرت واختفت في فترة من الزمن . وتؤدي مثل هذه الصياغة الى الفوضى : حيث ان التعاقب الزمني للحوادث يخفي عن الرؤية في مثل هذه الطريقة . وقد اكدت هذه النقطة (الجزء الاول ، الفصل الثالث ، الفقرة٨) في تحليل تعاقب الظواهر التي تفسر ثنائية trikhos thriksi . ومن يقول ان «الصوت s اصبح r في اللاتينية» كأنه يقول إن الصوت راء موروث في طبيعة اللغة ، اذ ذاك يصعب عليه ان يفسر الحالات الشاذة مثل causa و rísus وغيرهما . ان الصيغة التي تقول «إن الصوت s اصبح r في اللاتينية» هي وحدها التي تسوّغ الاعتقاد بأن causa و rísus وغيرهما لم يكن فيها الصوت s في اللحظة التي اصبح s ← r وبذلك نجت هذه الكلمات من التغيير . والحقيقة ان المتكلمين كانوا ما يزالون يقولون caussa و rissus الى آخره .

وينبغي ان نقول للسبب ذاته «إن الصوت a تغير فاصبح e في اللهجة الايونية (كما في mater ← meter وغيرهما) والا ما استطعنا تفسير كلمات مثل phasir, paser وغيرهما (التي كانت ولا تزال phansá, pansa الى اخره في أثناء فترة التغيير) .

٤ - اسباب التغيير الصوتي

ان البحث عن اسباب التغيير الصوتي من اصعب مشاكل علم اللغة . وقد اقترحت تفسيرات كثيرة لذلك ، ولكن جميعها لاتفسر المشكلة تفسيرا كاملا .

١ - من الناس من يزعم ان الميول العرقية تحدد سلفا الاتجاه الذي يسير فيه التغيير الصوتي . هذا يثير مسألة في علم الانثروبولوجيا المقارن : هل ان الجهاز الصوتي يختلف من جنس الى آخر ؟ كلا : فمثل هذا الاختلاف لايفوق الاختلاف في هذا الجهاز بين فرد وآخر فالطفل الزنجي اذا نقل الى فرنسا فأنه سيتكلم الفرنسية كالفرنسي . ثم ان عبارات مثل «الجهاز الصوتي عند الايطاليين» او «فم المتكلمين الالمان» لايسمح بذلك «توحي بأن الحقيقة التاريخية المحضة انما هي صفة ثابتة . وهذا يشبه الخطأ الذي يعبر عن القانون الصوتي بصيغة المضارع . فالقول بأن الجهاز الصوتي عند الايونيين يجد صعوبة في لفظ الصوت الطويل a فيغيره الى e خطأ لايقل خطورة عن القول بأن a «يصبح» e في اللهجة الايونية .

ان الجهاز الصوتي عند الايونيين ما كان يكره الصوت a ، لان هذا الصوت كان موجوداً في بعض الامثلة . وهذا ، لاشك ، ليس مثالا على عدم قدرة جنس من الاجناس ، بل هو مثال على التغيير في عادة النطق . ومثل ذلك ما نجده في اللاتينية ، اذ لم تحتفظ

بالصوت s الواقع بين حركتين (genevis ← *gene6is) ، ثم عادت فتبنت هذا الصوت بعد فترة قصيرة (لاحظ rissus* ← risus) . ان هذه التغييرات لاتشير الى ميل ثابت في الصوت اللاتيني .

ومما لاشك فيه ان الظواهر الصوتية تتخذ اتجاها عاما محددا في فترة معينة وفي امة معينة . فتحول الحركات المركبة الثنائية الى حركات فردية في اللغة الفرنسية الحديثة انما هو مظهر من مظاهر هذا الاتجاه . ولكننا نجد مثل هذه الاتجاهات العامة في التاريخ السياسي ولانشك في أنها مسألة تاريخية ، ليس للجنس فيها تأثير مباشر .

٢ ـ غالبا ما عُدّت التغييرات الصوتية تكييفا لظروف التربة والمناخ . فبعض اللغات الشمالية تكثر فيها الاصوات الصحيحة ، في حين تكثر الحركات في بعض اللغات الجنوبية مما يكسبها تناسقا صوتيا . ان المناخ وظروف الحياة قد يؤثران في اللغة ، ولكن المشكلة تتعقد حالما ندخل في التفاصيل فالى جانب اللغات الاسكندنافية التي تكثر فيها الأصوات الصحيحة هناك اللغات الفنلندية واللابلاندية التي تزخر فيها الحركات اكثر من اللغة الايطالية . وكذلك نلاحظ ان تراكم الاصوات الصحيحة في الألمانية الحديثة انما هو شئ جديد في كثير من الأحوال ، يرجع سببه الى الحركات التي تقع بعد المقطع المشدد ، وان بعض اللهجات الفرنسية في الجنوب اكثر تقبلا لمجموعات الاصوات الصحيحة من اللهجات الفرنسية في الشمال : وان اللغة الصربية لها من الاصوات الصحيحة ما يماثل الاصوات الصحيحة في الروسية .

٣ ـ كما فسر سبب التغيير الصوتي بقانون الاقتصاد في الجهد ، ومفاده أن لفظتين تُعَوّض بلفظة واحدة او اللفظة الصعبة تحل محلها لفظة أسهل .

ان هذه الفكرة ، مهما قيل عنها ، تستحق الدراسة . فقد توضح سبب التغيير الصوتي او تشير ، في الأقل ، الى الاتجاه الذي ينبغي ان يتخذه البحث عن السبب .

ان قانون الاقتصاد في الجهد يفسر ـ على مايبدو ـ بعض الحالات : كتحول صوت الغلق الى صوت تنفسي (habere في اللاتينية ← avoir في الفرنسية) ، ووقوع مجموعات الاصوات الصحيحة في المقاطع النهائية في كثير من اللغات وهما نوع من الادغام (مثال ذلك ly ← ll كما في alyos* ← állos في الاغريقية ، in ← nn في atnos* ← annus في اللاتينية) ، وتحول الحركات الثنائية الى أحادية ، وهو نوع آخر من الادغام (مثال ذلك ai ← e كما في الفرنسية maizan ← mezǒ وتكتب maison «بيت») وغيرها .

ولكن نستطيع ان نذكر عددا مماثلا من الحالات حيث يقع فيها عكس ماذكرناه سابقاً مثال ذلك ان التحول الى الحركة الثنائية في الالمانية في الاصوات u, u, i الى ei, eu, au . واذا كان الاقتصاد في الجهد يفسر تحول الصوتين السلافيين فأن العكس قد حدث في بعض الأصوات الالمانية (fater ← vǎter, geben ← gében) اذ يمكن أن يفسر على أساس

استخدام الجهد الأقصى . واذا كان الصوت المجهور أسهل على النطق من الصوت المهموس (لاحظ opera ← obra في لغة البروفنسال) فان العكس يتطلب جهداً أكبر ، ومع ذلك فالاسبانية تحولت في z الى x (كما في hixo وتكتب hijo) . وفي الألمانية تحولت الاصوات b, d, g الى p, t, k . واذا عددنا فقدان التنفيس اقتصادا في الجهد (لاحظ bheró* في الهندية ـ الاوربية الاولى ← beran في الالمانية) فماذا يمكن القول عن الألمانية التي أدخلت التنفيس في كلمات لم يكن موجودا فيها (pute, Tann وغيرهما حيث تلفظ phute, Thanne) ؟

إن الملاحظات التي ذكرتها سابقاً لاتدحض التفسير المقترح . اذ قلما نستطيع ان نجزم أي الأصوات هو السهل وأيها هو الصعب على النطق في كل لغة من اللغات . ان الاختصار في طول الصوت معناه جهد أقل بمفهوم الامتداد الزمني ، ولكن يصح ايضا القول بأن الاصوات الطويلة تسمح بالنطق الذي لايتصف بكثير من الاهتمام : اما الاصوات القصيرة فتحتاج الى جهد اكبر . واذا اخذنا بنظر الاعتبار الميول المختلفة ، فأننا نستطيع ان نقدم حقيقتين مضادتين من زاوية واحدة . فالصوت k اصبح ts (كما في cédere اللاتينية cedere في الايطالية) وفي هذا زيادة في الجهد اذا اخذنا بنظر الاعتبار النتيجة النهائية للتغيير ، ولكن رأينا يتغير اذا تتبعنا سلسلة التغييرات حتى نصل الى الناتج النهائي : فقد اصبح الصوت k حنكي k' بسبب الادغام بالحركة التالية : ثم تحول الصوت k' الى ky : ولم يصبح النطق بهذا الصوت اصعب : حيث فصل عنصران في k ، وانتقل المتكلمون من ky الى ts, tx, ty بصورة متعاقبة في كل مكان وبجهود أقل .

ان قانون الاقتصاد في الجهد يتطلب دراسة شاملة . ويحتاج الى أن يأخذ بنظر الاعتبار النظرة الفسلجية (مسألة النطق) والنظرة السايكولوجية (مسألة الانتباه) في آن واحد .

٤ ـ وثمة تفسير آخر ، ساد منذ بضع سنوات ، وهو ينسب التغيير في اللفظ الى تدريس علم الصوت في مرحلة الطفولة ، اذ ينجح الطالب بعد محاولات كثيرة من الخطأ والصواب ، ويصبح قادرا على لفظ ما يسمعه من حوله : وهذه بداية جميع التغييرات اذ تنتصر بعض الاخطاء التي تبقى من غير تصحيح ، وتظل عند الفرد ، ثم تتعزز وتثبت في الجيل النامي . فكثيرا ما يلفظ الطفل الصوت t بدلا من k ، وليس في تاريخ لغاتنا تغيير صوتي مماثل لهذا ، ولكن ذلك لايصح في أمثلة اخرى من التشويه . مثال ذلك ان كثيرا من الاطفال في باريس يقولون fléur (fleur زهرة) و blánc (blanc ابيض) باستخدام صوت L حنكي . فهذه العملية اصبحت الكلمة florem تلفظ flóre ثم fiore في الايطالية .

ان الملاحظات السابقة تستحق اهتماما كثيرا ولكنها تترك المسألة كما هي . ثم ان العوامل التي تشجع جيلا من الاجيال على الاحتفاظ ببعض الاخطاء دون غيرها ، مع أن الأخيرة طبيعية أيضا ، هذه العوامل غير واضحة . ويبدو ان اختيار النطق غير الصحيح

عملية اعتباطية ، وليس لها سبب واضح . اضف الى ذلك سبب بروز هذه الظاهرة في فترة زمنية معينة دون غيرها ؟

ويصح السؤال نفسه في جميع أسباب التغييرات الصوتية مارة الذكر، إذا عددناها صحيحة. فالتأثير المناخي، والميل العرقي والجنوح نحو الاقتصاد بالجهد كلها عوامل ثابتة طويلة الأمد، فلماذا تعمل عملها بين فترة وأخرى وتؤثرها تارة في هذه المسألة من النظام الصوتي وتارة في تلك؟ ولابد للحادثة التأريخية في كل حالة من الأحوال من ان ينطلق عنها تغيير، سببه العام موجود منذ زمن طويل.

هذه أصعب مسألة للتفسير.

٥ - قد تنسب التغييرات الصوتية في بعض الأحيان الى الحالة العامة للأمة في لحظة من اللحظات. فاللغات تمر في بعض الفترات التي هي أكثر اضطراباً من غيرها. وقد حاول البعض أن يعزي التغيير الصوتي الى الفترات المضطربة في تأريخ الأمة، وان يجد بهذه الطريقة، حلقة وصل بين عدم الاستقرار السياسي وعدم الاستقرار اللغوي. وبعد الانتهاء من ذلك، يزعم البعض ان في استطاعته تطبيق النتائج المتعلقة باللغة عامة على التغييرات الصوتية. فيقول - على سبيل المثال - ان أشد الثورات في اللاتينية في أثناء تطورها الى اللغات الرومانسية اتفق مع فترات الغزو المضطربة جداً. ومن المفيد ان نذكر مثالين من التمييز:

آ - إن الاستقرار السياسي لا يؤثر في اللغة بالطريقة نفسها التي يؤثر بها عدم الاستقرار السياسي: ولا يوجد تأثير ثنائي متبادل في ذلك. وعندما يقوم التوازن السياسي بتقليل سرعة تطور اللغة، فان ذلك ينطوي على عامل إيجابي مع انه خارجي. أما عدم الاستقرار، وله تأثير معاكس للأول، فعمله سلبي. وقد يكون لعدم التغيير - أي الثبات النسبي للغة ما - عامل خارجي (كأثر البلاط أو المدرسة أو الأكاديمية أو الكتابة وغيرها).

وهذا العامل يؤثر تأثير إيجابياً في التوازن السياسي والاجتماعي. أما إذا حدثت ثورة فأثرت في تعادل الأمة وانبثق عنها تطور لغوي، فسبب ذلك ان اللغة ترتد الى حالتها الحرة وتتبع مجراها المعتاد. فاستقرار اللاتينية في الفترة الكلاسيكية سببه عوامل خارجية، أما التغيرات التي حصلت في اللغة، بعد ذلك، فقد نبعت بصورة تلقائية في غياب بعض الظروف الخارجية.

ب - إن اهتمامنا يقتصر على الظواهر الصوتية ولا يشمل جميع أنواع التغيير اللغوي. مما لا شك فيه ان التغييرات في القواعد متشابهة. ولما كانت الحقائق في القواعد ترتبط دائماً ارتباطاً وثيقاً بالفكر، سهل تأثرها بالثورات الخارجية، التي لها ردّ فعل مباشر على العقل. ولكن لا صحة للاعتقاد القائل بأن التطورات الفجائية في أصوات لغة من

اللغات تتفق مع التغيرات المضطربة في تأريخ تلك الأمة.

ومـع ذلك، من المستحيل أن نـذكر فتـرة من الفتـرات لم يـظهـر فيهـا تغيـير صوتي - حتى بين تلك الفترات التي تبدو فيها اللغة وكأنها في حالة من الاستقرار التام.

٦ - قد يُعزى سبب التغيير الصوتي الى «الطبقة السفلى» للغة. إن إمتصاص المواطنين الجدد للمواطنين الأصليين يؤدي الى تغييرات معينة. فالفرق بين البروفنسال والفرنسية (لغة oc ولغة oil) يتفق بنسبة مختلفة مع السكان الأصليين من الكلت في هذين الجزأين من بلاد الغال. وقد استخدمت هذه النظرية أيضاً في اكتشاف الفروق في اللهجات الايطالية وتأثير الليغوريان والاتروسكان وغيرهما، اعتماداً على المنطقة. بيد أن هذه الفرضية تزعم وجود ظروف قلما نجد مثلها. ثانياً، على ان المرء أن يكون أكثر تحـديداً: هـل ادخل المواطنون القدامىٰ بعض عادات النطق عندهم في اللغة الجديدة التي تبنّوها؟ ان هذا شيء وطبيعي مقبول. أما إذا عدنا الى العوامل العرقية التي لا يمكن التكهن بها، فاننا نقع مرة أخرى في الأخطاء التي ذكرناها سابقاً.

٧ - نأتي الآن الى التفسير الأخير - وهو لا يكاد - يستحق التسمية هذه - فهو يُشبّه التغيير الصوتي بـالتغيير في المـودة أو طراز اللبس. ولكن هذه التغييـرات لم يستطع تفسيرها أحد. وكل ما نعرفه عنها انها تعتمد على المحاكاة، والمحاكاة من اختصاص علماء النفس. ان هذا التفسير وان كان لا يحل المشكلة التي نحن بصددها، يتميز بأنه يمكن أن يقع ضمن إطار مشكلة أكبر، ويفترض أساساً سايكولوجياً للتغيير الصوتي. ولكن أين تبدأ المحاكاة؟ هذا سر غامض في التغيير الصوتي وكذلك في طراز اللبس.

٥ - أثر التغيير الصوتي لا حدود له

إذا حاولنا أن نجزم الى أي مدى تصل التغييرات الصوتية، فاننا ندرك في الحال ان هذه التغييرات لا حدود لها ولا يمكن احصاؤها: أي اننا لا نستطيع التكهن في المدى الذي تقف عنده. فمن السخف ان نزعم أننا نستطيع ان نغيرّ الكلمة الى حد معين فقط وكأن الكلمة تملك ما يصونها. ان التغييرات الصوتية تستمـد طبيعتها من اعتبـاطية الاشارة اللغوية(٤٥) التي تتميز عن المدلول.

ومن السهل أن نلاحظ ان أصوات كلمة ما قد تأثرت في فترة من الفترات ونرى مدى هذا التغيير، ولكننا لا نستطيع ان نقول سلفاً الى أي مدى أصبح شكل الكلمة أوقد تغير تغييراً اصبح معه صعب التشخيص.

---

(٤٥) اي الدال - لاحظ الجزء الاول - الفصل الثاني ، الفقرة ٢ ، الملاحظة (باسكن).

فالكلمة الهندية الأوربية الأولى aiwom* (لاحظ aevom في اللاتينية) وغيرهـا من الكلمات التي لها النهاية نفسها قد تغيرت الى aiwan، aiw, aiwa* في اللغة الجرمانية الأولى، ثم أصبحت aiw* ← ew في الألمانية القديمة العليا، وهذا ما حدث لغيرها من الكلمات التي تحتوي على المجموعة aiw: وتغير w الى o في آخر الكلمة، فنتج عن ذلك eo الذي انتقل بدوره الى eo، io طبقاً للقواعد العامة الأخرى: وأخيراً تغير io فأصبح ie وje ومنه جاء je في الألمانية (لاحظ das schonste, was ich je gesehen haben أجمل ما رأيته).

فالكلمة الحديثة لا تحتوي على أي من العناصر الأصلية إذا نظرنا اليها من زاوية البداية والنتيجة النهائية. وإذا نظرنا الى كل خطوة بصورة منفصلة وجدناها واضحة ومنتظمة ومحددة في أثرها. أما إذا نظرنا الكلمة بأكملها حصل لدينا إنطباع بحدوث عدد غير محدود من التغييرات. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الكلمة اللاتينية calidum، فنهمل أولاً الأشكال التي مرت بها الكلمة ونقارن الشكل الأخير بالكلمة الفـرنسية šo (التي تكتب chaud«حار») ثم نتبع الخـطوات الآتية: calidum ← calidu ← caldu ← cald ← calt ← tsalt ← tsaut ← šot ← šo.

كما يمكن مقارنة كلمة waidanju* في اللاتينية العامية التي أصبحت ge (وتكتب gain (ريح)، وminus ← mwe (التي تكتب moins «أقل») وhoc illi ← wi (تكتب oui «نعم»).

كما ان التغيير الصوتي غير محدد، لأنه يؤثر في جميع أنواع الاشارات، فلا يميز بين الأصل باللاحقة وغيرهما. ولابد ان يصح هذا سلفاً، فاذا تدخل النحو امتـزجت الظاهرة الصوتية بالحقيقة السنكرونية، وهو أمر يستحيل حدوثه من حيث الأساس. ونستطيع من هذا المنطلق ان نقول ان للتطورات الصوتية طبيعة عمياء.

فعلى سبيل المثال وقع الصوت s في الاغريقية بعد n ليس فقط في khanses* (اوز)، mensis* (اشهر)، (ومنها جاءت الكلمتان khênes، menes) حيث لم تكن له أيـة قيمة في القواعد، بل حدث الشيء نفسه في صيغ الأفعال مثل etensa* ephansa* وغيرهما (ومنهما جاءت الكلمتان éteina، ephéna) التي كانت تدل على الماضي. وفي الألمانية العليا الوسيطة تغيـرت الحركـات i, e, a, o الواقعة بعـد المقطع المشـدد، وأصبحت بصورة منتـظمـة e(gibil ← giebel، meistar ← Meister) مع ان عدداً من حالات الاعراب لنهاية الكلمة تميزت باختلاف في الجرس الصوتي timbre. وبهذه الطريقـة اندمجت صيغـة النصب المفرد boton وحالة المفعول غير المباشر المفرد boten وأصبحت صيغة واحدة boten.

وهكذا يؤدي التغيير الصوتي الى اضطراب شديد في جهاز القواعد، إذا لم يمنعه عائق: وهو موضوع الفصل القادم.

الفصـــل الثالث

التطور الصوتي وأثره في القواعـــد

١ - كسر قيد القواعد

في مقدمة نتائج الظاهرة الصوتية كسر قيد القواعد الذي يربط بين وحدتين أو أكثر فلا يشعر المرء نتيجة ذلك ان كلمة ما قد اشتقت من كلمة أخرى:

masió *mansiónáticus

ménage «تدبير شؤون البيت» // maison «بيت».

كان العقل الجماعي لمجتمع المتكلمين ينظر في السابق الى عبارة *mansió — náticus على انها مشتقة من mansió. ثم فصلت التغييرات الصوتية بين العنصرين. وينطبق الشيء نفســه على: (vervéx ——— vervécárius) في اللاتينيـة العاميـة berbix —— berbícárius brebis «نعجة» // berger «راعي الغنم».

ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الفصل في القيمة. ففي بعض اللهجات المحلية تعني كلمة berger قطيعاً من الثيران. وهذه أمثلة أخرى:

Gratianopolis ——— grátiá nopolitanus I I I I I decem — undecim

أحـد عشر onze // عشـرة dix IIIIIIIIIIIIIII Grenoble II Grésivaudan ومثـال ذلك في الغوطية bîtan «بعض» bitum «نحن نعض» bitr «مر، عملية العض». وحدث في الألمانية الغربية ان تغير الصوت t الى ts (z) من جهة واحتفظت اللغة بالمجموعة tr من جهة أخرى، لذا نجد فيها bizumc bizan // bitr.

أضف الى ذلك ان التطور الصوتي قد يكسر العلاقـة الاعتياديـة بين صيغتـين صرفيتين لكلمة واحدة. مثال ذلك، تغيرت الصيغتـان comes — comitem في الفرنسيـة القـديـمـة وأصـبـحـت cuens // comte، baro — baronem ← ber // baron، presbiter — presbiterum ← prestre // provoire.

وقد تنقسم نهاية الكلمة الى الكلمتين، ففي اللغة الهندية - الأوربية الأولى كانت تنتهي صيغـة النصب في المفرد بـالصـوت m - (كمـا في ek, wom* ، podm* ، materm وغيرها.[٤٦]

أما في اللاتينية فلم يحدث تغيير جذري بهذا الاتجـاه. ولكن جميع الأصـوات الصـائتة sonant والساكنة con — sonant الأنفية في الاغريقية تطورت تطوراً مختلفاً، فنتج عن ذلك ظهور فصيلتين من الصيغ: hippon، in (w) ó يقابلهما matera, póda. وتشير صيغ

(٤٦) او بالصوت n — انظر الجزء الاول ، الفصل الثاني ، الفقرة ٦ .

النصب في الجمع الى حقيقة مشابهة لما ذكرنا آنفاً (لاحظ hippous وpódas).

٢ - محو تركيب الكلمة

وقد يؤدي التغيير الصوتي الى أثر آخر في القواعد، فتصبح الأجزاء المتميزة التي تساعد على تحديد قيمة الكلمة غير قابلة للتحليل. وتغدو الكلمة وحدة واحدة غير قابلة للتقسيم. وهذه بعض الأمثلة: في الفرنسية ennemi «عدو» (وفي اللاتينية amícus — in — imicus)، في اللاتينية perdere (لاحظ الصيغة القديمة per — dare)، amicio (بدلاً من jacio *ambjacio) . وفي الالمانية Drittel (بدلاً من Teil — drit — teil) .

مما لا شك فيه ان محور تركيب الكلمة يتعلق، في نواح كثيرة بأواصر القواعد (لاحظ الفقرة الأولى فيما تقدم). مثال ذلك نبدأ بكلمة ennemi فنقول انها غير قابلة للتحليل، وهذا القول يعني ان أجزاءها لا يمكن مقارنتها بعضها بالبعض الآخر، كما كانت الحال في in — imicus المشتقة من amicus. فالصيغة:

amícus —— inimícus

ami I I ennemi

تشبه كثيراً

mansió —— mansiónaticus

maison II ménage

لاحظ أيضاً decew —— undecim في مقابل dix // onze.

وتعود الصيغ البسيطة في اللاتينية الكلاسيكية hunc، hanc، hác وغيرها الى hon — ce، han — ce، ha — ce (وتدل على ذلك النقوش التي وجدت في أماكن مختلفة).

والصيغ البسيطة هي نتيجة لصق الضمير بالحرف ce —. وكان باستطاعة المرء أن يقارن بين hon — ce الى آخره وec — ce وغيرها في السابق: ثم لم تعد هذه المقارنة ممكنة بعد ان اختفى الصوت e: وبعبارة أخرى: إن عناصر hunc، hác, hanc وغيرها لم تعد متميزة.

فالتطور الصوتي يطمس معالم التحليل أول الأمر، ثم يجعل هذا التحليل غير ممكن. وهذا ما حدث في الأسماء في اللغة الهندية ـ الأوربية الأولى.

فكان تصريف الاسم في اللغة الهندية ـ الأوربية الأولى كالآتي: المفرد المرفوع pod — s* النصب pod — m* الأداة pod — ai*، المكان pod — i*، الجمع المرفوع pod — es* والنصب pod — ns، الى آخره. وكان اعراب ek, wos* أول الأمر مماثلاً لهذا:

ek, wo — s*، ek, wo — m*، ek, wo — ai* ek, wo — i*، ek, wo — es، ek, wo — ns الى آخره.

وكانت الصيغة ek, wo* تشخص في تلك الفترة بسهولة شأنها شأن — pod*. ولكن هذه الحالة تغيرت عندما تقلصت الحركات، فأصبحت المفعول غير المباشر ek, woi* والمكان

‎*ek, woi والرفع في الجمع ek, wos*. تتأثر منذ تلك اللحظة، الكيان والمميز للأصل — ek wo* وتعذّر تحليله وحصلت تغييرات أخرى بعدْ ذلك كالتمييز بين حالات النصب (لاحظ ما ذكرنا سابقاً فاختفى آخر أثر للحالة الأصلية. وربما كان معاصرو المؤرخ الكاتب زينفون Xenophon يعتقدون ان الأصل هو — hipp وان الاعراب في نهاية الكلمة هو المقطع الحركي الى آخـره) ونتج عن ذلك التمييـز بين نهـايات الكلمـات مثـل ek, wo — s* و pod — s*. ففي الاعراب كما في غيره من الأمور، كل ما يؤثر في التحليل إنما يساعد على التخفيف من قيود القواعد.

٣ - لا وجود للثنائيات الصوتيّة Phonetic doubets

نلاحظ في الحالتين اللتين ذكرناهما (في الفقرتين الأولى والثنائية) ان التطور أدى جذرياً الفصل بين عنصرين: كانا في الأصل متحدين في القواعد. وقد تؤدي هذه الظاهرة الى خطأ جسيم في تفسيرها.

فعندما يلاحظ المـرء التشابـه النسبي بين الكلمتـين barōnem : barō في اللاتينية ـية والاختلاف بين الكلمتين baron : ber في الفرنسية القديمة أفلا يحق له أن يقول إن هناك وحدة أصلية (— bar) تطورت باتجاهين مختلفين ونتجْت عنها لفظتـان؟ كلا، لأن الوحدة نفسها لا يمكن أن تخضع لتغييرين مختلفين في آن واحد ومكان واحد. ان مثل هذا التغيير يناقض تعريف التغيير الصوتي نفسه. فالتطور الصوتي، وحده، لا يمكن أن خلق لفظتين تحلان محل لفظة واحدة.

ونورد بعض الاعتراضات التي قد يثيرها المرء على الرأي الذي ذكرته، نذكرها فيما يأتي بالأمثلة:

ربما يقول قائل لقـد نبع من كلمـة collocáre كل من coucher «ينـام» وcolloquer «يضع». هذا غير صحيح، لقد أخذت منها كلمة coucher فقط، اما colloquer فهي كلمة أدبية فصحى اقتبست من اللاتينية (لاحظ rançon «فدية» وrédemption «فداء»).

وهذا اعتراض آخر، كلمة cathedra أعطتنا كلمتين حقيقتين في الفرنسية هما chaire «منبر» وchaise «كرسي». والصحيح اننا كثيراً ما ننسى ان chaise هي كلمة تعود الى احدى اللهجات المحلية. وفي اللهجة الباريسية تغير الصوت r بين حركتين الى z. فكان المتكلم يقول - على سبيـل المثال - pèse، mèse بـدلاً من père «اب» وmère «ام». ولن تحتفظ الفرنسية الأدبية إلا بلفظتين من اللهجة المحلية هما chaise وbesicles والكلمة الأخيرة (ثنائية béricles «نظارات» المشتقة من béryl «حجـر ثمين»). وينـطبق الأمر نفســه على كلمــة rescape من لغة بيكـارد. «الذي ينجو من المـوت أو الأذى» التي شاعت الآن في الفرنسية، وتقابل الآن «الذي هرب من السجن». وفي الفرنسية cavalier «راكب» وchevalier «فارس» وcavalcade «ركوب» وchevauchee «المسافة التي قطعت» وجدت جميعها جنباً الى

جنب لأن كلمتي cavalier وcavicade اقتبستا من الايطالية. ومثل هذا حدث لكلمة calidum التي أصبحت chaud «حار» في الفرنسية وcaldo في الايطالية. ان جميع الأمثلة المارة الذكر هي حالات من الاقتباس.

أما الجواب عن الاعتراض القائل إن الضمير mé في اللاتينية قد نتج عنه ضميران في الفرنسية هما me وmoi (كما في il me voit = يراني، c,esk moi qu'il voit أنا الذي يرى) فهو كالآتي: ان الضمير: mé غير المشدد في اللاتينية أصبح me في الفرنسية في حين أصبح mé المشدد moi. ووجود الركيزة أو عدم وجودها لا يعتمد على القوانين الصوتية التي جعلت mé تتحول الى me وmoi: بل يعتمد على وظيفة الكلمة في الجملة: وهذه ثنائية قواعدية. وبهذه الطريقة ذاتها بقي العنصر — ur* في الألمانية على حاله إذ كان مشدداً، وأصبح — er إذا وقع قبل الركزة (كما في úrlaub وerlaúben) ولكن وظيفة التشديد نفسها مرتبطة بالأنماط التركيبية التي تحتوي على ur، وبذلك فهي مرتبطة بعامل للقواعد عامل سنكروني. وأخيراً. نعود الى المثال الأول، ففروق الشكل والركزة في الكلمتين barónem: báro تعود، ولا شك، الى الفترة السابقة للتغييرات الصوتية.

إنَّ الثنائيات doublets الصوتية لا وجود لها. وتطور الأصوات لا يؤكد إلا الفروق السابقة. وإذا كانت هذه الفروق لا تنبع من العوامل الخارجية (كما في الكلمات المقتبسة)، فهي تنطوي على ثنائية في القواعد وفي السنكرونية: وهذه الحالات الثنائية لا علاقة لها بالتغييرات الصوتية.

٤ ـ التداول

قلما تثير اهتمامنا كلمتان مثل maison وménage كي نحاول أن نجد سبب الفرق بينهما: لأن العناصر التي تفصل بينهما (zŏ ـ و en ـ) لا تخضع للمقارنة بسهولة، أو لعدم تكرر مثل هذا النمط في اللغة. ولكن غالباً ما نجد كلمتين متشابهتين في كل شيء إلا في عنصر واحد أو عنصرين، يسهل تشخيصهما، ثم اننا نجد هذا الفرق يتكرر في مجاميع تتألف من أزواج مماثلة. هذا ما نسميه التداول: وهو أكثر حقائق القواعد شيوعاً وأكبرها عدداً بين الحقائق، التي تقوم فيها التغييرات الصوتية بدورٍ مهم.

إن الصوت o في المقاطع المفتوحة في اللاتينية أصبح eu في الفرنسية إذا كان مشدداً وou إذا سبق المقطع المشدد: وأدى ذلك الى ظهور أزواج مثل pouvons «نقدر» وpeuvent «يقدرون» وoeuvre «عمل» وouvier «عامل» وnouveau : neuf «جديد» وغيرها، حيث يسهل علينا ان نشخص عامل الفرق، ووجوده تشخيصاً منتظماً في هذه الكلمات. واستعمال «الصوت» «راء» في اللاتينية أدى الى تداول gero مع gestus؛ وoneris مع onus وmaeor مع maestus: وغيرها. ولما كان الصوت z يختلف حسب موقع الركزة في اللغات

الجرمانية استعملت الألمانية العليا الوسيطة ferliesen : ferloren، kissen : gekoren friesen : gefroren وغيرها. واختفاء الصوت e من اللغة الهندية ـ الأوربية الأولى قد انعكس في الألمانية الحديثة في التقابل بين الأزواج الآتية beissen : biss، Leiden : Litt، reiten : ritt وغيرها.

إن العنصر الذي يتناوله التغيير في جميع الأمثلة، مارة الذكر هو الأصل. بيد ان التقابل يمكن أن يظهر في أي جزء الكلمة فالبادئة perfix التي تتخذ أشكالاً مختلفة طبقاً لتركيب الجزء الأول من الأصل مألوفة جداً (كما في apo — didomai ap — erchomai في الاغريقية، وinconnu «غير معروف» وinutile «غير ذي فائدة» في الفرنسية). والتداول بين الصوتين e: o في الهندية ـ الأوربية الأولى الذي يعتمد في جوهره على أساس صوتي، يظهر في عدد كبير من عناصر اللاحقة suffix (كما في الكلمات الاغريقية híppos : híppe، phéro — men : pher — e — te، gén — os : gén — e — os بدلاً من gén — es — os وغيرها.

وقد نظرت اللغة الفرنسية القديمة نظرة خاصة الى الصوت اللاتيني المشدد a الذي يلي الأصوات الحنكية، وأدى ذلك الى التداول بين e : ie في عدد من اعراب أواخر الكلمات. (كما في chant — er : jug — ier، chant — e : jug — ie، chant — ez , jug — iez وغيرها).

يمكن تعريف إذن التداول بأنه التطابق الموجود بين صوتين معينين او مجموعتين من الأصوات والتغيير المنتظم الذي يقع بين مجموعتين من الأشكال الموجودة معاً.

إن التغييرات الصوتية وحدها لا يمكن أن تفسر الثنائيات، كما انها ليست السبب الوحيد والسبب الأساس للتداول. فالذي يقول ان العنصر nov — في اللاتينية أصبح new — وnow — وneuve وnouveau في الفرنسية) بسبب التغيير الصوتي إنما يختلق وحدة خيالية، ويغفل عن رؤية ثنائية سنكرونية. فاختلاف موضع العنصر nov — في nov — us وnov — ellus. سابق للتغيير الصوتي ويخص ولا شك القواعد (لاحظ baro i iusl : baronem) فالثنائية السنكرونية هي التي تخلق وتصنع جميع أنواع التداول. أما الظاهرة الصوتية فلم تكسر أية وحدة: بل انحصر عملها في إبراز التقابل بين العناصر الموجودة عن طريق نبذها لبعض الأصوات. فمن الخطأ الشائع عند كثير من اللغويين الزعم بأن التداول ظاهرة صوتية، لأن مادة التداول الأصوات. وهي مسؤولة عن خلقه عن طريق تداول هذه الأصوات. والصحيح ان التداول ـ سواء نظرنا اليه من نقطة البداية أو من النتيجة النهائية ـ إنما هو دائماً، جزء من القواعد السنكرونية.

٥ ـ قوانين التداول

هل يمكن أن نخضع التداول للقوانين؟ وإذا كان الجواب بالاثبات، فما طبيعة هذه

القوانين؟

لنأخذ تداول الصوتين e : i الذي يقع كثيراً في الألمانية الحديثة. فإذا وضعنا جميع الأمثلة السابقة سوية وتأملناها من دون تمييز (gibt: geben، Gefilde: Feld، Wittern: Wetter، Hilfe: helfen، Sicht: sehen وغيرها. فإننا لا نستطيع أن نصوغ أية قاعدة عامة: أما إذا استخرجنا من المجموعة العشاوئية الزوج geben: gibt وقابلناه بالأزواج الآتية Schilt: Schelten، helfen: hilf، nimmt: nehmen وغيرها. فسنرى ان التداول يتفق مع التمييز بين الصيغة الزمنية، وصيغة المتكلم أو المخاطب أو الغائب، وغيرها. وفي Lange: lang، Starke: strak، Harte: hart وغيرها. يرتبط هذا التقابل بتكوين الأسماء من الصفات: وفي Hande: Hand، Gaste: Gast وغيرها، يدلّ التقابل على صياغة الجمع، وهكذا بالنسبة لكثير من الحالات التي يصنفها طلاب اللغة الألمانية تحت ما يسمى ابلاوت ablaut (إستبدال الحركة). (لاحظ أيضاً fand: finden أو Fund: finden، band: binden أو Bund: binden، Schoss: Schiessen، Fliessen: Schuss، Fluss: floss وغيرها).

فظاهرة ابلاوت أو تنويع حركة الأصل التي تتفق مع التقابل في القواعد، إنما هي أهم مثال للتداول، ولا تتميز عن ظاهرة التداول عامة بأية صفة خاصة.

وهكذا فالتداول، عادةً، يتوزع بصورة منتظمة بين عدد من العناصر ويتفق مع تقابل مهم في الوظيفة، أو الصنف أو التحديد. ويمكن للمرء أن يتحدث عن القوانين القواعدية للتداول، ولكن هذه القوانين إنما هي نتيجة عرضية للحقائق الصوتية التي ترتكز عليها. وعندما تخلق الحقائق الصوتية تقابلاً منتظماً بين مجموعتين من العناصر التي لها تقابل في القيمة، يدرك العقل في الحال الفرق المادي، فيضفي عليه دلالة، ويجعل منه عاملاً، يحمل الفرق بين الفكرة (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثالث). فقوانين التداول، كبقية القوانين السنكرونية، إنما هي مبادئ تركيبية بسيطة: فهي غير ملزمة. ومن الخطأ أن نقول، كما يفعل البعض، ان الحركة a في Nacht تتحول الى a في صيغة الجمع Nachte لأن هذا يوهم المرء بأن تغييراً يتحكم فيه مبدأ ملزم يأتي بين عنصر وآخر. والصحيح ان الحالة التي نحن بصددها هي تقابل بسيط للأشكال (الصيغ) ناتج عن التطور الصوتي. ان القياس (الذي سنتحدث عنه في الفصل السادس) يمكن أن يخلق أزواجاً جديدة؛ يظهر فيها الفرق الصوتي نفسه (كما في Kranze: Kranz اللذين صيغا على قياس Gaste: Gast). وهكذا يبدو ان القانون ينطبق كما تنطبق القاعدة التي تتحكم بالاستعمال فتغيره. ولكن ينبغي أن نتذكر ان هذه التغييرات تقع في اللغة تحت رحمة عوامل قياسية متضاربة، ويكفي هذا للدلالة على ان هذه القواعد غير مستقرة دائماً، ينطبق عليها بدقة تعريف القانون السنكروني.

وقد يكون السبب الصوتي للتداول ما يزال واضحاً في بعض الأحيان. ففي الألمانية

القديمة العليا مثلاً كانت الكلمات Feld: Gefilde ،geben: gibt (وغيرها من الكلمات، مارة الذكر) لها الأشكال feld: gefildi ،geban: gibit فكان الأصل في تلك الفترة يحتوي على الصوت i بدلاً من e إذا أعقبه i وعلى e في الحالات الأخرى. كما يرتبط التداول في الكلمات اللاتينية confició: facio ،inimicus: amicus ،difficilis: facilis وغيرها بشرط صوتي: ربما عبر عنه المتكلمون بقولهم: ان الصوت a في الكلمات amicus: facio يتداول مع i في المقاطع الوسيطة لكلمات الصنف نفسه.

بيد أن جميع أمثلة التقابل الصوتي المذكورة آنفاً تشير الى الملاحظات نفسها التي تشير اليها قوانين القواعد: أي انها سنكرونية. فإذا نسبنا هذا الأمر وقعنا في خطأ التفسير الذي أشرنا اليه سابقاً (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثال، الفقرة ٩). فعند دراستنا لزوج من الكلمات مثل confició: facio ينبغي ان لا نخلط العلاقة بين هاتين الكلمتين الموجودتين في وقت واحد بالعلاقة التي تربط الكلمات المتعاقبة التي تعود الى الحقيقة الدايكرونية (confició ← confació) إذ قد نخلط بين العلاقتين طالما ان السبب الصوتي الذي يفرق بينهما ما يزال ظاهراً في الكلمتين: ولكن الحقيقة الصوتية تعود الى الماضي، والمتكلم لا يدرك إلا التقابل الدايكروني في مثل هذه الحالة.

كل هذا يؤكد ما قلناه عن الطبيعة القواعدية للتداول. وقد أستخدمت لفظة الابدال permutation بدلاً من التداول - وهي مناسبة في بعض الأحيان، ولكن ينبغي تجنبها لأنها كثيراً ما استخدمت للدلالة على التغييرات الصوتية، وتوحي، خطأ، بوجود حركة، حيث لا يوجد سوى حالة لغوية.

٦ - التداول وقيد القواعد

لقد رأينا كيف يكسر التطور الصوتي أواصر القواعد التي تربط بين الكلمات، عن طريق تغيير شكل الكلمات. ولكن هذا ينطبق فقط على أزواج مفردة معزولة مثل ménage: maison وDrittel: Teil وغيرها، ولا ينطبق على التداول.

إذ يتضح منذ البدء ان أي تقابل صوتي منتظم وإن كان ضئيلاً، بين عنصرين يمكن ان يؤدي الى إقامة آصرة بينهما. فالمتكلم يربط بالفطرة بين كلمة Wetter وWittern لأنه قد إعتاد على ظاهرة التداول بين e وi. وما ان يشعر المتكلم بوجود قانون عام يتحكم بالتقابل الصوتي، حتى يصبح التطابق أشد وقعاً على العقل، ويساعد ذلك على تعزيز آصرة القواعد وليس تخفيفها. وهذا يفسر كيف ان تغيير الحركة ablaut في الألمانية ساعد على تشخيص وحدة الأصل من خلال التغيير في الحركات (لاحظ الفقرتين ٤ و٥ السابقتين).

ويصح الشيء نفسه في أمثلة التداول غير المهمة التي ترتبط بشرط صوتي. ففي

الفرنسية نلاحظ ان البادئة ـ re (كما في reprendre «يأخذ ثانية»، regagner «بعيد ثانية»، retoucher «يلمس ثانية» وغيرها) تختزل الى — r قبل الحركة (كما في rouvrir «يعيد فتح» racheter «يشتري ثانية» وغيرها). ونلاحظ الشيء نفسه والظروف ذاتها في البادئة — in التي ما تزال تستخدم كثيراً مع انها من أصل ثقافي عال، فلهذه البادئة صيغتان: — é (كما في inconnu «غير معروف»، indigne «غير مستحق» invertébré «لا فقريات» وغيرها). و— in (كما في inavouable «لا يسمح به» inutile «غير مفيد» inesthétique «لا جمالي» وغيرها).

إن هذا الفرق لا يكسر أبداً وحدة الفكرة، فالمعنى والوظيفة في هذه الحالة شيء واحد، وقد حددت اللغة متى تستخدم أحدهما، ومتى تستخدم الأخرى.

الفصل الرابع

القياس

١ - تعريف وأمثلة

لقد اتضح الآن أن التطور الصوتي عامل يخل بتركيب الكلمة . فهو اذا لم يؤد الى التداول ، ساعد على التخفيف من قيود القواعد بين الكلمات : فيزداد العدد الكلي للصيغ من دون فائدة : ويصيب الغموض والتعقيد العمل اللغوي حتى ان الصيغ الشاذة التي تولد من التغييرات الصوتية تنتصر على الصيغ التي تدخل في انماط عامة . وبعبارة اخرى تنتصر الاعتباطية المطلقة على الاعتباطية النسبية (لاحظ الجزء الثاني).

بيد ان القياس يعادل أثر التحويلات الصوتية . فالقياس مسؤول عن جميع التغييرات الاعتيادية غير الصوتية التي تحدث للجزء الخارجي للكلمات .

ويعتمد القياس على وجود نموذج والمحاكاة النظامية له . والصيغة القياسية هي الصيغة التي صنعت طبقا لنموذج صيغة اخرى او اكثر ، حسب قاعدة معينة .

فصيغة الرفع honor في اللاتينية ، مثلا هي صيغة قياسية . فقد استخدم المتكلمون أول الأمر honós : honósem ، ثم حصل تغيير ، نتيجة شيوع الصوت «راء» بدلا من s ، فاستخدم المتكلمون honos : honórem ، واصبح للاصل بعد هذه الفترة صيغتان . ثم اندثرت هذه الثنائية بعد ظهور الصيغة honor ، التي صيغت على نمط órátor órátórem وغيرهما ، حسب طريقة يمكن ان نضعها على شكل معادلة :

órátórem : órátor = honorem :)(

)(= honor

وهكذا عادل القياس التنوع الذي سببه التغيير الصوتي (honórem :honós) ووحد الصيغ ثانية كما أعاد الانتظام (honórem : honor) .

لقد استخدم الفرنسيون مدة طويلة من الزمن il preuve, ils preuvent, nons prouvons . اما اليوم فيقولون il prouve «هو يبرهن» ils prouvent «هم يبرهنون» ، فهم يستخدمون صيغا ليس لها تفسير صوتي . كما اشتقت العبارة il aime «هو يحب» من اللاتينية amat : في حين صيغت nous aimons «نحن نحب» على قياس amons كما ينبغي للمتكلم ان يقول amable بدلا من aimable «حلو المعشر» . وفي الاغريقية اختفى الصوت s الواقع بين حركتين : فتغيرت المجموعة — eso الى — eo - (كما في géneos بدلا من génesos)*.

ومع ذلك ما زال الصوت s مستخدما في صيغة المستقبل والماضي ، رغم وقوعه بين

حركتين : (كما في élúsa, lúso وغيرها) . حيث إن القياس بصيغ مثل túpsó étupsa التي أحتفظت بالصوت s أدى الى الابقاء على s في المستقبل والماضي . اما في الالمانية فـان Bälge : Balg , Gäst : Gast صيغ صوتية ، والصيغ kranze : kraz (سابقاً kränza : kranz) ، Halse : Häls (سابقا halsa) ، وغيرها مدينة بوجودها الى المحاكاة .

يفصل القياس الانتـظام . ويجنح نحـو توحيـد الاساليب الاعـرابية وأسلوب التركيب . ولكنه قد لايكون منطقيا : فنجد ، فضلا عن kränze : kranz أمثلة من طراز Salze, Salz, Tage : Tag التي قاومت القياس لسبب أو آخر . اذن لا يمكننا التكهن عن أي مدى تبلغ محاكاة نموذج ما ، وما هي الانماط التي تؤدي اليهـا المحاكـاة . والصيغ الكثيرة لاتؤدي ، بالضرورة ، الى انبثاق القياس . فصيغة التام في الاغـريقية هي في المبني للمعلوم pepheugamén, pépheugas, pépheuga ولكن الصيغ الوسيطة يكون تصريفها دون الصوت a : كما في pephugmetha, pephugmai وغيرهما : وتبين لغة هـوميروس أن الصوت a لم يكن له وجود في العصور السابقة : في صيغة الجمع والمثنى المبني للمعلوم (لاحظ eikion, idmen وغيرهما) . فقد بدأ القياس من صيغة المتكلم المفرد المبني للمعلوم . ثم شاع في جميع أنماط صيغة الكامل الخبري . ولهذا التطور اهمية ، لان القياس تناول الصـوت a وكان في الاصـل أحد عنـاصر الصرف ـ وربـطه بالاصـل فنتـج عن ذلك pepheuga — men . والشائع هو عكس ذلك ، اي ربط احد عناصر الاصل الى اللاحقة (لاحظ الفصل الخامس آنفاً) .

وكثيرا ما تكفي كلمتان أو ثلاث لخلق صيغة عامة كما في النهاية الاعرابية ففي الالمانية القديمة العليا تنتهي الأفعال الضعيفة weak مثل lobon, haben في صيغة المضارع المسند الى المتكلم بالصوت m — . وقد اشتق الصوت m ـ من عدد من الأفعال ، التي تشبه الافعال الاغريقية المنتهية يالصوتين : m — (كما في tuom, gum, *stam, bim)، وطغت هذه الافعال على تصريف الافعال الضعيفة كلها فغيرت نهاية الفعل . ويلاحظ أن القياس هنا لم يلغ فرقا صوتيا بل اشاع اسلوبا في الصياغة .

٢ ـ الظواهر القياسية ليست تغييرات

لم يفهم اللغويون الاوائل طبيعة ظاهرة القياس التي سموها «بالقياس الكاذب» فظنوا ان اللاتينية ارتكبت خطأ بحق النمط الاساس honos عنـدما ابتكـرت الصيغة honor . اذا كانوا يعدّون كل شئ يخرج على الحالة الاصلية شذودا وتشويها لصيغة مثالية فوقعوا في الوهم الذي كان سائدا في عصرهم ، حين نظروا الى الحالة الاصلية للغة على انها شئ مثالي كامل . ونتج عن ذلك أنهم لم يسألوا انفسهم سؤالا بسيطا هل سبقت تلك الفترة المثالية فترة اخرى ؟ . لقد عدّوا كل خروج على هـذه الحالة من بـاب الشذوذ

والغرابة في اللغة وأول من وضع القياس في مكانه المناسب هو مدرسة القواعد الجديدة ، اذ بينت هذه المدرسة ان القياس ، والتغييرات الصوتية ، هما العاملان الأساسان في تطور اللغات . وهو الاسلوب الذي به تمر اللغات من حالة من التنظيم الى حالة اخرى . ولكن ما الظواهر القياسية ؟ يعتقد الناس عادة انها تغييرات . فهل هي كذلك ؟ إن الحقيقة القياسية تتألف من تفاعل ثلاثة عناصر هي :

١ ـ العنصر التقليدي ، وهو الوريث الشرعي (مثال ذلك honós) .

٢ ـ العنصر المنافس (honor) .

٣ ـ والطبيعة الجماعية التي تتألف من الصيغ التي خلقت المنافس (órátórem, órátor, honórem وغيرها) . وقد يفترض المرء أن صيغة honor هي تعديل او «تغيير» لكلمة honós . فيقول إن هذه الكلمة استحدث جل مادتها من honós . والصحيح ان الصيغة الوحيدة التي لم تشترك في خلق كلمة honor هي honós نفسها .

ويمكن توضيح ظاهرة القياس بالجدول الآتي :

الصيغ التقليدية	الصيغة الجديدة
honós (ليس لها دور في خلق الكلمة)	honor
honorém, órátor, órátorem وغيرها (مجموعة فعالة في خلق الكلمة الجديدة)	

نلاحظ هنا ، على وجه التحديد ، ظاهرة اقامة منافس الى جانب الصيغة التقليدية ويطلق عليها «paraplasm» . وهي ، اختصاراً ، ظاهرة خلق . والتغيير الصوتي لايأتي بشيْ جديد من دون أن يلغي الشيْ الذي سبقه (فكلمة honórem تحل محل honósem) ، أما القياس فلا يؤدي بالضرورة الى اختفاء الصيغة القديمة . إذ عاشت الصيغة honor جنبا الى جنب مع honós مدة طويلة من الزمن واستخدمت الواحدة بدلا من الأخرى . وعلى كل حال تكره اللغة الاحتفاظ بدالين لفكرة واحدة ، ولما كانت الصيغة الاصلية اقل انتظاما فقد قل استعمالها ثم اختفت . فبدت نتيجة ذلك وكأنها تحول . فالقياس ما ان ينتهي من عمله ، حتى يظهر التقابل بين الحالة القديمة (honórem : honós) والحالة الجديدة (honor : honórem) وكأنه التقابل الناتج عن تطور الأصوات .

والحقيقة أن ظهور honor الى الوجود لم يغير شيئا طالما ان honor لم تحل محل اي كلمة : كما ان اختفاء كلمة honós ليس تغييرا ، لان هذه الظاهرة لاعلاقة لها بالظاهرة الاولى . فحيثما تتبعنا مجرى الحوادث اللغوية ، وجدنا ان خلق صيغة جديدة عن طريق

ألقياس واختفاء الصيغة القديمة ، هما شيئان مختلفان ، ولانجد تحويلا في اي من هذه الامثلة .

لا يتميّز القياس ، إذن ، باستخدام صيغة عوضا عن صيغة اخرى ، بل يؤدي الى خلق صيغ لاتحل محل أي شيْ . فالالمانية يمكنها ان تصوغ اسم التصغير باستخدام chen — في الاسماء ذات المعنى الملموس . واذا دخلت الصيغة Elefantchen اللغة فهي لا تحل محل كلمة اخرى . في الفرنسية ، كذلك ، يستطيع المرء ان يصوغ interventionnaire répressionnaire وغيرها بمعنى «الذي يدعم التدخل» و «الذي يدعم القمع» .. الى آخره ، استنادا الى النموذج pensionnare : pension (تقاعد : له علاقة بالتقاعد) ، réaction réactionnaire (رجعية ، رجعي) الى آخره .

ان هذه العملية تشبه تلك التي نتجت عنها كلمة honor فكلتاهما توحي بالمعادلة ذاتها :

réaction : réactionnaire = répression :)

(= répressionnaire

ولا يوجد في أي من الحالتين ما يسوّغ الحديث عن التغيير : اذ إن répressionnaire لاتحل محل اية كلمة . وهذا مثال آخر : يستخدم بعض الفرنسيين الصيغة القياسية finaux بدلا من finals التي تُعدّ عادة الصيغة الصحيحة . وقد يبتكر احدهم الصفة firmamental ويستخدم لها صيغة الجمع firmamentaux . هل ينبغي ان نقول بوجود تغيير في finaux وخلق كلمة جديدة في firmamentaux ؟ الصحيح أن الحالتين تقعان ضمن عملية الخلق . فقد ابتكر المتكلمون على نمط mur «حائط» enmurer «يحيط» الصيغ tour «غير الاتجاه» entourer «يحيط» و jour «ضوء» ajourer «يفتح» (كما في un travail ajoure «الشيْ الذي يسمح بالضوء : مخرم») إن هذه الاشتقاقات الحديثة هي عملية خلق ـ على ما يبدو . واذا لاحظت ان entorner و ajorner اللتين اشتقا من torn و jorn قد استخدمتا في فترة سابقة ، فهل ينبغي ان أغير رأيي وأقول ان entourer و ajourer هما تعديل الصيغتين القديمتين ؟ ان الوهم الذي يقول ان القياس تغيير انما هو ناتج عن إقامة علاقة بين الصيغة الجديدة والصيغة القديمة التي تحل محلها . ولكن هذا خطأ طالما ان التكوين الذي يصنف على أنه تغيير (كما في honor) في جوهره هو الشيْ نفسه الذي اطلقت عليه الخلق (كما في répressionnaire).

٣ ـ القياس عامل خلق في اللغة

بعد ان نظرنا في الأمر الذي لا يمكن أن يكون قياساً، نبدأ الآن بدراسة القياس

نفسه وما يعنيه. فنجد ان القياس على ما يبدو يمتزج بمبدأ الابتكار اللغوي بصورة عامة. فما هذا المبدأ.

القياس عملية سايكولوجية، ولكن هذا لا يكفي لفصله عن الظواهر الصوتية، لأن هذه الظواهر أيضاً يمكن عدها سايكولوجية (لاحظ الفصل الثاني آنفاً. إذن ينبغي أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان القياس جزء من القواعد، فهو ينطوي على شعور المرء وإدراكه وجود علاقة بين الصيغتين. ولا مكان للمعنى في التغيير الصوتي، في حين يدخل المعنى في القياس.

وأغلب الظن ان الانتقال من الصوت s الواقع بين حركتين الى الصوت r في اللاتينية لم يكن له أية علاقة مقارنةً بالصيغ الأخرى أو بالمعنى. فهيكل صيغة hon´ osom قد انتقـل الى hon¯ orem. في حين يجب تناول صيغٍ أخرى، كي نفسر ظهور honor الى جانب hon¯ or. وهذا ما تبينه المعادلة الآتية:

ōrātōrem i órátor = honorem :)

(= honor

فلولا ان العقل يربط بين الصيغ المختلفة عن طريق المعاني لما كان للمجموعة الجديدة أي أساس.

إن القياس بأكمله يقـع ضمن القواعـد، ولكن ينبغي أن نضيف في الحال ان نتيجتـه النهائية ـ الخلق ـ إنما تعود في أول الأمر الى الكلام. فهي الناتج الطارىء لمتكلم واحد. وعلينا أن نبحث عن هذه الظاهرة، في الأمر، في حواشي اللغة. وعلى كل حال ينبغي أن نفصل بين أمرين هما:

(١) الشعور بالعلاقة التي تربط بين الصيغ المثمـرة، و(٢) والنتيجة التي تـوحي بها المقارنة، أي الصيغة التي يرتجلها المتكلم للتعبير عن فكره. فالنتيجة وحدها تعود الى الكلام.

القياس، درس آخر، يفرض علينا الفصل بين اللغـة والكلام (لاحـظ المقدمـة، الفصل الرابع). فهو يوضح لنا ان الكلام يعتمد على اللغة، كما يشير الى جوهر الجهاز اللغوي الذي شرحناه في الجزء الثاني، الفصل السادس. فعملية الخلق، مهما كان نوعها، ينبغي ان تسبقها مقارنة لا شعورية لمحتويات الذخيرة اللغويـة، حيث ترتب الصيـغ المثمرة حسب عـلاقاتهـا السنتاكمية والايحائية.

يكتمل الجزء الأكبر من ظاهرة القياس، إذن، قبل أن تظهر الصيغة الجديدة. فاللسان يقوم دائماً وبصورة مستمرة، بتحليل وحداته، وتنطوي هذه الفعالية على إمكانية الكلام الفعال، فضلاً عن إمكانية الابتكار عن طريق القياس. ومن الخطأ والاعتقاد ان عملية الخلق لا وجود لها الا في اثناء صيغة الكلمة الجديدة فعلا . فالعناصر كانت موجودة هناك سلفا . مثال ذلك ان كلمة جديدة مثل (in — décorable) كان لها وجود ممكن كـامن في اللغة : فجميـع عناصـرها

موجودة في سنتاكمات مثل décor — er «يزخرف» décor — ation «زخرفة» ، pardonn — able «معذور» mani — able «يمكن تدبيره» in — connu «غير معروف» ، in — sensé «مجنون» وغيرها والخطوة النهائية في تحقيق هذه الكلمة الجديدة في الكلام انما هي عملية بسيطة بالمقارنة مع تراكم القوى التي تجعل الكلمة ممكنة .

وموجز القول ، ان القياس ، اذا درس في حد ذاته ، جانب واحد من ظاهرة التفسير ، ومظهر واحد للفعالية العامة التي تشخص الوحدات التي تستخدم فيما بعد . وهذا ما يجعلني اقول ان القياس بأكمله يقع ضمن القواعد والظاهرة السنكرونية .

والطبيعة القواعدية السنكرونية للقياس توحي لنا بمسألتين تؤكدان ما قلته عن الاعتباطية النسبية المطلقة (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل السادس) وهما :

١ - يمكن ان تقاس قدرة الكلمات على خلق كلمات اخرى استنادا الى قابلية الكلمات على التحليل . فالكلمات البسيطة بطبيعة تعريفها غير مثمرة (لاحظ magasin «مخزن» ، arbre «شجرة» ، racine «جذر» وغيرها) .

أما كلمة magasinier «صاحب المخزن» فلم تشتق على قياس magasin : بل على قياس prisonier «سجين» ، prison «سجن» وغيرها . وكذلك emmagisiner «يخزن» فهي مدينة بوجودها الى القياس بالصيغ enmailloter «لف» و encadrer «يضع في اطار» و encapuchonner «يضع على رأسه قلنسوة» وغيرها . وهي تحتوي على maillot «قماط» و cadre «طار» و capuchon قلنسوة وغيرها». كل لغة ، إذن، تحتوى على كلمات مثمرة وكلمات عقيمة ، بنسب مختلفة . ويعود بنا هذا الامر الى التمييز بين اللغات «المعجمية» واللغات «القواعدية». (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل السادس) . فاكثر الكلمات في الصينية غير قابلة للتحليل اما في اللغة المصطنعة فتكاد جميع كلماتها تخضع للتحليل. فالمتكلم بالاسبرانتو (لغة مصطنعة) له مطلق الحرية في بناء كلمات جديدة من جذور معروفة.

٢ - لقد رأينا ، فيما تقدم ، أن الخلق عن طريق القياس يمكن التعبير عنه بهيئة معادلة . وتستخدم هذه الصيغة كثيرا لتوضيح ظاهرة الخلق بالقياس ، ولكننا وضحناها عن طريق تحليل العناصر التى تقدمها اللغة . وإعادة تركيبها .

ان هاتين الفكرتين تتعارضان . فاذا كان اسلوب المعادلة ملائما لتوضيح هذه المسألة ، فلماذا يستخدم اسلوب تحليل العناصر ؟ ان صياغة كلمة indecorable لايتطلب تحليلها الى عناصرها (in — décor — able) فكل ما نحتاج اليه هو ان نأخذ المسألة بأكملها ونضعها في معادلة:

pardonner : impardonnable, etc = décorer :)(

)(= indécorable

فالمتكلم ، في هذه الحالة ، لايفترض عملية معقدة كالتحليل المقصود الذي يقوم به عالم القواعد ففي kränze : kranz التي صيغت على قياس Gäste : Gast وغيرها يبدو التحليل أقل احتمالا من المعادلة طالما ان جذر النموذج قد يكون ـ Gast او ـ Gast وربما انتقلت الميزة الصوتية لكلمة Gäste الى كلمة kranze.

أي من النظريتين إذن تطابق الحقائق ؟ (وينبغي ان نتذكر ان kranz لاتستبعد التحليل بالضرورة . اذ وجدنا التداول في الجذور والبادئة ، والشعور بالتداول قد نجده جنبا الى جنب مع التحليل الايجابي ، (لاحظ الفصل الثالث) .

ان الفكرتين المختلفتين المذكورتين سابقا تعكسان نظرتين مختلفتين في القواعد . فعلماء القواعد في اوربا يستخدمون المعادلة : فيفسرون صيغة الماضي في الالمانية على سبيل المثال ـ بأخذ الكلمات باجمعها اولا . اذ يتعلم الطالب كيف يصوغ على قياس setzte : setzen ماضي كلمة lachen وغيرها .

اما كتاب قواعد اللغة الهندية فيدرس الجذور (ـ 'setz — lach وغيرهما) في احد الفصول ، ثم نهايات الماضي (te ـ وغيرها) في فصل آخر . وتحدد العناصر الناتجة من التحليل ، ثم تستخدم هـذه العناصر لاعـادة بناء كلمـات بأكملهـا . فجميع معـاجم السانسكرتية ترتب الافعال حسب جذورها .

ويستخدم علماء نظريات القواعد النظري الاسلوب الشائع في المجموعة اللغوية التي يدرسونها .

ان اللغة اللاتينية القديمة تفضل ـ على مايبدو ـ اسلوب التحليل . وهذا دليل واضح على ذلك : فكلمة făctus و áctus تختلفان في طول (كمية) الحركة فيهما ، رغم وجود الكلمتين făció وagó : اذ لابد ان كلمة áctus تعود الى ăgtos* وتُعزى زيادة طول الحركة الى الصوت الصحيح المجهور الذي يأتي بعد الحركة، ومما يدعم هذه الفـرضية اللغـات الرومانسية. إذ ان التقابل بين spěció : spěctus : lěgó : téctus ينعكس في الفرنسية في dépil (رغم ذلك) (despěctus) و toit «سقف» (= téctum) لاحظ ايضا confectus : confició (في الفـرنسية confit «شبـع بالسكـر») مقابـل réctus : regó (diréctus ← في الفرنسيـة droit مستقيل) . بيد ان الكلمات regtos*, tegtos*, agtos* لم تات من الهندية ـ الاوربية الاولى ، التي كانت تستخدم tektos*, aktos* الى آخره ، بل دخلت هذه الكلمات الى اللاتينية في فترة قبل التاريخ رغم صعوبة لفظ صوت مجهور قبل صوت مهموس . ان هذا اللفظ الصعب أصبح ممكنا بسبب شعور المتكلم بالوحدات الجذرية ـ ag , — teg , — reg .

فالشعور بأجزاء الكلمة، إذن، (كالجذور واللواحق وغيرها) وترتيبها كان قويا في اللاتينية القديمة. وربما لم يكن هذا الشعور ، قوياً بهذه الدرجة في اللغات الحديثة ولكنه في الألمانية أقوى منه في الفرنسية (لاحظ الملحق للجزأين الثالث والرابع).

الفصل الخامس

القياس والتطور

١ - كيف تدخل الى اللغة كلمة ابتُكرت بالقياس ؟

لايدخل الى اللغة شيٌ اذا لم يختبر في الكلام، وكل ظاهرة من ظواهر التطور تنبع جذورها من الفرد. ان هذا المبدأ ـ الذي مر ذكره (في الجزء الاول الفصل الثالث) ينطبق بصورة خاصة على الابتكارات القياسية. فكلمة honor قبل ان تصبح منافسا قويا تحل محل honós ابتكر احد المتكلمين الكلمة الجديدة، وتكررت الكلمة على لسان غيره حتى شقت طريقها الى اللغة الفصيحة.

ولكن الحظ لايحالف جميع الابتكارات القياسية . فقد تظهر كلمات جـديدة لن تتبناها اللغة ابدا . وهذا مانجده في لغة الاطفال ، اذ تزخر بمثل هذه الكلمات ، لان الطفل ليس ملما بعد باللغة الفصيحة ولا يتقيد بها . فالطفل الفرنسي يقول viendre بدلا من venir «يأتي» و mouru عوضا عن mort «ميت» وغير ذلك . ولكن البالغين يفعلون ذلك ايضا . مثال ذلك أن كثيراً من الناس يقولون traisait (وهذه الكلمة موجودة في كتابات رسو) بدلا من trayait «يحلب». ان جميع هذه الابتكارات قياسية : يمكن تفسيرها بنفس الطريقة التي تفسر بها كثير من الكلمات التي دخلت اللغة : فكلمة viendre ـ على سبيل المثال تنبع من المعادلة :

eteindrai : éteindre = viendrai :)(

)(= viendre

كما صيغت traisait على نمط plaire «يسر» plaisait «هويسر» وغيرهما .

ولا تحتفظ اللغة الا بعدد قليل من الصيغ الجديدة في الكلام ، ولكن تلك التي تدوم كثيرة ، حتى انها تغير تماما المظهر الخارجي للمفردات اللغوية والقواعد من فترة الى اخرى .

ويتضح مما قلناه في الفصل السابق ان القياس ، وحده ، لايمكن ان يكون قوة من قوى التطور ، وان حلول الصيغ الجديدة محل الصيغ القديمة بصورة مستمرة هو ابرز سمة في تغيير اللغات . ففي كل مرة تظهر فيها كلمة جديدة وتستقر في اللغة لتطرد الكلمة المنافسة ، يعني خلق شيٌ واندثار شيء آخر ، وبذلك يمثل القياس مكانة مهمة في نظرية التطور .

وهذه مسألة أريد أن أؤكدها .

٢ - الابتكارات القياسية دليل للتغيير في التفسير

لا تتوقف اللغة أبدا عن تفسير وحداتها وتحليلها . ولكن لماذا يختلف التفسير دائما من جيل الى آخر ؟ ينبغي ان نبحث عن سبب هذا الاختلاف في العدد الكبير من القوى التي تهدد دائما التحليل الشائع في حالة لغوية معينة . وسأذكر بعض هذه القوى .

إن اهم هذه القوى التطور الصوتي (لاحظ الفصل الثاني) . فالتغييرات الصوتية تجعل بعض التحليل غامضا والبعض الآخر مستحيلا ، فهي بذلك تؤثر في ظروف التحليل ونتائجه ، فتغير حدود الوحدات اللغوية وطبيعتها (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الاول فيما يخص الكلمات المركبة مثل beta — hûs و redo — léch والجزء الثالث ، الفصل الثالث فيما يخص إعراب الأسماء في اللغة الهندية - الاوربية الاولى) .

ونجد ، فضلا عن التطور الصوتي ، عملية اللصق agglutination (وسنتحدث عنها فيما بعد) التي تربط العناصر في وحدة واحدة ، وقد تشترك جميع الظروف ، مع انها عوامل خارجية ، في تغيير تحليل الكلمات ، فمن الواضح ان التحليل ناتج من المقارنة بين مجاميع معينة ، لذا فهو يعتمد دائما على المحيط الايحائي للكلمة . فكانت صيغة افعل swád — is — to — s في الهندية الاوربية الاولى تحتوي على لاحقتين مستقلتين : - is - وتحمل معنى التفضيل بين شيئين (لاحظ mag — is في اللاتينية) و - to - التي كانت تدل على المكانة المعينة للشيء في المجموعة (لاحظ tri — to — s «الثالث» في الأغريقية) ثم لصقت اللاحقتان (لاحظ héd — isto — s او héd — ist — os في الاغريقية) . ولكن عملية اللصق هذه لاقت دعما من فكرة اخرى لاعلاقة لها بصيغة افعل (التفضيل) : فقد اختفت صيغة التفضيل (بين شيئين) التي كان يعبر عنها بـ - is وحل محلها صيغ تنتهي بـ jós — ولم يعد - is - يشخص على انه عنصر مستقل لذا لم يعد يعرف في - isto - .

ولا بد ان نشير هنا الى ظاهرة الجنوح نحو اختزال المصدر وتشجيع العناصر الاخرى المكونة للكلمة ، ولاسيما اذا كان الجذر ينتهي بالحركة . وهكذا أخذت اللاحقة - tát - في اللاتينية (كما في veri — tát — em بدلا من véro — tát — em ، وفي الاغريقية deinó — tet — a) الصوت i من الاساس ، فنتج عن ذلك الشكل التحليلي ver — itat — em : وتغيرت بالطريقة ذاتها كلمتا Rómá — nus و Albá — nus (لاحظ ايضا aenus بدلا من aesno — s*) فاصبحتا Róm — ánus ، الى اخره .

ان التغيير في التفسير ، مهما كان منبعه يصبح دائما واضحا بسبب وجود صيغ قياسية . ليس هذا حسب بل ان الوحدات الحية ، التي يدركها المتكلم في فترة ما اذا كانت تستطيع وحدها ان تخلق كلمات قياسية ، تنطوي على اعادة لتوزيع الوحدات كما

تنطوي ايضا على امتداد محتمل في استعمال هذه الوحدات . فالقياس ، اذن ، دليل ايجابي على ان العنصر المكون للكلمة الجديدة موجود في لحظة معينة وهو عنصر مهم . فاستخدام لفظة merídionális (لاكتانيوس) بدلا من meridialis يبين ان التقسيم هو regi — órális, septemtrl — ónális واذا أردنا أن نبرهن على ان اللاحقة tat — قد وسعت باضافة ـ celer الصوت i اليها ، الذي اقتبس من المصدر ، فما علينا الا أن نشير الى كلمتي itátem : وصياغة pag — anus من pág — us تكفي لتوضيح الطريقة التي كان المتكلم اللاتيني يحلل فيها كلمة Róm — ánus . أما تحليل redlich فثابت من وجود كلمة sterblich التي صيغت من جذر الفعل .

ويوضح لنا مثال خاص كيف أن القياس يخلق وحدات جديدة من فترة الى أخرى : ان كلمة somnolent «استولى عليه النعاس» في الفرنسية الحديثة تحليلها Somnol — ent وكأنها اسم الفاعل . ويدل على ذلك الفعل somnoler (أخذه النوم) اما التقسيم في اللاتينية فهو somno — lentus كما في succu — lentus وغيرها ، وكأن هذا التقسيم كان قبل ذلك على هيأة somn — olentus «يشم منه رائحة النوم» من olére كما في vin — olentus «يشم منه رائحة الخمر» .

أهم نتيجة من النتائج الواضحة للقياس إذن هي إحلال الصيغ المنتظمة المؤلفة من عناصر حية محل الصيغ الشاذة القديمة والصيغ البائدة.

مما لاشك فيه أن الامور لاتجري بهذه السهولة دائماً. فعمل اللغة كثير ما يعتريه التردد والتقريب وشبه التحليل . فلا تمتلك أية لغة في اي وقت من الأوقات نظاما كاملا مستقرا من الوحدات . اذ يتضح مما قيل عن تصريف ekwos* مقابل pods* أن تحليل صيغة غير التام يؤدي في بعض الاحيان الى خلق صيغ قياسية مرتبكة . فالكلمات الهندية الاوربية الاولى gus — tis, *gus — tos, *geus — etai* تساعدنا على تشخيص الجذر — geus و — gus . ثم تلاشي الصوت s بين حركتين في الاغريقية ، وقد أصاب الغموض تحليل geustós, geúomai . وأدى ذلك الى التذبذب ، وشخص الجذر على انه ـ geus في بعض الاحيان . و ـ geu في أحيان اخرى . ويؤكد القياس بدوره هذا التذبذب ، فحتى الجذور في ـ eu تأخذ في أواخرها الصوت s (مثال ذلك ـ pneûma, pneu والصفة المشتقة من الفعل pneus — tós) .

بيد أن القياس يؤثر في اللغة حتى في حالة التردد والغموض . لان القياس ، مع انه ليس تطورا في حد ذاته ، يعكس عادة التغييرات التي تؤثر في عمل اللغة ، ويعززها من خلال صياغة مجموعات جديدة . فهو يتعاون بصورة فعالة مع جميع القوى التي تحور بصورة مستمرة بناء لغة ما ، فهو من هذه الناحية عنصر قوي في التطور .

٣ ـ القياس قوة محافظة وقوة للتجديد

قد يتساءل المرء : هل للقياس الاهمية التي نسبت له هنا، وهل له اثر بعيد المدى كالتغيير الصوتي ؟ ان تاريخ كل لغة يبين لنا تراكما متنوعا من الحقائق التي تعزى الى القياس. وهذه التعديلات المستمرة باجمعها تقوم بدور في تطور اللغة، يفوق في اهميته دور التغيير الصوتي.

بيد ان المسألة التي تهم اللغوي اكثر من غيرها هي أن جميع العناصر تقريبا تبقى محتفظة بكيانها منه في الظواهر القياسية الكثيرة التي تتراكم خلال قرون من التطور. والذي يتغير في هذه العناصر هو توزيعها. فالابتكار عن طريق القياس ظاهرى اكثر منه حقيقياً. فاللغة رداء مرقع برقع كثيرة قطعت من قماش اللغة . ان اربعة اخماس اللغة الفرنسية هي من اللغة الهندية ـ الاوربية الاولى اذا فكرنا بالمادة التي تؤلف الجمل . اما الكلمات التي انتقلت من لغة الام الى اللغة الفرنسية الحديثة كاملة من دون تغيير قياسي فلا تتجاوز الصفحة الواحدة (مثال ذلك est (فعل الكينونة) مشتق من esti والاعداد ، وكلمات مثل ours (دب) و nez (انف) و pere (اب) و chien (كلب) وغيرها). والاغلبيـة الكبيرة من الكلمات هي ، بطريقة او أخرى، مجموعات جديدة لعناصر صوتية اشتقت من صيغ قديمة. فالقياس بهذا المفهوم عنصر محافظ جدا لانه يستخدم دائما مادة قديمة لصنع صيغ جديدة.

بيد ان للقياس دوراً مهماً أيضا بكونه قوة محافظة فقط . فهو يتدخل ليس فقط حين يعاد توزيع المادة القديمة في وحدات جديدة بل ايضا حين تبقى الصيغ من دون تغيير . ولكي نفهم هذه المسألة فما علينا الا ان نتذكر ان الابتكار القياسي وجهاز اللسان لهما اساس واحد (لاحظ الفصل الرابع ـ الفقرة ٣) .

لقد وصلت كلمة agunt اللاتينية من فترة ما قبل التاريخ (عندما كان الناس يقولون *agonti) بدون تغيير حتى مستهل فترة الرومانس . واستخدم الناس ، جيلا بعد جيل ، هذه الصيغة من دون ان يكون لها منافس يحل محلها طول تلك الفترة . فالقياس في هذه الحالة يقوم بدور العامل المحافظ على الصيغة . إن ثبات كلمة agunt من عمل القياس ، كما ان الابتكار من عمله . حيث اندمجت agunt في النظام اللغوي ودعمتها صيغ مثل dicunt و legunt وكذلك agimus و agitis وغيرها . ولولا هذا الاطار من الألفاظ ، لحلت محل agunt صيغة جديدة مؤلفة من عناصر جديدة . والصيغة التي انتقلت الى اللاتينية ليست agunt بل ag — unt . فلم تتغير الصيغة لان ـ unt, ag — تظهران بانتظام في مجموعـات اخرى ، وقد ساعدت هذه المجموعات على الحفاظ على agunt من البداية الى النهاية . لاحظ ايضا sex — tus التي تدعمها مجموعتان هما sex — aginta, sex الى آخره من وجهة وquin — tus, quar — tus الى آخره من جهة أخرى .

فالصيغ إذن كثيرا ما تحتفظ بكيانها لانها تتجدد باستمرار بفضل القياس . اذ ينظر الى الكلمة على أنها وحدة وسنتاكم في آن واحد . ويحافظ عليها الى درجة أن عناصرها لا تتغير. وعلى العكس من ذلك لايتهدد وجود الكلمة الا الى درجة اختفاء عناصرها من الاستعمال . لاحظ ماذا حدث للكلمتين الفرنسيتين dites (انت تقول) و faites (انت تعمل) اللتين جاءتا مباشرة من اللاتينية dict —itis و fac — itis . وتحاول اللغة اليوم أن تستخدم كلمتين جديدتين عوضا عن هاتين الكلمتين ، لانهما تفتقران الى دعم من قبل النظام الصرفي الحديث للفعل . وكثيرا ما تستخدم اليوم الصيغتان disez و faisez (على نمط plaisez و lisez (اقرأ) وغيرهما) : وقد شاعت هذه النهايات في كثير من الكلمات المركبة (contredisez (ناقص).

إن الصيغ الوحيدة التي لم يؤثر فيها القياس هي بطبيعة الحال كلمات منفردة مثل اسماء الاعلام لاسيما أسماء الأماكن (مثل باريس وجنيف واكن وغيرها). وهذه الكلمات لاتخضع للتحليل، لذا لايمكن تفسير عناصرها. ولا تظهر كلمة جديدة منافسة الى جانب هذه الكلمات.

نلاحظ ، اذن ، ان الصيغة تحافظ على كيانها بفضل أحد العاملين المضادين : انعزالها التام او اندماجها التام بالنظام اللغوي الذي يحافظ على الأجزاء الأساسية للكلمة من دون تغيير ويهب هذا النظام دائما لانقاذ الكلمة. فأثر القياس في الابتكار لا يكون إلا في المجموعة الوسطى للصيغ التي لاتدعمها الصيغ المحيطة بها.

وعلى كل حال ، سواء تناولنا مسألة الحفاظ على صيغة ما مؤلفة من عدد من العناصر او مسألة اعادة توزيع المادة اللغوية في تراكيب جديدة نلاحظ إن للقياس وجوداً فيها . إذ إنه يقوم دائما بدور مهم .

الفصل السادس

الاصول الشعبية للكلمات (الاتمولوجيا الشعبية)

قد نشوه الكلمات ذات الأشكال والمعاني غير المألوفة ، فيعزز الاستعمال في بعض الأحيان هذا التشويه . وهذا ما أصاب الكلمة الفرنسية القديمة coute — pointe (المشتقة من coute اي couelte «يغطي» و pointe اسم المفعول للفعل poindre «بطن القماش») فتغيرت الى courte — pointe «غطاء للسرير» وكأنها مشتقة من الصفة court (قصير) والاسم pointe (نقطة).[٤٧] ان مثل هذه البدع ، مهما كانت غريبة في مظهرها ، ليست وليدة المصادفة تماما : بل انها محاولات فجة لتطويع الكلمات العنيدة لتفسير معين بربطها بشئ معروف .

تبدو هذه الظاهرة ، التي تسمى بالأصول الشعبية للكلمات او الأتمولوجيا الشعبية folk etymology أول وهلة وكأنها لاتتميز عن القياس . فعندما ينسى المتكلم الفرنسي وجود الكلمة الفرنسية surdite «صمم» ويصوغ استنادا إلى القياس كلمة sourdite[٤٨] تكون النتيجة نفسها وكأنه أساء فهم كلمة surdite وشوهها بسبب تذكره الصفة sourd «اصم» . والفرق الوحيد هو ان الصيغ القياسية تعتمد على المنطق ، في حين تتصف الأصول الشعبية للكلمات بالعشوائية وتؤدي الى صيغ غير منطقية .

بيد ان هذا الفرق الذي يخص النتائج ليس جوهريا . اما الفروق الجوهرية بين الظاهرتين فأعمق من ذلك . ولكي نفهم طبيعة هذه الفروق نورد بعض الامثال للانماط الاساسية للاصول الشعبية للكلمات .

نذكر اولا الكلمات التي تكتسب دلالات جديدة من دون أن يتغير شكلها . فتعود اصول الكلمة الالمانية durchblauen «يضرب ضربا مبرحا» الى bliuwan «يضرب بالعصا» ولكن الكلمة تربط بالصفة blau «ازرق» بسبب البقع الزرقاء التي يؤدي اليها الضرب . وفي القرون الوسطى اقتبست الالمانية adventure «مخاطرة» من الفرنسية وصاغت الكلمة القياسية Abenteuer, abenture : كما ارتبطت الكلمة من غير تشويه بكلمة Abend (حكاية المساء) : فكانت النتيجة أن كتبت الكلمة في القرن الثامن عشر بصيغة Abendteuer. واشتقت عن الكلمة الفرنسية القديمة soufraite «حرمان» (= suffracta من subfrangere) الصفة souffreteux «مريض» وترتبط الكلمة الاخيرة الآن بالفعل souffrir «يقاسي» ولا علاقة

---

(٤٧) لاحظ faest — scam في الانكليزية القديمة «منغمس في العار» . اصبحت هذه الكلمة في مستهل الانكليزية الحديثة fast — shame ثم shame — faced . (باسكن) .

(٤٨) لاحظ في الانكليزية pronoun ciation الى جانب pronun ciation (باسكن) .

بين الكلمتين[٤٩] . والكلمة الفرنسية lais هي اسم مشتق من الفعل laisser (يترك) ، ولكنها ترتبط في هذه الأيام ، بكلمة leguer «اوصى به» لذا تكتب legs : بل يلفظها بعض الناس بهيئة le — g — s[٥٠] . وقد يوحي هذا بأن التغيير في الشكل قد نتج عن التفسير الجديد للكلمة ، ولكن سبب التغيير الحقيقي هو من اثر الشكل المكتوب الذي حاول الناس عن طريقه الاعراب عن رأيهم في أصول الكلمة من دون تغيير لفظها . وقد حدث الشئ نفسه للكلمة الفرنسية homard «سرطان البحر» . لقد اقتبست هذه الكلمة من النرويجية القديمة hummar (لاحظ الكلمة الدانماركية hummer) ، ثم أضيف الحرف d الى آخر الكلمة قياسا على الكلمات الفرنسية التي تنتهي بالمقطع ard — : ولكن الخطأ في التفسير هنا الذي ينعكس في طريقة الكتابة قد اثر في نهاية الكلمة ، وقد حصل تشابه بينها وبين لاحقة مألوفة (لاحظ bavard «ثرثار» وغيرها) .

وكثيرا ما شوه الناس الكلمات لكي يجعلوها تتلاءم مع العناصر التي يعتقدون انهم يعرفونها فيها . فتغيرت الكلمة الألمانية Sauerkraut فاصبحت في الفرنسية choucroute (chou = لهانة و croute «قشرة») وتغيرت الكلمة الالمانية dromedarius فاصبحت trampeltier «الحيوان الذي يستخدم المخالب» في لفظة مركبة جديدة تحتوي على الكلمات المعروفة trampeln و tier . وفي الالمانية العليا القديمة تحولت كلمة margarita اللاتينية الاصل فاصبحت mari — greos «حصاة البحر» عن طريق الربط بين كلمتين معروفتين .

وهذا مثال أخير وله اهمية خاصة : لقد تغيرت الكلمة اللاتينية carbunculus «قطعة صغيرة من الفحم» فاصبحت karfunkel (لارتباطها بكلمة funkeln «وهج») في الألمانية و escarboucle «عقيق أحمر» (لا رتباطها بكلمة boucle «حلقة») في الفرنسية . وتغيرت calfetrer, calfeter فاصبحتا calfeutrer «فتحة» في الفرنسية تحت تأثير feutre «لباد»[٥١]. ان الذي يجذب الانتباه في جميع هذه الأمثلة هو أن كلاً منها يحتوى على عنصر معروف يرد في سياقات اخرى وجزء آخر لاشبيه له في كلمات سابقة (— kar , — escar , — cal) . ولكن من الخطأ ان نعتقد ان هذه العناصر أشياء جديدة ، ظهرت نتيجة لهذه الظاهرة . الصحيح هو عكس ذلك : فالتفسير لايمس الاجزاء (ـ kar , — escar , — cal) . والاصح أن نقول انها اجزاء من الأصول الشعبية التي توقفت في منتصف الطريق . ويصح على karfunkel ما يصح على Abenteuer (اذا اعتبرنا teuer ـ بقية لاتفسير لها)، كما يمكن مقارنة ذلك بكلمة homard ، حيث ان المقطع ـ hom لا معنى له في حد ذاته .

---

(٤٩) لاحظ الكلمة الانكليزية liquorice (من اللاتينية liquiritia) التي لاتتصل بكلمة liquor سوى صلة الشكل الكتابي . (باسكن) .

(٥٠) لاحظ الكلمة الانكليزية goosberry المشتقة عن الفرنسية groseille (باسكن).

(٥١) لاحظ الكلمة الانكليزية crayfish (نوع من السمك) مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة crevice (باسكن).

لايخلق التشويه ، اذن ، فروقا جوهريـة بين الكلمـات التي تشوهـها الأصول الشعبية : فجميع هذه الكلمات انما هي تفسير لأشكال اساء النـاس فهمها في ضــوء أشكال معروفة .

وهكذا أدركنا كيف ان الاصول او الاتمولوجيا تشبه القياس وتختلف عنه في الوقت ذاته .

ولا تشترك هاتان الظاهرتان الا في صفة مميزة واحدة : حيث يستخـدم الناس عناصر ذات دلالة توفرها اللغة في الظاهرتين : وما عدا ذلك تختلف الظاهرتان جوهريا . فالقياس ينطوي دائما على إهمال الصيغ القديمة . كما في العبارة القياسية il traisait فهي لاتعتمد على تحليل العبارة القديمة il trayait (لاحظ الفصل الرابع) . بل ينبغي أن ننسى الصيغة القديمة قبل ان تظهر الصيغة المنافسة الى الوجود . ولا يأخذ القياس شيئا من مادة الاشارات التي يحل محلها . اما الأصول الشعبية فهي ليست سوى تفسير للصيغة القديمة : ويُعَدُّ تذكر الصيغة القديمة ، مهما كان مشوها نقطة البداية للتشويه الذي يصيب الصيغة القديمة . فأساس التحليل هو التذكر في احدى الحالتين والنسيان في الحالة الثانية . وهذا الفرق غاية في الأهمية .

لاتعمـل الاصول الشعبيـة ، اذن ، الا تحت ظروف معينـة ، وقلمـا تـؤثـر في المصطلحات التقنية والكلمات الاجنبية التي يقتبسها الناس من اللغات الاخرى إلا ما ندر . اما القياس فهو يخص جميع اللغات ، ويُعد من الوظائف الطبيعية للغة. ان هاتين الظاهرتين ، مع انهما تتشابهان في بعض الامور ، تختلفان بصورة جوهرية . لذا ينبغي الفصل بينهما فصلاً كاملاً .

الفصل السابع

اللصق Agglutination

١ ـ تعريف

أشرنا في الفصلين السابقين الى أهمية القياس. ثَمَّ عامل آخر ، فضلاً عن القياس، يعمل على صياغة وحدات جديدة في اللغة، ويسمى باللصق agglutination. لا يضاهي هذين العاملين في أهميتهما في خلق الوحدات اللغوية أي عامل آخر فالكلمات التي توحي أصواتها بمعانيها (لاحظ الجزء الأول / الفصل الأول) onomatopoeia والكلمات التي تبتكر عن قصد ومن غير الاعتماد على القياس ، بل حتى الاتمولوجيا الشعبية، كلها ضئيلة الأهمية.

وتعني عملية اللصق (agglutination) دمج عنصرين أو أكثر من العناصر الأصلية المتميزة التي كثيراً ما تستخدم بهيئة سنتاكم في الجملة، فتصبح هذه العناصر وحدة واحدة مطلقة يصعب تحليلها. هذه هي عملية اللصق، فهي عملية وليست أسلوباً، لأن الكلمة الأخيرة تنطوي على الارادة أو القصد : أما اللصق فيتميز بعدم وجود الارادة.

وهذه بعض الأمثلة. فقد استخدم المتكلمين الفرنسيون أول الأمر كلمتين هما ce ci. ثم دمجت الكلمتان في كلمة واحدة ceci (هذا) : فكانت النتيجة كلمة جديدة، مع ان مادتها والعناصر المكونة لها ل يتغيرا. لاحظ أيضاً في الفرنسية ـغمس تمهس كل يوم، toujours (دائماً) au jour d'hui (في يوم اليوم) aujourd'hui (اليوم)، dès já (منذ الآن) :

(قد (مع الماضي))، vert jus (عصير أخضر) : verjus (العصير الحامض للفواكه غير الناضجة). وقد يؤدي اللصق الى دمج الوحدات الفرعية للكلمة، كما رأينا (في الفصل الخامس) في حالة صيغة التفضيل من الدرجة الثالثة superlative في الكلمة الهندية الأوربية الأولى swād — is — to — s والأغريقية hēd — isto — s.

وإذا تأملنا ظاهرة اللصق، من كثب ، وجدنا انها تنطوي على ثلاث مراحل.

١ ـ الربط بين عدد من العناصر في سنتاكم. ويشبه السنتاكم الجديد السنتاكمات المعروفة الأخرى.

٢ ـ اللصق الحقيقي أي اتحاد عناصر السنتاكم في وحدة جديدة. ويحدث هذا الاتحاد بصورة مستقلة في عملية آلية، وعندما يعبر عن فكرة مركبة بسلسلة متعاقبة من الوحدات المألوفة جداً التي لها دلالة، يترك العقل فكرة التحليل ـ فيختصر الطريق ويطبق الفكرة على مجموعة الاشارات بأكملها، فتصبح هذه المجموعة وحدة بسيطة، (تغيير في الفكرة أو المعنى).

٣ ـ كل تغيير ضروري آخر يحول مجموعة الاشارات القديمة الى ما يشبه كلمة

بسيطة : كتوحيد الركزة (verjús ← vért — jús) وتغييرات صوتية خاصة وغير ذلك.

وكثيراً ما يقال ان التغييرات الصوتية وتغيير الركزة (٣) تسبق التغيير في المعنى (٢)، وان الدمج في المعنى أو الدلالة يأتي من خلال اللصق والدمج المادي. وربما كان هذا بمثابة وضع العربة قبل الحصان (عكس الحقيقة). فمن المحتمل جداً ان tous jours وغيرهما أصبحت كلمات بسيطة لأن العقل عدّها فكرة واحدة. vert jlis.

٢ ـ اللصق والقياس

الفروق بين القياس واللصق بارزة واضحة.

١ ـ ففي اللصق تندمج وحدتان أو أكثر في وحدة واحدة بطريقة الاتحاد (كما في encore «مرة أخرى» الفرنسية من hanc horam) أو تصبح وحدتان فرعيتان وحدة واحدة (كما في swad — is — to — s من hêd — isto — s)*. أما القياس فيبدأ من الوحدات الصغيرة ويبني منها وحدات أكبر. فقد ابتكر القياس كلمة pāg — ánus بالربط بين الأصل — pāg واللاحقة ānus — .

٢ ـ يعمل اللصق ضمن اطار السنتاكم فقط ولا يؤثر إلا في مجموعة معينة. ولا ينطوي على شيء آخر. أما القياس فيخص العلاقات الإيحائية كما يخص السنتاكمات.

٣ ـ والأهم من ذلك، ان عملية اللصق تخلو من الارادة والدور الفعال الايجابي. فقد ذكرت انها عملية بسيطة يحدث فيها الدمج بصورة تلقائية. أما القياس فهو، على العكس من ذلك، أسلوب يحتاج الى التحليل والربط، والعمل العقلي والارداة.

وكثيراً ما يستخدم البناء والتركيب لمناقشة تكوين الكلمات، ولكن معناهما يختلف استناداً الى العملية المستخدمة : هل هي القياس أم اللصق؟ فإذا طبقت اللفظتان. (البناء والتركيب) على اللصق، أوحتا بأن العناصر المتصلة في السنتاكم تتحد تدريجياً حتى تتلاشى العناصر الأصلية المكونة لها. أما إذا طبقنا ذلك على القياس، فان البناء يعني الترتيب دفعة واحدة، في عملية الكلام، عن طريق إعادة ربط عدد من العناصر أخذت من مجاميع إيحائية أخرى.

إن أهمية **الفصل بين القياس واللصق أمر واضح**. فنلاحظ في اللاتينية ـ مثلاً ـ ان كلمة possum نتجت من دمج الكلمتين potis وsum «أنا السيد» : فهي كلمة نتجت من اللصق. أما agrieola, signifier وغيرهما من الكلمات فهي ناتجة عن القياس، أي انها أبنية قياسية وفرتها اللغة. وينبغي أن نطلق لفظة الكلمات المركبة أو الاشتقاقات على الكلمات الناتجة عن القياس فقط.[٥٢]

---

(٥٢) وهذا يعني ان الظاهرتين تعملان سوية في تاريخ اللغة . ولكن اللصق يحدث اولا دائما ، وهو الذي يوفر النموذج للقياس . فعلى سبيل

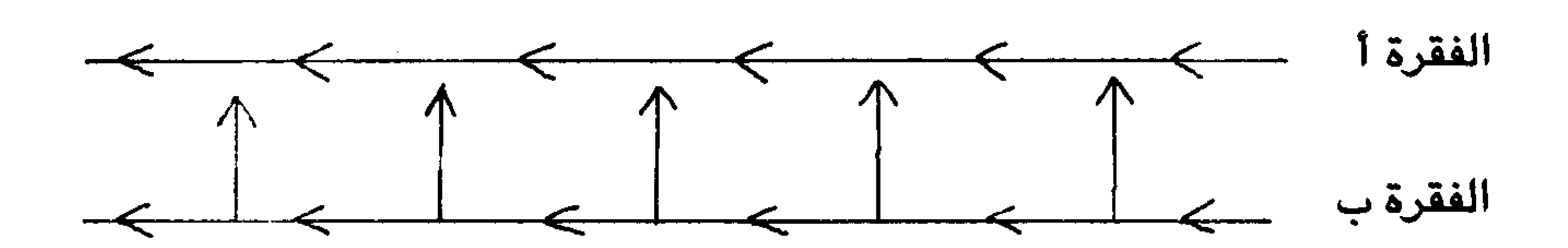
ويصعب غالباً ان نجزم هل ان صيغة ما قابلة للتحليل ظهرت نتيجة اللصق أم القياس. فقد ناقش اللغويين مدةً طويلة مسألة الصيغ الهندية الأوربية الأولى es — mi*، es — ti*، ed — mi* وغيرها. هل كان العنصران — es، — ed وغيرهما كلمة حقيقية طوال زمن قديم جداً، ثم لصقت بكلمات أخرى (ti، mi وغيرهما)؟ أم ان es — mi*، es — ti* وغيرهما جاءت نتيجة الربط بين عناصر استمدت من وحدات معقدة مشابهة؟ وفي الحالة الأخيرة تسبق عملية اللصق زمنياً ظهور النهايات الاعرابية في اللغة الهندية الأوربية الأولى. ولما كانت الأدلة التأريخية غير متوفرة لم تمكن الاجابة عن هذا السؤال.

إن التأريخ وحده يمكن أن يلقي الضوء على هذه المسألة. فإذا إستطعنا القول ان هذا العنصر البسيط كان في يوم ما يؤلف عنصرين أو أكثر في الجملة فان العملية هي اللصق: كما في hunc اللاتينية التي أصلها hon ce (ce ترد في بعض النقوش). أما إذا لم تتوفر الأدلة التأريخية، فمن الصعب ان نشخص ما هو لصق وما هو قياس.

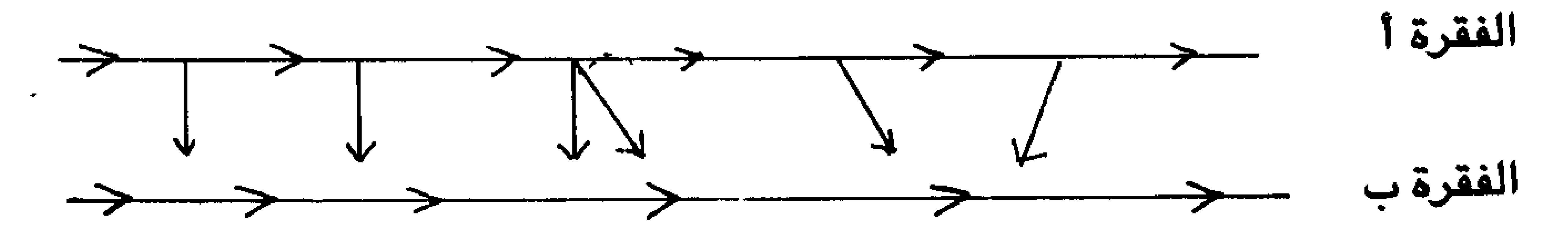
— المثال، الكلمات المركبة التي نتج عنها hippo — dromo — s وغيرها في الاغريقية بدأت عن طريق اللّصق الجزئي في فترة لم تكن فيها النهايات الاعرابية معروفة في اللغة الهندية الاوربية الاولى (فكانت عبارة ekwo dromo تشبه الكلمة المركبة بيت الريف وغيرها) ولكنها غدت عن طريق القياس وسيلة مثمرة لخلق الكلمات المركبة قبل ان يكمل دمج عناصر الكلمة. ويصح الشئ نفسه في صيغة المستقبل في الفرنسية (je ferai سأفعل الى اخره). التي ظهرت في اللاتينية العامية عن طريق اللصق بين المصدر وصيغة المضارع للفعل habére (facere habeo، «على ان افعل»). وهكذا ساعد تدخل القياس عملية اللصق على خلق انماط نحوية. فاللصق جزء من القواعد، واذا ترك ليعمل وحده أدى الى دمج العناصر حتى تصبح وحدات كاملة وتصبح كلمات لايمكن تحليلها وغير مثمرة (كما في hanc hóram ← encore في الفرنسية (ما يزال) اي انها جزء من المعجم. (بالي).

الفصل الثامن
الوحدات الزمنية والتطابق والحقائق الواقعية

يعمل علم اللغة الثابت بوحدات تعتمد في وجودها على ترتيبها السنكروني. وكل ما ذكرنا، فيما تقدم، يدل على ان العناصر في التعاقب الدايكروني ليست محددة تحديداً نهائياً كما قد يوحي بذلك الشكل الآتي:



بل ان العناصر توزع توزيعاً مختلفاً بين لحظة وأخرى بسبب الحوادث التي تقع على مسرح اللغة. لذا يكون من الأفضل أن توضح بالرسم الآتي:



ويؤكد هذا كل ما ذكرناه سابقاً عن نتائج التطور الصوتي والقياس واللصق وغيرها.

ويكاد كل مثال أوردناه حتى الآن، يعود الى عملية صياغة الكلمات word formation وهذا مثال من النحو syntax. لا يوجد في اللغة الهندية الأوربية الأولى حروف الجر فالعلاقات التي تعبر عنها هذه الحروف كان يعبر عنها بالحالات النحوية المتعددة التي كانت لها دلالات بارزة. ولم تكن هذه اللغة تستخدم الأفعال المركبة باضافة عناصر الى مقدمة الفعل. بل كانت تقتصر على إستخدام الحروف ـ وهي كلمات صغيرة تضاف الى الجملة لتحدد وتحور الحدث الذي يدل عليه الفعل. فلم يكن ما يماثل على سبيل المثال ـ العبارة اللاتينية īre ob mortem «يواجه الموت» أو عبارة obire mortem؛ حيث كانت هذه اللغة تستخدم ما يشبه īre mortem ob. وهذا ما نلاحظه أيضاً في الأغريقية القديمة: (١) في oreos baínō káta، تعني عبارة oreos baínō لوحدها «جئت من الجبل». فحالة الجر هنا لها معنى حالة الأداة.[٥٣] وتضيف káta الى العبارة معنى إضافياً وهو:

---

(٥٣) المقصود بحالة الاداة هي الحالة الاعرابية التي يعبر عنها بحرف الجر والاسم في «كتب بالقلم» وهي حالة متميزة في اللاتينية وبعض اللغات الاخرى. (المترجم).

«بالمجيء الى الأسفل». وكانت العبارة في فترة أخرى هي (٢) katà óreos bainō، حيث تعمل كلمة katà عمل حرف الجر، كما نجد (٣) kata — baino oreos حيث اللصق بين الفعل والحرف kata الذي أصبح عنصراً يلحق بمقدمته الفعل.

في هـذه العملية ظاهـرتان أو ثـلاث متميزة استنـاداً الى التفسير الذي يُعطى للوحدات :

١ ـ لقد ظهر صنف جديد من الكلمات، وهي حروف الجر، عن طريق تغيير موقع الوحدات الموجودة فقط. وهو ترتيب لم تكن له أهمية في الأصل، وربما جاء عن طريق المصادفة فسمح بتركيب جديد. فكلمة kata التي كانت مستقلة في الأصل ارتبطت بالاسم òreos ثم ارتبطت الوحدة المركبة بكلمة bainō لتقوم بوظيفة التكملة لها.

٢ ـ كما ظهر صنف جديد من الأفعال (katabainō) وهذا ترتيب سايكولوجي آخر، يدعمه توزيع معين للوحدات، وتعززه عملية اللصق. (٣) فضعف معنى النهاية (óre — os) التي تدل على حالة الجر، وهذه نتيجة طبيعية. ثم أصبح لزاماً على كلمة katà أن تعبر عن الفكرة الأساسية التي كان يعبر عنها من قبل بحالة الجر وحدها. فقلت كثيراً أهميـة النهاية الاعرابية. والظاهرة الأخيرة هي نقطة البداية التي أدت أخيراً الى اختفاء os — .

نجد، إذن، في الأمثلة الثلاثة التي ذكرت سابقاً، توزيعاً جـديداً للوحـدات. إذ اكتسبت المادة القديمة وظائف جديدة. والمهم هنا ان هذه التغييرات حصلت من دون أن يكون لأي تغيير صوتي أثر فيها. ولكننا ينبغي أن لا نفكر ان هذا التغيير يخص المعنى فقط ـ وإن بقيت المادة من دون تغيير. إذ لا توجد ظاهرة نحوية لا تتحد فيها سلسلة معينة من الأفكار مع سلسلة أخرى من الوحدات الصوتية (لاحظ الجزء الثاني، الفصل السابع) وهذه نفسها هي العلاقة التي حصل فيها تغيير. لقد بقيت الأصوات على حالها، لكن الوحدات ذات الدلالة تغيرت عما كانت عليه.

لقد رأينا (الجزء الأول الفصل الثاني) ان الذي يغير الاشارة هو تغيير في العلاقة بين الدال والمدلول. ان هذا التعريف لا ينطبق على تغيير العناصر في النظام حسب، بل ينطبق أيضاً على تطور النظام نفسه. فالظاهرة الدايكرونية في مجملها لا تتجاوز هذه الحقيقة.

ولكن مجرد تدوين بعض االتغييرات في الوحدات التزامنية لا يكون في حد ذاته سجلاً كاملاً لما حدث في اللغة. فهناك ايضاً مسألة **الوحدات الزمنية القائمة** بذاتها. إذ ينبغي علينا في كل حادثة ان نسأل : أي العناصر مسه التغيير مساً مباشراً؟ وقد لاحظنا مشكلة مشابهة لهذه عند الحديث عن التغيير الصوتي (الجزء الأول، الفصل الثالث، الفقرة ٦). فهذا التغيير يؤثر في فونيمات منفردة وتبقى وحدة الكلمة على حالها. ولما كانت الحوادث الدايكرونية متنوعة جداً، لزمت الاجابة عن مسائل كثيـرة من هذا النـوع،

والوحدات التي نحددها في الدراسة الدايكرونية لن تتطابق بالضرورة مع الوحدات التي نحددها في الدراسة السنكرونية، وحسب المبدأ الذي ذكرناه في الجزء الأول لن يكون مفمومنا عن الوحدة واحداً في كلتا الحالتين.

وعلى كل حال لا نستطيع أن نحدد الوحدة بدقة قبل أن ندرسها من وجهتي النظر المتطورة والثابتة. ولا نستطيع أن نخترق الغلاف الخارجي للتطور ونصل الى اللب إلا بعد أن نحل مسألة الوحدة الدايكرونية. ففهمنـا للوحدات مهم هنـا بقدر أهميتـه في السنكرونية، إذا أردنا ان نفرق بين الوهم والواقع (لاحظ الجزء الثاني، الفصل الثالث).

بيد ان **التطابق الدايكروني** يثير مسألة صعبة أخرى. فقبل ان نستطيع القول ان هذه الوحدة قد بقيت متطابقة أو انها تغيرت في شكلها أو معناها مع بقائها وحدة متميزة ـ فكلا الاحتمالين وارد ـ ينبغي علينا ان نعرف الأساس الذي تنـطلق منه في تحديد ان عنصراً ما في فترة معينة (كما في الكلمة الفرنسية chaud «حـار») هو نفس العنصر في فترة أخرى (كما في الكلمة اللاتينية calidum).

الجـواب عن ذلك ان calidum قد أصبحت chaud بسبب التغييـرات الصـوتيـة القياسية، إذن chaud = calidum. هذا تطابق صوتي. ويصح الشيء نفسـه في sevrer «يفطم» وsēparāre. أما كلمة fleurir «يزهر» فتختلف عن الكلمة اللاتينية florére (التي كان ينبغي أن تصبح flouroir)* الى آخره.

يبدو للوهلة الأولى ان التطابق الدايكروني يمكن تفسيره تفسيراً مقنعاً عن طريق التطابق الصوتي. ولكن يصعب على الصوت وحده ان يفسر التطابق. مما لا يشك فيه اننا نستطيع القول ان الكلمة اللاتينية more ينبغي أن تصبح في الفرنسية mer «بحر» لأن الصوت a تغير دائماً الى الصوت e في ظروف معينة، إذ ان الصوت e المشدد في آخر الكلمة اختفى، الى آخره، ولكن القول ان هذا التماثل (a ← e، e ← صفر الى آخره) يمكن أن يفسر التطابق إنما هو عكس الواقع، لأنني استخدمت التماثل بين mare اللاتينية وmer الفرنسية لتحديد ان الصوت a قد تحول الى الصوت e وان e في آخر الكلمة اختفى، الى غير ذلك.

وقد يقول أحدهم se facher «أصبح غاضباً» في حين يقول آخر يعيش في منطقة اخرى من فرنسا se ˜ acher: ولكن هذا الاختلاف غير مهم إذا قورن بحقائق القواعد التي تساعدنا على تشخيص وحدة لغوية واحدة في هاتين الصيغتين المتميزتين. والقول بأن كلمتين مختلفتين مثل calidum وchaud يؤلفان متـطابقة دايكـرونية إنمـا يعني ان المتكلمـين انتقلوا من الصيغة الأولى الى الصيغـة الثانيـة بعد ان مـروا بسلسلة من المتطابقات السنكرونية في كلامهم، من دون أن تحصل فجوة في الآصرة المشتركة بين هذه الصيغ، رغم التغييرات الصوتية المتعاقبة. وهذا ما حملني على القول ان معرفة كيفية

احتفاظ عبارة : Gentlemen على كيان واحد عندما تكرر عدة مرات في محاضرة واحدة أمر مهم بقدر أهمية معرفة لماذا تُعد أداة النفي pas مطابقة للأسم pas في الفرنسية، ولماذا تطابق كلمة chaud الفرنسية كلمة calidum اللاتينية (لاحظ الجزء الثاني، الفصل الثالث).
فالمسألة الثانية إنما هي امتداد وتعقيد للمسألة الأولى.

ملحق بالجزء الثالث والرابع

١ - التحليل الذاتي والتحليل الموضوعي

إن التحليل الذي يقوم به المتكلمون بصورة مستمرة للوحدات اللغوية هو التحليل الذاتي subjective analysis. وينبغي للمرء أن يميز بين هذا التحليل والتحليل الموضوعي objective analysis، الذي يعتمد على التأريخ. فالنحوي يميز، مثلاً، في صيغة الكلمة الاغريقية hippos ثلاثة عناصر: الجذر واللاحقة والنهاية (hipp — o — s). أما المتكلمون الاغريق فكانوا لا يشخصون سوى عنصرين أنظر الجزء الثالث، الفصل الثالث). ويكشف التحليل الموضوعي عن أربع وحدات فرعية في amábás (am — á — bá — s)؛ أما المتكلمون الرومان فقد شخصوا ثلاث وحدات فقط (amá — bá — s): وربما عدوا bás ـ مقطعاً اعرابياً، يتميز عن الأصل. في الكلمة الفرنسية entier «كل» (in — teger) «كامل» في اللاتينية) وenfant «طفل» (in — fans) «الذي لا يتكلم» في اللاتينية) وenceinte «حبلى» (in — cencta) «من دون حزام» في اللاتينية)، قد يميز المؤرخ بادئة مشتركة هي en — التي تمثل ـ النفي في اللاتينية : أما التحليل الذاتي الذي يقوم به المتكلمون لهذه الكلمات فهو يهمل تماماً هذه البادئة.

وقد يظن النحوي ان التحليل التلقائي للغة غير صحيح، والصحيح ان التحليل الذاتي ليس أكذب من القياس «الكاذب» (لاحظ الجزء الثالث، الفصل الرابع). فاللغة لا تخطىء أبداً، بل تتبنى وجهة نظر مختلفة. ولا يوجد مقياس مشترك يقاس به تحليل المتكلمين وتحليل المؤرخ، مع ان الاثنين يستخدمان أسلوباً واحداً ـ دراسة مجموعة تحتوي على عنصر مشترك. فكلا التحليلين له ما يسوغه، وكذلك له قيمته. ولكن الكلمة الأخيرة هي لتحليل المتكلمين، لأن هذا التحليل يستند مباشرة الى الحقائق اللغة.

إن التحليل التأريخي هو شكل محور للتحليل الذاتي. فهو في جوهره يعرض أبنية فترات مختلفة على سطح واحد. وهو يشبه التحليل التلقائي في انه يحاول أن يشخص الوحدات الفرعية للكلمات، ولكنه يختلف عنه في انه يركب جميع التقسيمات التي حصلت بمرور الزمن لكي يصل الى أقدمها. فالكلمة كالبيت الذي غير ترتيب غرفه المختلفة ووظيفتها مرات كثيرة. والتحليل الموضوعي يضيف وينظم الترتيبات المتعاقبة، أما الذين يسكنون البيت فلا يرون إلا ترتيباً واحداً. ان تحليل hipp — o — s الذي ناقشناه، آنفاً، ليس كاذباً، لأنه وجد في عقول المتكلمين: فهو يتصف بالمفارقة الزمنية فقط. إذ يعود الى فترة تسبق الفترة التي اشتقت منها الكلمة. فالصيغة القديمة hipp — o — s لا تناقض صيغة hipp — os للاغريقية الكلاسيكية. ولكن التحليلين لا يمكن أن يثمنا بأسلوب واحد. وهذا أيضاً يشير الى الفرق الجذري بين الدايكرونية والسنكرونية.

وهو يساعدنا أيضاً على إيجاد حل لمسألة أسلوبية ما تزال بغير حل في علم اللغة.

كانت المدرسة القديمة تقسم الكلمات الى جذور وأسس ولاحقات وغيرها واهتمت اهتماماً مطلقاً بهذه التقسيمات. ويعتقد المرء بعد قراءته للغوي بوب وتلاميذه، أنَّ الاغريق حملوا معهم منذ الأزل ذخيرة من الجذور واللواحق استخدموها في بناء الكلمات، وكانوا يصنعون الكلمات في أثناء الكلام: فكانت كلمة páter عندهم، مثلاً، تتألف من الجذر pā — واللاحقة ter ـ وكلمة dōsō تتألف من dō + s ō + نهاية تدل على الشخص وغيرها.

فكان لابد أن يقوم رد فعل على أخطاء المدرسة القديمة، وتحت شعار مناسب هو: لاحظ ماذا يحدث في اللسان كل يوم وفي اللغات المعاصرة، ولا تنسب الى الفترات القديمة أية ظاهرة لا يمكن ملاحظتها الآن. ولما كانت اللغة الحية لا تسمح عادة بالتحليل الذي اتبعه بوب، قال النحويون الجدد مؤكدين مبدأهم ان الجذور والأسس واللاحقات وغيرها إنما هي عناصر تجريدية لا تستخدم إلا لتسهيل الشرح. ولكن إذا لم يكن مسوغ لتحديد هذه العناصر، فما الفائدة فيها ؟ وإذا استخدمنا هذه العناصر، فما القياس الذي بموجبه تقول ان تقسيم hipp — o — s، على سبيل المثال، أفضل من hipp — os ؟

بعد أن أشارت المدرسة الحديثة الى عيوب المدرسة القديمة، وهو أمر سهل، اكتفت برفض النظرية ولكنها بقيت في الواقع مقيدة بجهاز علمي لم تستطع التخلص منه. فإذا تأملنا العناصر «التجريدية» ، من كثب ، عرفنا الواقع الذي تمثله ولا نحتاج إلا الى مقياس بسيط من التصحيح كي نضفي معنى وسبباً على الأساليب التي استخدمها النحويون. وهذا ما فعلته عندما ذكرت ان التحليل الموضوعي الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحليل الذاتي للغة الحية، له مكانة حقيقة محددة في الأساليب التي يستخدمها علم اللغة.

٢ ـ التحليل الذاتي وتعريف الوحدات الفرعية

لا نستطيع، إذن، في التحليل أن نتبع أسلوباً معيناً ونحدد بموجبه التعريفات إلا بعد أن نتبنى وجهة النظر السنكرونيـة. وهذا مـا أريد أن أوضحـه عن طريق بعض الملاحظات عن أقسـام الكلمة: البـادئة والجـذر، والأصـول، واللواحق والنهـايـات الاعرابية.(٥٤)

نبدأ بالنهاية الاعرابية، أي العنصر المتغير الذي يقع في نهاية الكلمة ويميز الصيغ المختـلفـة للأنمـاط في الاسـم والفعـل. فـفي zeúgnū — mi، zeúgnū — ،Zeúgnū — si، zeúgnū — men الى آخره «الجم الحصان»، «تلجم الحصان» الى آخره، تبرز النهايـات الاعرابية mi ـ، s ـ، si ـ الى آخره، لأنها تتقابل بعضها مع البعض الآخر، وكذلك مع الجزء الذي يسبقها في الكلمة (zeuymū) ونعيد الى الذاكرة ان غياب النهاية الاعرابية في اللغة الجيكية له أهمية تساوي أهمية وجود النهاية المنتظمة (كما في حالة الجمع المجرور žen التي تتقابل مع حالة المفرد المرفوع žena: لاحظ الجزء الأول، الفصل الثالث، والجزء الثاني، الفصل الرابع). ويصح الشيء نفسه في العبارات الاغريقية zeúgnū (أنت) الجم الحصـان «التي تقابـل zeúgnu — te «(أنتم) الجموا الحصـان»، وrhētor التي تقـابـل rhētor — os الى آخره، وفي الفرنسية: mars تكتب marche (أنت امش) التي تقابل maršo «لنذهب (نحن)» وجميعها صيغ لها نهايات اعرابية تساوي صفراً.

وإذا تركنا النهاية الاعرابية بقي أصل الكلمة أو الأساس الاعرابي. وهو العنصر المشترك الذي يظهر تلقائياً عندما نقارن مجموعة من الكلمات المترابطة، سواء كـانت أواخرها تعرب أو لا تعرب ولهـا معنى مشترك بـين كلمات المجمـوعة. ففي الكلمـات الفرنسية roulis «الشوبك» وrouleau «اللفة» roulage «مسلفة» roulement «اللف»، يبـرز الأصل ـ — roul. ولكن المتكلمين كثيراً ما يشخصون في تحليلهم للكلمات عدداً أو درجات من الأصول في أسرة واحدة من الكلمات. فصيغة — zeugnū التي تميز عن zeúgnū — mi، zeúgnū — s الى آخره هي أصل من الدرجة الأولى. فهي ليست غير قابلة للتحليل، لأن zeug — nu احتمال واضح إذا قارنا — zeúgnu بمجموعات أخرى (zeúgnūmi، zeuk — tós، zeuksis، zeuktēr، zugón وzeugnumi، deiknūmi، ómūmi الى آخره، من جهة، من جهة أخرى).

إذن ـ Zeug (وأشكالها الأخرى ـ zeug، — zeuk، zug لاحظ الجزء الثالث، الفصل الرابع) هي أصل من الدرجة الثانية: فهذه الصيغة، — zeug غير قابلة للتحليل: لا يمكن

---

(٥٤) لم يدرس دي‌سوسور مسألة الكلمات المركبة ـ من وجهة النظر التزامنية في الاقل. لذا نترك هذا الجانب من المسألة. ما لاشك فيه ان التمييز الذي ذكر، آنفاً، بين الكلمات المركبة والكلمات التي تتبع اللصق لايصح هنا في دراسة تحليل الحالة اللغوية. ولا حاجة الى ان نذكر ان هذه الملاحظات عن الوحدات الفرعية لاتزعم بانها تحل المسألة الصعبة التي اثيرت، آنفاً، عن تحديد الوحدة ـ الكلمة

قطعها الى أجزاء أصغر بمقارنتها مع الأشكال الأخرى في المجموعة.

والجذر root هو العنصر المشترك بين جميع كلمات الأسرة الواحدة، ولا يمكن تحليله الى عناصر أخرى. ولكن التحليل الذاتي التزامي يفصل بين العناصر المادية عن طريق ملاحظة المعنى المشترك الذي يدخل في كل عنصر، إذن فالجذر بهذا المفهوم هو العنصر الذي يبلغ فيه المعنى المشترك بين كلمات المجموعة أعلى درجة من التجريد والتعميم. مما لا شك فيه ان التعميم يختلف من جذر الى آخر، ولكنه يعتمد أيضاً، والى حد ما، على المدى الذي يمكن ان نحلل اليه الأصل. فكلما استطعنا ان نقصر الجذر زاد احتمال التجريد في المعنى، وهكذا توحي zeugmátion بمجموعة صغيرة، وzeũgma، بأية مجموعة، و— zeug بالفكرة العامة للفعل «الجم».[٥٥].

نستنتج من هذا ان الجذر لا يمكن أن يؤلف كلمة، وتلحق به نهاية اعرابية مباشرة. بل ان الكلمة تمثل دائماً فكرة محددة الى درجةما، من وجهة نظر القواعد في الأقل: وهذا يناقض الطبيعة التجريدية العامة للكلمة. ولكن ماذا عن الجذور والأصول الاعرابية الكثيرة التي تمتزج فيما بينها؟ لنأخذ الكلمة الاغريقية phlõks في حالة الجر phlogós، وتقابلها بالجذر — phleg أو — phlog الذي نجده في كلمة من كلمات المجموعة (لاحظ o — phlég الى آخره). ألا يناقض هذا التمييز الذي تحدثنا عنه قبل قليل؟ كلا: إذ ينبغي ان نفصل — phleg : — phlog بمعناهما العام عن — phlog بمعناه الخاص أو نقع في الوهم فنعتبر الشكل المادي وحده دون المعنى. إذ نجد هنا عنصراً مادياً واحداً، له قيمتان مختلفتان. فهو، إذن، يتألف من عنصرين لغويين متميزين (لاحظ الجزء الثاني، الفصل الثاني). لقد وضحنا، فيما يقدم ان zeũgnũ كلمة لها نهاية اعرابية هي صفر. وكذلك — phlog فهو أصل له اللاحقة صفر. وبذلك يزول الالتباس. ويتميز الأصل عن الجذر حتى عندما يكون للاثنين صيغة صوتية واحدة.

إذن فالجذر حقيقة لها وجود في عقل المتكلمين. صحيح ان المتكلمين لا يشخصون الجذر دائماً على درجة واحدة من الدقة. إذ يختلف الناس في هذه المسألة: في اللغة الواحدة أو من لغة الى أخرى لكن تتوفر في بعض اللغات مميزات محدودة تجعل الجذر واضحاً للمتكلمين. ففي الألمانية على سبيل المثال يكون الجذر منتظماً قياسياً.

ويكاد يتألف دائماً من مقطع واحد (لاحظ — streit، — bind، — haft الى آخره).

ويخضع لقواعد معينة للتركيب. إذ لا تظهر الفنونيمات بصورة عشوائية:

فلا نجد إجتماعاً لبعض الأصوات الصحيحة في آخر

---

(٥٥) وكذلك في العربية: «يكتبون» تدل على مجموعة واحدة (جمع مضارع)و «يكتب» على مجموعة اوسع (مضارع مفرد يكتب الولد، ومضارع جمع يكتب الاولاد)، الجذر «ك، ت، ب» يدل على فكرة عامة جدا هي «الكتابة» (المترجم).

الكلمة. كاجتماع صوت مغلق مع سائل: فالمجموعة — werk ممكنة، أما — wekr فغير ممكنة: كما نجد — half و— werd في حين لا نجد — heft و— wedr. نذكر ان البدائل المنتظمة، لا سيما بين الحركات، تؤدي، عادةً، الى تعزيز شعورنا نحو تمييز الجذور والوحدات الفرعية. وهنا أيضاً تختلف الألمانية بتغيير الحركات فيها ablaut (لاحظ الجزء الثالث، الفصل الثالث) عن الفرنسية. وتتميز الجذور في اللغات السامية بهذه الصفة، ولكن بدرجة أكبر. فالبدائل في هذه اللغات قياسية يتحكم في عدد كبير من التقابلات المعقدة (لاحظ الصيغ العبرية gātal، qtaktem، qtōl، qitlu الى آخره، جميع صيغ هذا الفعل تعني «قتل»). أضف الى ذلك، ان الجذور السامية كالجذور الألمانية تتألف من مقطع واحد، وعلى نحو أوضح. تضم دائماً ثلاثة أصوات صحيحة (لاحظ الجزء الخامس، الفصل الخامس).

أما اللغة الفرنسية فتختلف تماماً. إذ لا تملك إلا عدداً قليلاً من البدائل، ونجد فضلاً عن الجذور الأحادية المقطع (— roul، — march، — mang) جذوراً كثيرة مؤلفة من مقطعين أو ثلاثة (— commec، — hésit، — epouvant) ثم ان هذه الجذور تحتوي - لا سيما في نهايتها - على مجموعات مختلفة لا يمكن إخضاعها للقواعد (لاحظ tu — er «قتل»، rég — ner «حكم» quid — er «ارشد» grond — er «زمجر» souffl — er و«هب» tard — er «أخر»، entr — er «دخل»، hurl — er «نبح»: وغيرها). لا عجب، إذن، ان لا يشعر المتكلم في الفرنسية بالجذر.

يقترن بتحديد الجذر تحديد البادئة prefix واللاحقة suffix. فالبادئة تسبق الجزء الذي سميناه الأصل (كما في — hupo في الكلمة الاغريقية hupo — zeugnuml. أما اللاحقة فهي العنصر الذي يضاف الى الجذر لكي نحصل على الأصل (كما في — zeug — mat) أو يضاف الى أصل من الدرجة الأولى، للحصول على أصل من الدرجة الثانية (كما في — zeugmat — io). وقد رأينا، فيما تقدم ان اللاحقة كالنهاية الاعرابية، قد تكون صفراً. فتحديد اللاحقة هو جزء آخر من تحليل الأصل.

قد يكون للاحقة في بعض الأحيان معنى ملموس، أو قيمة لغوية كما في zeuk — tēr حيث اللاحقة tēr تشخص العامل أو الفاعل الذي يقوم بالفعل. وفي أحيان أخرى يكون للاحقة وظيفة نحوية فقط، كما في (mi —) zeūg — nu حيث ان nū — تعبر عن فكرة المضارع. وتقوم البادئة أيضاً بكلتا الوظيفتين، مع ان الوظيفة النحوية للبادئة نادرة في اللغات الأوربية: لاحظ — ge في الألمانية وتدل هذه البادئة على اسم المفعول (ge — setzt الى آخره)، والبادئة في اللغات السلافية، التي تدل على اكتمال الفعل (كما في na — pisāt' الروسية وغيرها).

كما تختلف البادئة عن اللاحقة في صفة مميزة مع انها عامة لكنها غير مطلقة.

فالبادئة معالمها أوضح، لأن فصلها عن الكلمة أسهل. والسبب في ذلك يعود الى طبيعة البادئة. فالكلمة تبقى كاملة عادة بعد إزالة البادئة عنها (كما في الكلمات الفرنسية recommenced «يبدأ ثانية»، commencer يبدأ indigne = لا «يستحق»، digne = «يستحق» maladroit غير «ماهر» adroit «ماهر» : contre poids = «ثقل موازن» : puids = «ثقل» الى آخره).

وفي اللاتينية والاغريقية والألمانية أمثلة أفضل. ثم إن كثيراً من أنواع البادئة تعمل عمل الكلمة المستقلة. لاحظ في الفرنسية contre = ضد، mat = رديء avant = قبل، sur = على: وفي الألمانية unter، vor وغيرها، وفي الاغريقية katá، pró وغيرهما. أما اللاحقة فتختلف عن ذلك تماماً. حيث ان الأصل، بعد إزالتها، لا يؤلف كلمة كاملة: كما في الفرنسية organisation «مؤسسة» — organis، وفي الألمانية Trennung : — trenn؛ وفي الاغريقية zeugma : — zeug وغيرها.(٥٦) ثم ان اللاحقة ليس لها وجود مستقل.

فالجزء الأول من الأصل، إذن، يُشخص عادة سلفاً. فيعرف المتكلم قبل القيام بأية مقارنة مع الصيغ الأخرى، أين يرسم الخط بين البادئة والجزء الذي يتبعها في الكلمة. ولكن هذا لا يصح في الجزء الأخير من الكلمة: حيث لا يستطيع المرء ان يرسم الحدود من دون أن يقارن أولاً بين الصيغ التي لها أصل واحد أو لاحقة واحدة، وبذلك تختلف خطوط الحدود حسب طبيعة الكلمات التي تشملها المقارنة.

وفي التحليل الذاتي، يستمد الأصل واللاحقة قيمتها من التقابل السنتاكمي والايحائي حسب. إذ نستطيع عادة أن نجد عنصراً من عناصر التكوين وعنصراً من عناصر الأصل في جزأين متقابلين للكلمة، إذا توفر مثل هذا التقابل. ففي الكلمة اللاتينية dictátórem مثلاً نجد الأصل (em) ـ dictátór إذا قارنا هذه الكلمة بكلمة consul — em أو ped — em الى آخره، والأصل (torem) — dicta إذا قارناها بكلمة Lic — tórem، Scrip — torem الى آخره، والأصل (tátorem) — dic إذا فكّرنا بكلمة pó — tátórem، ean — tatórem الى آخره. وعلى العموم يستطيع المتكلم ان يتوصل الى تقسيمات لا حصر لها إذا توفرت الظروف الملائمة (فيتوصل الى dictat — orem من am — órem، ard — órem الى آخره) وdict — átórem من ór — átórem، ar — atórem الى آخره). فنحن نعرف ان نتائج هذه التحليلات التلقائية تظهر في الصيغ القياسية لكل فترة من الفترات (لاحظ الجزء الثالث، الفصل الخامس). ونستطيع، عن طريق هذه الصيغ، أن نشخص الوحدات

---

(٥٦) ان هذا النمط لاينطبق بالضرورة على الكلمات الانكليزية المشتقة من اللغات الجرمانية (teach — er,sad — ly,hope — less) ولكنه يصح في الكلمات المشتقة من اللغات الرومانسية (duch — ess,appari — tion,cap — able) (باسكن).
وفي العربية لاينطبق رأي دي‌سوسور على بعض الكلمات (معلمة ـ كاتبة) ولكنه يصح في كلمات اخرى (قنبلة ، عاصمة ، قاطرة) (المترجم).

الفرعية (الجذر، والبادئة واللاحقة والنهاية) التي تحددها اللغة، والقيم التي تنسبها الى هذه الوحدات الفرعية.

٣ ـ الاتمولوجيا Etymology

ليس الاتمولوجيا علماً قائماً بذاته، ولا هو جزء من علم اللغة التطوري. بل هو تطبيق خاص للمبادىء التي تربط بين الحقائق السنكرونية والدايكرونية. فهو يرجع الى تأريخ الكلمات ليجد ما يفسرها.

إن الحديث عن أصل الكلمة وانها «جاءت من كلمة أخرى مسألة قد تعني أشياء كثيرة: فالكلمة الفرنسية sel جاءت من الكلمة اللاتينية sal بعملية بسيطة هي التغيير الصوتي: وكلمة labourer «يحرث» جاءت من الفرنسية القديمة labourer «يعمل» عن طريق تغيير في المعنى فقط وكلمة couver «يحضن البيض» جاءت من الكلمة اللاتينية cubare «في المنام» عن طريق التغيير في المعنى والصوت: وأخيراً القول بأن الكلمات الفرنسية pom... «شجرة التفاح» جاءت من pomme «تفاح» أمر ينطوي على مسألة الاشتقاق ي. ان الأمثلة الثلاثة الأول تخص التطابقات الدايكرونية، أما المثال الرابع فيعتمد ى العلاقة السنكرونية لعدد من العناصر، وكل ما قلناه عن القياس يبين ان هذه العلاقة هي أهم جزء في البحث الاتمولوجي.

إذ لا نستطيع ان نحدد أصل كلمة bonus بمجرد الرجوع الى dvenos. ولكن إذا جدنا ان كلمة bis تعود الى كلمة dvis وهذا ينطوي على وجود علاقة بينها وبين duo، عملية، إذن، هي اتمولوجيا. ويصح الشيء نفسه في المقارنة بين الكلمة الفرنسية oiseau «طير» والكلمة اللاتينية avicellus، لأن مثل هذه المقارنة تُظهر وجود علاقة بين oiseau وavis.

علم الاتمولوجيا، إذن، هو في جوهره تفسير للكلمات من خلال دراسته التأريخية لعلاقة هذه الكلمات بالكلمات الأخرى. وتعني كلمة تفسير، إيجاد علاقة بينها وبين الكلمات المعروفة، وفي علم اللغة نقول إن **تفسير كلمة ما هو الكشف عن علاقتها بغيرها من الكلمات**. إذ لا توجد علاقات ضرورية بين الصوت والمعنى (حسب مبدأ الطبيعة الاعتباطية للاشارة، الجزء الأول، الفصل الأول).

إن الاتمولوجيا لا يفسر الكلمات المفردة حسب ثم يقف عند ذلك، بل يجمع تأريخ مجموعات الكلمات ومجموعات عناصر تكوين الكلمة ـ كالبادئة واللاحقة وغيرهما.

والاتمولوجيا شأنه شأن علم اللغة الثابت، وعلم اللغة (التطوري) يصف الحقائق. ولكن هذا الوصف ليس منتظماً لأنه لا يتبع أسلوباً ثابتاً. إذ يأخذ علم الاتمولوجيا معطياته، في أثناء جمعه لتأريخ الكلمات، من علم الصوت والصرف (مورفولوجيا) وعلم الدلالة (سمانتيك) وغيرها. ويستخدم الاتمولوجيا الوسائل المتوفرة له في علم اللغة، من أجل تحقيق الهدف، ولكنه لا يهتم بطبيعة العمليات التي يُضطر الى القيام بها.

الجزء الرابع

علم اللغة الجغرافي

الفصـــل الأول
في تنوع اللغـــات

نأتي الآن الى مسألة العلاقات المكانية بين الظواهر اللغوية، وبذلك نترك علم اللغة الداخلي وندخل علم اللغة الخارجي. وقد حددنا نطاق علم اللغة الخارجي في الفصل الخامس من المقدمة.

إن أبرز ما يظهر في دراسة اللغات هو تنوعها - أي الفروق اللغوية التي تظهر عند الانتقال من بلد الى آخر، بل من منطقة الى أخرى. وكثيراً ما يغيب عن بال الملاحظ التنوع الزماني، أما التنوع المكاني فيظهر للمرء في الحال. بل يدركه حتى الرجل البدائي بفضل اتصاله بأبناء قبيلة تتكلم لغة أخرى. وهذه المقارنات هي التي تجعل الأمة تشعر بلغتها.

ونذكر أن هذا الشعور يجعل الناس البدائيين ينظرون الى اللغة على انها عادة أو تقليد كالملابس أو الأسلحة. فلفظة idiom (اصطلاح = لغة) تصح في اللغة لأنها تعكس صفات «يختص بها المجتمع (فلفظة idióma في الاغريقية تعني «تقليداً خاصاً»). ولكن هذه الفكرة، مع انها مناسبة، تصبح مضللة عندما يذهب المرء الى ان اللغة ليست من صفات الأمة، بل من صفات العِرق، شأنها شأن لون البشرة أو شكل الرأس.

ومما يستحق الذكر أيضاً ان كل أمة تؤمن بتفوق لغتها، وتعد الذي لا يتكلم هذه اللغة أعجمياً. فلفظة bárbaros الاغريقية، على سبيل المثال، كانت تعني «الشخص الذي يتلعثم» وارتبطت بالكلمة اللاتينية balbus: والروس يطلقون على الألمان صفة Nèmtsy أي «بكم».

فالتنوع الجغرافي، إذن، أول مسألة لاحظها علم اللغة. وقد حدد هذا التنوع المراحل الأولى للبحث العلمي في اللغة، حتى عند الاغريق. بل ان الاغريق اهتموا فقط بتنوع اللهجات الهيلينية المختلفة، وسبب ذلك ان اهتمامهم لم يتجاوز، عادةً حدود بلاد الاغريق.

بعد أن يلاحظ المرء اختلاف لغتين، يبدأ عادة بالبحث عن أوجه الشبه بينهما. وهذا ميل طبيعي عند المتكلمين. فكثيراً ما يقارن الفلاحون لهجتهم بلهجات القرى المجاورة. والأشخاص الذين يتكلمون عدة لغات يلاحظون أوجه الشبه بينها. ولكن علم اللغة، لأسباب غامضة، قد انتظر وقتاً طويلاً قبل أن يستفيد من نتائج هذه الملاحظات. فالاغريق على سبيل المثال لاحظوا كثيراً من نقاط التشابه بين الكلمات اللاتينية التي في لغتهم ولكنهم لم يستطيعوا استخلاص أية نتائج لغوية من ذلك.

إن الملاحظة العلمية لأوجه التشابه اللغوية تدل على أن لغتين أو أكثر تنتمي الى

أسرة واحدة، وان لها أصلاً واحداً. فمجموعة اللغات المتقاربة تؤلف أسرة واحدة. وقد شخص علم اللغة الحديث تشخيصاً متعاقباً عدداً من الأسر اللغوية: منها الهندية ـ الأوربية والسامية، والبانتو(٥٧) وغيرها. وإذا قارنا هذه الأسر وجدنا انها تشير في بعض الأحيان الى علاقات تشابه أوسع وأقدم. فقد جرت محاولات لايجاد أوجه الشبه بين أسرة فينو ـ اوكريك(٥٨) والهندية ـ الأوربية، وبين الأسرة الأخيرة والأسرة السامية وغيرها ولكن مثل هذه المقارنات تواجه صعوبات كبيرة. وينبغي للمرء أن لا يخلط بين ما هو محتمل وما يمكن ملاحظته. ان التقارب الشامل بين اللغات أمر غير محتمل، وحتى إذا كان حقيقة ـ كما يعتقد اللغوي الايطالي ثرومبيتي(٥٩) فلا يمكن البرهنة عليه بسبب التغييرات الكثيرة التي حصلت بين فترة وأخرى.

هناك، إذن، تنوع بين اللغات المتقاربة، كما ان هناك تنوعاً مطلقاً ـ فروقاً بين اللغات التي لا تنتمي الى أصل واحد يمكن معرفته أو يمكن ملاحظته. ما الأسلوب الذي ينبغي لعلم اللغة ان يتبعه في الحالتين؟ لنبدأ بالحالة الثانية، وهي أكثر شيوعاً. فقد لاحظنا ان عدداً لا يحصى من اللغات والأسر اللغوية لا ينتمي الى أصل واحد. وخير مثال على ذلك، اللغة الصينية والهندية ـ الأوربية. ان هاتين الأسرتين تختلفان ولكن هذا لا يعني اننا لا نستطيع مقارنتهما، لأن المقارنة ممكنة دائماً ومفيدة. فهي تطبق على الأنظمة النحوية والأساليب العامة للتعبير عن الفكر وعلى الأنظمة الصوتية. كما تضم الحقائق الدايكرونية والتطور الصوتي للغتين وغير ذلك. واحتمالات المقارنة، مع انها لا تحصى، تتقيد بعض المعطيات الصوتية والسايكولوجية الثابتة، التي تحدد تركيب أية لغة من اللغات. فاكتشاف هذه المعطيات الثابتة هو الهدف الأساس لكل مقارنة بين اللغات التي تنتمي الى أصل واحد.

أما النوع الآخر من الفروق ـ الفروق ضمن الأسر اللغوية فهي تسمح بمجال غير محدد للمقارنة. فقد تختلف لغتان بدرجات مختلفة. كما يمكن أن تتشابها الى حد كبير، كاللغة الزندية والسانسكريتية. وقد تختلفان تماماً كما هي الحال مع السانسكريتية الكالية. وبين الحالتين درجات. فالشبه بين الاغريقية واللاتينية أكثر منه بين السانسكريتية وأي من اللغتين. واللغات التي تختلف قليلاً جداً تسمى باللهجات dialects. ولكن استعمال هذه اللفظة غير دقيق. إذ سنرى ان الاختلاف بين اللغات واللهجات في النوع، وليس في طبيعة الظاهرتين اللغويتين.

---

(٥٧) بانتو مجموعة لغات تتكلمها قبائل في جنوب افريقيا ، لاسيما قبائل كافير . (بالي)

(٥٨) تضم اسرة فينو ـ اوكريك ـ من بين ما تضم ـ اللغة الفنلندية او لغة سومي ومورديفيا ولاب وغيرها . ويتكلم الناس بهذه اللغات في شمال روسيا وسيبيريا . مما لاشك فيه ان اللغات هذه تعود الى أصل واحد . وهذه الأسرة جزء من أسرة اورال ـ التياك التي لم يتوصل البحث الى اصلها المشترك ، مع وجود بعض اوجه الشبه بين جميع هذه اللغات . (بالي) .

(٥٩) لاحظ كتابة lunita dorigine del Linguaggio بولون ١٩٠٥ . (بالي)

الفصـــل الثاني
التعقيد في التنوع الجغرافي

١ ـ وجود عدد من اللغات سوية في نقطة واحدة

لقد تحدثنا عن التنوع الجغرافي حتى الآن في شكله المثالي: ففي العالم مقاطعات جغرافية، قدر اللغات المختلفة. ان أسلوبنا هذا له ما يسوغه، لأن الحدود الجغرافية لا هي أقوى العوامل في التنوع اللغوي، ولكن هناك عوامل ثانوية تغير من هذه العلاقة المثالية وتؤدي الى وجود عدد من اللغات في منطقة جغرافية واحدة.

نذكر أولاً شيئين ذكراً سريعاً. أولاً التمازج أو الاختلاط العضوي الحقيقي بين لغتين يؤدي الى تغيير في النظام اللغوي (كما حدث للانكليزية بعد الغزو النورماندي). ثانياً، الظرف السياسي الذي يجعل من عدد من اللغات، التي تعود الى مناطق جغرافية مختلفة توجد ضمن حدود دولة واحدة، كما في سويسرا. ان ما يهمنا هنا هو وجود لغتين في مكان واحد، من دون تمازجهما. وهو كثيراً ما يحصل: ويكون على نوعين. أولاً: قد يفرض القادمون الجدد لغتهم على لغة البلاد الأصلية. مثال ذلك ما حدث في جنوب أفريقيا، فقد جاء الاستعمار الهولندي وأعقبه الاستعمار الانكليزي ليجلبا معهما اللغة الهولندية واللغة الانكليزية، وهاتان اللغتان تعيشان الآن جنباً الى جنب مع عدد من اللغات الزنجية. وحصل الشيء ذاته حين أُدخلت اللغة الاسبانية الى المكسيك. وهذا التغلغل اللغوي لا يقتصر على العصور الحديثة. فقد امتزجت الأمم خلال عصور مختلفة من التأريخ، ومع ذلك حافظت على لغاتها بصورة متميزة، فما علينا إلا ان ننظر الى خارطة أوربا لنتذكر هذه الحقيقة.: اللغة الكلتية واللغة الانكليزية في ارلندة، فكثير من الارلنديين يتكلم اللغتين. واللغة الفرنسية والبريتونية في بريتاني (بفرنسا). ونجد في مقاطعة الباسك ثلاث لغات: الفرنسية والاسبانية والباسك. وفي فنلندة، عاشت السويدية والفنلندية سوية مدة طويلة من الزمن، ثم أضيفت الروسية في الآونة الأخيرة. وفي كورلاند وليفونيا يتكلم الناس اليديشيّة والألمانية والروسية: وقد أدخل الألمانية المستعمرون في أثناء وصاية عصبة هانسيتك في القرون الوسطى، وتتكلم بها الآن طبقة معينة من الناس. ثم دخلت الروسية عن طريق الغزو، وشاهدت لقوانيا إدخال اللغة البولونية جنباً الى جنب مع اللغة اللتوانية نتيجة اتحادها في الماضي مع بولندا، ودخلت الروسية الى هذه البلاد بعد أن ضمتها روسيا اليها. وكانت اللغة السلافية والألمانية مستخدمة حتى القرن الثامن عشر في جميع المنطقة الألمانية الواقعة الى الشرق من الألب. واللغات في بعض الأقطار أكثر تشابكاً مما ذكرنا. فنجد في مقدونيا عدداً كبيراً من اللغات ـ التركية والبلغارية والعربية

والاغريقية والألبانية والرومانية وغيرها ـ وتمتزج هذه اللغـات بأسـاليب مختلفة وفي أماكن مختلفة من هذه البلاد.

إن اللغات الموجودة في منطقة ما لا تتشابك دائماً بصورة مطلقة: فقد نجد توزيعاً جغرافياً نسبياً: كما في حالة لغتين، تستخدم إحداهما في المدن والأخرى في الريف، لكن مثل هذا التوزيع لا يكون واضحاً دائماً.

ونجد القصة نفسها في الأزمنة القديمة. فالخريطة اللغوية للامبراطورية الرومانية تبين حقائق مماثلة لما ذكرناه آنفاً. ففي نهاية العصر الجمهوري، على سبيل المثال، نجد في كامبانيا ثلاث لغات أو أربعاً: لغة الاوسكان، المذكورة في النقوش بومباي، والاغريقية. وهي لغة المستعمرين الذين شيدوا نابولي وغيرها، واللاتينية، وربما الاتروسكان، وكانت الأخيرة هي السائدة قبل مجيء الرومان. وفي قرطاجنة، بقيت اللغة الفينيقية جنباً الى جنب مع اللاتينية (وقد ظلت هذه الحال حتى الفتح العربي)، كما كانت اللغة النوميدية مستخدمة في منطقة قرطاجنة. ويمكن القول ان الأقطار التي كانت تتلكم لغة واحدة في حوض البحر المتوسط، في العصور القديمة، تكوّن الاستثناء لا القاعدة.

ويُعد الغزو السبب المألوف لفرض اللغة من الخارج، ولكن هذه الحالة قد تأتي أيضاً من خلال التغلغل الذي يأتي عن طريق الاستيطان. أو قد تأخذ القبائل الرحل لهجاتها معها، وهذا ما فعله الغجر، لاسيما أولئك الذين سكنوا المجر، إذ يؤلفون قرى قائمة بذاتها، وتبين دراسة لغتهم أنهم لابد ان جاؤوا من الهند في فترة غير معروفة من الماضي. وفي دوبروبيا في مصب نهر الدانوب تنتشر قرى التتر على هيئة نقاط صغيرة على الخارطة اللغوية للمنطقة.

٢ ـ اللغة الأدبية واللغة المحلية

وقد تتشتت الوحدة اللغوية عندما تتأثر لغة طبيعية بلغة أدبية. وهذا يحدث دائماً كلما سعت أمة لبلوغ مرحلة من المدنية. وأعني باللغة الأدبية لغة الأدب فضلاً عن لغة الثقافة على نحو عام، واللغة الرسمية التي تخدم المجتمع بأكمله. فإذا أطلقت الحرية للغة فأنها تتشعب الى لهجات حسب، وليس لأية لهجة ميزة على الأخرى، ولهذا السبب تتفرع اللغة عادة. وما أن تتحسن وسائل الاتصال والسفر، بتقدم المدنية، حتى يقع الاختيار العام على إحدى اللهجات لتكون وسيلة للتعبير عن كل ما يتعلق بالأمة. وتختلف أسباب هذا الاختيار الى حد كبير. فقد يقع الاختيار على لهجة المنطقة التي هي أكثر تقدماً في المدنية من غيرها، أو لهجة المنطقة المتفوقة سياسياً ولها سلطة مركزية. وقد يفرض البلاط لهجته على الأمة. وبعد ان تصبح اللهجة المختارة اللغة الرسمية واللغة الفصيحة، فانها قلما تبقى على حالتها الأولى. بل تكتسب عناصر محلية من مناطق أخرى، وتصبح خليطاً

أكثر فأكثر، من دون أن تفقدَ، تماماً، طابعها الأول. وهكذا تَعد لهجة ايل دى فرانس واللغة الأدبية الفرنسية ولهجة توسيكان اللغة الايطالية الفصيحة. ولكن اللغة الأدبية لا تُفرض على الناس بين ليلة وضحاها، فنجد أغلبية الناس يتكلمون الفصيحة واللجهة المحلية. وهذا ما نجده في أجزاء من فرنسا، مثل سافورى، حيث الفرنسية، وهي لغة مستوردة، لم تقض تماماً على اللهجة الشعبية المحلية، كما نجد ذلك في المانيا عامة وفي إيطاليا، حيث بقيت اللهجات جنباً الى جنب مع اللغة الرسمية.

وينطبق الشيء نفسه على الأمم التي بلغت مرحلة معينة من المدنية. فكان للاغريق لغتهم الفصيحة «كواني» المستمدة من لهجتي اتيكا وأيونا فضلاً عن اللهجات المحلية الموجودة معها. وربما للبابليين القدامى لغة رسمية ولهجات للمناطق المختلفة.

هل تنطوي اللغة الفصيحة بالضرورة على استخدام الكتابة؟ إن أشعار هوميروس - على ما يبدو - خير دليل على ان الجواب عن ذلك يكون بالنفي. فمع ان هذه الأشعار ألفت في وقت قلما استعملت الكتابة فيه، أو لم تكن مستعملة قط، كانت لغتها تقليدية؛ لها جميع سمات اللغة الأدبية.

إن الحقائق التي ناقشناها في هذا الفصل مألوفة، بل إنها قد تُعد عوامل طبيعية في تأريخ اللغات. ولكي لا نخرج عن الموضوع، يجب ان نتجنب كل ما من شأنه تمويه الظاهرة الجوهرية للتنوع الجغرافي الطبيعي ونعدها شيئاً مستقلاً عن لغة أجنبية دخيلة أو عن لغة أدبية. ان هذا التبسيط في الخط يخالف - على ما يبدو - واقع الحال، ولكن الحقيقة الطبيعية ينبغي ان تدرس لوحدها.

وطبقاً لهذا المبدأ يجب أن نقول ان بروكسل المانية لأنها تقع في منطقة الفليمنك من بلجيكا: ومع ان اللغة المستخدمة هناك هي الفرنسية، يكون المهم هو الحدود بين مقاطعات الفليمنك ومقاطعات فابلون. ومدينة ليبج رومانية للسبب ذاته: فهي في منطقة والون. والفرنسية لغة أجنبية فرضت على لهجة محلية تعود الى الأصل الذي تنتمي اليه الفرنسية. وكذلك تعود برست لغوياً الى بريتون، والفرنسية المستعملة هناك لا علاقة لها باللغة الأصلية لمقاطعة بريتاني. وبرلين حيث يكاد جميع الناس يتكلمون الألمانية العليا، هي جزء من الألمانية السفلى، الى غير ذلك.

الفصـــل الثالث
أسباب التنوع الجغرافي

١ - الزمن، السبب الأساس.

إن التنوع المطلق يثير مشكلة نظرية بحتة (لاحظ الجزء الرابع، الفصل الأول)، أما التنوع ضمن لغات تنتمي الى أصل واحد فأمر يمكن ملاحظته، والعود به الى الوحدة اللغوية. فالأصل المشترك للفرنسية والبروفنسال يمكن تفسيره بأن اللاتينية العـامية اتجهت اتجاهين مختلفين في القسم الشمالي والقسم الجنوبي من بلاد الغال.

ونستطيع أن نصل الى السبب الأساس في التمييز المكاني للغـات، إذا بسطنـا الظروف النظرية الى أبعد حد ممكن. ماذا يحدث لو نقلت لغة ما مستعملة في مكان محدد - كجزيرة صغيرة - وزرعها المستوطنون في مكان مُحدّد آخر - جزيرة أخرى مثلاً؟ بعد مرور مدة من الزمن تظهر فروق المفردات والقواعد واللفظ ؛ تفصل اللغة الأصلية (S) عن اللغة التي زرعها المستوطنون ('S).

من الخطأ الاعتقاد ان اللغة المنقولة هي التي تتغير وحدها، وتبقى اللغة الأصلية ثابتة، أو عكس ذلك. فقد يظهر التغيير في إحدى اللغتين أو في كلاهما في آن واحد. لنأخذ العنصر اللغوي (a) الذي يمكن أن يحل محلة b، c، d، الى آخره. سنجد ان التمييز قد يحدث بثلاثة أساليب مختلفة:

$$\frac{b}{a} \longrightarrow$$

$$\frac{a}{c} \longrightarrow \qquad \frac{a \text{ (S الأصل)}}{a \text{ (S' اللغة المنقولة)}}$$

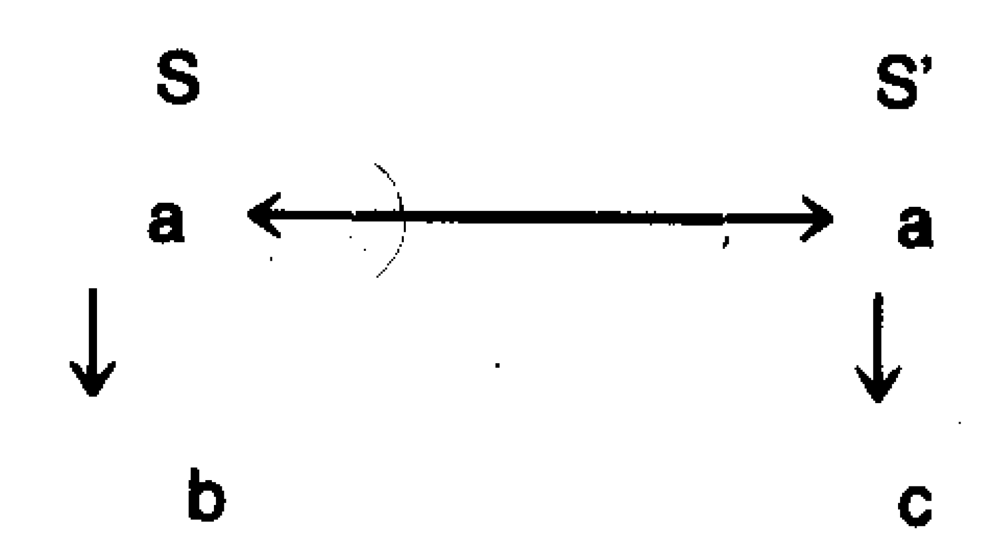
$$\frac{b}{c} \longrightarrow$$

فدراسة المسألة من جانب واحد لا تفي بالغرض، لأن العناصر الجديدة في اللغة الأولى مهمة كاللغة الثانية.

ما الذي خلق الفروق؟ من الخطأ الاعتقاد بأن المكان وحده هو السبب. فالمكان وحده لا يمكن أن يؤثر في اللغة. فالمستوطنون القادمون من S كانوا يتكلمون اللغة نفسها التي تكلموها في اليوم السابق، وذلك يوم وصولهم الى جزيرة 'S. ومن السهل أن ننسى عامل الزمن، لأنه أقل وضوحاً من المكان. ولكنه في الحقيقة العامل الذي يؤدي الى التمييز

اللغوي. فالتنوع الجغرافي ينبغي أن يسمى بالتنوع الزمني.

إذا أخذنا الصفتين المتميزتين b، c. وجدنا انه ما من متكلم انتقل من العنصر الأول الى الثاني، أو من العنصر الثاني الى الأول. فإذا أردنا أن نفهم كيف تُحدث الوحدة اللغوية تنوعاً لغوياً، فعلينا أن نعود الى الصفة الأصلية a التي يحل محلها العنصران a، b فقد تغير a وأصبح b وc. لذا تصح الصورة التالية للتمييز الجغرافي في الحالات المماثلة:



إن الفصل بين اللغتين يبين الشكل الملموس لهذه الظاهرة ولكنه لا يفسرها. مما لا شك فيه ان الفصل المكاني شرط ضروري - مهما كان حجمه صغيراً - ولكن البعد وحده لا يخلق الفروق. فالحجم في هذه الحالة لا يقاس بسطح واحد، بل بإضافة بعد ثالث، العمق، وكذلك التمييز الجغرافي؛ لا يمكن تصوره كلياً إلا إذا أضيف اليه العمق الزمني.

وقد يعترض البعض فيقول ان الفروق في البيئة والمناخ والطوبوغرافيا والتقاليد المحلية (كالفرق بين عادات سكان الجبال وسكان الشواطىء) كلها تؤثر في اللغة، لذا تتكيف الفروق جغرافياً. بيد ان مثل هذه العوامل موضع خلاف (لاحظ الجزء الثالث، الفصل الثاني)، حتى إذا استطعنا البرهنة على صحتها، فنحن نحتاج الى تمييز آخر وهو: ان اتجاه الحركة، الذي تتحكم فيه دائماً العوامل القوية المتسلطة التي لا يمكن ملاحظتها أو وصفها، يعزى الى البيئة. فقد تغير الصوت u وأصبح ü في لحظة معينة وفي بيئة معينة. لماذا تغير هذا الصوت في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، ولماذا أصبح ü بدلاً من o؟ لا نستطيع الاجابة عن هذا السؤال. ولكن التغيير نفسه - أو عدم استقرار اللغة - ينبع من الزمن وحده (إذا تركنا الاتجاه الذي يتخذه التغيير والأشكال التي يظهر بها). فالتنوع الجغرافي، إذن، هو جانب ثانوي من هذه الظاهرة العامة ووحدة اللغات المتقاربة لها وجود في الزمن فقط. وإذا لم يدرك اللغوي المهتم بمقارنات اللغات هذا المبدأ إدراكاً جيداً، فمن المحتمل جداً أن يقع في وهم.

٢ - تأثير الزمن في المنطقة المتصلة

لنأخذ الآن قطراً يتكلم لغة واحدة، أي قطراً له وحدة لغوية ومكان مستقر، كبلاد الغال نحو عام ٤٥٠م، حيث استقرت اللغة اللاتينية في كل مكان من هذه البلاد. ماذا

سيحدث في هذه الحال؟

(١) لما كانت حالة الاستقرار المطلق (عدم التغيير) في اللسان شيئاً لا وجود له (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثاني) فإن اللغة لن تبقى علىّ حالها بعد مضي فترة من الزمن.

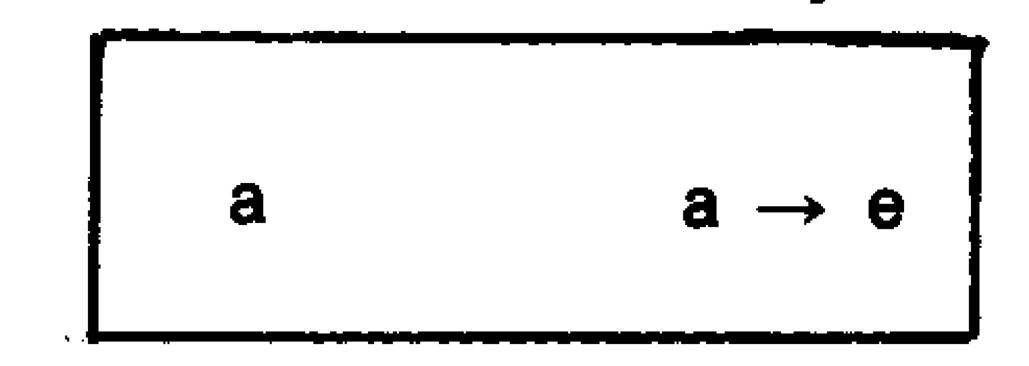
(٢) لن يكون التطور واحداً في جميع أجزاء البلاد، ولكنه سيختلف من منطقة الى أخرى. إذ لا تتوفر لدينا سجلات تشير الى ان لغة ما قد تغيرت بطريقة واحدة في جميع أجزاء البلاد، فالرسم الأول إذن غير صحيح والرسم الثاني هو الصحيح.

كيف تظهر الفروق التي تؤدي الى لهجات متنوعة جداً؟ وما النمط الذي يسير بموجبه تطورها؟ إن التمييز من خلال الزمن، وهو أكثر تعقيداً مما يبدو، له صفتان أساسيتان:

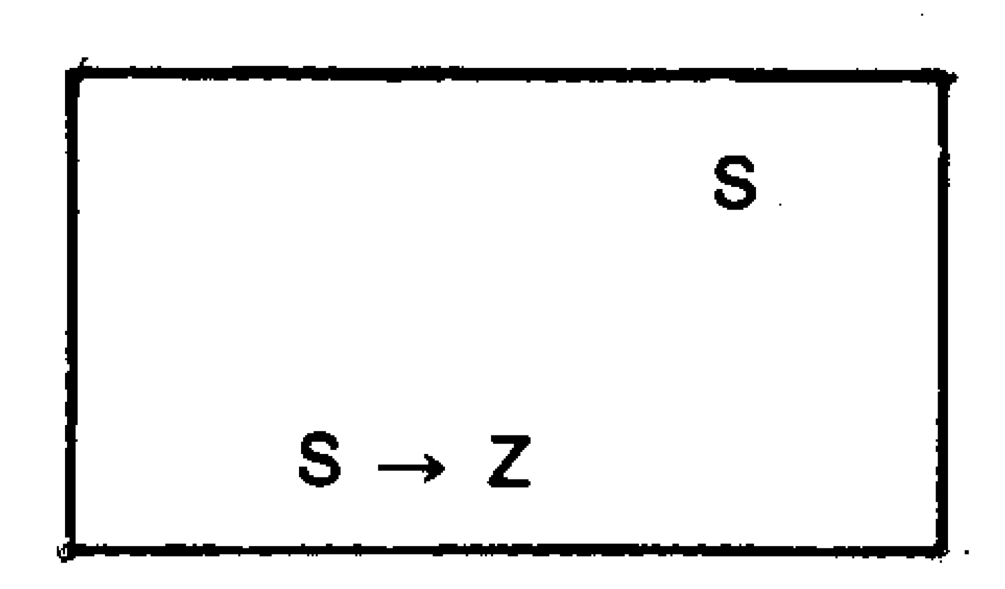
(١) يأتي التطور على هيئة خلق حقائق جديدة، متعاقبة، دقيقة. وهذا يضم حقائق جزئية كثيرة، بقدر يستطيع المرء معه احصاءها و وصفها وتصنيفها حسب طبيعتها (صوتية ومعجمية، ومورفولوجية (صرفية) ونحوية وغير ذلك).

(٢) كل حقيقة جديدة تضم مجالاً محدداً معيناً، وفي ذلك احتمالان: قد يضم مجال الحقائق الجديدة المنطقة الجغرافية بأكملها، فلا يؤدي ذلك الى فروق في اللهجات (وهذا أقل الاحتمالين حدوثاً)، أو قد يشمل التغيير جزءاً من المنطقة الجغرافية، وتختص كل لهجة بمنطقة جغرافية معينة (وهو احتمال أكثر حدوثاً).

ويمكن توضيح ذلك بأمثلة من التغيير الصوتي، وإن كان التغيير يشمل جميع المجالات. مثال ذلك، قد تشهد بعض أجزاء المنطقة الجغرافية تغييراً في الصوت a فيصبح e:



وقد يحدث تغيير آخر في المنطقة نفسها، ولكن ضمن حدود أخرى فيتحول الصوت S الى Z:



فوجود هذه المناطق الجغرافية المتميزة يفسر تنوع أشكال اللسان، حسب الأماكن في مواطن اللغة، التي تُركت لتتطور تطوراً طبيعياً. ولا يوجد سبيل الى التكهن عن هذه المناطق: ولا يوجد ما يشير الى طريقة توزيعها: فكل ما نستطيع عمله هو تسجيلها. فهي تؤلف على الخريطة أنماطاً معقدة جداً، حيث تتقاطع الحدود مرات كثيرة وتبدو هذه الأنماط غريبة في بعض الأحيان. فقد تغير الصوتان c، g قبل a وأصبحا tš، dš ثم S، Z (لاحظ cantum ← chant «أغنية»، وverge virga «عصا») في الجزء الشمالي من فرنسا كله، عدا بكاردي وجزءاً من نورماندي، حيث بقي الصوتان c، g من دون تغيير (لاحظ استعمال cat بدلاً من chat «قط» في بكاردي، وكذلك rescapé بدلاً من réchappé وقد دخلت الكلمة الأخيرة الفرنسية قبل مدة قصيرة، وvergue المشتقة عن virga التي ذكرت آنفاً، وغير ذلك).

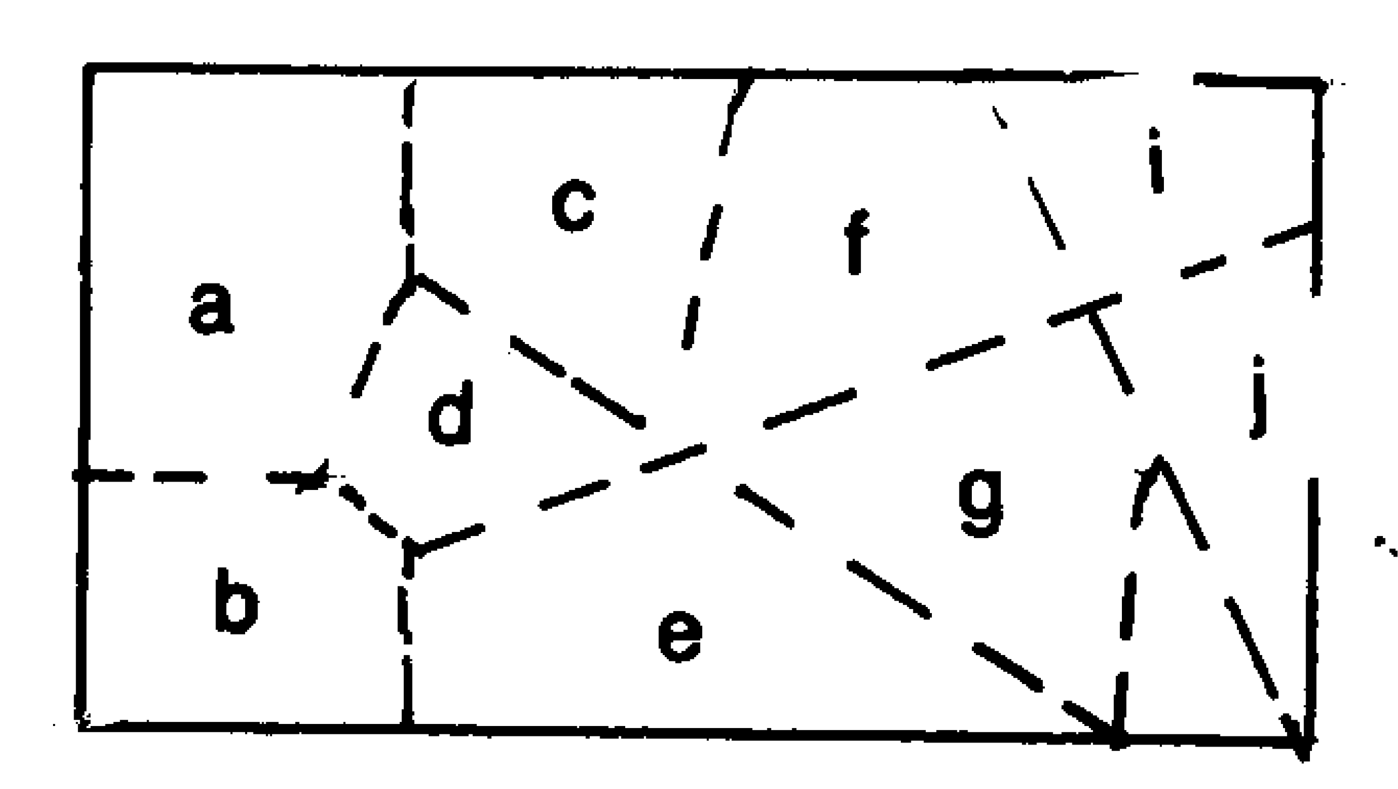
ما نتيجة التنوع (التمييز) من خلال الزمن؟ قد تسيطر لغة واحدة على منطقة جغرافية بأكملها، في لحظة معينة من التأريخ، وبعد مرور خمسة قرون، أو عشرة، ربما لا يستطيع سكان جزء هذه من المنطقة ان يفهموا لغة سكان جزء آخر بعيد عنهم. ومع ذلك يفهم سكان كل جزء من المنطقة لغة سكان الجزء المجاور لهم. فالمسافر من نهاية هذه المنطقة الى النهاية الأخرى لن يلاحظ سوى فروق محلية صغيرة، من مكان الى آخر. ولكن المجموع الكلي لهذه الفروق يزداد شيئاً فشيئاً حتى يصل المسافر الى لغة لا يفهمها سكان المكان الذي بدأ منه سفره. أو انه إذا بدأ من نقطة معينة في المنطقة وسافر بعيداً عنها، مرة في هذا الاتجاه ومرة في ذلك الاتجاه، فسيجد مجموع هذه الفروق يزداد في كل اتجاه، ويختلف مجموع الفروق في اتجاه ما عن الاتجاه الآخر.

فالصفات الخاصة بلهجة قرية ما قد تظهر ثانية في الأماكن المجاورة، ولكن لا يوجد من سبيل يدلنا على المدى الذي تصل اليه هذه الصفات. فعلى سبيل المثال، يطلق على جنيف في دوفين بسافوري العليا «دنفا». وتسمع هذه اللفظة الى الشرق والجنوب من تلك المنطقة، ولكن سكان الجانب الآخر من بحيرة جنيف يقولون «درزنفا». ومع ذلك ليست المسألة مسألة لهجتين متميزتين تميزاً واضحاً لأن الحدود تختلف بالنسبة لظاهرة لغوية أخرى. فالمتكلمون في دوفين يستخدمون daue بدلاً من deux «أثنان» ولكن هذه اللفظة تستخدم في منطقة جغرافية أصغر من المنطقة التي تستخدم دنفا denva. فالمتكلمون عند سفوح ساليف، على بعد كيلومترات قليلة من دوفين يستخدمون due.

٣ ـ اللهجات ليس لها حدود طبيعية

الرأي السائد اليوم، وهو يختلف عن رأينا، هو عدُّ اللهجات أنماطاً لغوية محددة متميزة، لها حدود في جميع الجهات، وتغطي هذه اللهجات مناطق جغرافية متميزة، تقع

الواحدة الى جانب الأخرى على الخارطة (a، b، c، d الى آخره). بيد ان التغييرات الطبيعية في اللهجات تؤدي الى نتائج مختلفة تماماً عما ذكرناه آنفاً. فما إن ندرس كل ظاهـرة، وحدها، ونحدد توزيعها حتى يتغير رأينا القديم ويحل محله رأي جديد. فلا توجد لهجات طبيعية، بل مميزات طبيعية للهجات وبعبارة أخرى يوجد من اللهجات بقدر وجود الأماكن الجغرافية.



ففكرة اللهجات، الطبيعية إذن لا تتفق وفكرة المناطق المحددة الثابتة. ولم يبق لدينا سوى خيارين: (١) يمكن أن نحدد اللهجة عن طريق مجمل الصفات المميزة لها - وهذا ينطوي على اختيار نقطة على الخارطة، وتحديد أشكال اللسان لمنطقة جغرافية واحدة فقط، طالما ان هذه المميزات لن تمتد الى أبعد من النقطة المحددة على الخارطة، أو (٢) قد نحدد اللهجة باستخدام إحدى المميزات لخاصة بها، ونرسم خريطة لانتشار هذه الصفة فقط - وهو، ولا شك، أسلوب مصطنـع، لأن الحدود التي نـرسمها عـلى الخارطة لن تتفق مع واقع الحال لأية لهجة.

لقد كان البحث في الصفات المميزة للهجات هي نقطة البداية في رسم الخـرائط اللغوية. وخير نموذج للأطالس اللغوية هو أطلس جيليرون الموسوم بـالأطلس اللغوي لفرنسا (Atlas Linguistique de la France).

كما ينبغي ان نذكر الخارطة التي رسمها فنكر لألمانيا.[٦٠]

ويحدد شكل الأطلس سلفاً، لأن علينا أن ندرس منطقة بعد أخرى من البلاد التي نرسم خريطتها، ولن تضم الخارطة إلا عدداً قليلاً من مميزات اللهجة الموجودة في مكان معين. وعلى المرء أن يغربل الحقائق لكل منطقة عدة مرات لكي يلقي الضوء على المميزات الصوتية والمعجمية والصرفية الى آخره، الذي يُفرض بعض منها على البعض الآخر. إن مثل هذا العمل يحتاج الى مجموعة من الخبراء، وأسئلة معدة إعداداً جيداً، وتعاون من

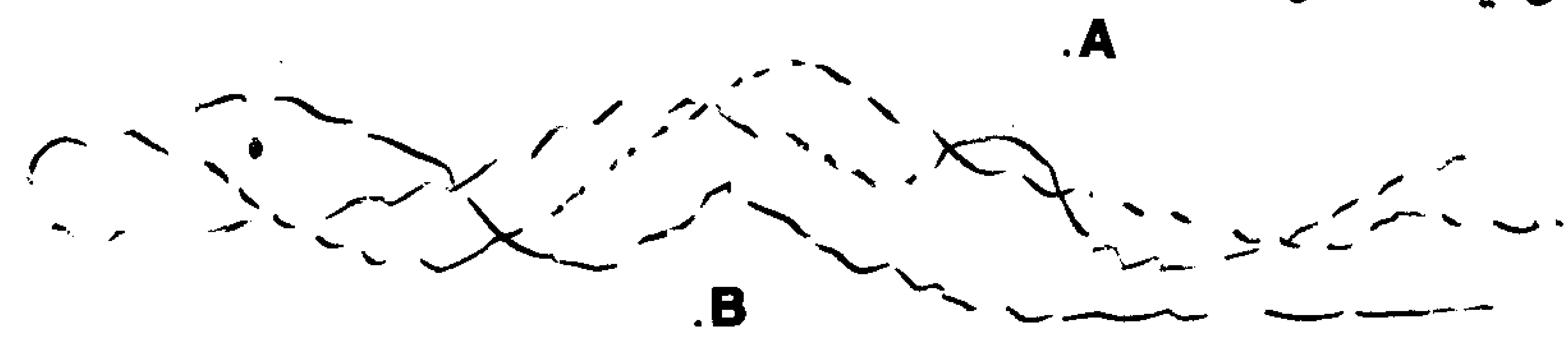
(٦٠) لاحظ ايضا Weigand, Linguistischer AHas des dakoruma nischen Gebiets (١٩٠٩)؛ وكذلك Miuarrlet Petit atlas linguistique d,une region des Landes (١٩١٠). سوسور.

جانب المراسلين المحليين، الى غير ذلك. ولابد أن نذكر هنا مشروعاً من هذه المشاريع يهتم بدراسة اللهجة الشعبية المحلية للناطقين بالفرنسية في سويسرا. فالأطالس اللغوية مفيدة لأنها توفر مادة يمكن استغلالها في علم اللهجات dialectology. فهناك مقالات كثيرة تستند الى أطلس جيليرون.

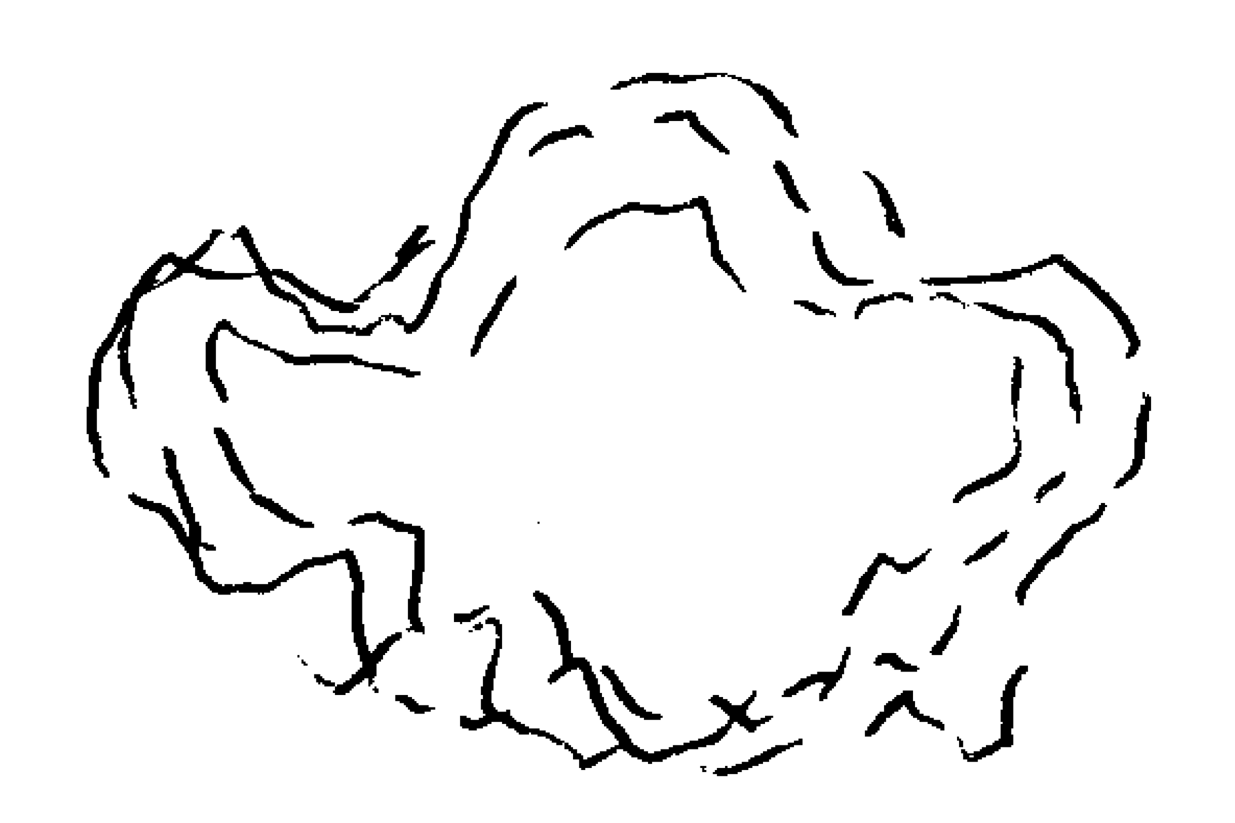
لقد سميت الخطوط، التي تفصل بين المميزات العامة للهجات، خطوط اللهجات isogloss Lines أو isoglosses. ان هذه اللفظة التي صيغت قياساً على لفظة isotherme «خطوط الحرارة»، مبهمة في معناها وغير مناسبة، لأنها تعني «التساوي في اللغة». ولما كانت لفظة glosseme تعني «طبيعة إصطلاحية»، فان لفظة isoglossematic line أفضل إذا كانت عملية. ومع ذلك أفضل استخدام لفظة innovating waves «موجات التجديد» وكان أول من استخدم هذه اللفظة ج. شمت. J. Schmidt.

وسأبين في الفصل الثالث لماذا أفضل هذه اللفظة على غيرها.

إذا القينا نظرة سريعة على الأطلس اللغوي فربما رأينا موجتين أو ثلاثة تتفق أو تتوافق في منطقة واحدة:



إن اللفظتين A، B تفصل بينهما مثل هذه المنطقة، ونجد فيهما بعض الانحرافات فهما يؤلفان نوعين متميزين من اللسان. ولا يكون التوافق جزئياً، بل يتميز به محيط منطقتين أو أكثر بالكلمة:



فتتحدد اللهجة، تحديداً عاماً، عن طريق تراكم قدر كاف من التوافق. وتستند أسسها الى عوامل ، اجتماعية وسياسية ودينية الى آخره، وهي أمور لا تهمنا الآن، تغطي، ولكنها لا تطمس كلياً الحقيقة الجوهرية والطبيعية للتمييز بين منطقة وأخرى.

٤ ـ اللغات ليس لها حدود طبيعية

من الصعب أن نحدد تحديداً دقيقاً كيف تختلف اللغة عن اللهجة. فكثيراً ما يطلق على لغة ما لهجة لأن لها نتاج أدبي. كما هي الحال مع اللغة البرتغالية والهولندية. كما ان للفهم دوراً في هذه المسألة: فالجميع يتفقون على ان الناس الذين يفهم بعضهم بعضاً يتكلمون لغات مختلفة. وعلى كل حال تملك اللغات، التي تطورت في منطقة متصلة وبين سكان مستقرين، تملك ـ بوجه عام ـ خصائص تشبه خصائص اللهجات. إذ تظهر موجات التجديد هنا وهناك، مع فارق واحد وهو: انها تشمل منطقة واحدة مشتركة بين عدد من اللغات.

ويصعب، حتى في الأمثلة الفرضية التي أوردناها، أن نضع حدوداً بين اللهجات. وهذا ينطبق على اللغات المتقاربة (التي هي من أصل واحد). ولا شأن لحجم المنطقة في هذا الأمر. إذ لا نستطيع أن نحدد أين تبدأ الألمانية العليا وأين تنتهي الألمانية السفلى، كما لا نستطيع أن نرسم الخط الفاصل بين الألمانية والهولندية، وبين الفرنسية والايطالية. نعم هناك نقاط واضحة نستطيع فيها أن نجزم ان «الفرنسية تسود هنا والايطالية تسود هناك»، ولكن التمييز يختلف في المناطق التي تقع بين هاتين النقطتين. وقد نتصور منطقة واضحة محددة للانتقال من لغة الى أخرى، كما في البروفنسال التي تقع بين الفرنسية والايطالية ـ ولكن مثل هذه المنطقة لا وجود لها. إذ كيف يمكن أن نرسم حدوداً لغوية دقيقة لمنطقة تغطيها من إحدى نهايتيها الى النهاية الأخرى لهجات، تتدرج شيئاً فشيئاً في التميّز؟ فالخطوط الفاصلة بين اللغات، كالخطوط الفاصلة بين اللهجات تختفي في مراحل الانتقال. وكما ان اللهجات هي تقسيمات اعتباطية لمجمل ظاهر اللغة فكذلك الحدود الفرضية التي تفصل بين لغتين إنما هي مسألة عرف.

ومع ذلك يكون الانتقال لمفاجىء من لغة الى أخرى أمراً معروفاً: سببه الظروف التي أدت الى القضاء على الانتقال غير الظاهر. وأشد هذه الظروف حركة السكان. فقد تميزت الأمم دائماً بالترحال. وتضاعفت الهجرات عبر القرون، فأدى ذلك الى الارتباك في كل مكان، واختفت في كثير من الأماكن جميع آثار الانتقال اللغوي. وخير مثال على ذلك أسرة اللغات الهندية ـ الأوربية. فلابد ان لغات هذه الأسرة كانت متقاربة جداً في أول الأمر، تتمثل في سلسلة متصلة من المناطق اللغوية. إذ نستطيع أن نعيد رسم الخطوط العريضة للمناطق الكبيرة منها. فتشرك اللغة السلافية في صفات معينة مع الايرانية والجرمانية، وهذا يتفق مع التوزيع الجغرافي للغات الثلاث: واللغة الجرمانية، كذلك، هي الحلقة الوسطى التي تربط بين السلافية والكلتية: وهذه الأخيرة ترتبط بدورها ارتباطاً وثيقاً بالطليانية: واللغة الأخيرة تتوسط بين الكلتية والاغريقة، وهكذا يستطيع اللغوي أن يضع كل لغة في مكانها المناسب، من دون أن يعرف موقعها الجغرافي. ومع ذلك، نجد إذا

أردنا أن نرسم الحدود بين مجموعتين من اللغات (كما في الحدود بين الجرمانية والسلافية) انقطاعاً فجائياً ولا نجد منطقة انتقال. إذ تصطدم المجموعتان بدلاً من زحفهما الواحدة على الأخرى. وسبب ذلك هو اختفاء اللهجات التي كانت تتوسط بين المجموعتين. فلا الأقوام السلافية ولا الأقوام الألمانية كانت مستقرة، بل هاجرت وفتحت الأقاليم، كل مجموعة على حساب المجموعة الأخرى. فالسكان السلاف وجيرانهم الألمان اليوم ليسوا نفس الأقوام القديمة، التي كانت تتصل فيما بينها. ولو سكن الايطاليون الذين يعيشون في كالابريا على الحدود الفرنسية، لحطم هذا الانتقال، بطبيعة الحال، الانتقال، غير المرئي بين الايطالية والفرنسية. وهناك حقائق مشابهة لهذه تفسر توزيع مجموعات اللغات الهندية ـ الأوربية.

ثمة عوامل أخرى تساعد على القضاء على مراحل الانتقال بين اللغات: منها انتشار اللغات الفصحى على حساب اللهجات الشعبية (لاحظ الفصل الثاني). فاللغة الفرنسية الأدبية اليوم تمتد حتى الحدود (وكانت في السابق لغة ايل دوفرانس): وتصطدم عند الحدود باللغة الايطالية الرسمية (وكانت في السابق لهجة توسكان)، وبقاء اللهجة الشعبية التقليدية اليوم في مناطق الألب الغربية إنما هو من باب المصادفة، فقد اختفت جميع آثار أشكال اللسان التي تتوسط بين اللغتين في الحدود اللغوية الأخرى.

الفصل الرابع
انتشار الموجات اللغوية

١ - الاتصال والاقليمية

ان القوانين التي تتحكم بانتشار الظواهر اللغوية هي نفسها التي تتحكم بالعادات مهما كان نوعها كطراز الأزياء . ففي كل مجموعة بشرية تعمل قوتان في آن واحد ، وباتجاهين متضادين : القوة الاولى هي الفردية او الاقليمية esprit de clocher والثانية الاتصال بين الناس .

تدفع الاقليمية بمجتمع لغوي محدد الى أن يتمسك بتقاليده الخاصة . والانماط التي يكتسبها الفرد في طفولته قوية ثابتة . ولو عملت هذه الأنماط وحدها لخلقت عددا لايحصى من الصفات الخاصة في اللسان .

ولكن الاتصال ، وهو القوة المضادة ، يحد من أثر العامل الأول . فالاقليمية تدفع الناس الى الاستقرار ، أما الاتصال فيدفع بهم الى التنقل . فيجلب الانتقال الناس من المناطق المجاورة الى القرية ، وينقل جزءاً من السكان حيثما وجد احتفال او معرض ، ويجمع بين الناس من مناطق مختلفة في الجيش ، الى غير ذلك . وبعبارة اخرى الاتصال هو القوة الرابطة التي تقف بوجه التفتّت الناتج عن عمل الاقليمية .

والاتصال ينشر اللغة ويمنحها الوحدة : ويعمل بأسلوبين : الاسلوب السلبي : اذ يمنع التشتت الناتج عن اللهجات ، وذلك بالقضاء على الظاهرة الجديدة كلما برزت واينما برزت : والاسلوب الايجابي : وهو يشجع الوحدة اللغوية عن طريق تبني ظاهرة جديدة ونشرها . والاسلوب الثاني للاتصال يبرر استخدام لفظة الموجة في تسمية الحدود الجغرافية لحقيقة من حقائق اللهجة (لاحظ الفصل الثالث) لان خط اللهجات يشبه السطح المتموج للفيضان .

ومن الغريب ان نجد في بعض الاحيان لهجتين متباعدتين في لغة واحدة ، لهما صفة لغوية مشتركة . وسبب ذلك ان التغيير الذي ظهر في مكان ما من المنطقة لم يواجه اية عقبة عند انتشاره فامتد شيئا فشيئا الى مكان بعيد عن نقطة البداية . فلا يوجد ما يعرقل عمل الاتصال في كتلة لغوية لاتحتوي الا على مناطق انتقال غير مرئية .

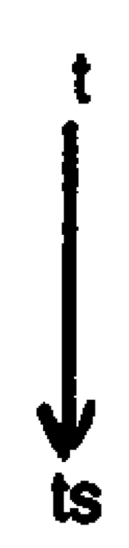
إن تعميم حقيقة ما - مهما كان حجم المنطقة - يحتاج الى وقت ، وقد نستطيع في بعض الاحيان قياس هذا الوقت . فتحول þ الى d الذي نقله الاتصال الى جميع انحاء المانيا القارية ، انتشر هذا التغيير اول الامر في الجنوب بين عامي ٨٠٠م و ٨٥٠م ، عدا منطقة فرانكونيا حيث بقي الصوت þ يلفظ đ رقيقة ولم يستسلم للصوت d إلا بعد ذلك التاريخ . اما تحول t الى z في الالمانية (ويلفظ هذا الصوت ts) فقد جاء ضمن حدود

اصغر ، وبدأ في فترة تسبق اول وثيقة مكتوبة متوفرة لدينا : فلا بد انه بدأ في الالب نحو عام ٦٠٠م وانتشر شمالا وجنوبا حتى بلغ لومبارديا . اذ بقي الصوت t مستعملا حتى القرن الثامن في ميثاق ثورنجيا . وبعد ذلك اصبح الصوتان u, i حركتين ثنائيتين في الالمانية (لاحظ تحول min الى mein وbrún الى braun). وقد استغرقت هذه الظاهرة ٣٠٠ سنة، فبدأت في بوهيميا نحو عام ١٤٠٠م ثم وصلت الى الراين وانتشرت في موطنها الحالي.

لقد انتشرت الحقائق اللغوية، مارة الذكر عن طريق التأثير المتبادل بين اللهجات، وربما يصح الشئ نفسه في جميع الموجات : فهي تبدأ من نقطة معينة ثم تنتشر. وهذا يأخذها الى ملاحظة مهمة اخرى : يمكن توضيحها ايضا بأمثلة من ابدال الاصوات الصحيحة في الالمانية.

فعندما تحول الفونيم t الى ts في نقطة معينة من المقاطعة الجرمانية، اخذ الصوت الجديد ينتشر من نقطة البداية، فاصبح الصوت ts ينافس الصوت الاصلي t او الأصوات الاخرى ، التي ربما تطورت منه في اماكن اخرى . ان مثل هذا التغيير هو صوتي محض في اصله، ولكنه يثبت في الأماكن الاخرى بالتأثير الجغرافي والاثر المتبادل بين اللهجات.

لذا يصح الرسم الاتي :



على بساطته بالنسبة لنقطة البداية حسب . واذا حاولنا تطبيقه على الانتشار ظهرت الصورة مشوهة.

ينبغي على عالم الصوت إذن ان يميز تمييزاً دقيقاً بين نقطة الاصل ومناطق الانتشار . فالفونيم يتطور في نقطة الاصل طبقاً لمحور الزمن . ولكن الحقائق الصوتية وحدها لاتفسر المناطق الاخرى التي تأثرت بهذه الظاهرة، لان هذه المناطق هي نتيجة الامتزاج بين الزمن والمكان. لنأخذ الصوت ts الذي جاء من مصدر خارجي وحل محل الصوت t. هذا المثال ليس لتغيير نمط أولي تقليدي ، بل لمحاكاة لهجة مجاورة، مهما كان النمط الاولي. لقد جاءت كلمة Herza «قلب» من منطقة الألب وحلت محل الكلمة القديمة herta التي كانت مستخدمة في ثورنجيا . هذا مثال لاقتباس فونيم وليس مثالا للتغيير الصوتي .

٢ - اختصار القوتين في قوة واحدة :

اذا ركزنا على نقطة جغرافية واحدة - واعني بالنقطة منطقة صغيرة تشبه النقطة كالقرية - فمن السهل تشخيص ما يعزى الى كل من القوتين ، الاقليمية والاتصال : ان اية حقيقة من الحقائق تعتمد على احدى القوتين وليس على القوتين كلتيهما . فكل صفة مشتركة مع لهجة اخرى سببها الاتصال : وكل صفة تعود الى لهجة هذه النقطة فقط سببها الاقليمية .

ولكن ما ان ننتقل الى منطقة اكبر - اقليم او مقاطعة - حتى تظهر صعوبة جديدة . اذ لا نستطيع ان نجزم اى القوتين مسؤولة عن ظاهرة معينة . فكلتا القوتين ، على الرغم من أنهما تعملان في اتجاهين متضادين ، تشتركان في كل صفة من صفات اللغة . فكل ما يميز المنطقة A تشترك فيه جميع اجزاء هذه المنطقة وتمنع القوة الفردية المقاطعة A من محاكاة شيءٍ من المقاطعة B وتمنع المقاطعة الأخيرة من محاكاة المقاطعة A . ولكن القوة الموحدة ، الاتصال ، تشترك أيضا في هذه العملية ، فتظهر في اجزاء مختلفة من المنطقة A (A^1, A^2, A^3 الى آخره) . تعمل القوتان ، اذن ، في المناطق الكبيرة في آن واحد ، ولكن بنسب مختلفة . وكلما كان الاتصال يدعم التجديد توسعت رقعة المنطقة . اما الاقليمية فهي تجنح نحو المحافظة على حقيقة لغوية معينة في عموم المنطقة التي توجد فيها ، وذلك عن طريق حمايتها من حقائق منافسة تأتيها من الخارج . ولا نستطيع التكهن بنتائج عمل القوتين . ففي المقاطعة الجرمانية ، التي امتدت من جبال الألب الى بحر الشمال ، كان التغيير من b الى d عاما ، أما التغيير من t الى ts فقد شمل الجنوب فقط (لاحظ ما جاء في هذا الفصل) :

لقد خلقت الاقليمية نوعا من التقابل بين الجنوب والشمال، في حين كان الاتصال مسؤولا عن الوحدة اللغوية بين كل من المنطقتين. ليس بين الظاهرة الاولى والثانية، اذن ، فرق جوهرى . إذ تشترك القوتان ، ولكن شدتهما تختلف.

وهذا يعني ، من الناحية العملية ، أننا نستطيع اهمال القوة الفردية في دراستنا للتطورات اللغوية . أي اننا نستطيع عدها الجانب السلبي للقوة الموحدة . وقد تكون القوة الاخيرة قوية تكفي لتوحيد المنطقة باجمعها . واذا لم تكن كذلك ، توقفت الظاهرة بعد ان تكون قد امتدت الى جزء من المنطقة فقط . ويؤلف هذا الجزء في داخله وحدة متماسكة . ولهذا السبب يمكن ان نختصرفننسب كل شئٍ الى قوة موحدة واحدة من دون أن ندخل في الحسبان الاقليمية ، التي ليست سوى قوة اتصال مختصة بمنطقة معينة .

٣ - التمييز اللغوي في مقاطعات منفصلة :

ينبغي للمرء أن يدرك ثلاثة أمور قبل أن يستطيع دراسة لغة تطورت في آن واحد في منطقتين منفصلتين : وهذه الامور : (١) لايكون التماسك بدرجة واحدة لجميع

الظواهر اللغوية في جمهور ناطق بلغة واحدة ، (٢) الانتشار لايشمل جميع الحقائق الجديدة ، (٣) الاستمرارية الجغرافية لاتمنع ظهور التمييز اللغوي بصورة مستمرة .

ان مثل هذه التطورات التي تحدث في آن واحد شائعة . فعندما انتقلت الأقوام الجرمانية من القارة الأوربية الى الجزر البريطانية ـ على سبيل المثال ـ بـدأ تطور في اتجاهين ؛ فتطورت اللهجات الألمانية من جهة ، وتطورت ، من جهة اخرى ، اللهجات الانكلو ـ ساكسونية ، التي انحدرت منها اللغة الانكليزية . وهذا مثال أخـر ، اللغة الفرنسية بعد ان نقلت الى كندا . ولايأتي الانفصال دائما عن طريق الاستيطان والغزو فقط : فقد يكون سببه العزلة . إذ فقد الرومانيون الاتصال بالكتلة اللاتينيـة بعد أن حجزت بينهما الأقوام السلافية . ولكن السبب غير مهم : المهم معرفة : ان كان للفصل دور في تاريخ اللغات ، وان كانت اثاره تختلف عن تلك التي تظهر في المناطق المتصلة جغرافياً .

ولكي نوضح الأثر الكبير للزمن فقد تصورنا كيف يمكن أن تتطور لغة ما في آن واحد في نقطتين محدوتين ـ جزيرتين صغيرتين في مثالنا السابق ـ حيث يمكن ان نهمل الانتشار التدريجي . اما في حالة وجود منطقتين تغطيان مساحة اوسع ، فاننا نجد مرة اخرى أن الانتشار التدريجي يؤدي في النهاية الى فروق اللهجات . ان عـدم اتصال المنطقتين الجغرافيتين لايجعل المسألة أسهل . اذ ينبغي ان لاننسب الى الفصل شيئا يتمكن تفسيره بدونه .

وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه علماء اللغة الاوائل الذين درسوا اللغة الهنـدية ـ الاوربية (لاحظ المقدمة ، الفصل الاول) . فقد واجه هؤلاء اللغوييون أسرة كبيرة من اللغات التي تختلف فيما بينها كثيرا ، ولم يدركوا ان الفروق يمكن ان يكون سببها شيئا آخر غير التشتت الجغرافي . فكان من السهل عليهم وعلى غيرهم ، أن يتصوروا لغات مختلفة في مناطق جغرافية منفصلة : فالنظرة السطحية لاتحتاج الى اكثر من هذا لتفسير الفروق . ولكنهم ذهبوا الى ابعد من ذلك . فربطوا القومية باللغة ، مستخدمين الاولى لتفسير الثانية . فتصوروا السلاف والألمان واقوام والكيلت وغيرهم وكأنهم مجموعات كثيرة من النحل تنتمي الى خلية واحدة ، وتصوروا ان هذه القبائل بعد ان انفصلت عن الاصل وهاجرت ، اخذت معها اللغة الهندية ـ الاوربية الأولى الى مناطق كثيرة مختلفة .

ولم يصحح هذا الخطأ الا بعد مدة طويلة . فقد بقي اللغويون في جهلهم حتى عام ١٨٧٧ حين اقترح يوهانس شميت نظرية الاستمرارية او الموجات (wellen — theorie) في كتابه ـ Die verwandsch aftsverha ltnisse der Indogermanen فأدرك اللغويـون ، آنذاك أن التشتت الجغرافي يكفي لتفسير العلاقات المتبادلة للغات الهندية الاوربية ، وليس من الضروري ان يفترضوا أن الاقوام المختلفة رحلوا الى اماكن جـديدة (لاحـظ الفصل

الثاني من هذا الجزء) . اذ يمكن ان تظهر فروق اللهجات ، ولا بد انها ظهرت ، قبل انتشار هذه الاقوام في الاتجاهات المختلفة . فنظرية الموجات ، اذن ، تقدم صورة للغة الهندية ـ الاوربية الاولى ، اقرب الى الواقع ، كما انها تكشف عن أسباب الفروق والظروف التي تحدد صلات القربى بين اللغات .

ونظرية الموجات تخالف نظرية الهجرة ، ولكنها لاترفضها تماما . ففي تاريخ اللغات الهندية الاوربية أمثلة كثيرة للأمم التي فقدت اتصالها بالاسرة الرئيسية بسبب الهجرة ، ولا بد ان هذا الامر قد ادى الى نتائج معينة . ولكن هذه النتائج امتزجت بنتائج الفروق التي حدثت في أثناء استمرار الاتصال بين هذه اللغات والأصل ، وصعوبة تشخيص كل نوع من النوعين يعود بنا الى مسألة تطور لغة ما في مناطق جغرافية منفصلة .

لنأخذ الانكليزية القديمة . فقد انفصلت عن الأصل الجرماني بسبب الهجرة . ولعل هذه اللغة كانت تختلف عن شكلها الحاضر لو بقي الساكسون في القارة الاوربية ولم يهاجروا في القرن الخامس الميلادي . ولكن ما الآثار اللغوية الخاصة بالهجرة ؟ علينا اولا أن نسأل أما كان هذا التغيير أو ذاك سيظهر لو استمر الاتصال الجغرافي ؟ فلوسكن الانكليز بوتلاند بدلا من الجزر البريطانية لكان من المحتمل أن بعض الحقائق الذي ينسب الى الانفصال المطلق ، كان ، سيظهر في هذه المنطقة المجاورة للاصل . اذ ليس لدينا دليل يشير الى ان الانكليزية احتفظت بالصوت القديم p بسبب انفصالها عن المنطقة الأصلية ، حيث اصبح هذا الصوت d في كل القارة الاوربية (لاحظ thing في الانكليزية ، Ding في الألمانية) . و ليست الاستمرارية الجغرافية بالضرورة ، كذلك ، سبب انتشار هذا التغيير في المنطقة الجرمانية بأكملها من القارة الأوربية ، اذ كان من الممكن ان يعترض هذا الانتشار عائق ، يمنع حركته رغم الاستمرارية الجغرافية . فالخطأ ناتج من مقارنة الفروق بين اللهجات المتصلة واللهجات المنفصلة . فليس ما يدل على ان التأثير بين اللهجات كان سيساعد في انتشار الصوت d في كل اجزاء الموطن الذي افترضناه للغة الانكليزية وهو جزيرة يوتلاند . فقد رأينا في المنطقة اللغوية الفرنسية ، على سبيل المثال ، أن الصوت (a +)k بقي في الزاوية التي تتكون من بيكاردي ونورماندي ولكنه أصبح š(ch) في الأماكن الاخرى . فالعزلة ، اذن ، سبب سطحي غير مقنع ، يمكن للتمييز اللغوي ان يفسر بدونها . فكل ما قد يحدث بسبب العزلة ، قد يحدث بسبب الاستمرار الجغرافي . واذا كان بين هذين النوعين من الظواهر فرق ، فأننا لانستطيع فهمه .

ولكن الصورة تختلف اذا نظرنا الى لغتين متقاربتين ، ليس من وجهة النظر السلبية للفروق بينهما بل من وجهة النظر الايجابية للتماسك بينهما . اذ ذاك نرى ان الفصل يفتح الباب في الحال لاحتمال قطع كل علاقة من العلاقات اما الاستمرار الجغرافي

فيعزز التماسك حتى بين اللهجات المحلية التي تختلف اختلافاً بارزا ، اذ كانت هـذه الاشكال تربط بينها لهجات وسيطة .

فاذا اردنا ان نحدد درجة القرابة بين اللغات ، فعلينا ان نميز تتميزا دقيقا بين الاستمرار والفصل . اذ تحتفظ لغتان منفصلتان من لغة الام بعددٍ من الصفات تدل على صلة القربى بينهما ، ولكن كل واحدة من اللغتين ستتطور بصورة مستقلة ، فتظهر في احداهما مميزات لانجدها في الأخرى (عدا بعض المميزات التي تظهر بعد الانفصال في اللغتين عن طريق المصادفة المحضة) . اما الذي لايحدث فهو انتشار المميزات التي تظهر في احدى اللغتين ، الى الاخرى من خلال التأثير المتبادل . فاللغة التي تطورت بمعزل عن اللغات التي تنتمي اليها تملك عادة عددا من الصفات التي تميزها عنها . واذا تفرغت هذه اللغة ايضا ، فأن لهجاتها تبدو أكثر تقاربا بسبب الصفات المشتركة التي تربط بينها وتميزها عن اللهجات من المنطقة الاخرى . فهذه اللهجات تؤلف فرعا متميزا ، منفصلا عن الجذع .

كما تختلف ، كثيرا ، العلاقات بين اللغات الموجودة في منطقة متصلة جغرافيا . وليس من الضروري أن تكون الصفات المشتركة بينها أقدم من الصفات التي تميـز بينها . فالتغيير الذي يبدأ في نقطة معينة ، قد ينتشر في كل لحظة؛ وقد يشمل المنطقة بأكملها . ثم ان المناطق التي تشملها الحقائق الجديدة تختلف في الحجم ، فقد يكون للغتين مجاورتين صفة مميزة واحدة ، من دون أن تؤلفا مجموعة واحدة منفصلة عن غيرها : وكل لغة من اللغتين قد ترتبط بلغات مجاورة لها عن طريق صفات اخرى ، كما هي الحال في اللغات الهندية ـ الاوربية .

الجزء الخامس

في علم اللغة المختص بتأمل الماضي

الفصل الاول

نظرتان لعلم اللغة الزمني

ينظر الى علم اللغة السنكروني ، من وجهة النظر ، المتكلم فقط ، لذا فله طريقة واحدة فقط . اما علم اللغة الدايكروني فيحتاج الى نظرة تتأمل المستقبل prospective ونظرة تتأمل الماضي retrospective (لاحظ الجزء الاول ، الفصل الثالث) .

والاسلوب المختص يتأمل المستقبل الذي يتناول واقع مجرى الحوادث ، هو الاسلوب الذي ينبغي أن نستخدمه في تطوير اية نقطة تختص بتأريخ لغة او لغات ، ويقتصر هذا الاسلوب على فحص الوثائق المتوفرة . ولكن المشاكل الكثيرة لعلم اللغة الزمني لايمكن ان يعالجها جميعا اسلوب تأمل المستقبل .

بل اننا اذا اردنا ان نقدم تاريخا مفصلا للغة من اللغات عن طريق تتبع مجرى تلك اللغة من خلال الزمن ، احتجنا الى عدد لايحصى من الصور الفوتوغرافية ، التي اخذت في اوقات مختلفة . ان هذا الشرط لا يمكن توفيره ابداً . فعلماء اللغات الرومانسية ـ على سبيل المثال ـ مع انهم كانوا يحسنون اللاتينية وهي نقطة البداية لبحوثهم ويملكون عددا كبيرا من الوثائق التي تغطي قرونا كثيرة متعاقبة ، يشعرون دائما بوجود فجوات واسعة في الجانب التوثيقي من عملهم . مما يجعلهم مضطرين الى نبذ اسلوب تأمل المستقبل الدليل المباشر ـ والعمل في الاتجاه المعاكس مستخدمين الاسلوب الذي يعود بالزمن الى الماضي . وهذا يعني اختيار فترة معينة ، ثم تحديد أقدم عنصر نبع منه العنصر الذي نحن بصدده دون الاهتمام بكيفية تطور هذا العنصر أو ذاك .

إن أسلوب تأمل المستقبل يعني في الواقع سرد بسيط ، يعتمد كليا على نقد النص ، اما النظرة المختصة بتأمل الماضي فتحتاج الى اسلوب اعادة البناء الذي تدعمه المقارنة . من الصعب أن نحدد الشكل الاصلي لاشارة واحدة لوحدها ، ولكن بمقارنة اشارتين مختلفتين لهما اصل واحد (كما في pater اللاتينية و pitar السانسكريتية ، او أصل الكلمة اللاتينية ges — tus, ger — o) تظهر الى الوجود في الحال مسألة الوحدة الدايكرونية التي ترجع الاشارتين الى نمط أولي يمكن اعادة بنائه بالاسلوب الاستقرائي . وكلما زاد عدد المقارنات ، زادت دقة الاستقراء ، وكانت النتيجة إعادة بناء العناصر الحقيقية اذا توفرت معطيات كافية .

ويصح الشيء نفسه في اللغات بأكملها . فلا نستطيع أن نستنتج شيئا عن لغة الباسك فهي لغة وحيدة لايمكن مقارنتها بأية لغة اخرى . في حين استطاع علماء اللغة ان يقارنوا مجموعة من اللغات المتقاربة كالاغريقية واللاتينية والسلافية القديمة ، الى آخره ، فشخصوا العناصر الأصلية المشتركة بينها ، وأعادوا بناء الاسس الجوهرية

للغة الهندية الاوربية الاولى على حالتها التي وجدت فيها قبل ان تتشعب جغرافيا . وقد كرر العلماء ، على نطاق ضيق ، ما قاموا به على نطاق واسع ـ متبعين دائماً الأسلوب نفسه ـ بالنسبة لكل جزء من اجزاء اللغة الهندية الاوربية الاولى ـ كلما اقتضت الضرورة الى ذلك وكان الأمر ممكنا . فنحن نعرف عددا من اللغات الجرمانية مباشرة عن طريق الوثائق ، ولكننا نعرف الالمانية الاولى ـ وهي أصل هذه اللغات ـ بصورة غير مباشرة ، باسلوب إعادة البناء . وقد استخدم اللغويون الأسلوب نفسه ، وبدرجات مختلفة من النجاح للوصول الى الاصل الواحد لبعض الأسر اللغوية الاخرى (لاحظ الجزء الرابع ، الفصل الاول) .

إن اسلوب تأمل الماضي يأخذنا الى فترة أقدم من الوثائق في تقصي تاريخ لغة ما . وهكذا استطاع علماء اللغة أن يرسموا الخط لتأمل الماضي العريض للاتينية ، التي لم يبدا تاريخها قبل القرن الثالث او الرابع قبل الميلاد ، ولكن بعد إعادة بناء اللغة الهندية الاوربية الاولى التي ألقت بعض الضوء على الحوادث التي وقعت بين الفترة الاصلية التي كانت فيها اللغة واحدة والفترة التي تظهر فيها أول وثيقة مكتوبة باللاتينية .

ويشبه علم اللغة التطوري ـ فيما يخص إعادة البناء ـ علم الجيولوجيا وهو علم تاريخي آخر . وقد يقوم علم الجيولوجيا بوصف حالات ثابتة (مثال ذلك الحالة الحاضرة لحوض بحيرة جنيف) دون الأخذ بنظر الاعتبار ما حدث في الفترة السابقة لتلك الحالة : ولكن هذا العلم يهتم بصورة رئيسة بسلسلة الحوادث والتغييرات التي تتألف منها الظواهر الدايكرونية ويمكن لنا أن نتصور علم الجيولوجيا المختص بالحاضر ، ولكن هذا العلم في الواقع له عادة نظرة تختص باقتفاء الماضي فقط . فقبل أن يوضح عالم الجيولوجيا ما حدث في نقطة معينة على الارض ، عليه أن يعيد بناء سلسلة الحوادث وأن يحاول تحديد الشيء المسؤول عن الحالة الحاضرة لذلك الجزء من الكرة الارضية .

ولا تختلف النظرتان في الأسلوب حسب ، بل ان استخدام النظرتين في آن واحد لتوضيح أمر معين إنما هو خطأ . فدراسة التغيير الصوتي ـ على سبيل المثال ـ تقدم لنا صورتين مختلفتين بناء على النظرة المستخدمة . فاذا استخدمنا اسلوب تأمل المستقبل ، ربما سألنا ماذا حدث للصوت ĕ أحد الاصوات اللاتينية الكلاسيكية في اللغة الفرنسية . فنرى أن صوتا واحدا تطور خلال الزمن فتغير ادى الى ظهور عدد من الفونيمات : كما في pedem ← pye (pied = قدم) ، ventum ← va (vent = ربح) lèctum ← li (lit = منام) necare ← nwaye (noyer = غرق) الى آخره . ويمكن ان نستخدم مقابل ذلك النظرة التي تتأمل الماضي لمعرفة ماذا يمثل الصوت الفرنسي المفتوح e في اللاتينية ، فنجد أن هذا الصوت هو نقطة النهاية لعدد من الفونيمات الأصلية المتميزة : كما في ter (terre = ارض) = tèrram verž (verge = عصا) = virgam fe (fait = حقيقة) = factum الى

اخره . وهكذا نستطيع ان نقدم تطور العناصر المكونة للكلمات بطريقتين ، فنحصل على صورتين مختلفتين . وكل ما قلناه عن صياغة الكلمات حسب القياس (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الخامس) انما هو دليل منطقي لذلك ، فالبحث عن أصل اللاحقة التي ينتهي بها اسم المفعول في الفرنسية é — يعود بنا الى اللاحقة اللاتينية átum — وتربط اللاحقة اللاتينية اتمولوجيا بالأفعال اللاتينية المشتقة من الاسماء ، التي تنتهي باللاحقة áre — ، التي ترجع بصورة رئيسة الى الاسماء المؤنثة المنتهية باللاحقة a — (كما في planta : plántare ، وفي الاغريقية tima : timáo الى آخره) ، ثم إن اللاحقة átum — ما وجدت لولا ان اللاحقة ـ to ـ في الهندية الاوربية الاولى فعالة مثمرة (لاحظ الكلمة الاغريقية klu — tó — s واللاتينية in — clu — tu — s والسانسكريتية c,ru — ta — s وغيرها) . واخيرا تحتوي اللاحقة átum — على العنصر المكون m — وهو علاقة المفرد المنصوب (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الثالث) . وعلى العكس من ذلك ، فأن طريقة تأمل المستقبل للبحث عن العناصر الفرنسية المكونة للكلمات التي تنبع من اللاحقة الاصلية ـ to ـ تكشف أن هناك لاحقات مختلفة ـ سواء كانت مثمرة ام لا تختص أسم المفعول (aimé محبوب = fini, amátum = منته ، = finitum, clos مغلق = clausum عوضا عن claudlum* الى اخره) ، ولاحقات كثيرة غيرها مثل u — = útum — (كما في cornú = ذو قرون = cornutum) و tif ـ (لاحقة مختصة بالأسلوب الرفيع) = في اللاتينية tivum = fugitif = negatif, sensitif, fugitivum الى اخره) وعدد آخر من الكلمات التي لم تعد قابلة للتحليل ، كما في point = نقطة = اللاتينية ، dé «يموت» = chetif, datum «تعس» = captivum الى غير ذلك .

الفصل الثاني

اللغة الأقدم واللغة الأم

لم يدرك علماء اللغات الهندية الأوربية في المراحل الاولى الغـاية الحقيقيـة من المقارنة وأهمية أسلوب إعادة البناء (لاحظ المقدمة ، الفصل الاول) . وهذا يفسر أحد الاخطاء الكبيرة التي وقعوا فيها : وهو المبالغة في دور السانسكريتية واعتباره الدور الوحيد تقريبا . فقد عدّوا السانسكريتية اللغة الأم أو النمط الاول لانها اقدم وثيقة للغة الهندية الاوربية الاولى . إن التصور بـأن اللغة الهنـدية الاوربيـة الاولى ولدت منها السانسكريتية والاغريقية والسلافية والكلتية الطليانية وغيرها شيء ، ووضع إحدى هذه اللغات في منزلة اللغة الهندية ـ الاوربية الاولى شيء آخر يختلف تماما . وكان للخطأ الكبير الذي وقع فيه هؤلاء اللغويـون عواقب مختلفـة وخيمة . صحيـح انهم لم يعبروا عن فرضيتهم باسلوب محدد قطعي كالذي استخدمناه ، ولكنهم قبلوا بهذه الفرضية ضمنا وطبقوها في دراستهم . فقد كتب بوب يقول انه : لايعتقد أن السانسكريتية يمكن ان تكون الأصل المشترك ، وكأن مثل هذه الفرضية محتملة، بالرغم من الشك.

وهذا يدفع بالمرء الى التساؤل : ماذا يقصد بالقول ان لغة ما أقدم من الأخرى . لهذا السؤال ثلاثة أوجه للتفسير من الناحية النظرية :

(١) قد تشير لفظة «أقدم» الى البداية ، الى النقطة التي تبدأ منهـا لغة مـا. ولكننا لانحتاج إلا الى قليل من التفكير لندرك ان اللغة ـ اية لغة ـ لايمكن ان ينسب لها عمر معين ، فكل لغة هي استمرار لما كان يتكلم به الناس من قبلها . فالذي ينطبق على البشرية لاينطبق على اللسان : فالاستمرارية المطلقة للسان لاتسمح بتمييز اجيال منه . والنقد الذي وجهه كاستون باريس Gaston Paris الى فكرة اللغة البنت واللغة الام له ما يسوغه : طالما ان هذه الفكرة تفترض ضمنا وجود انقطاع . اذن فلفظة «اقـدم» بهذا المفهـوم لامعنى لها .

(٢) قد تعني لفظة «أقدم» أن إحدى الحالات للغة التي نـدرسها أقـدم من الحالة الاخرى للغة نفسها . فالفارسية التي نجدها في النقوش الاخمينية أقدم من فارسيـة الفردوسي . ففي حالة محددة مثل هذه ، حيث تطورت لغة من لغة أخرى وعرفت اللغتان بصورة جيدة ، تكون الاشارة هي الى اللغة الاولى من حيث الزمن . ولكن الاسبقية في الزمن لامعنى لها الا اذا توفر الشرطان المذكوران . فـاللغة اللتـوانية ، التي يـرجع تاريخها المعروف الى عام ١٥٤٠ ، ليست أقل أهمية من السلافية القديمة التي دونت منذ القرن العاشر ، أو من سانسكريتية (ريك فيدا) .

(٣) قد تشير لفظة «أقدم» الى حالة لغوية أكثر توغلا في القدم اي الى حالة صفـات

تقترب من صفات النموذج الأصل : دون الأخذ بنظر الاعتبار التواريخ . فبهذا المفهوم تكون اللغة اللتوانية التي يرجع تاريخها الى القرن السادس عشر أقدم من الاتينية للقرن الثالث قبل الميلاد .

إن السانسكريتية ليست أقدم اللغات إلا بالمفهوم الثاني أو الثالث . إذ يصح عليها التعريفان . فالاعتقاد السائد أن ترانيم الفيدا تسبق زمنيا أقدم نصوص إغريقية من جهة ومن جهة أخرى ـ وهذه مسألة مهمة جداً ـ أن للسانسكريتية عدداً كبيراً من الصفات القديمة بالمقارنة مع تلك التي نجدها في اللغات الاخرى (لاحظ المقدمة ، الفصل الاول) . ولكن فكرة العمر لم تكن واضحة عند اللغويين الأوائل ، لذا وضعوا السانسكريتية على رأس الأسرة اللغوية بأكملها . وقد نتج عن ذلك أن اللغويين الذين جاءوا بعد ذلك ، مع انهم صححوا فكرة ان السانسكريتية هي اللغة الام ، ظلوا ينسبون أهمية اكبر مما ينبغي للادلة التي تقدمها هذه اللغة عند الاستعانة بها دليلاً اضافياً .

يعترف . أ . بكتيه A. Pictet في كتابة les Origines indo — européennes (اصول اللغات الهندية الاوربية) (الصفحة ٢٢٤) بوجود أمة بدائية لها لغتها الخاصة بها ، ومع ذلك فهو يؤكد ضرورة الرجوع الى السانسكريتية اولا ، وان الدليل الذي تقدمه هذه اللغة أهم من الادلة التي يقدمها عدد من اللغات الهندية الاوربية مجتمعة . وهذا الوهم نفسه اسهم مدة طويلة من الزمن في اضفاء اللبس على مسائل ذات أهمية كبيرة ، كمسألة نظام الحركات في اللغة الهندية الاوربية الاولى .

وقد تكرر هذا الخطأ على نطاق أصغر وفي التفاصيل ، فاعتقد الذين درسوا فروعا معينة من اللغات الهندية الاوربية أن أقدم لغة معروفة هي نموذج كامل مقنع للمجموعة بأكملها ولم يحاولوا ان يتعرفوا على نحو افضل على الحالة الاصلية . فبدلاً من الكلام عن اللغات الجرمانية ـ مثلاً ـ لم يترددوا عن الاقتباس من اللغة الغوطية ووقفوا عند هذا الحد ، لان الغوطية ، أسبق ، في الزمن ، من اللهجات الجرمانية الأخرى ببضعة قرون . فاغتصبت الغوطية دور اللغة الام واصبحت مصدر اللهجات الأخرى . أما في اللغات السلافية فقد اعتمد العلماء في بحثهم على اللغة السلافونية أو السلافية القديمة فقط ، المعروفة منذ القرن العاشر ، لان بقية اللهجات السلافية معروفة بعد هذا التاريخ .

قلما نجد نموذجين من لغة واحدة ، دونا كتابة في تاريخين متعاقبين يمثلان اللغة نفسها في لحظتين من تاريخها . وكثيرا ما نلاحظ أن احدى اللهجتين هي الخلف اللغوي للهجة الاخرى . فالاستثناء يدل على القاعدة . وأشهر استثناء هو اللغات الرومانسية بالنسبة للاتينية : فالمرء حين يعود بالفرنسية الى اللاتينية انما يتبع خطاً عمودياً ، والمنطقة التي وجدت عليها اللغات الرومانسية تتفق والمنطقة التي تكلمت باللاتينية . وكل

لغة من اللغات الرومانسية انما هي حالة متأخرة للاتينية . والاستثناء الآخر هو الفارسية . فالفارسية المستخدمة في نقوش داريوس هي اللغة الفارسية نفسها المستخدمة في القرون الوسطى . ولكن عكس هذا الاتجاه هو اكثر شيوعا . فالوثائق المدونة في فترات مختلفة تعود عادة الى لهجات مختلفة لأسرة لغوية واحدة . فاللغة الجرمانية مثلا تظهر في غوطية اوليفلاس (ولا يعرف خلف هذه اللهجة) ، ثم في نصوص الالمانية القديمة العليا ، ثم في النصوص الانكلوساكسونية والنصوص النرويجية وغيرها . وليست أية مجموعة او لهجة من هذه اللهجات تُكَوِّن استمرارية للهجة او المجموعة المعروفة التي قبلها . ويوضح الرسم ، الآتي ، النمط المعتاد ، حيث تشير الأرقام الى اللهجات والنقاط الى الفترات المتعاقبة .

................أ .... الفترة ١
........ب ....الفترة ٢
....جـ ....د ....الفترة ٣
...............هـ .....الفترة ٤

إن هذا النمط شيٌ مهم لعلم اللغة . فاذا كان التعاقب عموديا ، فان اللهجة الاولى المعروفة (أ) تحتوي على كل شيٌ يمكن استنتاجه عن طريق تحليل الحالات المتعاقبة . ولكن اذا بحثنا عن نقطة الالتقاء لجميع هذه اللهجات (أ ، ب ، جـ ، د الى اخره) في هذا النمط فقد نجد عنصراً أقدم من أ (اي اللغة الام س) وهكذا نتجنب اللبس بين أ و س .

الفصل الثالث

إعادة البناء

١ ـ طبيعتها وهدفها :

ان الوسيلة الوحيدة لاعادة البناء هي المقارنة ، والهدف الوحيد للمقارنة هو اعادة البناء . ويكون أسلوبنا عقيما الا اذا نظرنا الى علاقات عدد من الصيغ من زاوية نظر الزمن وننجح في إعادة بناء صيغة واحدة . لقد اكدت هذه النقطة مرات كثيرة (لاحظ المقدمة ، الفصل الاول ، والملحق ، الفصل الثالث) . وهكذا نفسر اللفظة اللاتينية medius بالمقارنة باللفظة الاغريقية mésos ، من دون أن نرجع الى اللغة الهندية الاوربية الاولى ، فنفرض صيغة أقدم هي methyos* باعتبارها مصدر الكلمتين medius و mésos . أو قد نقارن صيغتين من اللغة نفسها وليس من لغتين مختلفتين : كما في الكلمتين اللاتينيتين geró و gestus اللتين تعودان الى الأصل ـ ges* وكان في وقت من الاوقات مشتركا بين الكلمتين .

ولابد أن نذكر أن المقارنات تخص التغيير الصوتي لذا فهي تعتمد دائما اعتمادا كبيرا على اعتبارات صرفية . فعندما أدرس الكلمتين اللاتينيتين patior و passus أشير الى factus و dictus وغيرهما لأن كلمة passus هي صيغة من صيغ الصنف نفسه . وأعتمد في الاستنتاجات على العلاقات الصرفية بين facio و factus الى آخره ، لذا استطيع ان أحدد العلاقة نفسها ، بالنسبة لفترة اقدم ، بين patior و pat — tus* . كما ينبغي ان استخدم علم الصوت لالقاء الضوء على المقارنة الصرفية (المورفولوجية) . فأقارن بين الكلمة اللاتينية meliorem والاغريقية hedio لان الكلمة الأولى تعود من ناحية الصوت الى meliosem* و meliosm* وتعود الثانية (hédió) الى hádioa* و hádiosa و hádiosm* .

ليست المقارنة اللغوية عملية آلية محضة ، فهي تنطوي على جميع المعطيات التي تخص المسألة. وعلى كل حال فهي تؤدي دائما الى الحدس الذي نعبر عنه بصيغة ما، الذي يهدف الى اعادة تحديد شئ سابق : فهو يؤدي دائما الى إعادة بناء الصيغ. ولكن هل الهدف من تأمل الماضي هو إعادة بناء جميع الصيغ الملموسة لحالة لغوية سابقة ؟ ام إن اعادة البناء تنحصر في أقوال جزئية تجريدية ، تخص أجزاء الكلمات (القول بأن الصوت f في الكلمة اللاتينية fumus يمثل الصوت p في الايطالية الاولى ، أو العنصر الاول في الكلمة الاغريقية állo واللاتينية aliud له وجود في هيئة a في اللغة الهندية الاوربية الاولى) ؟ قد تنحصر إعادة البناء على الهدف الثاني : فأسلوبها التحليلي لاهدف له سوى هذه الملاحظات الجزئية. ومع ذلك ، نستطيع ان نتوصل الى استنتاجات عامة من مجمل هذه الحقائق الفردية. فباستخدام مجموعة من الحقائق المشابهة لتلك الخاصة بكلمة

fúmus نستطيع أن نقول بتأكيد ان الصوت p موجود في النظلم الصوتي في الايـطالية الاولى . كما نستطيع ان نقول ان اعراب الإسماء في اللغة الهندية الاوربية الاولى له مفرد جامد[٦١] ينتهي بـ d — ويختلف عن m في الصفات . ونستنتج هذه الحقيقة المورفولوجية العامة من مجموعة مستقلة من الملاحظات (لاحظ الكلمتين اللاتينيتين istud و aliud مقابل bonum ؛ وفي الاغريقية tó = *tod ، állo = *allod مقابل kalón ؛ وفي الانكليزية that ، الى آخره) . ونستطيع ان نذهب الى أبعد من ذلك . فمن الممكن ، بعد ان نعيد بناء الحقائق المختلفة ، أن نركب تلك الحقائق التي تخص الصيغة بأكملها ونعيد بناء كلمات بأكملها (مثال ذلك الكلمة الهندية الاوربية الاولى *alyod) ، وانماط الاعراب وغير ذلك . ويتألف التركيب من الجمع بين عبارتين منفصلتين . مثال ذلك ، عندما نقارن الأجزاء المختلفة للكلمة *alyod التي أعيد بناؤها ، نلاحظ فرقا كبيراً بين العنصر d — الذي يثير مسألة في القواعد ، والعنصر ـ a الذي لا اهمية له في القواعد . فالصيغة التي أعيد بناؤها ليست وحدة متماسكة بل مجموع يمكن دائما تحليله صوتيا . ويمكن فصل كل جزء وفحصه لوحده . فالصيغ التي اعيد بناؤها ، اذن ، تعكس دائما ، بدقة ، الاستنتاجات العامة التي تصح عليها . فقد اعيد بناء الكلمة الهندية الاوربية الاولى التي تدل على «حصان» في صيغ متعاقبة هي *akvas, *ak̨was, *ek̨vos واخيرا ، ek̨wos . وكان جميع اجزاء هذه الصيغ موضع خلاف سوى الصوت s وعدد الفونيمات التي تتألف منها هذه الكلمة .

فالغاية من اعادة البناء ، اذن ، ليست إعادة صيغة ما من اجل الصيغة نفسها ـ فـأقل مـا يقال في هـذا الهدف انـه لامعنى له ـ بـل بلورة وتكثيف مجمـوعـة من الاستنتاجات التي يمكن التوصل اليها بصورة منطقية ، من استقـراء النتائـج التي يتوصل اليها الباحث في كل لحظة : وباختصار : الغاية من إعادة البناء هي تدوين تقدم علم اللغة . فلم يدافع احد عن علماء اللغة والتهمة السخيفة التي نسبت اليهم وهي أنهم يرغبون في اعادة بناء اللغة الهنديـة الاوربية الاولى بصـورة كاملة وكـأنهم يريـدون استعمالها . فهم لايرغبون في هذا الهدف حتى في دراسة اللغات التي لها تاريخ معروف (فالمرء لايدرس اللاتينية لغويا لكي يحسن التكلم بها) . وهذا المسـوغ اوهن في حالة الكلمات المفردة للغات ما قبل التاريخ .

إن اعادة البناء ، مع انها تخضع لتصحيح مستمر ، ضرورة ، لاكتساب نظرة عامة عن اللغة التي يدرسها الباحث ونمطها اللغوي فيها . وهي وسيلة لايمكن الاستغناء عنها للوصول بسهولة نسبية الى عدد كبير من الحقائق العامة ، السنكرونية والدايكرونية منها . فالمجموعات التي اعيد بناؤهـا تلقي في الحال كثيـرا من الضوء عـلى الخطوط

---

(٦١) جامد الجنس ، لاذكر ولا انثى = neuter . (المترجم)

العريضة للغة الهندية الاوربية الاولى . فنحن نعرف ـ على سبيل المثال ـ ان البادئة كانت تصاغ من بعض العناصر (r, s, t وغيرها) دون غيرها ، وان التنوع المعقد للحركات في الأفعال الالمانية (كما في worden, warde, ward, wirst, werden) تضفي كثيرا من الغموض على القواعد التي تتحكم في مجموعة واحدة من البدائل وهي : e — o — الصفر . فاعادة البنـاء إذن يساعـد كثيرا عـلى دراسة تـاريخ الفتـرات التي تعقب الفترة التي نحن بصددها ، فبدون اعادة البناء يصعب كثيرا تفسير التغييرات التي حصلت منذ فترة ما قبل التاريخ .

٢ ـ الدقة النسبية للصيغ التي أعيد بناؤها

نستطيع أن نجزم جزماً مطلقاً بصحة بعض الصيغ التي أعيد بناؤها ، اما بعضها الآخر فموضع جدل ، أو انها تثير مشاكل مستعصية . وقد رأينا ان دقة الصيغ باكملها تعتمد على الدقة النسبية التي ننسبها الى إعادة الترميم الجزئي ، الذي يدخل في عملية التركيب . وبناء على هذا المنطق لايمكن أنْ تتطابق كلمتان تماما . ويكاد هذا الامر يصبح دائما . فهناك فرق بين صيغتين معروفتين في اللغة الهندية الاوربية الاولى مثل esti* «هو كائن» و didóti «(هو) يعطي» ، لان الحركة المكررة في الصيغة الثانية هي موضع شك (لاحظ الكلمة السانسكريتية dadati والكلمة الاغريقية didósi) .

وثم اتجاه عام في اعتبار الصيغ التي اعيد بناؤها أقل دقة من واقع حالها . ولكن هناك ثلاث حقائق تعزز ثقتنا بعملية اعادة البناء ، هي :

الحقيقة الاولى ، وهي ذات اهمية كبيرة وقد سبق ذكرها (لاحظ مبادئ النظام الصوتي ، الفصل الاول) . فنحن نستطيع أن نميز بوضوح أصوات كلمة ما ، وعدد هذه الاصوات والحدود التي تفصل بينها ، كما رأينا (النظام الصوتي ، الفصل الثاني) كيف ينبغي ان ننظر الى الاعتراضات التي يثيرها بعض اللغويين عندما ينظرون شزرا من خلال مجهر النظام الصوتي . مما لاشك فيه ان في سلسلة مثل — sn — أصواتا خفية أو انتقالية ، ولكن الاهتمام بهذه الاصوات كثيرا لايتفق وعلم اللغة ، فالاذن الاعتيادية لاتشخصها ، والاهم من ذلك ـ ان المتكلمين يتفوقون دائما على عدد العناصر التي تؤلف هذه السلسلة . يمكننا القول ، اذن ، بأن الكلمة الهندية الاوربية الاولى ek1wos* كانت تتألف من خمسة عناصر متميزة مختلفة يهتم بها المتكلمون .

والحقيقة الثانية : تخص عناصر النظام الصوتي لكل لغة . فكل لغة تقوم بوظيفتها مستخدمة سلسلة واضحة محددة من الفونيمات (لاحظ المقدمة ، الفصل السابع) . واقل العناصر شيوعا في اللغة الهندية الاوربية الاولى تظهر بما لايقل عن نحـو اثنتي عشرة صيغة ـ والعناصر الأكثر شيوعا بألف صيغة ـ وجميعها معروفة في الامثلة التي

اعيد بناؤها .

واخيرا ، لايتطلب منـا أن نحدد الصفـات الايجابيـة للوحدات الصـوتية لكي نعرفها . بل علينا ان نعدها كيانات تفاضلية تتصف بأنها متميزة (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل الرابع) . وهذه مسألة أساسية ، اذ نستطيع ان نحدد العناصر الصوتية لصيغةٍ ما يراد إعادة بنائها من العدد أو أية اشارات أخرى . ولا حاجة الى تحديد الصفة المطلقة للصوت ĕ في *ĕk, wos ولا سبب في أن نختار في امر ĕ هل هو مفتوح او مغلق ، وما موقعه بدقة في الجهة الأمامية من الفم ، الى غير ذلك . كل هذه الامور غير مهمة الا اذا شخصنا عدة أنواع من الصوت ĕ . والمهم أن لانخلط بينها وبين عنصر آخر تميزه اللغة (ă, ŏ, ē الى آخره) . وبعبارة اخرى ان الفونيم الاول لكلمة *ek1wos لايختلف عن الفونيم الثاني في *mĕdhyŏs ، والفونيم الثالث في ăgĕ ، وغيرها ، واننا نستطيع أن ندون هذا الصوت في قائمتنا الصوتية ونعطي له رقما في جدول فونيمات اللغة الهندية ـ الاوربية الاولى من دون أن نحدد طبيعته الصوتية . فالصيغة *ek1wŏs، إذن، التي اعيد بناؤها تعني ان اللفظة الهندية الاوربية الاولى المعادلة للفظة اللاتينية equos ، واللفظة السانسكريتية acva — s الى آخره ، كانت تتألف من خمسة فونيمات محـددة ، مستمدة من سلسلة عناصر النظام الصوتي في اللغة الاصلية .

فالامثلة التي يعاد بناؤها لها قيمة ، ضمن هذه الحدود التي أشرنا اليها .

الفصـــل الـرابــع

إسهام اللغة في علم المجتمعات البشرية (الانثروبولوجيا) وعلم ما قبل التأريخ

١ ـ اللغة والعِرق

يستطيع اللغويون بفضل أسلوب تأمل الماضي أن يعودوا الى قرون ماضية، ويعيدوا بناء اللغات التي كانت يتكلمها بعض الأمم قبل زمن طويل من بدء التأريخ المكتوب. ولكن ألا تزودنا نماذج إعادة البناء بمعلومات عن الأمم نفسها ـ عن عرقها ونسبها وعلاقاتها الاجتماعية وعاداتها وأنظمتها، وغير ذلك؟ وباختصار هل يمكن للغة أن تقدم أجوبة للأسئلة التي تثيرها دراسة علم المجتمعات البشرية (الانثروبولوجيا) وعلم الأجناس البشرية (الانتوكرافيا) وعلم ما قبل التأريخ؟ يعتقد كثير من الناس ان هذا الأمر ممكن، أما أنا فأعتقد ان هذا ضرب من الوهم في مجمله. لندرس باختصار بعض هذه المسألة العامة.

١ ـ العِرق: من الخطأ أن نعتقد أن اللغة الواحدة تعني قرابة الدم، وان الأسرة اللغوية تتفق والأسرة الانثروبولوجية. فواقع الأمر ليس بهذه السهولة. فهناك مثلاً، عِرق جرماني له مميزات بشرية خاصة: الشعر الأصفر، واستطالة في الجمجمة، وقامة طويلة وغير ذلك، وخير نموذج لهذا العِرق الاسكندنافيون: ومع ذلك لا تظهر هذه الصفات في جميع الأقوام التي تتكلم باللغات الجرمانية.

فالأقوام السوابية التي تعيش عند جبال الألب تختلف كثيراً عن الأقوام الاسكندنافية. هل يمكن أن نزعم ان لغة ما تعود الى عِرق واحد فقط، وإذا تكلمت بها أمم أخرى تنتمي الى أجناس مختلفة فسبب ذلك ان هذه اللغة قد فرضت عليهم عن طريق الغزو؟

مما لا شك فيه ان الأمم كثيراً ما تتبنى أو تجبر على تبني لغة الفاتحين (كما حدث لأقوام بلاد الغال بعد ان انتصر عليهم الرومان)، ولكن هذا لا يفسر كل شيء. فعلى سبيل المثال، ان الأقوام الجرمانية ربما أخضعت لسلطانها أمماً كثيرة ولكنها ما كانت لتستطيع امتصاصها جميعاً، فعلينا أن نتصور مدة طويلة من السيطرة لفترة ما قبل التأريخ وظروفاً أخرى لا يمكن البرهنة عليها.

قرابة الدم والوحدة اللغوية، إذن، لا ترتبطان بالضرورة، ولا نستطيع أن نتوصل الى استنتاجات من إحداهما ونطبقها على الأخرى. ففي الحالات الكثيرة حين لا تتفق الأدلة الانثرولوجية مع الأدلة اللغوية ليس من الضروري ان نعد النوعين من الأدلة مضادين ونختار أحدهما دون الآخر: فكل نوع له قيمته الخاصة.

٢ ـ الوحدة الاجتماعية

ماذا نتعلم من الدليل الذي تقدمه اللغة؟ ان الوحدة العِرقية وحدها قوة ثانوية ليست ضرورية ، في أي حال من الأحوال ، للوحدة اللغوية. بيد ان هناك نوعاً آخر من الوحدة ـ له أهمية أكبر، يتألف من الأواصر الاجتماعية: وهي الوحدة الاجتماعية ethnisme. وأعني بذلك الوحدة التي تستند الى العلاقات المتنوعة للدين والحضارة والدفاع المشترك وغير ذلك، وهذه الوحدة تنبع حتى بين الأمم التي تنتمي الى أجناس مختلفة، ولا تجمع بينها آصرة سياسية.

تبرز بين الوحدة الاجتماعية واللغة علاقة متبادلة مر ذكرها (المقدمة، الفصل الخامس). وتخلق الآصرة الاجتماعية الوحدة اللغوية وربما تفرض على اللغة المشتركة بعض الصفات الخاصة. ومن جهة أخرى تكون اللغة المشتركة مسؤولة الى حد ما عن الوحدة العِرقية. وعلى العموم تكفي الوحدة العِرقية دائماً لتفسير اللغة المشتركة. مثال ذلك، ان الوحدة الاجتماعية الرومانسية في أوائل العصور الوسطى ربطت بين أمم تنتمي الى أصول مختلفة، مع عدم وجود آصرة سياسية. وكذلك علينا ان نستشير اللغة أولاً، في مسألة الوحدة العِرقية، والمعلومات التي تزودها اللغة لها الأسبقية على كل شيء آخر. هذا مثال واحد لذلك. كانت أقوام الاتروسكان تعيش في إيطاليا القديمة جنباً الى جنب مع الأقوام اللاتينية. فإذا حاولنا ان نحدد العوامل المشتركة بين الأمتين من أجل ان نعود بهما الى أصل واحد: استطعنا أن نستغل كل ما وصل الينا منهم (الأبنية الأثرية، والطقوس الدينية، والأنظمة السياسية، وغير ذلك) ومع ذلك نفتقر الى الضمان الذي تقدمه اللغة في الحال. إذ تكفي ثلاثة أسطر من اللغة الاتروسكية لتبين ان المتكلمين بهذه اللغة ينتمون الى أمة تتميز عن المجموعة العِرقية التي تتكلم اللغة اللاتينية.

اللغة، إذن، وثيقة تأريخية، ضمن الحدود التي ذكرناها. فاللغات الهندية الأوربية ـ مثلاً ـ تؤلف أسرة لغوية، وهذا دليل على وحدة عِرقية بدائية تناقلتها الأقوام بصورة مباشرة، تقريباً من خلال الانتماء الاجتماعي لكل أمة تتكلم إحدى هذه اللغات اليوم.

٣ ـ باليونتولوجي أو علم الآثار اللغوي قد تسمح لنا الوحدة اللغوية بالتأكد من الوحدة العِرقية، ولكن هل تكشف اللغة عن طبيعة هذه الوحدة العِرقية المشتركة؟

لقد عُدّت اللغات مدة طويلة مصدراً لا ينضب للوثائق التي تخص الأمم، التي تتكلم هذه اللغات وتأريخها الغابر ما قبل التأريخ. لقد اشتهر ادولف بكتبه، من رواد الدراسة الكلتية، بكتابه الموسوم بأصول اللغات الهندية الأوربية (١٨٥٩ـ١٨٦٣). وعُدَّ كتابه نموذجاً لعدد كبير من الكتب: وما يزال موضع إهتمام عند عدد كبير من القراء. يذهب (بكتبه) الى اللغات الهندية الأوربية ليستقي منها المعلومات التي تكشف عن الصفات الأساسية لحضارة «الآريين» ويعتقد انه يستطيع أن يشخص تفاصيل متنوعة

كثيرة: كالأشياء المادية (الأدوات والأسلحة والحيوانات الأهلية) والحياة الاجتماعية (هل كانوا أقواماً بدواً أم زراعيين؟) والأسرة ونظام الحكم وغيرها. ويحاول ان يشخص مهد الآريين، فيجعله باكتريانا، ويدرس النباتات والحيوانات في البلاد التي سكنوها. وتُعد دراسة بكتبه أهم دراسة من نوعها. والعلم الذي أوجده يسمى باليونتولوجي (علم الآثار اللغوي).

وقد قامت جهود أخرى في الاتجاه ذاته منذ ذلك الوقت. من أحدثها كتاب هيرمان هيرت الموسوم بـ Die Indogermanen (١٩٠٥_١٩٠٧).(٦٢)

لقد اعتمد هيرت في بحثه على نظرية شميت فحاول أن يشخص البلاد التي سكنتها الأقوام الهندية الأوربية. ولكنه لا يقلل من أهمية علم الآثار اللغوي. وقد أظهرت له الحقائق المعجمية ان الأقوام الهندية الأوربية كانوا يشتغلون بالزراعة، وهو يرفض ان يحدد موطن هذه الأقوام في جنوب روسيا، الذي يناسب الأقوام البدوية على نحو أفضل. فكثرة أسماء الأشجار وتكرارها، ولاسيما بعض الأنواع (كالزان والبلوط، السنديان تحمله على الاعتقاد بأن موطن هذه الأقوام كان كثير الشجر وانه يقع بين جبال هارتز والفستيولا، وأغلب الظن في منطقة براندنبيرك وبولين.

كما ينبغي ان نذكر ان اولبيرت كوهن وغيره سبقوا بكتبه في استخدام اللغة لاعادة بناء الأساطير والديانة للأقوام الهندية الأوربية.

يبدو لي ان المرء ينبغي أن لا يتوقع من اللغة ان تزودنا بمثل هذه المعلومات للأسباب الآتية: أولاً عدم التأكد من الاتمولوجيا. لقد أدرك العلماء أخيراً قلة الكلمات التي لها أصول مؤكدة، فأصبحوا أكثر حذراً. وهذا مثال للتسرع الذي كان شائعاً في الماضي. قارن العلماء كلمتي servus وservare وربما لم يكن لهم الحق ان يفعلوا ذلك - فأعطوا للكلمة الأولى معنى «مرشد» واستطاعوا بذلك أن يستنتجوا ان العبد كان يستخدم أول الأمر «حارساً». ثم إن معنى الكلمتين تطور، فمعنى الكلمة كثيراً ما يتغير كلما غيرت قبيلة موطنها. كما أخطأ العلماء حين زعموا ان عدم وجود كلمة ما إنما هو دليل على ان المجتمع البدائي كان يجهل الشيء الذي تشير اليه الكلمة. فكلمة «يحرث» غير موجودة في اللغات الآسيوية، ولكن هذا لا يعني ان الحراثة لم تكن معروفة في البداية عند

---

(٦٢) لاحظ ايضا Les premiers habitants de LEurope
(١٨٧٧) لمؤلفه d'Arbois de Judain ville
Sprachvergleichung und urgeschichte
و Reallexicon der in dogermanischen Alter lums kurde
للمؤلف O.Schrader
(وهذه المؤلفات ظهرت قبل كتاب هيرت بقليل) .
و Europa in lichte der vorgeschichte للمؤلف S. Feist (١٩١٠) . (بالي) .

هؤلاء الأقوام. فمن المحتمل ان الكلمة تركت، أو ان هؤلاء الأقوام كانوا يتبعون أساليب أخرى للزراعة تعرف بأسماء مختلفة.

واحتمال استعارة الكلمات سبب ثالث لعدم التأكد من المسألة. فالشيء الذي يستعار قد يجلب معه اسمه. فعلى سبيل المثال، دخل القنب الى منطقة البحر المتوسط في فترة متأخرة، ودخل الى الأقطار التي الى الشمال منها بعد ذلك: وجاء اسم هذا النبات معه في كل مرة من هذه المرات. فعدم ظهور المعطيات غير اللغوية في كثير من الأحيان لا يسمح لنا بتأكيد ان وجود هذه الكلمة في عدد من اللغات سببه الاستعارة أم انه دليل على مصدر مشترك.

إن نقاط الضعف التي ذكرت، آنفاً، لا تمنعنا من ان نميز بدون تردد، بعض الصفات العامة، بل بعض المعلومات الدقيقة. مثال ذلك، ان الألفاظ المألوفة التي تشير الى القرابة كثيرة وقد تناقلتها العصور بوضوح. وهي تساعدنا على القول بأن الأسرة عند الأقوام الهندية الأوربية كانت نظاماً معقداً مستقراً، إذ باستطاعة لغاتهم التعبير عن معان دقيقة لصلات القربى لا وجود لها في لغاتنا الآن. فكلمة ainâteres عند هوميروس تعني «امرأة الأخ» بالنسبة لعدد من زوجات الأخوة، وكلمة golóói تشير الى الصلة بين الزوجة وأخت الزوج. وتقابل الكلمة اللاتينية janitrices الكلمة الاغريقية einâteres في الشكل والمعنى. وكذلك لـ «زوج الأخت» لفظة غير اللفظة التي تدل على (الصلة بين ازواج عدد من الأخوات). فنستطيع ان نشخص في هذا تفاصيل دقيقة، ولكننا نكتفي عادة بالمعلومات العامة. وينطبق الشيء نفسه على الحيوانات ففي الأجناس المهمة كالأبقار نستطيع ان نعتمد على الاتفاق بين الكلمة الاغريقية boũs والكلمة الألمانية Kuh والكلمة السانسكريتية gau — s، الى آخره، فنعيد بناء الكلمة الهندية الأوربية الأولى g_2 oü — s(*)، ثم ان إعراب كل كلمة من هذه الكلمات له السمة نفسها في جميع هذه اللغات، وهذا لا يمكن أن يحصل لو ان الكلمة اقتبست من لغة أخرى في تأريخ لاحق.

من المناسب أن نتحدث هنا عن حقيقة صرفية أخرى تتميز بأمرين: فهي تنحصر في منطقة محددة وترتبط بنقطة من نقاط التنظيم الاجتماعي.

ورغم كل ما قيل عن الصلة بين dominus وdomus يبدو ان اللغويين غير راضين تماماً، لأن اللاحقة — no — التي تستخدم في الاشتقاقات الثانوية تختلف اختلافاً كبيراً عن المألوف. فلا توجد صيغ مثل oiko — no — s أو oike — no — s مشتقة من oikos في الاغريقية، أو na — oçva من — açva في السانسكريتية. ولكن «قلة» وجود مثل هذه الصيغ يعطي اللاحقة في dominus قيمتها وأهميتها. ففي اللغات الجرمانية عدد من الكلمات التي لها أهمية خاصة ـ على ما أعتقد ـ في هذا المجال:

١ ـ peuds — na — z «رأس peudō، الملك» في الغوطية، وthiodan في السكسونية

القديمة (peudō في الغوطية piuda = في الاوسكان touto «الناس»).

٢ ـ drux — ti — na — z (تـغـيـرت جـزئـيـاً الى drux — ti — na — z*) رأس الـ drux — ti — z*، الجيش، (من هنا جاءت اللفـظة المسيحية للسيـد، أي الله)، لاحظ اللفظة النرويجية القديمة Drottinn، واللفظة الانكلوساكسونية Dryhten، والكلمتان تنتهيان بـ ina — z — .

٣ ـ kindi — na — z* رأس الـ kindi — z* في اللاتينية gens، ولما كان رأس gens هو نائب الحاكم بالنسبة لرأس beudo*. فالكلمة الجرمانية kindins (مفقودة تماماً في النصوص الأخرى) يستخدمها اولفيلاس لتسمية الحاكم الروماني فبطريقته الجرمانية في التفكير، كان مفوض الامبراطور رئيس القبيلة بالنسبة للفظة piudans: ومهما كانت هذه الصلة من الناحية التأريخية، فلا شك ان كلمة kindins التي تختلف تماماً عن كل ما هو روماني، تشير الى تقسيم الشعوب الجرمانية الى kindi — z.

وهكذا عندما تضاف اللاحقة الثانوية — na — الى الأصل (themc) المستمدة من الجرمانية الأولى، يعني «رأس مجتمع معين». بقي أن نقول ان اللفظة اللاتينية tribūns تشير الى «رأس القبيلة tribus» بالطريقة نفسها التي تشير الى piudans الى «رأس piuda. وأخيراً فان dominus يعني رأس domus. والتقسيم الأخير لـ piuda = touta. ويبدو لي ان كلمة dominus التي تنتهي باللاحقة الدالة على المفرد، دليل قاطع ليس على اللغة المشتركة حسب بل على أنظمة مشتركة بين المجموعات العِرقية الايطالية والجرمانية.

وهنا أيضاً لابد أن نقول ان المقارنة بين اللغات قلما تؤدي الى مثل هذه الأدلة القاطعة.

٤ ـ النمط اللغوي وعقل المجموعة الاجتماعية

إذا كـانت اللغة لا تـزودنا بـالمعلومات الدقيقـة الصحيحة عن الأنـظمـة التي استخدمها المتكلمون بها، فهل يمكن للغة ان تحدد مميزات عقل المجموعة الاجتماعية التي تتكلم بها؟ الاعتقاد السائد هو ان اللغة تعكس سايكولوجية الأمة. ولكن الاعتراض المهم على هذا الرأي هو ان الأسباب السايكولوجية لا تقف بالضرورة وراء العمليات اللغوية.

فاللغات السامية تعبر عن الرابطة بين الاسم الذي يحدد اسماً آخر باستخدام الاضافة البسيطة «قارن هـذا بالعبـارة الفرنسيـة La parole de Dieu = كلمة الله). صحيح ان الاسم المحدد له شكل خاص يسمى «حالة الاضافة» وهو يسبق الاسم الذي يحدده. لنأخذ الكلمتين العبريتين dabar «كلمة» وelōhim'[٦٣] «الله»: فالعبارة datbar' elōhîm

(٦٣) ان الرمز (') يشير الى الف ، وهو صوت حلقي يشبه الصوت التنفس الدقيق في الاغريقية . (سوسور) .

تعني «كلمة». هل يمكننا القول ان هذا النمط النحوي يكشف شيئاً عن العقلية السامية؟ ان هذا إدعاء طائش، لأن الفرنسية القديمة كانت تستخدم استخداماً منتظماً مثل هذا التركيب: لاحظ le cor Roland «بوق رولان» les quatre fils Aymon «أولاد ايمون الأربعة» الى آخره. ان هذا التركيب ظهر في اللغات الرومانسية عن طريق المصادفة المحضة: المصادفة الصرفية والصوتية: فقد فرض التركيب على اللغة بسبب إلغاء كثير من الحالات الاعرابية. ومن الممكن ان مصادفة مماثلة حدثت في اللغات السامية الأولى وبالطريقة ذاتها. إذن فالحقيقة النحوية التي تبدو وكأنها إحدى الصفات الثابتة لهذه اللغة لا تقدم دليلاً صحيحاً على عقل الساميين.

وهذا مثال آخر ليس في اللغة الهندية الأوربية الأولى كلمات مركبة تبدأ بفعل. أما اللغات الجرمانية ففيها هذه الكلمات (كما في Bethaus، Springbrunnen وغيرهما)، ولكن هذا لا يدل على ان الأقوام الجرمانية غيرت في لحظة من اللحظات أسلوب تفكيرها الذي ورثته من أسلافها. لقد رأينا (الجزء الرابع، الفصل الثاني) ان هذه الحقيقة الجديدة جاءت بسبب المصادفة المادية السلبية، إلغاء الصوت a في betahûs فقد حدث كل شيء خارج العقل وفي مجال التغييرات الصوتية، التي فرضت طوقاً شديداً على التفكير ووجهته اتجاهاً معيناً رسمته له الحالة المادية للاشارات. وهناك أمثلة أخرى كثيرة تعزز هذا الاستنتاج.

فالطبيعة السايكولوجية للمجموعة اللغوية لا أهمية لها بالمقارنة مع حذف الحركة أو تغيير الركزة، أو أمور كثيرة مشابهة يمكن في كل لحظة من اللحظات أن تحدث ثورة في العلاقة بين الاشارة والفكرة، في أية صيغة من صيغ اللغة.

من المهم دائماً أن نحدد الطبيعة النحوية للغات (سواء نصل اليها تأريخياً أو باعادة البناء) ونصنف اللغات طبقاً للأساليب التي تستخدمها للتعبير عن الفكر. ولكن حتى بعد أن نتعرف على تركيب اللغات ونصنفها، لا نستطيع ان نتوصل الى استنتاجات صحيحة خارج المجال اللغوي الدقيق.

الفصل الخامس

الأسر اللغوية والأنماط اللغوية[٦٤]

لقد رأينا ان اللغة لايتحكم فيها مباشرة عقل المتكلمين بها . وفي هذا الفصل الاخير أود أن أؤكد احدى نتائج هذا المبدأ : ليس هناك اسرة لغوية تنتمي بصورة مطلقة ودقيقة الى نمط لغوي معين واحد .

ان السؤال عن النمط الذي تنتمي اليه اسرة لغوية يعني اغفال الحقيقة التي تقول ان اللغة تتطور : وهذا ينطوي على القول بوجود عنصر من الاستقرار في التطور . اذن كيف يمكن فرض قيود على فعالية ليس لها مثل هذه القيود ؟

مما لاشك فيه ان كثيرا من الناس يفكرون بصفات اللغة الأصلية عندما يتحدثون عن مميزات اسرة لغوية ، ومشكلتهم هذه لايصعب حلها طالما يتناولون لغة واحدة . اما اذا زعمنا بوجود صفات ثابتة لايغيرها الزمن ، او المكان بأي حال من الاحوال ، فأننا نصطدم كليا بالمبادىء الجوهرية لعلم اللغة التطوري . فلا توجد صفة لها حق في الوجود الثابت ، فهي لاتثبت الا بفضل المصادفة المحضة .

لنأخذ الأسرة الهندية الاوربية . فنحن نعرف الصفات المميزة للغة التي تشتق منها . ان نظام الاصوات في اللغة الهندية الاوربية الاولى بسيط جدا . فلا يوجد فيه تجمع معقد للاصوات الصحيحة ، كما لاتجتمع الاصوات الصحيحة المضاعفة : وهذا الاطراد في النظام يؤدي الى تأثير متبادل ، بين العناصر ، منتظم جدا والى بدائل عميقة في القواعد (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الثالث ، والجزء الخامس ، الفصل الثالث) ، ويمكن للركزة القوية tonic accent أن تقع على اي مقطع في الكلمة ، من حيث المبدأ . اذن فله دور في التأثير المتبادل بين تقابلات القواعد ، والايقاع الكمي فيها يستند كليا الى التقابل بين المقاطع الطويلة والقصيرة ، كما يسهل بناء الصيغ المركبة والاشتقاقات . وتكثر النهايات الاعرابية في الاسماء والافعال : وتستقل في الجملة الكلمة المعربة مع اداة التحديد[٦٥] determiner التي تحتوي عليها ، فهي ، لهذا ، تتمتع بحرية كبيرة في صياغة التراكيب ، وتقلل الى حد كبير عدد الكلمات النحوية التي تحدد القيمة او العلاقة (كالبادئة التي تلحق بالفعل او حرف الجر وغير ذلك) .

من الواضح أن جميع الصفات المذكورة ، آنفاً لم تبق على حالتها الاصلية في

---

(٦٤) ان هذا الفصل لايتناول علم اللغة الخاص بتامل الماضي ومع ذلك فقد أدخل في الجزء الخاص لانه يعد خاتمه للكتاب كله (بالي) .

(٦٥) ادوات التحديد determiner هي تلك التي تحدد الاسم : كاداة التعريف والاشارة وأدوات التملك وغيرها . (المترجم) .

اللغات الهندية الاوربية المختلفة ، وان عددا من هذه الصفات (كدور الايقاع الكمي والركزة القوية) لم يعد لها وجود في بعض لغات المجموعة . بل ان بعض اللغات غير سمات اللغة الهندية الاوربية الاولى الى درجة انها توحي بنمط لغـوي مختلف كليا (كـاللغة الانكليزية والارمنية والارلندية وغيرها) .

ومن الانسب أن نقول ان ثمة تغييرات معينة تؤثر في اللغات المختلفة التي تنتمي الى أسرة لغوية واحدة . مثال ذلك ، ان الاختفاء التدريجي لاعراب الكلمات انما هو أحد مميزات اللغة الهندية الاوربية ، مع ان هذه اللغات تختلف فيما بينها اختلافا بارزا في بعض الصفات . فاللغات السلافية قاومت بشدة اختفاء الاعراب في حين اختفى الاعراب من الانكليزية حتى كاد يكون صفرا . وحل محله ترتيب ثابت لعناصر الجملة كما حلت الاساليب التحليلية للتعبير محل الاساليب التركيبية ، واصبحت حروف الجر تعبر عن الحالات النحوية . (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الثامن) ، وحلت الأفعال المساعـدة محل صيغ الافعال المركبة وغير ذلك .

لقد رأينا ان احدى صفات اللغة الأصلية قد لاتظهر في بعض اللغات المنحدرة عنها . وعكس ذلك صحيح ايضا فليس غريبا أن نجد ان الصفات المشتركة بين اللغات التي تمثل أسرة واحدة لاتظهر في اللغة الاصلية . وهو ما نلاحظه في تناسق الحركات (أي نوع من الشبه بين جرس حركة كل لاحقة والحركة الأخيرة للجذر) . فهذه الصفة البارزة موجودة في مجموعة اولارال ـ التياك (وهي مجموعة كبيرة من اللغات ، يتكلم بها الناس في أوربا وآسيا وتمتد من فنلندة حتى منشوريا) وربما جاءت نتيجة تطورات لغوية حدثت في تاريخ لاحق . فتناسق الحركات صفة مشتركة ولكنها ليست صفة أصلية ، اذن لايمكن ان نستخدمها ـ كما اننا لا نستطيع ان نستخدم اللصق ـ للبرهنة على الأصل المشترك لهذه اللغات (وهو أمر مشكوك فيه كثيرا) . كما أننا نعلم ان الصينية لم تكن دائما لغة أحادية المقطع .

إن أول ما يجذب الانتباه عند مقارنة اللغات السامية باللغة الاصلية لها، التي اعيد بناؤها، هو احتفاظ هذه اللغات ببعض الصفات الاصلية. فاللغات السامية ـ على مايبدو ـ تكون فيما بينها نمطا واحدا وهي تفوق في تماسكها بقية الأسر اللغوية. وهي مجموعة ثابتة مستقرة، كل لغة فيها تحتوي على صفات ورثتها عن الأسرة. وفيما يلي الصفات التي تميز اللغة السامية الاولى ، بعضها تتباين كثيرا عن صفات اللغة الهندية الاوربية الاولى. فالكلمات المركبة تكاد لاتوجد في هذه المجموعة : والاشتقاقات لها دور ضئيل، كما ان نظام الاعراب لم يتطور كثيرا (وهو اكثر تطورا في اللغة السامية الاولى منه في اللغات المنحدرة منها)، وادى ذلك الى وجود قواعد صارمة تتحكم في ترتيب الكلمات في الجملة . ولكن ابرز صفة في هذه المجموعة هي تلك التي تخص تركيب الجذر (لاحظ

الملحق، الفقـرة ٢)، الذي يتـألف بـانتـظام من ثـلاثـة أصـوات صحيحـة (كمـا في ق ـ ت ـ ل) . وقد بقيت هذه الاصوات، على نحو ما، في كل لغة من لغات المجموعـة (لاحظ في العبرية qitli, qtól, qállá, qátal الى آخره)، ولا تتغير من لغة الى أخرى (لاحظ في العربية قَتل، قُتل الى آخره). وبعبارة اخرى ، تعبر الاصوات الصحيحة عن «الدلالة الملموسة» او القيمة المعجمية للكلمة، اما الحركات فتقوم ـ بمساعدة بعض البادئـات واللاحقات، بالطبع ـ بوظيفة واحدة فقط وهي التعبير عن القيم النحوية عن طريق التأثير المتبادل بين البدائل (كما في qátal = قتل ، qtól = قتل، وباضافة اللاحقـة qtal — ú «قتلوا»، والبادئة ji — qtól «يقتل»، واللاحقة والبادئة ji — qtl — ú «يقتلوا» الى اخره).

ولكننا ينبغي أن ندافع عن المبدأ الذي ذكـرناه رغم الحقـائق التي مر ذكـرها والاستنتاجات المستمدة منها : المبدأ القائل بعدم وجود صفات لاتتغير. فالثبات يعود الى المصادفة حسب. فكل صفة يصـونها الزمن قـد تختفي مع الزمن. ولنعـد الى اللغات السامية. نجد ان «قانون» الجذر الثلاثي ليس في الحقيقة من مميزات الاسرة السامية، طالما ان ظواهر مشابهة لها تظهر في أسر اخرى. ففي اللغة الهندية الاوربية الاولى قوانين صارمة تتحكم بتركيب الاصوات الصحيحة للجذر. مثال ذلك، صوتان من المجموعـة n, m, l, r, u, i لايقعان أبداً بعد الصوت e : فجذر مثل *serl لا وجود له في هذه الأسرة اما وظيفة الحركات في اللغات السامية فتلقي ضوءاً أكثر على المسألة . فاللغات الهنـدية الاوربية لها نظام صارم من الحركات ولكنه أقل غنى من نظام الحركات في المجموعة السامية. فأمثلة التقابـل كما في الكلمـات العبريـة datar «كلمة» dbar — im «كلمـات». dibré — hem «كلمـاتهم» الى آخـره تـذكـرنـا بـالتقـابـل في الكلمـات الالمـانيـة floss : fliessen , Gäste : Gast. الى آخره. فتكون العملية النحوية في كلتا الحـالتين شيئـاً واحداً إذ إن التغييرات الصوتية الناتجة عن التطور الأعمى تؤدي الى ظهور البدائل . فيتمسك العقل بهذه البدائل ويضفي عليها قيمة نحوية، ثم يعممها عن طريق استخدام النماذج القياسية التي توفرها التطورات الصوتية الطارئة. ان ثبات الجذر الثلاثي في اللغات السامية ما هو الا قاعدة عامة، وليست قاعدة دقيقة تنطبق على كل حالة. فهذه مسألة نستطيع التأكد منها سلفا، ويمكن دعم رأينا بالحقائق. ففي العبرية، مثلا، نجد ان جذر الكلمة anás — im «رجال» ثلاثي كما هو متوقع، ولكن المفـرد يتألف من صـوتين (ثنائي) : is، لان هذه صيغة مختزلة من الصيغة الثلاثية القديمة. فحتى اذا اتفقنا ان الجذور السامية شبه ثابتة لا تتغير فأن هذا لايعني أن هذه صفة موروثة في هذه الجذور. بل يعني ان اللغات السامية مرت بتغييرات صوتية أقل من لغات كثيرة اخرى ، وان اللغات السامية احتفظت بالاصوات الصحيحة باسلوب أفضل من اللغات الاخرى. فهذه مسألة التطور والأصوات، وليست مسألة القواعد أو عدم التغيير. فالقول بأن الجذور

لاتتغير يعني انها لم تشهد أي تغيير صوتي ، ليس إلا. ولا يمكن أن تضمن انها لن تتغير ابدا. وعلى العموم فكل ما يفعله الزمن يمكن ان ينقضه الزمن او يغيره.

لقد ادركنا الآن أن شلايشر اخطأ حين نظر الى اللغة على انها شيْ عضوي لها قوانينها الخاصة بالتطور، ولكننا نستمر في محاولتنا لكي نجعل من اللغة شيئا عضويا بمفهوم آخر، فنزعم ان «عبقرية» قوم او مجموعة عرقية كثيرا ما تقود اللغة الى سبل محددة ثابتة.

يبرز درس واحد من كل هذه الغزوات التي قمنا بها داخل منطقة الحدود لعلمنا. وهو درس سلبي في مجمله، ولكنه، مع ذلك، مهم لانه يتفق وفكرة هذا الكتاب : وهو أن الهدف الحقيقي الوحيد لعلم اللغة هو أن اللغة تدرس في حد ذاتها ومن أجل ذاتها.

○

هوامش المراجع

. هامش ١٥ (لباسكن) راجع ص٥٣

الصوت المجهور Voiced هو الصوت الذي يهتز ، في أثناء النطق به ، الوتران الصوتيان ، الموجودان في الحنجرة . ويكون الصوت المجهور ذا نغمة واضحة ، ومن أمثلته في العربية صوت الزاي . وفي التحليل الصوتي تقابل الأصوات المجهورة الأصوات المهموسة voiceless التي لايصاحبها ، في أثناء النطق بها ، توتر أو اهتزاز في الوترين الصوتيين . وتكون نغمتها خافتة . ومن أمثلتها في العربية صوت السين .

. هامش ١٦ (للمؤلف) راجع ص٥٣

تعني «الوحدة الصوتية» أو «الفونيم» صوتا يفترق ، بخاصية أو اكثر ، عن غيره ، في النظام الصوتي ، للغة ما ، لتحويل المعنى . وإلا كانت الفروق نوعاً من التنوع الصوتي داخل فونيم واحد . ومثال ذلك «الطاء» و«التاء» في النظام الصوتي العربي . فهما فونيمان متطابقان في جميع الصفات :

مهموسان/ انفجاريان/ ذوا مخرج واحد (أسناني ـ لثوي) غير أنهما يختلفان في صفة واحدة ، هي صفة التفخيم (الاطباق) لـ «طاء» والترقيق (الانفتاح) لـ «تاء» . ومن أجل هذا يتحول المعنى في كلمة «طاب» حين نستبدل «الطاء» «بالتاء» فنقول : «تاب» وهكذا . ولكن هذا ليس مبدأ عاماً ، إذ اننا نلاحظ أن اللام المفخمة والمرققة في العربية ليستا إلا فونيما واحداً ، إذ لافرق في المعنى بين .

والله (لام مفخمة)

بالله (لام مرققة) .

. هامش ٢٧ (للمترجم) راجع ص٨٨

عرض «ابن جني» في الخصائص /ج١/ للعلاقة بين (الدال والمدلول) في الكلمة وجعل ماهية هذه العلاقة ، قائمة في جذورها على (اللا اعتباطية) قال : «وذهب بعضهم الى ان أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي .. ثم ولدت اللغات ، عن ذلك ، فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل» انتهى .

ولعل اشارته «ثم ولدت اللغات عن ذلك فما بعد تجنح الى التطابق مع المبدأ الذي يقرره دي‌سوسور هاهنا : من أن الكلمات تفقد شيئاً من صفتها الاولى لكي تكسب الصفة العامة للاشارة اللغوية ، وهي صفة الاعتباطية ، أو انعدام الصلة الطبيعية .

. هامش ٢٩ (لباسكن) راجع ص٩٣

لعل دي‌سوسور يشير ها هنا الى أن التغييرات في الظواهر الاجتماعية بطيئة جداً مقارنة بالتبدلات الفردية . لأن التبدل في المجتمع يحتاج الى توافق عام لكي يتحقق ، على العكس من الخصائص «الفردية» اذ يلاحظ التغير فيها بين ليلة وضحاها . وهذا المبدأ يمكن تطبيقه على اللغة تطبيقاً صارماً بوصف اللغة ظاهرة اجتماعية كامنة ، على العكس من الظواهر الاجتماعية الاخرى التي تكون أقل كموناً .

كما اننا نلاحظ هاهنا أن ذلك الأمر أي (الخمول) و(النشاط) يجتمع في اللغة نفسها ، من حيث النظر الى تراكيبها ومفرداتها . فالتركيب ، وهو «مجتمع» الكلمات . خامل لايتغير إلا في قرون تغيراً بسيطا أما أفراد هذا المجتمع ـ الكلمات ـ فعرضة للتغير النشيط .

. هامش ٣٣ (للمترجم) راجع ص١٢٥

لعل من المفيد هنا أن نذكر أن اللغات تختلف من جهة نموها . فالعربية ، وهي من أسرة اللغات الجزرية أو السامية ، تنمو داخلياً . فأصول الكلمة العربية ك ، ت ، ب تتحول الى ك ت ب وكَ تَ بَ وكـ ا تِ بٌ وكـ ا تَ بَ و استَكْتَبَ ... الى آخره ونلاحظ أن دورة التكاثر تتم داخل الاصول . ومن هنا يكون تمييز الأصل والاضافات أشد تعقيداً في العربية منه في اللغات التي تنتمي الى اسرة اللغات الهندوأوربية ، التي تتميز بنموها الخارجي ، باعتماد السوابق واللواحق .

. هامش ٣٩ (للمترجم) راجع ص ١٤٧

درس النحاة العرب هذه القضية تحت باب «التقدير» وقد ناقش الدكتور نهاد الموسى في كتابه : نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر الحديث لجوء النحويون العرب الى التقدير ضبطاً للعلاقة بين «براني» الكلام ، و الأصول التي تنتظم بنيته عندهم .

ومن هنا لاتبدو هذه الوحدات مستقلة الا على السطح ، في حين تكون في العمق على علاقات سنتاكمية بالوحدات الاخرى المقدرة .

. هامش ٤٢ (للمترجم) راجع ص ١٥٨

يتبين الفرق بين جملتي «جاء علي» و «علي جاء» في العربية بالنظر الى المعنى الذي يترشح عن كل جملة ففي الجملة الاولى يكون المعنى متسلطاً على الحدث : أي جاء علي ولم يضحك أو لم يشرب ... الخ .

أما في الجملة الثانية فالمعنى يكون متسلطاً على الذات : أي علي وليس زيداً أو عمراً ... الخ ويمكن أن نقترب من المعنى الذي يريده المؤلف بإيراد مثل آخر وهو قولنا «نجح من درس» و «من درس نجح» إذ تكون (من) الاولى موصولية والناجح شخص بعينه ، وتكون من الثانية «شرطية» والناجح الداخل من الجنس كله في هذه الصفة ، أي صفة الدراسة .

فهرس المصطلحات

واسماء الاعلام

ـ ا ـ

اصل جذر	radical
اصول الكلمة (اتمولوجيا)	etymology
اطلس لغوي	
اعادة بناء	reconstruction
اعراب (نهاية الكلمة)	inflection
اغريق	Greek
الاغريقية (اللغة)	the Greek Language
افشيا (فقدان القدرة على الكلام والفهم)	aphasia
اقليمية (فردية)	
اكريفيا (فقدان القدرة على الكتابة)	agrephia
ألب (نهر كبير في الجزء الشرقي من المانيا)	The Elbe
البانية (اللغة)	Albaniau
الفباء . الابجدية	alphabet
المانية	German
الالمانية السفلى	
الالمانية العليا	
الالمانية القديمة العليا	Old High German
ام (اللغة الام)	mother language
امالة	Umlaut
انتشار جغرافي	geographical spreading
انثروبولوجيا (علم المجتمعات البشرية)	anthropology
انسانيات	humanities
الانسانيات (عالم)	humanist
انطباع حركي أو صائتي	Vocalic impression
انغلاق	closure
انفجارية خارجية (اصوات)	explosives
انفجارية داخلية (اصوات)	implosives
انكلوساكسونية (اللغة) (اللغة الانكليزية قبل الغزو النورماني في ١٠٦٦م)	The Anglo-saxon (language)
اورال ـ التياك (أسرة لغوية)	Oral-Altáic
اوستوف	H. Osthoff
اوسكان (لهجة) (احدى اللهجات الايطالية القديمة في منطقة كامبانيا)	Oscan
اوفرخت	Aufrecht
اوكست شلايشر	August Schleicher
اولفيلامس (٣١١م ـ ٣٨٣م . كاهن ورسول المسيحية الى اقوام الغوط بفضل ترجمته للكتاب المقدس الى الغوطية)	Ulfilas
ايحائية . اقترانية	associative

ايقاع	rhythm
ايقاع كمي	quantitative rhythm
ايل دي فرانس (منطقة فرنسية قديمة تحيط بها انهار السين والمارن وبوفرون والواس ونونت)	Ile de France
الايونية (لهجة ايونا القديمة في القطاع الوسط من اسيا الصغرى)	Ionian

- ب -

باثولوجي ، علم الامراض	pathology
بادئة	prefix
بارابلازم (كلمة جديدة تحل محل كلمة قديمة)	paraplasm
باسك (مقاطعة)	Basque
باكتريانا	Bactriana
باليونتولوجي (علم الاثار اللغوي) بانتو	Banto
بحر (شعري)	metre
بديل (بدائل)	alternative
براندنبيرك	Brandenburg
برست	Brest
بروفانسي (منسوب الى مقاطعة بروفانس في فرنسا أو الى شعبها أو لغتها)	provencal
بروكا	Broca
بروكمان	Brugmann
برون	W. Braune
بريتونية (لغة)	Breton
بكتيه	A. pictet
بلغارية	Bulgarian
بلوتوتس	Plautus
بناء	construction
بنفي	Benfy
بوب	BBopp (Franz)
بوت	pott
بورت رويال (نحو)	(La Grammaire de port-Royal)
بول	Paul (H)
بولندا	Poland
بولونية (اللغة)	Polish
بومباى	pompeii
هيميا	
بيرتيلو	Berthelot
بيكاردى	

- ت -

تاريخ	history
تأريخ الادب	Literary History
التاريخ السياسي	political history
التاريخ اللغوي	Linguistic history
تأملي (يتأمل او يستعيد الماضي)	retrospective
تبديل	alternation
تتر	Tatar
تجريدي	abstract
تحليل	analysis
تحليل ذاتي	subjective analysis
تحليل موضوعي	objective analysis
تحويل	transformation
تداول	alternation
تركيب	structure
ترومبيتي	Trombetti
تصريف	declension
تصغيري (اداة ، صيغة او اسم تصغير)	diminutive
تماثل ، تطابق	identity
تغيير	mutability, change
تغيير صوتي	sound change
تغير في الصائت	Umlaut
تفاضلية	differential
تفضيل من الدرجة الثالثة	superlative
تفضيل من الدرجة الثانية (مقارن)	comparative
تقابل	opposition
تقسيم الى مقاطع	syllabification
تقليد (عرف)	tradition
تقليد (عرف) شفهي	oral tradition
تمثيل صامت	pantomime
تناسق الحركات أو الاصوات	vocalic harmony
تنفسي	aspirated
(غير تنفسي)	unaspirated
تنويع	variation
توافق	concordance

- ث -

ثابت	static
(علم اللغة الثابت)	Static Linguistics
ثبوت	immutability
ثقافة	culture
ثنائيات	dualities
ثنائية داخلية	inner duality
ثنائية صوتية	phonetic doublet

- ج -

جارلس موريس	Charles Morris
جانبي (صوت)	lateral (sound)
جذر	root
جر او اضافة (حالة)	genitive
جرس (صوتي)	timbre
الجرمامية الاولى (اللغات)	proto-Germamic
جلبريك	Chilperic
جمع	plural
جناس	pun
جنيف	Geneva
جهاز النطق	vocal apparatus
جيليرون	Gillieron

- ح -

حالة	case
حالة المنشأ	ablative case
حالة الجر او الاضافة	genitive case
حالة الرفع	nominative case
حالة المفعول غير المباشر	dative
الحبال الصوتية	vocal cords
حديث	discourse
حرف . اداة	particle
حرف الجر	preposition
(حروف الهجاء الصوتية (الفباء الصوتية)	phonological alphabet
حركة	vowel

(نظام الحركات) .... vocalic system
حركة ثنائية .... diphthong
حركة ثنائية صاعدة .... ascending diphthong
حركة ضعيفة .... weak vowel
حركة طويلة .... long vowel
حركة قصيرة .... short vowel
حركة الهمس . صوت موشوش .... whispered vowel
حلقي .... gutteral (velar)
حنجرة .... larynx
حنجري .... laryngeal
حنكي رخو .... velar

- خ -

خطوط الحرارة .... isothermes
خطوط اللهجات .... isoglosses (isogloss lines)
خطية .... linear

- د -

دال .... signifier
دال بصري .... visual signifier
دال سمعي .... auditory signifier
دائرة كلامية .... speaking — circuit
دانوب .... Danubc
دايكروني ، تاريخي .... diachronic
دايكرونية ، تطور تاريخي .... diachrony
دراسة .... study
دراسات جرمانية .... Germanic studies
دراسات مقارنة .... comparative studies
دراسة السلالات البشرية . الانثربولوجيا الوصفية .... ethnography
دقة ايقاعية .... beat
دلالة (علم) .... Semantics
دلالة .... signification
دوبروجا .... Dobruja
دياز .... Diaz

- ر -

راين	Rhine
رتشل	Ritschl
رفع (حالة)	nominative
ركزة . لهجة	accent
ركزة قوية . لهجة منورة	tonic accent
ركزة مقطعية . لهجة مقطعية	syllabic accent
رمز	symbol
رمز كتابي	graphic symbol
رنة (اهتزاز . ذبذبة)	vibration
رنة صوتية . ذبذبة صوتية	vibration of sound
رنين	resonance
رنين انفي	nasal resonance
روابط	Co — ordinates
رولان	Roland
رومانس	romance
الرومانسية (اللغات)	Rcmance Languages
رومانية (اللغة)	Rumanian
ريك فيدا	Rig veda

- ز -

زندية (اللغة)	zend

- س -

سلسلة (اصوات)	liquid
ساكنة (اصوات)	con sonants
ساليف	saleve
ساميون	semites
سانسكريتية (اللغة)	sanskrit
سايكوفيزياوى (نفساني فيزياوي)	psychophysical
سايكولوجي (علم النفس)	psychology
سلافونية	slavonic
السلافية القديمة	Old slavic
سلسلة	chain
سلسلة صوتية	phonic chain
سلسلة اصوات	a chain of sounds

- ش -

- ص -

- ط -

طقوس	rites
طقوس رمزية	symbolic rites
الطليانية (اللغة)	Italic
طوبرغرافيا (علم تضاريس الارض)	Topography

- ظ -

ظهرية (راء ظهرية او معتمة)	dorsal

- ع -

أسرة لغوية	a family of languages
عبارة شائعة	locution
العبرية (اللغة)	Hebrew
العربية (اللغة)	Arabic
عرف	convention
عصر	era
عضو (اعضاء) النطق	vocal organs
علم الاجتماع	sociology
علم الاشارات	semiology
علم حالات اللغة	The Science of Laguange — states
علم السلالات البشرية	ethnology
علم الاشارات	semiology
علم الصوت	phonetics
علم الاصوات المتميزة	phonemics
علم اللغة	Linguistics
علم اللغة التأريخي	Historical Linguistics
علم اللغة الثابت	static Linguistics
علم اللغة الجغرافي	Geographical Linguistics
علم اللغة الخارجي	External linguistics
علم اللغة الداخلي	internal Linguistics
علم اللغة الدايكروني	Diachronic Linguistics
علم اللغة السنكروني	Synchronic linguistics
علم لغة الكلام	Linguistics of Speaking
علم اللغة المتطور	Evolutionary Linguistics
علم اللغات الهندية ـ الاوربية	Indo — European Linguistics

علم اللهجات	
علم ما قبل التاريخ	prehistory
علم المجتمعات البشرية (انثروبولوجيا)	anthropology
علم النفس (سايكولوجي)	psychology
علم النفس الاجتماعي	social psychology
علم النفس العام	General psychology
العملية السمعية	audition
عموم الزمن	panchronic
عنصر	element
عناصر اصلية	original elements
عناصر خارجية	external elements
عناصر داخلية	intenal elements
عناصر مكونة	formatives

- غ -

غوطية	gothic
غير المكتمل	imperfect

- ف -

فاصلة . التقاء حرفين أو صوتين	hiatus
فتحة	aperature
فرانكونيا	Franconia
فرد	individual
فردريك (اوكست ولف)	Friedrich August wolf
فردوسي	Firdausi
فرنر	Verner
الفرنسية (اللغة)	French
فستيولا	Vistula
فسلجة	Physiology
الفصيحة (اللغة)	standard language
فصيلة	species
فعل	verb
فعل الكلام (افعال الكلام)	act(s) of speaking
فعل النطق	articulatory act
فقه اللغة (فيلولوجيا)	philology
فقه اللغة الكلاسي	Classical Philology

فقه اللغة التاريخي المقارن .... Comparative philology
فليمنك .... Fliming (Flimish adj.)
فنكر .... wenker
فنلندية (اللغة) .... Finish
فونولوجي (النظام الصوتي) .... phonology
فونيم ، اصغر وحدة صوتية للتفريق بين المعاني .... phoneme
فينوراوكريك .... Finno — Ugric
فينيقية .... Phoenician

- ق -

قافية .... rhyme
قرطاجنة .... Carthage
قمة صوتية .... vocalic peak
قواعد .... Grammar
قياس .... analogy
قيمة .... value

- ك -

كاستون باريس .... Caston paris
كافير (قبائل) .... Kaffirs
كالابريا .... Calabria
الكالية (اللغة) .... Gaelic
كامبانيا .... Campania
كامن .... latent
كتابة .... writing
(نظام الكتابة) .... orthography, system of writing
الكتابة (النظام الصوتي للكتابة) .... phonic writing
الكتابة الصوتية .... phonological writing
الكتابة الصورية .... ideography
كريم (ياكوب) .... Jacob Grimm
كلام
كلامية (دائرة) .... speaking circuit
كلت (اقوام في اوربا الغربية) .... celts
الكلتية (اللغة) .... Celtic
كلمة توحي بمعناها . تسمية محاكية .... onomatopoeia
كمي .... quantitative

كورلاند .... Courland
كون (ادلبيرت) .... Kuhn (Adalbert)
كيان .... entity
كيرتيسي (جي) .... G. Curtius
كيليرون .... Gillieron

- ل -

لاب (لغة) .... latin
اللاتينية .... Latin
اللاتينية العامية .... Vulgar Latin
لاحقة .... Suffix
لاكتانيتوس .... Lactantuis
لترية .... littre
لثوانيا .... Lithuania
اللثوانية (اللغة) .... Lithuanian
اللثة (جدار اللثة) .... alveolarridge
اللسان .... language (speech)
اللسان الشفوي .... oral speech
لسان المزمار .... glottis
اللسان المكتوب .... written speech
لصلق .... agglutination
لغة .... Language (Langue)
لغة جاوا .... Javenese
اللغة الاغريقية لاتيكا .... Attic Greek
لغة الأصل .... prototype (language)
لغوي (عالم لغوي) .... linguist
لفظة استفهام أو استنطاق .... interrogation
اللهاة .... uvula
لهجة .... dialect
(علم اللهجات)
اللهجة الاقليمية .... regional dialect
لهجة محلية .... local dialect
لومبارديا .... Lambardy
ليتش (لغة) .... Lettish
ليسكين .... Leskien
ليغوريان .... Ligurian
ليفونيا .... Livonia
لييج .... Liege

ماكس مولر	max muller
متطلع الى المستقبل	prospective
مترابطة	combinatory
مجتمع	society (community)
مجتمع لغوي	linguistic society
مجهور	voiced
محفز	motivated
محور التعاقب	the axis of succession
محور التوافق	the axis of simultaneities
محيط (بيئة)	enviornment
مخ	brain
مدلول	signified
مدورة (شفة)	rounded (lips)
مرادف	synonym
مركب في تكوينه	synthesis
مشدد	stressed
مصدر	infinitive
مضاعف	double
معجم (علم)	lexicology
معجمي	lexicological
معطيات	data
معياري	normative
(النحو المعياري)	Normative Grammar
مغلق (صوت)	closed
مفتوح	open
مفرد	singular
مفردات اللغة	vocabulary
مفعول غير مباشر (حالة)	dative
مفهوم	concept
مقدونيا	Macedonai
مقطع	syllable
مقطع قوي	Ionic syllable
مكوّن	constituent
ملكة	faculty
ملكة الاستقبال	receptive faculty
ملكة التنسيق	co — ordiantion faculty
ملكة الكلام	faculty of speech

ملموس .... concrete
مميزات . سمات .... characteristics
مميزات ثابتة .... Permanent characteristics
منطق (علم) .... logic
مهموس (صوت) .... voiceless
موجة .... wave
موجة التجديد .... innovating wave
موجة صوتية .... sound wave
موردافيا (لغة) .... Mordivian
ميتابلازم (تغيير الكلمة عن طريق حذف او اضافة حروف او تغيير موضع الحروف فيها) .... Metaplasm
ميثاق ثورنجيا .... Thuringian charter
ميلة .... meillet

- ن -

نايروب .... Nyrop
نحو .... 1) Grammar 2) Syntax
النحو الكلاسي .... Classical Grammar
النحويون المتأخرون أو الجدد .... neo grammarians (Junggrammatiker)
النرويجية القديمة .... old Norse
نحو المفعولية .... accusative
نطق .... articulation
النطق في الفم .... (1) articulation (2) articulus
نظام .... system
نظام الحركات .... vocalic system
النّظام الصوتي (فونولوجي) .... phonology
نظام فردي . خصوصية فردية .... idiosyncratic
نقد .... criticism
نقد فيلولوجي (يخص التطور التاريخي للغة) .... philological criticism
نمط اولي . النموذج الاصلي .... prototype
نورماني (الغزو النورماني لانكلترا في عام ١٠٦٦م) .... Norman Conquest
النوميدية (اللغة) .... Numidian

- هـ -

- و -

الفهرست

رقم الايداع ٧٣١ في المكتبة الوطنية ببغداد لسنة ١٩٨٥

هذا الكتاب

يعد كتاب «علم اللغة العام» وهو في الاصل «محاضرات في علم اللغة العام» الأنجاز الاول الذي تمثلت فيه انقلابية البحث اللغوي من مسارها التاريخي الى اتجاهها الوصفي البنائي. وينأى مؤلفه ـ العالم اللغوي السويسري فردينان دي سوسور ـ عن المنحى التطبيقي ليقدم مبادئ في علم اللغة، وهو بهذا يجهز القارئ بمفاتيح تجعله يتغلغل في قلب اللغة، وتشير عناوين الكتاب الى سلسلة من الثنائيات اي التقابلات: اللغة والكلام، التاريخي والوظيفي، الأصوات، والاصوات اللغوية، علم اللغة الداخلي، وعلم اللغة الخارجي.. لقد فتح سوسور شهية معاصريه ولاحقيه.. فتأسست على صرحه اتجاهات علم اللغة المعاصر.

الكتاب القادم

مبادئ الصحافة في عالم المتغيرات

تأليف: عزيز السيد جاسم

دار آفاق عربية للصحافة والنشر

السعر: دينار واحد